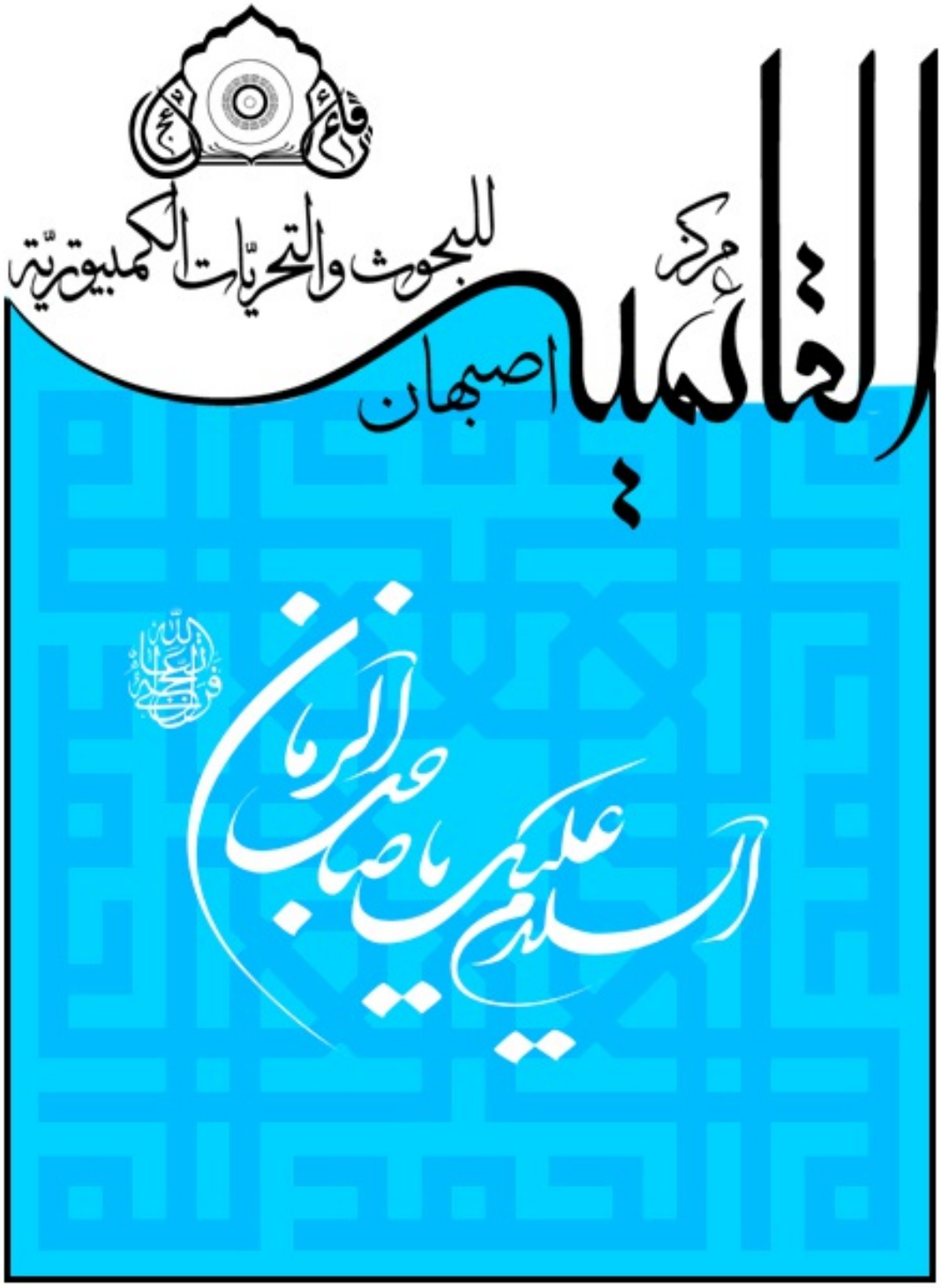

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

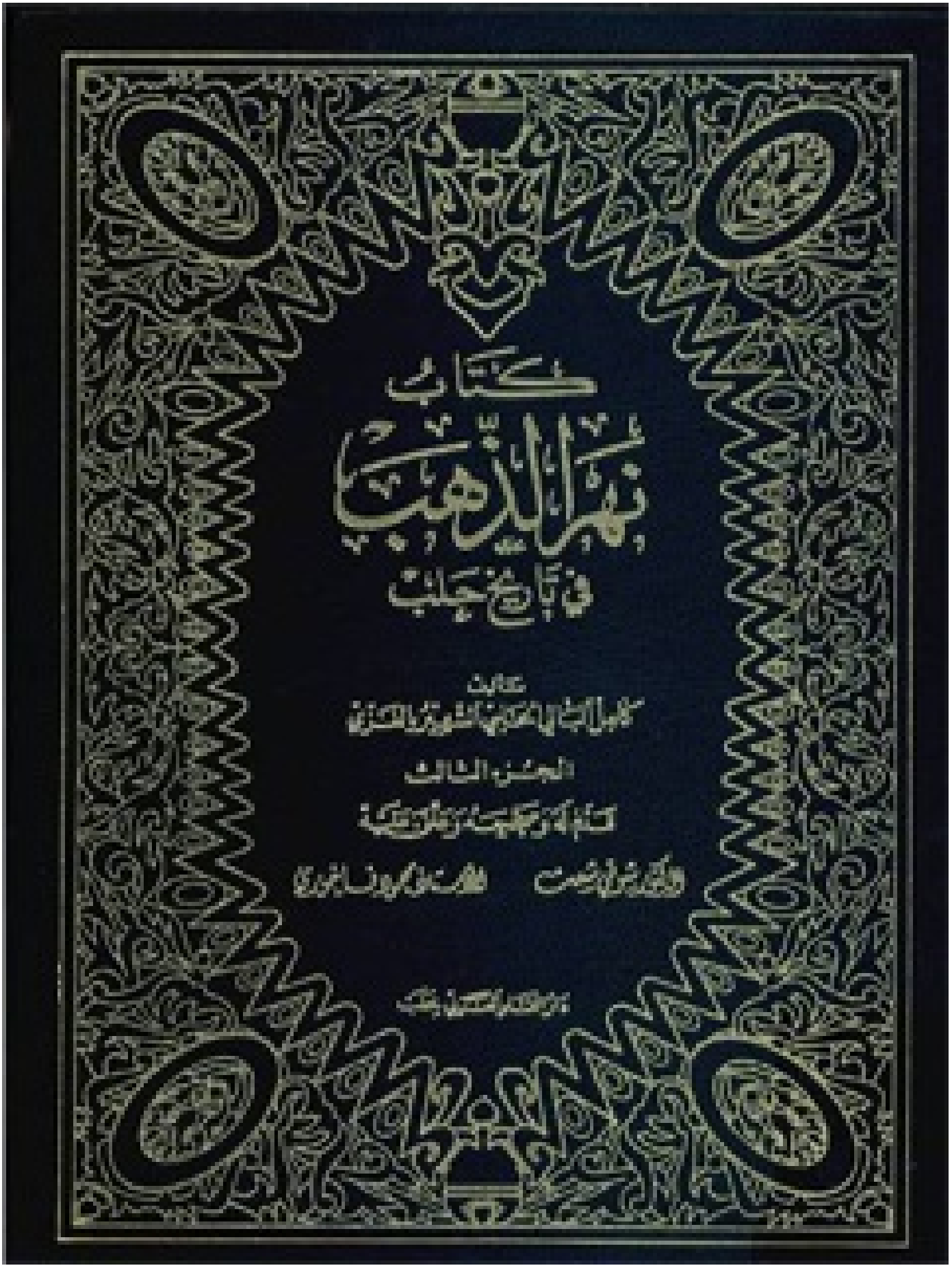
كتاب

نهر الذهب

في تاريخ حلب

عناية

كامل أسعد العطار الشهير بالعطار

المجلد الثالث

تتمة الرجال من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ١٣٥٠

الطبعة الثانية

دار القلم العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

كاتب:

مقرى، احمد بن محمد

نشرت فى الطباعة:

دارالفكر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب المجلد ۳ ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
[تتمة القسم الاول] ----- ۱۵
صلة الباب الخامس ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
[۱۶۷- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملک بن سعید.] ----- ۱۵
[۱۶۸- علی بن عبد اللّه الأنصاری القرطبی (ابن العابد)] ----- ۱۷
[۱۶۹- محمد بن علی بن یوسف بن محمد بن یوسف، الأنصاری، الشاطبی] ----- ۱۷
[۱۷۰- الزاهد أبو بکر بن عبد اللّه الأنصاری القرطبی] ----- ۱۹
۱۷۱- و منهم الیسع بن عیسی بن حزم بن عبد اللّه بن الیسع بن عبد اللّه الغافقی. ----- ۲۰
۱۷۲- و منهم محمد بن عبد الرحمن بن علی بن محمد التجیبی، یکنی أبا عبد اللّه، من أهل إشبیلیة. ----- ۲۰
۱۷۳- و منهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملک اللّخمی، الباجی. ----- ۲۰
۱۷۴- و منهم ولید بن بکر بن مخلد بن زیاد العمری. ----- ۲۰
۱۷۵- و منهم عیسی بن سلیمان بن عبد الملک بن عبد اللّه بن محمد الرّعینی الرّندی، یکنی أبا محمد. ----- ۲۰
۱۷۶- و منهم أبو الربیع سلیمان بن أحمد، الینینی. ----- ۲۰
۱۷۷- و منهم أبو جعفر أحمد بن یحیی الضبی. ----- ۲۱
۱۷۸- و منهم أبو الحسین محمد بن أحمد بن جبیر، الکنانی، صاحب الرحلة. ----- ۲۱
۱۷۹- و رافق ابن جبیر فی هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعی ----- ۲۱
اشارة ----- ۲۱
[ابن جبیر یصف دمشق] ----- ۲۳
[ابن جبیر یصف جامع دمشق] ----- ۲۴
[أقوال الشعراء فی دمشق] ----- ۲۴

[بعض ما دار بين المؤلف و أهل الشام] ----- ۳۷
[رسائل من المغرب إلى المؤلف] ----- ۷۲
[عود إلى ابن جبير] ----- ۷۹
۱۸۰- و من الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر بن عيشون. ----- ۸۴
۱۸۱- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطبنى، و هو عبد الملک بن زيادة اللّه. ----- ۸۵
[۱۸۲- حبيب بن الوليد بن حبيب المعروف بدحّون] ----- ۸۷
۱۸۳- و منهم بهلول بن فتح من أهل أقليش ----- ۸۸
۱۸۴- و منهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولى، الشاطبى. ----- ۸۸
۱۸۵- و منهم أبو أحمد جعفر بن لبّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن ميمون، اليحصبى. ----- ۸۹
۱۸۶- و منهم أبو أحمد جعفر بن عبد اللّه بن محمد بن سيدبونه، الخزاعى، العابد. ----- ۸۹
۱۸۷- و منهم أبو جعفر النحوى. ----- ۸۹
۱۸۸- و منهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد اللّه، الخزرجى، القرطبى، و كناه بعضهم أبا الفضل. ----- ۸۹
۱۸۹- و منهم أبو الحسن جهور بن خلف بن أبى عمر بن قاسم بن ثابت المعافرى. ----- ۸۹
۱۹۰- و منهم أبو على الحسن بن حفص بن الحسن، البهرانى، الأندلسى. ----- ۸۹
۱۹۱- و منهم أبو على الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد، الأموى. ----- ۹۰
۱۹۲- و منهم أبو على الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقى، الجذامى، المالقى. ----- ۹۰
۱۹۳- و منهم أبو على الحسن بن على بن الحسن بن عمر، الأنصارى، البطليوسى. ----- ۹۱
۱۹۴- و منهم أبو على الحسن بن محمد بن الحسن الأنصارى. ----- ۹۱
۱۹۵- و منهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حى، التّجيبى، القرطبى. ----- ۹۱
۱۹۶- و منهم أبو يوسف حماد بن الوليد، الكلاعى. ----- ۹۱
۱۹۷- و منهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد اللّه بن جبير. ----- ۹۱
۱۹۸- و منهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف، الغرناطى. ----- ۹۲
۱۹۹- و منهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون، القنطرى. ----- ۹۲
۲۰۰- و منهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسى. ----- ۹۲

۲۰۱- و منهم طاهر الأندلسی، من أهل مالقة، یکنی أبا الحسن. ۹۲
۲۰۲- و منهم أبو الطاهر الأندلسی، من أهل لبلة. ۹۳
۲۰۳- و منهم أبو محمد طارق بن موسی بن یعیش، المنصفی، المخزومی. ۹۳
۲۰۴- و منهم محمد بن إبراهیم بن مزین الأودی. ۹۳
۲۰۵- و منهم أبو عبداللّه محمد بن أحمد حیّاز، الشاطبی، الأوسی. ۹۳
[۲۰۶- محمد بن أحمد بن عبدالملک بن عبد العزیز بن عبد الملک (ابن سماعة)] ۹۳
۲۰۷- و منهم أبو العباس أحمد بن محمد، الواعظ، الإشبیلی، ثم المصری. ۹۴
[۲۰۸- إبراهیم الإشبیلی المالکی، و بقی الدین بن مخلد] ۹۵
[۲۰۹- بقیّ بن مخلد بن یزید، أبو عبد الرحمن، القرطبی، الأندلسی، الحافظ،] ۹۵
۲۱۰- و من الراحلین من الأندلس إلی المشرق یوسف بن یحیی بن یوسف الأندلسی الأزدی، المعروف بالمغامی. ۹۶
۲۱۱- و من الراحلین من الأندلس الإمام الحافظ أبو بکر بن عطیة، رحمه اللّه تعالی! ۹۷
[۲۱۲- أحمد بن فرح اللّخمی، الإشبیلیّ، الشافعی] ۱۰۰
۲۱۳- و منهم عبد العزیز بن عبد الملک بن نصر، أبو الأصبغ، الأموی، الأندلسی. ۱۰۱
۲۱۴- و منهم القاضی أبو البقاء خالد، البلوی، الأندلسی، رحمه اللّه تعالی. ۱۰۲
۲۱۵- و منهم برهان الدین أبو إسحاق بن الحاج إبراهیم، النمیری، الغرناطی. ۱۰۳
[۲۱۶- أثیر الدین أبو حیان محمد بن یوسف النفزی الأثری الغرناطی] ۱۰۳
[۲۱۷- أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنی] ۱۳۱
[۲۱۸- أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه القضاعی (ابن الأبّار)] ۱۳۴
۲۱۹- و منهم الحافظ أبو المکارم جمال الدین بن مسدّی. ۱۳۶
[۲۲۰- أبو القاسم خلف بن عبد العزیز القبتوری] ۱۳۷
۲۲۱- و منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبی الخلیل، الأموی، الإشبیلی، النباتی، المعروف بابن الرومیة. ۱۳۸
۲۲۲- و منهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام، الغافقی، الإشبیلی، الشهیر بالمسیلی. ۱۳۸
۲۲۳- و منهم أبو العباس- و یقال: أبو جعفر- أحمد بن معدّ بن عیسی بن وکیل، التجیبی، الزاهد، و یعرف بابن الأقلیشی. ۱۳۹
۲۲۴- و منهم أبو العباس أحمد بن عمر، المعافری، المرسی. ۱۳۹

۲۲۵- و منهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملک بن عمیرة بن یحیی، الضبی. ۱۴۰
۲۲۶- و منهم أبو عمر بن عات، و هو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزی. ۱۴۰
۲۲۷- و منهم أبو العباس أحمد بن تمیم بن هشام بن أحمد بن حنون، البهرانی. ۱۴۱
۲۲۸- و منهم أبو جعفر أحمد بن إبراهیم بن محمد بن أحمد، المخزومی. ۱۴۱
۲۲۹- و منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عیاش، الکنانی، المرسی. ۱۴۱
۲۳۰- و منهم أبو إسحاق إبراهیم بن عبد اللّه بن حصن بن أحمد بن حزم، الغافقی. ۱۴۱
۲۳۱- و منهم أبو أمیة إبراهیم بن منبه بن عمر بن أحمد، الغافقی. ۱۴۲
۲۳۲- ۲۳۳- و منهم أبو القاسم بن فورتش، و هو إسماعیل بن یحیی بن عبد الرحمن، السّرقسطی، و أخوه القاضی محمد بن یحیی ۱۴۲
۲۳۴- و منهم أبو الطاهر إسماعیل بن أحمد بن عمر، القرشی، العلوی، الإشبیلی. ۱۴۲
[۲۳۵ عیسی بن عبد اللّه النفزی الحمیری التاکرنی] ۱۴۲
[۲۳۶- علی بن أحمد بن محمد بن حمدون المالقی النحوی] ۱۴۴
۲۳۷- و منهم عبد البر بن فرسان بن إبراهیم بن عبد الرحمن، الغسّانی، الوادی آشی، أبو محمد. ۱۴۵
۲۳۸- و منهم عبد المنعم بن عمر الغسانی، الوادی آشی ۱۴۷
۲۳۹- و منهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد، القرطبی، الخزرجی. ۱۴۷
[۲۴۰- عبد المنعم الوادی آشی، و أحمد الخزرجی، و أحمد بن عمر] ۱۴۷
۲۴۱- و منهم العارف الکبیر، الولی الصالح الشهیر، أبو أحمد جعفر بن عبد اللّه بن محمد بن سیدبونهٔ، الخزاعی، الأندلسی. ۱۴۸
۲۴۲- و منهم محمد بن عبد الرحمن بن یعقوب، الخزرجی، الأنصاری، الشاطبی، الفقیه، القاضی، الصّدر، المتفنن، المحصل، المجید. ۱۴۸
[۲۴۳- محمد بن یحیی اللبسی قاضی القضاة] ۱۴۸
۲۴۴- و منهم الوزیر الشهیر أبو عبد اللّه بن الحکیم، الرندی، ذو الوزارتین. ۱۴۹
[۲۴۵ نجیب الدین عبد العزیز اللخمی] ۱۵۳
۲۴۶- و منهم محمد بن عبد اللّه بن أحمد بن محمد، أبو بکر بن العربی الإشبیلی، حفید القاضی الحافظ الکبیر أبو بکر بن العربی. ۱۵۳
۲۴۷- و من المرتحلین من الأندلس یحیی بن عبد العزیز، المعروف بابن الخرّاز أبو زکریا، القرطبی. ۱۵۳
[۲۴۸ محمد بن أحمد الشریشی] ۱۵۴
۲۴۹- و من الراحلین من الأندلس الفقیه الصالح أبو بکر بن محمد بن علی بن یاسر، الجیّانی، المحدث الشهیر. ۱۵۴

۲۵۰- و منهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم، الأندلسي، المرى. ---- ۱۵۵
۲۵۱- و منهم العالم الحسيب أبو حفص عمر بن الحسن الهوزنى. ---- ۱۵۵
۲۵۲- و منهم أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال، القرطبى، الفقيه المالكى. ---- ۱۵۶
۲۵۳- و منهم أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانة، الفزارى، الإلبيرى، الزاهد. ---- ۱۵۶
۲۵۴- و منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم، الصدفى، الإشبيلى، الأديب البارع. ---- ۱۵۶
۲۵۵- و منهم أبو يحيى زكريا بن خطاب، الكلبى، التّطيلى. ---- ۱۵۶
۲۵۶- و منهم سعد الخير بن محمد بن سعد، أبو الحسن، الأنصارى، البلنسى، المحدّث. ---- ۱۵۶
۲۵۷- و منهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون، الإستجى. ---- ۱۵۷
۲۵۸- و منهم أبو عثمان سعيد الأعناقى، و يقال: العناقى، القرطبى. ---- ۱۵۷
۲۵۹- و منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف، التجيبى، الإقليشى. ---- ۱۵۷
۲۶۰- و منهم أبو الأصبع عبد العزيز بن على، المعروف بابن الطحان، الإشبيلى، المقرى. ---- ۱۵۷
۲۶۱- و منهم أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف، المعافرى. ---- ۱۵۸
۲۶۲- و منهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد اللّه بن ثعلبة، السعدى، الشاطبى. ---- ۱۵۸
۲۶۳- و منهم الحكيم الطبيب أبو الفضل محمد بن عبد المنعم، الغسانى، الجليانى. ---- ۱۵۸
[۲۶۴ عبد الوهاب بن محمد القرطبى،] ---- ۱۵۹
[۲۶۵- عبيد اللّه بن المظفر الباهلى] ---- ۱۵۹
۲۶۶- و منهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافى، الغرناطى، القيسانى. ---- ۱۶۰
۲۶۷- و منهم طالوت بن عبد الجبار، المعافرى، الأندلسى. ---- ۱۶۰
[۲۶۸ ابن خروف على بن محمد (ابن خروف) القيسى] ---- ۱۶۱
[۲۶۹- مالک بن مالک الجيانى] ---- ۱۶۱
۲۷۰- و منهم أبو على بن خميس، و هو منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم، اللخمى من أهل المرية. ---- ۱۶۲
۲۷۱- و منهم منصور بن لبّ بن عيسى، الأنصارى. ---- ۱۶۲
۲۷۲- و منهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج، المعافرى. ---- ۱۶۲
۲۷۳- و منهم محب بن الحسين، من أهل الثغر الشرقى ---- ۱۶۲

۲۷۴- و منهم مساعد بن أحمد بن مساعد، الأصبحی. ۱۶۲
۲۷۵- و منهم أبو حبیب نصر بن القاسم. ۱۶۳
۲۷۶- و منهم النعمان بن النعمان، المعافری. ۱۶۳
۲۷۷- و منهم نعم الخلف بن عبد اللّه بن أبی ثور، الحضرمی. ۱۶۳
۲۷۸- و منهم نابت- بالنون- ابن المفرج بن یوسف، الخثعمی. ۱۶۳
۲۷۹- و منهم ضمام بن عبد اللّه، الأندلسی. ۱۶۳
[۲۸۰- ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبی فریعة] ۱۶۴
۲۸۱- و منهم عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن عامر بن أبی عامر، المعافری. ۱۶۴
۲۸۲- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن حمود، الزبیدی، الإشبیلی، ابن عم أبی بکر محمد بن الحسن، الزبیدی، اللغوی. ۱۶۴
۲۸۳- و منهم عبد اللّه بن رشیق، القرطبی. ۱۶۴
۲۸۴- و منهم أبو بکر الیابری، و یکنی أیضا أبا محمد، و هو عبد اللّه بن طلحة بن محمد بن عبد اللّه. ۱۶۵
۲۸۵- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن مرزوق، الیحصبی، الأندلسی. ۱۶۵
۲۸۶- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد، الصریحی، المرسی، و یعرف بابن مطحنة ۱۶۵
۲۸۷- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن عیسی، الشّلبی. ۱۶۵
۲۸۸- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن موسی، الأزدی، المرسی، و یعرف بابن برطلة. ۱۶۶
۲۸۹- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن خلف بن سعادة، الدانی، الأصبحی. ۱۶۶
۲۹۰- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن یوسف، القضاعی، المری. ۱۶۷
۲۹۱- و منهم شهاب الدین أحمد بن عبد اللّه بن مهاجر، الوادی آشی، الحنفی. ۱۶۷
۲۹۲- و منهم أبو جعفر أحمد بن صابر، القیسی. ۱۶۸
۲۹۳- و منهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضی أبی الولید الباجی. ۱۶۹
۲۹۴- و منهم الإمام الفاضل الأدیب أبو إسحاق إبراهیم بن محمد الساحلی، الغرناطی. ۱۶۹
۲۹۵- و من الراحلین من الأندلس الولید بن هشام، من ولد المغیرة بن عبد الرحمن الداخل فیما حکی بعض المؤرخین. ۱۷۰
۲۹۶- و منهم أبو زکریا الطلیطلی، یحیی بن سلیمان. ۱۷۱
۲۹۷- و منهم أبو بکر یحیی بن عبد اللّه بن محمد، القرطبی، المعروف بالمغیلی. ۱۷۱

۲۹۸- و منهم الإمام المحدث أبو عبد اللّه محمد بن علی بن محمد بن یحیی بن سلمة، الأنصاری، الغرناطی. ۱۷۱
۲۹۹- و منهم الفاضل الأدیب أبو عبد اللّه محمد بن علی بن یحیی بن علی، الغرناطی. ۱۷۲
۳۰۰- و منهم الشیخ نور الدین أبو الحسن، المایرقی. ۱۷۳
۳۰۱- و من الراحلین من أهل الأندلس إلی المشرق ابن عتبة الإشبیلی ۱۷۳
۳۰۲- و من المرتحلین أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن علی، الهراوی. ۱۷۴
۳۰۳- و منهم الأدیب أبو جعفر الإلبیری. ۱۷۹
۳۰۴- و من الراحلین الولیّ الصالح أبو مروان عبد الملک بن إبراهیم بن بشر، القیسی. ۱۸۸
۳۰۵- و منهم الطبیب الماهر الشهیر ضیاء الدین أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن البیطار، المالقی، نزیل القاهرة. ۱۸۸
۳۰۶- و منهم الشیخ أبو الحسن علی بن محمد بن محمد بن علی، القرشی، البسطی، الشهیر بالقلصادی ۱۸۹
۳۰۷- و منهم أبو عبد اللّه الراعی، و هو شمس الدین محمد بن إسماعیل، الأندلسی، الغرناطی. ۱۸۹
[۳۰۸ أبو عبد اللّه محمد بن علی بن محمد بن الأزرق] ۱۹۲
الباب السادس الباب [فی ذکر بعض الوافدین علی الأندلس من الشرق] ۱۹۵
اشارة ۱۹۵
۱- فمن الداخلین إلی الأندلس المنیذر الذی یقال إنه صحابی رأی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم. ۱۹۵
[۲- ۳ و من التابعین الداخلین الأندلس أمیرها موسی بن نصیر و حنش الصنعانی] ۱۹۶
۴- و من التابعین الداخلین للأندلس أبو عبد اللّه علی بن رباح، اللخمی. ۱۹۶
۵- و من التابعین الداخلین أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن یزید المعافری الحبلیّ. ۱۹۷
۶- و من الداخلین من التابعین حبّان بن أبی جبلة. ۱۹۷
۷- و من الداخلین من التابعین فیما ذکر: المغیرة بن أبی بردة نشیط بن کنانة العذری. ۱۹۷
۸- و من التابعین حیوة بن رجاء التمیمی. ۱۹۷
۹- و منهم عیاض بن عقبة الفهری. ۱۹۷
۱۰- و منهم عبد اللّه بن شماسة الفهری. ۱۹۸
۱۱- و منهم عبد الجبار بن أبی سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهری. ۱۹۸
۱۲- و منهم منصور بن خزامة فیما یذکر. ۱۹۸

۱۳- و من الداخلين إلى الأندلس مغيث فاتح قرطبة. ---- ۱۹۸
۱۴- ۱۵- و من الداخلين أيوب بن حبيب اللخمى. ---- ۱۹۹
۱۶- ۲۶- و من الداخلين السّمح بن مالک الخولانى. ---- ۲۰۰
۲۷- ۳۱- و من الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض القشيرى. ---- ۲۰۲
[۳۲- عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملک المعروف بالداخل] ---- ۲۰۵
۳۳- و من الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبى. ---- ۲۱۸
۳۴- و من الداخلين إلى الأندلس جزى بن عبدالعزيز، أخو عمر بن عبد العزيز، رضى اللّه تعالى عنه! ---- ۲۱۸
۳۵- و منهم بكر بن سوادة بن ثمامة، الجذامى. ---- ۲۱۸
۳۶- و منهم زريق بن حكيم، أحد المعدودين فى الداخلين إلى الأندلس ---- ۲۱۹
۳۷- و منهم زيد بن قاصد السّكسكى. ---- ۲۱۹
۳۸- و منهم زرعة بن روح الشامى. ---- ۲۱۹
۳۹- و منهم محمد بن أوس بن ثابت، الأنصارى. ---- ۲۱۹
۴۰- و منهم عبد الملک بن عمر بن مروان بن الحكم، الأموى. ---- ۲۱۹
[۴۱- و من الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم] ---- ۲۲۰
۴۲- و من الداخلين إلى الأندلس عبد اللّه بن المغيرة، الكنانى، حليف بنى عبد الدار. ---- ۲۲۰
۴۳- و منهم عبد اللّه المعمر الذى طرأ على الأندلس فى آخر الزمان ---- ۲۲۰
۴۴- و منهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب، المهرى ---- ۲۲۰
۴۵- و من الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد اللّه بن سعيد بن عمّار بن ياسر ---- ۲۲۱
[۴۶- أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد البخارى الحافظ] ---- ۲۲۱
۴۷- و ممّن دخل الأندلس من المشرق عبد الجبار بن أبى سلمة الفقيه عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عوف، القرشى، الزهرى. ---- ۲۲۲
۴۸- و من الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد اللّه بن عبد الوهاب. ---- ۲۲۲
۴۹- و منهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب، يكنى أبا القاسم. ---- ۲۲۳
۵۰- و منهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبى الطاهر أحمد بن محمد بن هبة اللّه، الهاشمى، الصدفى. ---- ۲۲۳
۵۱- و منهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد، الخراسانى، الباخرزى، المالينى. ---- ۲۲۳

۵۲- و من الوافدین علی الأندلس من أهل المشرق علی بن بندار بن إسماعیل بن موسی بن یحیی بن خالد بن برمک، البرمکی، من أهل بغداد. ۲۲۳

۵۳- و منهم أبو العلاء عبید بن محمد بن عبید، أبو العلاء، النیسابوری. ۲۲۴

۵۴- و منهم سهل بن علی بن عثمان، التاجر، النیسابوری، یکنی أبا نصر. ۲۲۴

۵۵- و منهم أبو المکارم هبة اللّه بن الحسین، المصری. ۲۲۴

۵۶- و منهم یحیی بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد اللّه، القیسی، الدمشقی. ۲۲۴

۵۷- و من الوافدین من المشرق إلی الأندلس إسماعیل بن عبد الرحمن بن علی، القرشی. ۲۲۵

۵۸- و منهم أبو علی القالی، صاحب الأمالی و النوادر. ۲۲۵

۵۹- و من الوافدین إلی الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عیسی البغدادی، اللغوی. ۲۲۸

۶۰- و من الوافدین علی الأندلس من المشرق الشیخ تاج الدین بن حمویه السرخسی. ۲۳۸

۶۱- و من الوافدین علی الأندلس ظفر البغدادی. ۲۴۴

۶۲- و منهم الرازی، و هو محمد بن موسی بن بشیر بن جناد بن لقیط، الکنانی، الرازی. ۲۴۴

[۶۳- أبو الفضل محمد بن عبد الواحد التمیمی الدارمی الوزیر] ۲۴۴

۶۴- و من الوافدین علی الأندلس أشهب بن العضد الخراسانی. ۲۴۸

۶۵- و من الوافدین علی الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادی الفکیک. ۲۴۸

۶۶- و منهم إبراهیم بن سلیمان الشامی. ۲۴۹

[۶۷- و منهم أبو بکر محمد بن أحمد بن الأزرق] ۲۵۰

[۶۸- و من الوافدین أبو الحسن علی بن نافع (زریاب) المغنی] ۲۵۰

۶۹- و من الوافدین من المشرق الأمیر شعبان بن کوجبا. ۲۵۵

۷۰- و من الوافدین من المشرق علی الأندلس أبو الیسر إبراهیم بن أحمد الشیبانی. ۲۵۶

۷۱- و منهم أبو إسحاق إبراهیم بن خلف بن منصور، الغسانی، الدمشقی، المعروف بالسنهوری ۲۵۶

۷۲- و منهم عبد اللّه بن محمد بن آدم، القاری، الخراسانی. ۲۵۸

۷۳- و منهم عبد الرحمن بن داود بن علی، الواعظ. ۲۵۸

۷۴- من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنیة، أم ولد حبیب بن الولید المروانی، المعروف بدحون. ۲۵۹

۷۵- و منهنّ فضل المدنیة. ۲۵۹

۷۶- و من النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى، صاحب إشبيلية. ----- ۲۵۹
۷۷- و منهن الجارية العجفاء. ----- ۲۵۹
۷۸- و من القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن، الموصلى. ----- ۲۶۰
۷۹- و منهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم بن مالک، المعروف بالأشتر، بن الحارث، النخعى. ----- ۲۶۰
۸۰- و منهم أحمد بن أبى عبد الرحمن، و اسمه يزيد بن أحمد بن عبد الرحمن، القرشى، الزهرى، من ولد عبد الرحمن بن عوف. ----- ۲۶۰
۸۱- و منهم أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندرانى. ----- ۲۶۰
۸۲- و منهم أبو الحسن على بن محمد بن إسماعيل بن بشر، الأنطاكى، الإمام، أبو الحسن، التميمى. ----- ۲۶۱
۸۳- و منهم عمر بن مودود بن عمر، الفارسى، البخارى، يكنى أبا البركات ----- ۲۶۱
۸۴- و منهم الشريف الأجلّ الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذّب الدين. ----- ۲۶۱
۸۵- و منهم تقى الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن الغرس، الحنفى، المصرى. ----- ۲۶۲
۸۶- و منهم الولى الصالح العارف باللّه سيدى يوسف الدمشقى، ----- ۲۶۳
فهرس الرسائل و الخطب و الإجازات للجزء الثالث من كتاب نفح الطيب ----- ۲۶۳
فهرس الجزء الثالث ----- ۲۶۴
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۲۷۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المجلد ۳

اشارة

نام كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

نويسنده: مقرى، احمد بن محمد

تاريخ وفات مؤلف: ۱۰۴۱ ه. ق

محقق / مصحح: بقاعى، يوسف

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱۰

ناشر: دار الفكر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۹ ه. ق

[تتمة القسم الاول]

صلة الباب الخامس

اشارة

رجع:

[۱۶۷- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد.]

۱۶۷- و من الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد.

و كان صعب الخلق، شديد الأنفة، جرى بينه و بين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق، و فى ذلك يقول، و كتب به إليهم: [بحر الخفيف]

من لصبّ يرعى النجوم صبابه ضيّع السير فى الهموم شبابه

زدت بعدا فزدت فيه اقترابا بودادى كذاك حكم القرابه

منزلى الآن سمرقند و بالقل عة ربع وطئت طفلا ترابه

شدّ ما أبعد الفراق انتزاحى هكذا الليث ليس يدرى اغترابه

لا و لا أرتجى الإياب لأمر إن يكن يرتجى غريب إيابه

و كتب لهم من بخارى: [بحر الوافر]

إذا هبّت رياح الغرب طارت إليها مهجتى نحو التلاقى

و أحسب من تركت به يلاقى إذا هبت صباها ما ألاقى

فيا ليت التفرق كان عدلا فحمل ما يطيق من اشتياقى

و ليت العمر لم يبرح وصالا و لم يحتم علينا بالفراق

إذا كان الشوق فوق كل صفة، فكيف تعبّر عنه الشفة، لكن العنوان دليل على بعض ما فى الصحيفة، و الحاجب قد ينوب فى بعض الأمور مناب الخليفة، و ما ظنكم بمشوق طريح، فى يد الأشواق طليح، يقطع مسافات الآفاق يتلقب تقلب الأفياء، و يتلون تلون الحرباء،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴

حتى كأنه يخبر مساحات الأرض، ذات الطول و العرض، و يجوب أهوية الأقاليم السبع، خارجا بما أدخله فيه اللجاج عن السمع، فكأنه خليفة الإسكندر، لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكرى قائمة مقام الجيش و العسكر، جزت إلى بر العدوة من الغرب الأقصى، ثم تشوقت نفسى فطمحت إلى مشاهدة الغرب الأوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة من المشاق ما لا يحصى، ثم تشوقت إلى إفريقية درب بلاد الشرق، فاستشعرت من هنالك ما بينها و بين بلادى من الفرق، و اختطفت من عينى تلك الطلاوة، و انتزعت من قلبى تلك الحلاوة: [بحر الطويل]

فلله عين لم تر العين مثلها و لا تلتقى إلا بجنّات رضوان

ثم نازعتنى النفس التواقة إلى الديار المصرية، فكابدت فى البحر ما لا يفى بوصفه إلا المشاهدة إلى أن أبصرت منار الإسكندرية، فيا لك من استئناف عمر جديد، بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول و التنكيد، ثم صعدت إلى القاهرة قاعدة الديار المصرية، لمعاينة الهرمين و ما فيهما من المعالم الأزلية، و عاينت القاهرة المعزية، و ما فيها من الهمم [العلية] الملوكية، غير أنى أنكرت مبانيها الواهية، على ما حوت من أولى الهمم العالية، و كونها حاضرة العسكر الجرار، و كرسىّ الملك العظيم المقدار، و قلت: أصداف فيها جواهر، و شوك محدق بأزاهر، ثم ركبت النيل و عاينت تماسيحه، و جزت بحر جدة و ذقت تباريحه، و قضيت الحج و الزيارة، و ملت إلى حاضرة الشام دمشق و النفس بالسوء أمّارة، فهنالك بعت الزيارة بالأوزار، و آلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار، إذ هى كما قال أحد من عاينها: [بحر البسيط]

أما دمشق فجنّات معجّلة للطالبين بها الولدان و الحور

فلله ما تضمن داخلها من الحور و الولدان، و ما زين به خارجها من الأنهار و الجنان، و بالجملة فإنها حمى تتقاصر عن إدراكها أعناق الفصاحة، و تقصر عن مناولتها فى ميدان الأوصاف كل راحة، و لم أزل أسمع عن حلب، أنها دار الكرم و الأدب، فأردت أن يحظى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵

بصرى بما حظى به سمعى، و رحلت إليها و أقمت جابرا بالذاكرة و المطايبة صدعى، ثم رحلت إلى الموصل فألفيت مدينة عليها رونق الأندلس، و فيها لطافة و فى مبانيها طلاوة ترتاح لها الأنفس، ثم دخلت إلى مقر الخلافة بغداد، فعاينت من العظم و الضخامة ما لا يفى به الكتب و لو أن البحر مداد، ثم تغلغلت إلى بلاد العجم بلدا بلدا، غير مقتنع بغاية و لا قاصد أمدا، إلى أن حللت ببخارى قبة الإسلام، و مجمع الأنام، فألقيت بها عصا التسيار، و عكفت على طلب العلم واصلا فى اجتهاده سواد الليل و بياض النهار، انتهى.

و كتب إليهم أيضا من هذه الرسالة: كتبت و قد حصلتنى السعادة، و حظ الأمل و الإرادة، بحضرة بخارى قبة الإسلام.

و أجابه أهله من الغرب بكلام من جملته: و إن كنت قد تحصنت بقبة الإسلام، فقد تعجلت لنا و لك الفقد قبل وقت الحمام.

و أتبعوا ذلك بما دعاه لأن خاطبهم بشعر منه: [بحر الطويل]

عتبتم على حتّى المطىّ و قلتم تعجّلت فقدا قبل وقت حمام

إذا لم يكن حالى مهمّا لديكم سواء عليكم رحلتى و مقامى

و قتل المذكور ببخارى، حين دخلها التتر، و هو عم على بن سعيد الشهير.

و كان لعبد الرحمن المذكور أخ يسمى يحيى قد عانى الجندية، فلما بلغه أن أبا القاسم عبد الرحمن قتل ببخارى قال: لا إله إلا اللّه! كان أبدا يسفّه رأيى فى الجندية، و يقول: لو اتبعت طريق النجاة كما صنعت أنا لكان خيرا لك، فها هو ربّ قلم قد قتل شر قتلة بحيث

لا ينتصر و سلب سلاحه، و أنا ما زلت أغازى فى عبّاد الصليب و أخلص، فما يقدر أحد أن يحسن لنفسه عاقبة، انتهى.

قال أبو الحسن على بن سعيد: ثم إن يحيى المذكور بعد خوضه فى الحروب صرعه فى طريقه غلام كان يخدمه، فذبحه على نزر من المال، أفلت به، فانظر إلى تقلب الأحوال كيف يجرى فى أنواع الأمور لا على تقدير و لا احتياط، انتهى.

و من شعر أبى القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيب الأشراف ببخارى، و قد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶

أهدى إليه فاختا مع زوجه [بحر الطويل].

أيا سيد الأشراف لا زلت عاليا معاليك تنبو الدهر عن كل ناعت

من الفضل إقبال على ما بعثته لمغناك من شاد دعوه بفاخت

ألا حبذا من فاخت ساد جنسه و أصبح مقرونا بست الفواخت

لئن فاتنى منه الأنيس فكل ما يحل إلى علياك ليس بفائت

[۱۶۸- على بن عبد اللّه الأنصارى القرطبى (ابن العابد)]

۱۶۸- و منهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن على بن عبد اللّه بن يوسف بن حمزة، القرطبى، الأنصارى، المعروف بابن العابد.

نزيل رباط الصاحب الصفى بن شكر، قال بعض المشارقة عنه: إنما سميت الخمر بالعجوز لأنها بنت ثمانين، يعنى عدد حدّها، و أنشد له: [بحر المتقارب]

عذلنا فلانا على فعله و لمناه فى شربه للعجوز

فقال: دعونى من أجلها أنال أنا و أخى و العجوز

[۱۶۹- محمد بن على بن يوسف بن محمد بن يوسف، الأنصارى، الشاطبى]

۱۶۹- و منهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد اللّه محمد بن على بن يوسف بن محمد بن يوسف، الأنصارى، الشاطبى الأصل، البلنسى المولد فى أحد ربيعى سنة إحدى و ستمائة، و لقبه المشارقة برضى الدين.

و توفى بالقاهرة فى جمادى الأولى سنة ۶۸۴، رحمه اللّه تعالى!.

و من نظمه لما حضر أجله، و قد أمر خادمه أن ينظف له بيته، و أن يغلق عليه الباب و يفتقده بعد زمان، ففعل ذلك، فلما دخل عليه وجده ميتا، و قد كتب فى رقعة: [بحر الكامل]

حان الرحيل فودّع الدار التى ما كان ساكنها بها بمخلد

و اضرع إلى الملك الجواد و قل له عبد بباب الجود أصبح يجتدى

لم يرض غير اللّه معبودا و لا دينا سوى دين النبى محمد

و من نظمه أيضا رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷

أقول لنفسى حين قابلها الردى فرامت فرارا منه يسرى إلى يمنى

قرى تحملى بعض الذى تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى

أنشده [له] تلميذه أبو حيّان إمام عصره فى اللغة.

حدث عن ابن المنير و غيره، و اشتغل الناس عليه بالقاهرة، و له تصانيف مفيدة، و سمع من الحافظ أبى الربيع بن سالم، و كتب على

صحاح الجوهرى و غيره حواشى فى مجلدات، و أثنى عليه تلميذه أبو حيان، رحم اللّه تعالى الجميع!.

و من فوائـده قوله: نقلت من خط أبى الوليد بن خيرة الحافظ القرطبى فى فهرست أبى بكر بن مفوّز قد أدركته بسنّى و لم آخذ عنه و اجتمعت به أنشـدنى له أبو القـاسم بن الأبـرش يخاطب بعض أكابر أصـحاب أبى محمـد بن حزم، و الإشارة لابن حزم الظاهرى: [بحر البسيط]

يا من تعانى أمورا لن يعانيها خلّ التعانى و أعط القوس باريها

تروى الأحاديث عن كلّ مسامحة و إنما لمعانيها معانيها

و قـد سبق فى ترجمـة القاضـى أبى الوليـد الباجى ذكر هـذين البيتين عندما أجرينا ذكر ابن حزم، قال؛ و إنما قال هذا الشـعر فى ذكر روايـة ادعيت على قول النـبى صـلى اللّه عليه و سـلم: «إن خالـدا قـد احتبس أدراعه و أعتـده فى سبيـل اللّه» و صـحح روايـة من روى «أعبـده» جمع عبد، و علّل رواية من روى «أعتده» بالتاء مثناة باثنتين من فوق جمع عتد، و هو الفرس، قال ابن خيرة: الإحاطة ممتنعة، و هذه الرواية قد رواها جماعة من الأثبات و العلماء المحدّثين، فهو إنكار غير معروف، و اللّه تعالى أعلم.

و من فوائده ما نقله تلميذه أبو حيان النحوى عنه، قال: أنشدنا للمقرى و نقلته من خطه:

[بحر مجزوء الوافر]

إذا ما شئت معرفة لما حار الورى فيه

فخذ خمسا لأربعة ودع للثوب رافيه

و هو لغز فى ورد.

و قال: و أنشدنا لبعضهم: [بحر الخفيف]

لا رعى اللّه عزمة ضمنت لى سلوة الصبر و التصبر عنه

ما وفت غير ساعة ثم عادت مثل قلبى تقول: لا بدّ منه

قال: و أنشدنا لغيره: [بحر الطويل]

و كان غريب الحسن قبل التحائه فلما التحى صار الغريب المصنّفا

و أنشدنا لغيره: [بحر مجزوء الرمل]

طب على الوحدة نفسا و ارض بالوحشة أنسا

ما عليها من يساوى حين يستخبر فلسا

و قرأ الرضـى ببلـده على ابن صـاحب الصّلات آخر أصـحاب ابن هـذيل، و سـمع منه كتاب التلخيص للوانى، و سـمع بمصـر من ابن المقير، و جماعـة، و روى عنه الحافظ المزى و اليونينى و الظاهرى و آخرون، و انتهت إليه معرفـة اللغـة و غريبها، و كان يقول: أحرف اللغة على قسمين قسم أعرف معناه و شواهده، و قسم أعرف كيف أنطق به فقط، رحمه اللّه تعالى!.

و من فوائد الرضى الشاطبى المذكور ما ذكره أبو حيان فى البحر قال: و هو من غريب ما أنشدنا الإمام اللغوى رضى الدين أبو عبد اللّه محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبى لزينب بنت إسحاق النصرانى الرسعينى:

عدىّ و تيم، لا أحاول ذكرهم بسوء، و لكنّى محبّ لهاشم

و ما يعترينى فى على و رهطه إذا ذكروا فى اللّه لومة لائم

يقولون: ما بال النصارى تحبهم؟ و أهل النهى من أعرب و أعاجم

فقلت لهم: إنى لأحسب حبهم سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم

و من نظم الرضى المذكور: [بحر البسيط]

منغّص العيش لا يأوى إلى دعة إن كان فى بلد أو كان ذا ولد

و الساكن النفس من لم ترض همته سكنى بلاد و لم يسكن إلى أحد

و له: [مخلع البسيط]

لو لا بناتى و سيئاتى لطرت شوقا إلى الممات

لأننى فى جوار قوم بغّضنى قربهم حياتى

و قرأ عليه أبو حيان كتاب «التيسير» و أثنى عليه، و لما توفى أنشد ارتجالا: [بحر المتقارب]

نعوا لى الرضىّ فقلت لقد نعى لى شيخ العلا و الأدب

فمن للغات و من للثقات و من للنحاة و من للنسب

لقد كان للعلم بحرا فغار و إنّ غؤور البحار العجب

فقدّس من عالم عامل أثار لشجوى لما ذهب

و تحاكم إلى رضى الدين المذكور الجزار و السراج الوراق أيهما أشعر، و أرسل إليه الجزار شيئا، فقال: هذا شعر جزل، من نمط شعر العرب، فبلغ ذلك الوراق، فأرسل إليه شيئا فقال: هذا شعر سلس، و آخر الأمر قال: ما أحكم بينكما، رحمه اللّه تعالى!.

قلت: رأيت بخطه كتبا كثيرة بمصر و حواشى مفيدة فى اللغة و على دواوين العرب، رحمه اللّه تعالى!.

[۱۷۰- الزاهد أبو بكر بن عبد اللّه الأنصارى القرطبى]

۱۷۰- و منهم حميد الزاهد، و هو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد بن أبى محمد عبد اللّه بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد اللّه، الأنصارى، القرطبى، نزيل مالقة.

قال الرضى الشاطبى المذكور قريبا: أنشدنى حميد بالقاهرة لأبيه أبى محمد و قد تأخر شيبه مع علوّ سنه: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰

و هل نافعى أن أخطأ الشيب مفرقى و قد شاب أترابى و شاب لداتى

إذا كان خط الشيب يوجد عينه بتربى فمعناه يقوم بذاتى

و اللّدات: من ولد معه فى زمان واحد، انتهى.

و فى ذكرى أنه قال هذين البيتين لما قال له القاضى عياض: شبنا و لم تشب.

و قال الرضى أيضا: أنشدنى حميد لأبيه فيمن يكتب فى الورق بالمقص، و هو غريب:

[بحر المنسرح]

و كاتب وشى طرسه حبر لم يشها حبره و لا قلمه

لكن بمقراضه ينمنمها نمنمة الروض جاده رهمه

يوجد بالقطع أحرفا عدمت فاعجب لشىء وجوده عدمه

و الرهم: المطر.

قال: و توفى حميد الزاهد هذا بمصر، قبيل الظهر من يوم الثلاثاء، و صلى عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور، و دفن بسفح المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبى بكر محمد الخزرجى الذى يدق الرصاص، حذاء رجليه، فى

الثالث و العشرين من ربيع الأول سنة اثنتين و خمسين و ستمائة، انتهى.

۱۷۱- و منهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد اللّه بن اليسع بن عبد اللّه الغافقى.

من أهل بلنسية و أصله من جيّان، و لكن المرية ثم مالقة، يكنى أبا يحيى، كتب لبعض الأمراء بشرقى الأندلس، و له تأليف سماه «المغرب، فى أخبار محاسن أهل المغرب»، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين و خمسمائة، و بها توفى يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس و سبعين و خمسمائة، رحمه اللّه تعالى.

۱۷۲- و منهم محمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد التجيبى، يكنى أبا عبد اللّه، من أهل إشبيلية.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱

تجول فى بلاد الأندلس طالبا للعلم، ثم حج، و لقى الحافظ السّلفى و غيره، و استوطن تلمسان، و بها توفى فى جمادى الأولى سنة عشر و ستمائة، و له تواليف كثيرة.

۱۷۳- و منهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخمى، الباجى.

من أهل إشبيلية، ولى القضاء بها و أصله من باجة إفريقية، دخل المشرق لأداء الفريضة فحج، و توفى بمصر بعد ما دخل الشام، فى اليوم الثامن و العشرين من ربيع الأول سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، و مولده عام أربعة و ستين و خمسمائة، و كانت رحلته من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة و ثلاثين و ستمائة.

۱۷۴- و منهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمرى.

من أهل سرقسطة، يكنى أبا العباس، له كتاب سماه «الوجازة، فى صحة القول بالإجازة» و له رحلة لقى فيها ألف شيخ و محدث و فقيه، توفى بالدينور سنة اثنتين و تسعين و ثلاثمائة، يروى عنه أبو ذر الهروى و عبد الغنى الحافظ، و كفاه فخرا بهذين الإمامين العظيمين، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۱۷۵- و منهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد اللّه بن محمد الرّعينى الزّندى، يكنى أبا محمد.

استوطن مالقة، و رحل إلى المشرق، و حج، و لقى جماعة من العلماء، و قفل إلى المغرب أواخر عام واحد و ثلاثين و ستمائة، و ولى الإمامة بالمسجد الجامع بمالقة، و بها توفى فى ربيع الأول سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة، و لقب فى المشرق برشيد الدين، و ولد فى ربيع الأول سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة بقرية من قرى الأندلس يقال لها يالمالتين كورة بشتغير، ذكر ذلك ابن المستوفى فى تاريخ إربل.

۱۷۶- و منهم أبو الربيع سليمان بن أحمد، الينبنى.

من أهل الأندلس، استوطن المشرق مدح الملك الكامل، و من شعره رحمه اللّه تعالى قوله: [بحر الكامل]

لو لا تحدّيه بآية سحره ما كنت ممتثلا شريعة أمره

رشأ أصدقه و كاذب وعده يبدى لعاشقه أدلة غدره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲

ظهرت نبوّة حسنه فى فترة من جفنه و ضلالة من شعره

۱۷۷- و منهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبى.

رحل حاجّا فلقى ببجايـة عبد الحق الإشبيلى، و بالإسـكندرية أبا الطاهر بن عوف، و لقى غير واحد فى رحلته كالغزنوى [و ابن برى] و أبى الثنـاء الحرانى و أبى الحسـين الحريثى، و للحريثى أحـاديث ساوى بها البخارى و مسـلما، و لقى جماعـة ممن شارك السّلفى فى شيوخه.

۱۷۸- و منهم أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، الكنانى، صاحب الرحلة.

و هو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أندلسى، شاطبى، بلنسى، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين و خمسمائة ببلنسـية، و قيـل فى مولـده غير ذلـك، و سـمع مـن أبيه بشاطبـة و من أبى عبـد اللّه الأصـيلى و أبى الحسن بن أبى العيش، و أخـذ عنه القراءات و عنى بالأدب فبلغ الغاية فيه، و تقدم فى صناعة القريض و الكتابة.

و من شعره قوله، و قد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها فذوى فى يده: [بحر مجزوء الرجز]

لا تغترب عن وطن و اذكر تصاريف النّوى

أما ترى الغصن إذا ما فارق الأصل ذوى

و قال رحمه اللّه تعالى يخاطب الصدر الخجندى: [بحر السريع]

يا من حواه الدين فى عصره صدرا يحلّ العلم منه فؤاد

ما ذا يرى سيدنا المرتضى فى زائر يخطب منه الوداد

لا يبتغى منه سوى أحرف يعتدّها أشرف ذخر يفاد

ترسمها أنملة مثل ما نمّق زهر الروض كف العهاد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳

فى رقعة كالصبح أهدى لها يد المعالى مسك ليل المداد

إجازة يورثنيها العلا جائزة تبقى و تفنى البلاد

يستصحب الشكر خديما لها و الشكر للأمجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندى: [بحر المتقارب]

لك اللّه من خاطب خلّتى و من قابس يجتدى سقط زندى

أجزت له ما أجازوه لى و ما حدّثوه و ما صحّ عندى

و كاتب هذى السطور التى تراهنّ عبد اللطيف الخجندى

۱۷۹- و رافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعى

اشارة

، و أصـله من أنـدة من بلنسـية، رحـل معه فأدّيـا الفريضـة، و سـمعا بـدمشق من أبى الطـاهر الخشوعى، و أجاز لهما أبو محمـد بن أبى عصـرون و أبو محمـد القاسم بن عساكر و غيرهما، و دخلا بغـداد و تجولا مـدة، ثم قفلا جميعا إلى المغرب، فسـمع منهما به بعض ما

كان عندهما.

و كان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب، و له فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم.

و كتب عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن، و جدّه لأمه القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية.

و توفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ثمان، أو تسع و تسعين و خمسمائة، و لم يبلغ الخمسين فى سنه، رحمه اللّه تعالى!.

رجع إلى ابن جبير:

قال لسان الدين فى حقه: إنه من علماء الأندلس بالفقه و الحديث و المشاركة فى الآداب، و له الرحلة المشهورة، و اشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب له قصيدتان:

إحداهما أولها: [بحر المتقارب]

أطلّت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

و منها:

رفقت مغارم مكس الحجاز بإنعامك الشامل الغامر

و أمّنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر

و سحب أياديك فيّاضة على وارد و على صادر

فكم لك بالشرق من حامد و كم لك بالغرب من شاكر

و الأخرى منها فى الشكوى من ابن شكر الذى كان أخذ المكس من الناس فى الحجاز:

[بحر الوافر]

و ما نال الحجاز بكم صلاحا و قد نالته مصر و الشآم

و من شعره: [بحر المتقارب]

أخلاء هذا الزمان الخؤون توالت عليهم حروف العلل

قضيت التعجب من بابهم فصرت أطالع باب البدل

و قوله: [بحر المتقارب]

غريب تذكر أوطانه فهيج بالذكر أشجانه

يحلّ عرا صبره بالأسى و يعقد بالنجم أجفانه

و قال رحمه اللّه تعالى، لما رأى البيت الحرام زاده اللّه شرفا [و مهابة و تعظيما]: [بحر المتقارب]

بدت لى أعلام بيت الهدى بمكة و النور باد عليه

فأحرمت شوقا له بالهوى و أهديت قلبى هديّا إليه

و قوله يخاطب من أهدى إليه موزا: [بحر المجتث]

يا مهدى الموز تبقى و ميمه لك فاء

و زايه عن قريب لمن يعاديك تاء

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر السريع]

قد ظهرت فى عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر

لا تقتدى فى الدين إلا بما سنّ ابن سينا و أبو نصر

و قال: [بحر السريع]

يا وحشة الإسلام من فرقة شاغلة أنفسها بالسّفه

قد نبذت دين الهدى خلفها و ادّعت الحكمة و الفلسفه

و قال: [مخلع البسيط]

ضلت بأفعالها الشنيعه طائفة عن هدى الشريعه

ليست ترى فاعلا حكيما يفعل شيئا سوى الطبيعه

و كان انفصاله- رحمه اللّه تعالى!- من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ۵۷۸، و وصل الإسكندرية يوم السبت التاسع و العشرين من ذى القعدة الحرام من السنة، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يوما، و نزل البر الإسكندرانى فى الحادى و الثلاثين، و حج رحمه اللّه تعالى و تجوّل فى البلاد و دخل الشام و العراق و الجزيرة و غيرها، و كان- رحمه اللّه تعالى! كما قال ابن الرقيق- من أعلام العلماء العارفين باللّه، كتب فى أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا و هو على شرابه، فمدّ يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض، و قال: يا سيدى ما شربتها قط، فقال: و اللّه لتشربنّ منها سبعا، فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات و صبّ ذلك فى حجره، فحمله إلى منزله و أضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، ثم رغب إلى السيد، و أعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة، فأسعفه، و باع ملكا له تزود به، و أنفق تلك الدنانير فى سبيل البر.

و من شعره فى جارية تركها بغرناطة. [بحر مخلع البسيط]

طول اغتراب و برح شوق لا صبر و اللّه لى عليه

إليك أشكو الذى ألاقى يا خير من يشتكى إليه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶

ولى بغرناطة حبيب قد غلق الرهن فى يديه

ودعته و هو فى دلال يظهر لى بعض ما لديه

فلو ترى طلّ نرجسيه ينهلّ فى ورد و جنتيه

أبصرت درّا على عقيق من دمعه فوق صفحتيه

و له رحلة مشهورة بأيدى الناس.

و لما وصل بغداد تذكر بلده، فقال: [بحر الطويل]

سقى اللّه باب الطاق صوب غمامة و ردّ إلى الأوطان كل غريب

[ابن جبير يصف دمشق]

و قال فى رحلته فى حق دمشق: جنة المشرق، و مطلع حسنه المونق المشرق، هى خاتمه بلاد الإسلام التى استقريناها، و عروس المدن التى اجتلیناها [التى] قد تحلّت بأزاهير الرياحين، و تجلت فى حلل سندسية من البساتين، و حلت من موضع الحسن بمكان مكين، و تزينت فى منصتها أجمل تزيين، و تشرفت بأن آوى اللّه تعالى المسيح و أمّه منها إلى ربوة ذات قرار و معين، ظل ظليل، و ماء سلسبيل، تناسب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، و رياض يحيى النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، و تناديهم هلموا إلى معرّس للحسن و مقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظّمإ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب، أركض برجلك هذا

مغتسل بارد و شراب، قد أحدقت بها البساتين إحداق الهالة بالقمر، و اكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، و امتدّت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكلّ موقع لحظة بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قيد النظر، و للّه صدق القائلين فيها: إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها، و إن كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها و تحاذيها.

قال العلامة ابن جابر الوادى آشى، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق، ما نصه: و لقد أحسن فيما وصف منها و أجاد، و توّق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد، هذا و لم تكن بها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷

إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، و ما وصف ذهبيّات أصيلها و قد حان من الشمس غروب، و لا أزمان فصولها المتنوعات، و لا أوقات سرورها المهنئات، و لقد أنصف من قال: ألفيتها كما تصف الألسن، و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين، انتهى.

[ابن جبير يصف جامع دمشق]

رجع إلى كلام ابن جبير فنقول:

ثم ذكر فى وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الإسلام حسنا، و إتقان بناء، و غرابة صنعة، و احتفال تنميق و تزيين، و شهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه، و من عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت، و لا تدخله، و لا تلم به الطير المعروفة بالخطاف، ثم مدّ النفس فى وصف الجامع و ما به العجائب، ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه: و عن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة، و لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر، و قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار دبرت تدبيرا هندسيا، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازين مصورين من صفر قائمين على طاسى صفر تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب و الثانى تحت آخرها، و الطاسان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، و تبصر البازين يمدّان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاسين و يقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا، و عند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى، و ينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصّفر، لا يزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها و تنقضى الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول، و لها بالليل تدبير آخر، و ذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة، و تعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، و خلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح، و فاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل و تحمر الدوائر كلها، و قد و كل بها فى الغرفة متفقد لحالها، درب بشأنها و انتقالها، يعيد فتح الأبواب و صرف الصنج إلى موضعها، و هى التى تمسيها الناس المنجانة، انتهى المقصود منه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸

[أقوال الشعراء فى دمشق]

قلت: كل ما ذكر رحمه اللّه تعالى فى وصف دمشق الشام و أهلها فهو فى نفس الأمر يسير، و من ذا يروم عدّ محاسنها التى إذا رجع البصر فيها انقلب و هو حسير، و قد أطنب الناس فيها، و ما بقى أكثر مما ذكروه، و قد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع و ثلاثين و ألف للهجرة، و أقمت بها إلى أوائل شوال من السنة، و ارتحلت عنها إلى مصر و قد تركت القلب فيها رهنا، و ملك هواها منى فكرا و ذهنا، فكأنها بلدى التى بها ربيت، و قرارى الذى لى به أهل و بيت، لأن أهلها عاملونى بما ليس لى بشكره يدان، وها أنا إلى هذا

التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان، و لا يشوقنى ذكر أرض بابل و لا بغدان، فاللّه سبحانه تعالى يعطّر منها بالعافية الأردان.

و قد عنّ لى أن أذكر جملة مما قيل فيها من الأمداح الرائقة، و أسرد ما خاطبنى به أهلها من القصائد الفائقة، فأقول:

قال البدر بن حبيب: [بحر الكامل]

يمّم دمشق و مل إلى غربيها و المح محاسن حسن جامع يلبغا

من قال من حسد رأيت نظيره بين الجوامع فى البلاد فقد لغا

و قال فى كتاب «شنف السامع، بوصف الجامع» [بحر الكامل].

للّه ما أحلى محاسن جلّق وجهاتها اللّاتى تروق و تعذب

بيزيد ربوتها الفرات وجنكها يا صاح كم كنّا نخوض و نلعب

و قال فيه أيضا: [بحر الرجز]

للّه ما أجمل وصف جلّق و ما حوى جامعها المنفرد

قد أطرب الناس بصوت صيته و كيف لا يطرب و هو معبد

و قال فى ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة: [بحر الكامل]

يا راغبا فى غير جامع جلق هل يستوى الممنوع و الممنوح

أقصر عناك و فى غلوّك لا تزد إن الزيادة بابها مفتوح

و قال فى منارته المعروفة بالعروس: [بحر الخفيف]

معبد الشام يجمع الناس طرا و إليه شوقا تميل النفوس

كيف لا يجمع الورى و هو بيت فيه تجلى على الدوام العروس

و منه فى ذكر بانيه الوليد: [بحر الرجز]

تاللّه ما كان الوليد عابثا فى صرفه المال و بذل جهده

لكنه أحرز ملك معبد لا ينبغى لأحد من بعده

و من أبيات فى آخره: [بحر الوافر]

بجامع جلق رب الزعامة أقم تلق العناية و الكرامة

و يمم نحوه فى كل وقت و صلّ به تصل دار الإقامة

مصلى فيه للرحمن ذكر و مثوى للقبول به علامه

محل كمّل البارى حلاه و بيت أبدع البانى نظامه

دمشق لم تزل للشام وجها و مسجدها لوجه الشام شامه

و بين معابد الآفاق طرا له أمر الإمارة و الإمامة

أدام اللّه بهجته و أبقى محاسنه إلى يوم القيامة

و لم أقف على كل هذا الكتاب المذكور، بل على بعضه فقط.

و من قصيدة القاضى المهذب بن الزبير: [بحر مجزوء الكامل]

بالله يا ريح الشما ل إذا اشتملت الرّند بردا

و حملت من عرف الخزا مى ما اغتدى للندّ ندا

و نسجت ما بين الغصو ن إذا اعتنقن هوى وودا

و هززت عند الصبح من أعطافها قدا فقدا

و نثرت فوق الماء من أجيادها للزهر عقدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰

فملأت صفحة وجهه حتى اكتسى آسا و وردا

و كأنما ألقيت فيه منهما صدغا و خدّا

مرّى على بردى عسا ه يزيد فى مسراك بردا

نهر كنصل السيف تك سر متنه الأزهار عمدا

صقلته أنفاس النس يم بمرّهنّ فليس يصدا

و منها:

أحبابنا ما بالكم فينا من الأعداء أعدى

و حياة حبكم و حر مة أصلكم ما خنت عهدا

و قال الكمال الشّريشى: [بحر البسيط]

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر فإن قلبى بنار الشوق يستعر

بعدت عنكم فلا و اللّه بعدكم ما لذّ للعين لا نوم و لا سهر

إذا تذكرت أوقاتا نأت و مضت بقربكم كادت الأحشاء تنفطر

كأننى لم أكن بالتّيرين ضحى و الغيم يبكى و منه يضحك الزهر

و الورق تنشد و الأغصان راقصة و الدوح يطرب بالتصفيق و النهر

و السفح أين عشياتى التى ذهبت لى فيه فهى لعمرى عندى العمر

سقاك بالسفح سفح الدمع منهمرا و قلّ ذاك له إن أعوز المطر

و حكى ابن سعيد و غيره أن غرناطة تسمى «دمشق الأندلس» لسكنى أهل دمشق الشأم بها عند دخولهم الأندلس، و قد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه و الأشجار، و قد أطلّ عليها جبل الثلج، و فى ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة: [بحر مجزوء الرمل]

يا دمشق الغرب هاتى ك لقد زدت عليها

تحتك الأنهار تجرى و هى تنصبّ إليها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱

قال ابن سعيد: أشار ابن جبير إلى أن غرناطة فى مكان مشرف و غوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار، و دمشق فى وهدة تنصبّ إليها الأنهار، و قد قال اللّه تعالى فى وصف الجنة تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ* [الفرقان: ۱۰] انتهى.

و قال الشيخ الصفدى فى تذكرته: أنشدنى المولى الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد اللّه الخياط بقلعة الجبل من الديار المصرية حرسها اللّه تعالى لنفسه فى شعبان المكرم سنة ۷۳۳: [السريع]

قصدت مصر من ربا جلّق بهمّة تجرى بتجريبى

فلم أر الطرة حتى جرت دموع عينى بالمزيريب

و أنشدنى لنفسه أيضا: [بحر السريع]

خلقت بالشام حبيبى و قد يممت مصرا لعنا طارق

و الأرض قد طالت فلا تبعدى بالله يا مصر على العاشق

و أنشدنى لنفسه أيضا: [بحر السريع]

يا أهل مصر أنتم للعلا كواكب الإحسان و الفضل

لو لم تكونوا لى سعودا لما وافيتكم أضرب فى الرمل

و ذكرته برمته لحسن مغزاه.

و قال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظّهير الحنفى الإربلى:

[بحر الطويل]

لعل سنى برق الحمى يتألّق على النأى أو طيفا لأسماء يطرق

فلا نارها تبدو لمرتقب و لا و عود الأمانىّ الكواذب تصدق

لعل الرياح الهوج تدنى لنازح من الشام عرفا كاللطيمة تعبق

ديار قضينا العيش فيها منعما و أيامنا تحنو علينا و تشفق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲

سحبنا بها برد الشباب و شربنا لدينا كما شئنا لذيذ مروّق

مواطن منها السهم سهمى و ظله تخبّ مطايا اللهو فيه و تعنق

جلا جانبيه معلم متجعد من الماء فى أطلاله يتدفق

إذا الشمس حلت متنه فهو مذهب و إن حجبتها دوحه فهو أزرق

و إن فرج الأوراق جادت بنورها فرقم أجادته الأكفّ منمّق

يطل عليه قاسيون كأنه غمام معلى أو نعام معلق

تسافر عنه الشمس قبل غروبها و ترجف إجلالا له حين تشرق

و تصفرّ من قبل الأصيل كأنها محب من البين المشتّت مشفق

و فى النّيرب الميمون للبّ سالب من المنظر الزاهى و للطرف مومق

بدائع من صنع القديم رضائع تأنّق فيها المحدث المتأنق

رياض كوشى للبرود يشقها جداولها فالنّور بالماء يشرق

فمن نرجس يخشى فراق فريقه ترى الدمع فى أجفانه يترقرق

و من كل ريحان مقيم و زائر يصافح رياه الرياض فتعبق

كأن قدود السرو فيه موائسا قدود عذارى ميلها مترفق

إذا ما تدلّت للشقائق صدّها عيون من النور المفتح ترمق

و قصر يكلّ الطرف عنه كأنه إلى النسر نسر فى السماء معلق

و كم جدول جار يطارد جدولا و كم جوسق عال يوازيه جوسق

و كم بركة فيها تضاحك بركة و كم قسطل للماء فيه تدفق

و كم منزل يعشى العيون كأنما تألق فيها بارق يتألق

و فى الربوة الفيحاء للقلب جاذب و للهم مسلاة و للعين مرفق

عروس جلاها الدهر فوق منصة من الدهر و الأبصار ترمى و ترمق

فهام بها الوادى ففاضت عيونه فكل قرار منه بالدمع يشرق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳

تكفل من دون الجداول شربها يزيد يصفيه لها و يروّق

و قال أبو تمام فى دمشق: [بحر الكامل]

لو لا حدائقها و أنّى لا أرى عرشا هناك ظننتها بلقيسا

و أرى الزمان غدا عليك بوجهه جذلان بسّاما و كان عبوسا

قد بوركت تلك البطون و قد سمت تلك الظهور و قدّست تقديسا

و قال البحترى: [البسيط]

أمّا دمشق فقد أبدت محاسنها و قد وفى لك مطريها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن و زمان يشبه البلدا

تمشى السحاب على أجبالها فرقا و يصبح النور فى صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفا خضلا أو يانعا خضرا أو طائرا غردا

كأنما القيظ ولى بعد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

و فى دمشق يقول بعضهم: [بحر الكامل]

برزت دمشق لزائرى أوطانها من كل ناحية بوجه أزهر

لو أن إنسانا تعمد أن يرى مغنى خلا من نزهة لم يقدر

و قال القيراطى فى قصيدته التى أولها: [بحر الكامل]

للصب بعدك حالة لا تعجب

للّه ليل كالنهار قطعته بالوصل لا أخشى به ما يرهب

و ركبت منه إلى التصابى أدهما من قبل أن يبدو لصبح أشهب

أيام لا ماء الخدود يشوبه كدر العذار و لا عذارى أشيب

كم فى مجال اللهو لى من جولة أضحت ترقص بالشباب و تطرب

و أقمت للندماء سوق خلاعة تجنى المجون إلىّ فيه و تجلب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴

و ذكرت فى مغنى دمشق معشرا أمّ الزمان بمثلهم لا تنجب

لا يسأل القصاد عن ناديّهم لكن يدلهم الثناء الطيب

قوم بحسن صفاتهم و فعالهم قد جاء يعتذر الزمان المذنب

يا من لحرّان الفؤاد و طرفه بدمشق أدمعه غدت تتحلّب

أشتاق فى وادى دمشق معهدا كل الجمال إلى حماه ينسب

ما فيه إلا روضة أو جوسق أو جدول أو بلبل أو ربرب

و كأن ذاك النهر فيه معصم بيد النسيم منقّش و مكتب

و إذا تكسّر ماؤه أبصرته فى الحال بين رياضة يتشعب

و شدت على العيدان ورق أطربت بغنائها من غاب عنه المطرب

فالورق تنشد و النسيم مشبب و النهر يسقى و الحدائق تشرب

و ضياعها ضاع النسيم بها فكم أضحى له من بين روض مطلب

و حلت بقلبى من عساكر جنة فيها لأرباب الخلاعة ملعب

و لكم رقصت على السماع بجنكها و غدا بربوتها اللسان يشيب

فمتى أزور معالما أبوابها بسماحها كتب السماح تبوّب

و قال الصّفىّ الحلّى عند نزوله بدمشق مسمطا لقصيدة السموأل بالحماسة: [بحر الطويل]

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه و طول الفلا رحب لديه و عرضه

و لم يبل سربال الدجى فيه ركضه (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل)

إذا المرء لم يحجب عن العين نومها و يغل من النفس النفيسة سومها

أضيع و لم تأمن معاليه لومها (و إن هو لم يحمل على النفس ضيمها

فليس إلى حسن الثناء سبيل)

رفعنا على هام السّماك محلنا فلا ملك إلا تغشاه ظلنا

لقد هاب جيش الأكثرين أقلنا (و لا قلّ من كانت بقاياه مثلنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵

شباب تسامى للعلا و كهول)

يوازى الجبال الراسيات وقارنا و تبنى على هام المجرة دارنا

و يأمن من صرف الزمان جوارنا (و ما ضرنا أنا قليل و جارنا

عزيز و جار الأكثرين ذليل)

و لما حللنا الشام تمّت أموره لنا وحبانا ملكه و وزيره

و بالنّيرب الأعلى الذى عزّ طوره (لنا جبل يحتله من نجيره

منيع يرد الطرف و هو كليل)

يريك الثريا من خلال شعابه و تحدق شهب الأفق حول هضابه

و يقصر خطو السحب دون ارتكابه رسا أصله تحت الثرى و سما به

إلى النجم فرع لا ينال طويل)

و قصر على الشقراء قد فاض نهره وفاق على فخر الكواكب فخره

و قد شاع ما بين البرية شكره (هو الأبلق الفرد الذى سار ذكره

يعز على من رامه و يطول)

إذا ما غضبنا فى رضا المجد غضبة لندرك ثأرا أو لنبلغ رتبة

نزيد غداة الكر فى الموت رغبة (و إنا لقوم لا نرى الموت سبّة

إذا ما رأته عامر و سلول)

و كتب الشيخ محب الدين الحموى فى ترجمة الشيخ إسماعيل النابلسى شيخ الإسلام من مصر: [بحر الطويل]

لواء التهانى بالمسرّة يخفق و شمس المعالى فى سما الفضل تشرق

و سعد و إقبال و مجد مخيم و أيام عز بالوفا تتخلق

فيا أيها المولى الذى جلّ قدره و يا أيها الحبر اللبيب المدقق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶

أرى الشام مذ فارقتها زال نورها وثوب بهاها و النضارة يخلق

إذا غبت عنها غاب عنها جمالها و نفس بدون الروح لا تتحقق

و إن عدت فيها عاد فيها كمالها و صار عليها من بهائك رونق

فيا ساكنى وادى دمشق مزاركم بعيد و باب الوصل دونى مغلق

و ليس على هذا النوى لى طاقة فهل من قيود البين و البعد أطلق

و إنى إلى أخباركم متشوّف و إنى إلى لقياكم متشوق

أود إذا هب النسيم لنحوكم بأنى فى أذياله أتعلّق

و أصبو لذكراكم إذا هبت الصّبا لعلى من أخباركم أتنشق

ولى أنّة أودت بجسمى و لوعة و نار جوى من حرها أتفلق

فحنّوا على المضنى الذى ثوب صبره إذا مسه ذيل الهوى يتمزق

غريب بأقصى مصر أضحت دياره و لكنّ قلبى بالشآم معلّق

و قد نسخ التبريح جسمى فهل إلى غبار ثرى أعتاب وصل يحقّق

فيا ليت شعرى هل أفوز بروضة و فيها عيون النرجس الغض تحدق

و أنظر واديها و آوى لربوة و ماء معين حولها يتدفق

و يحلو لى العيش الذى مر صفوه و هل عائد ذاك النعيم المروّق

و أنظر ذاك الجامع الفرد مرة و فى صحنه تلك الحلاوة تشرق

و أصحابنا فيه نجوم زواهر و نور محيّا وجههم يتألق

فلا برحوا فى نعمة و سعادة و عز و مجد شأوه ليس يلحق

و قال ابن عنين: [بحر الكامل]

ما ذا على طيف الأحبة لو سرى و عليهم لو ساعدونى بالكرى

جنحوا إلى قول الوشاة و أعرضوا و اللّه يعلم أن ذلك مفترى

يا معرضا عنى بغير جناية إلا لما نقل العذول و زوّرا

هبنى أسأت كما تقول و تفترى و أتيت فى حبّيك شيئا منكرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷

ما بعد بعدك و الصدود عقوبة يا هاجرى ما آن لى أن تغفرا

لا تجمعنّ علىّ عتبك و النوى حسب المحب عقوبة أن يهجرا

عبء الصدود أخف من عبء النوى لو كان لى فى الحب أن أتخيرا

فسقى دمشق و واديها و الحمى متواصل الأرهام منفصم العرا

حتى ترى وجه الرياض بعارض أخوى وفود الدّوح أزهر نيرا

تلك المنازل لا ملاعب عالج و رمال كاظمة و لا وادى القرى

أرض إذا مرت بها ريح الصبا حملت على الأغصان مسكا أذفرا

فارقتها لا عن رضا و هجرتها لا عن قلى و رحلت لا متخيرا

أسعى لرزق فى البلاد مشتّت و من العجائب أن يكون مقترا

و ابن عنين المذكور كان هجاء، و هو صاحب «مقراض الأعراض» تجاوز اللّه تعالى عنه، فمن ذلك قوله: [بحر الوافر]

أرح من نزح ماء البئر يوما فقد أفضى إلى تعب وعىّ

مر القاضى بوضع يديه فيه و قد أضحى كرأس الدّولعىّ

يعنى أقرع.

و سبب قوله البيتين أن المعظّم أمر بنزح ماء بقلعة دمشق، فأعياهم ذلك.

و من هجوه قوله: [بحر الوافر]

شكا شعرى إلى و قال تهجو بمثلى عرض ذا الكلب اللئيم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۲۷

فقلت له تسلّ فربّ نجم هوى فى إثر شيطان رجيم

و قال فيمن خرج حاجّا فسقط عن الهجين فتخلف: [بحر الوافر]

إذا ما ذمّ فعل النوق يوما فإنى شاكر فعل النياق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸

أراد اللّه بالحجّاج خيرا فثبط عنهم أهل النفاق

و قال: [بحر البسيط]

و راحل سرت فى ركب أودعه تبارك اللّه ما أحلى تلاجينا

جئنا إلى بابه لاجين نسأله فليتنا عاقنا موت و لا جينا

راجين نسأل ميتا لا حراك به مثل النصارى إلى الأصنام لا جينا

و قال: [بحر الخفيف]

وصلت منك رقعة أسأمتنى صيّرت صبرى الجميل قليلا

كنهار المصيف حرّا و كربا و كليل الشتاء بردا و طولا

و أول «مقراض الأعراض» قوله: [بحر المنسرح]

أضالع تنطوى على كرب و مقلة مستهلة الغرب

شوقا إلى ساكنى دمشق فلا عدت رباها مواطر السحب

مواطن ما دعا توطنها إلا و لبّى نداءها لبّى

ثم ذكر من الهجو ما تصم عنه الآذان.

و هو القائل فى دمشق: [بحر الطويل]

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة و ظلّك يا مقرى على ظليل

و هل أرينّى بعد ما شطت النوى ولى فى ذرا روض هناك مقيل

و منها: [بحر الطويل]

دمشق بنا شوق إليك مبرّح و إن لجّ واش أو ألحّ عذول

بلاد بها الحصباء در، و تربها عبير، و أنفاس الشّمال شمول

تسلسل فيها ماؤها و هو مطلق و صح نسيم الروض و هو عليل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹

و قد تقدم التمثيل بهذه الأبيات الثلاثة فى خطبة هذا الكتاب.

و من هذه القصيدة: [بحر الطويل]

و كيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى و رأى ظهير الدين فىّ جميل

من القوم أمّا أحنف فمسفّه لديهم، و أما حاتم فبخيل

فتى المجد أما جاره فممنّع عزيز، و أما ضدّه فذليل

و أما عطايا كفه فمباحة حلال، و أما ظله فظليل

و ظهير الدين الممدوح هو طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين، و كان ملك اليمن، و أحسن إلى ابن عنين إحسانا كثيرا وافرا، و خرج ابن عنين من اليمن بمال جم، و طغتكين: بضم الطاء المهملة، و بعدها غين معجمة، ثم تاء مثناة من تحتها مكسورة، ثم كاف مكسورة أيضا، ثم ياء تحتية، ثم نون، و كان يلقب بالملك العزيز، و لذلك قال ابن عنين لما رجع من عنده إلى مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزم أرباب الديون ابن عنين بدفع الزكاة من المتاجر التى وصلت صحبته: [بحر البسيط]

ما كلّ من يتسمّى بالعزيز له أهل و ما كلّ برق سحبه غدقه

بين العزيزين بون فى فعالهما هذاك يعطى و هذا يأخذ الصّدقة

و من هجو ابن عنين قوله فى فقيهين يلقب أحدهما بالبغل و الآخر بالجاموس:

[بحر الكامل]

البغل و الجاموس فى حاليهما قد أصبحا مثلا لكل مناظر

قعدا عشية يومنا فتناظرا هذا بقرنيه و ذا بالحافر

ما أحكما غير الصياح كأنما لقيا جدال المرتضى بن عساكر

جلفان ما لهما شبيه ثالث إلا رقاعة مذلويه الشاعر

لفظ طويل تحت معنى قاصر كالعقل فى عبد اللطيف الناظر

رجع إلى دمشق:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰

و قال العز الموصلى: [بحر الوافر]

إليك حياض حمّامات مصر و لا تتكثّرى عندى بمين

حياض الشام أحلى منك ماء و أطهر و هى دون القلتين

و هذان البيتان جواب منه عن قول ابن نباتة: [بحر مجزوء الكامل]

أحواض حمام الشآ م ألا اسمعى لى كلمتين

لا تذكرى أحواض مص ر فأنت دون القلتين

و أما قول النّواجى سامحه اللّه تعالى: [بحر مجزوء الخفيف]

مصر قالت دمشق لا تفتخر قط باسمها

لو رأت قوس روضتى منه راحت بسهمها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه، و منه قول الوداعى: [بحر المسريع]

روّ بمصر و بسكانها شوقى و جدد عهدى الخالى

وارو لنا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال

فهو مرادى لا «يزيد» و لا «ثور» و إن رقّا ورقا لى

و من ذلك النمط قول الشهاب الحجازى: [بحر الرجز]

قالوا دمشق قد زهت لزهرها فامض و شاهد جوزها و لوزها

فقلت لا أبدل بلدتى بها و لست أرضى زهرها و لو زها

[و قول الخفاجى قاضى مصر، و إن لم يكن فى دمشق، لكن فى السياق فى النظم: [بحر المنسرح]

قد فتن العاشقين حين بدا بطلعة كالهلال أبرزها

طرّ له شارب على شفة كالورد فى الآس حين طرزها]

و قول الآخر: [الكامل]

قد قال وادى جلق للنيل إذ كسروه أعين جبهتى لك ترفع

فأجاب بحر النيل لما أن طغى عندى مقابل كل عين أصبع

و قد تذكرت هنا قول بعضهم:

ما ذا يفيد المعنّى من الأذى المتتابع

بمصر ذات الأيادى و نيلها ذى الأصابع

و قد شاع الخلاف قديما و حديثا فى المفاضلة بين مصر و الشام، و قد قال بعضهم: [مجزوء الرجز]

فى حلب و شامنا و مصر طال اللغط

فقلت قول منصف خير الأمور الوسط

و أما قول بعضهم: [بحر المتقارب]

تجنّب دمشق و لا تأتها و إن راقك الجامع الجامع

فسوق الفسوق بها قائم و فجر الفجور بها طالع

فلا يلتفت إليه، و لا يعول عليه، إذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل، و هى من نزعات بعض الهجائين الذين يعمدون إلى تقبيح الحسن الجميل الجليل.

و ما زالت الأشراف تهجى و تمدح و لا يقابل ألف مثن عدل بفاسق يقدح: [بحر الطويل]

و فى تعب من يحسد الشمس نورها و يأمل أن يأتى لها بضريب

و أخف من هذا قول بعض الأندلسيين، و هو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم: [بحر الوافر]

دمشق جنة الدنيا حقيقا و لكن ليس تصلح للغريب

بها قوم لهم عدد و مجد و صحبتهم تؤول إلى الحروب

ترى أنهارهم ذات ابتسام و أوجههم تولّع بالقطوب

أقمت بدارهم ستين يوما فلم أظفر بها بفتى أديب

و الجواب واحد، و لا يضر الحقّ الثابت إنكار الجاحد، و أخف من الجميع قول العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضى اللّه تعالى عنه: [بحر الرمل]

جلّق جنّة من تاه. و باهى و رباها أربى لو لا وباها

قال غال: بردى كوثرها قلت: غال برداها برداها

وطنى مصر و فيها وطرى و لنفسى مشتهاها مشتهاها

و لعينى غيرها إن سكنت يا خليلىّ سلاها ما سلاها

و أخفّ منه قول ابن عبد الظاهر: [بحر الخفيف]

لا تلوموا دمشق إن جئتموها فهى قد أوضحت لكم ما لديها

إنها فى الوجوه تضحك بالزّهر لمن جاء فى الربيع إليها

و تراها بالثلج تبصق فى لحيۀ من مرّ فى الشتاء عليها

و قول ابن نباتۀ و هو بالشام يتشوق إلى المقياس و النيل: [بحر الكامل]

أرق له بالشام نيل مدامع يجريه ذكر منازل المقياس

سقيا لمصر منازلا معمورۀ بنجوم أفق أو ظباء كناس

وطنى سهرت له و شابت لمّتى و نعم على عينى هواه و راسى

من لى به و الحال ليس بآنس كدر و عطف الدهر ليس بقاسى

و الطرف يستجلى غزالا آنسا بالنيل لم يعتد على باناس

رجع إلى مدح دمشق.

و قال الناصر داود بن المعظم عيسى: [بحر الطويل]

إذا عاينت عيناى أعلام جلّق و بان من القصر المشيد قبابه

تيقنت أن البين قد بان و النوى نأى شخصه و العيش عاد شبابه

و قال أيضا رحمه اللّه تعالى: [بحر البسيط]

يا راكبا من أعالى الشام يجذبه إلى العراقين إدلاج و إسحار

حدّثتنى عن ربوع طالما قضيت للنفس فيها لبانات و أوطار

لدى رياض سقاها المزن ديمته و زانها زهر غض و نوّار

شحّ الندى أن يسقّيها مجاجته فجادها مفعم الشّؤبوب مدرار

بكت عليها الغوادى و هى ضاحكۀ و راحت الريح فيها و هى معطار

يا حسنها حين زانتها جواسقها و أينعت فى أعالى الدوح أثمار

فهى السماء اخضرارا فى جوانبها كواكب زهر تبدو و أقمار

حدثتنى و أنا الظامى إلى نبإ لا فضّ فوك فمنّى الرى تمتار

فهو الزلال الذى طابت مشاربه و فارقته غثاءات و أكدار

كرّر على نازح شطّ المزار به حديثك العذب لا شطت بك الدار

و علّل النفس عنهم بالحديث بهم إن الحديث عن الأحباب أسمار

و هـذا الملـك الناصـر له ترجمـة كـبيرة، و هو ممن أدركته الحرفـة الأدبيـة، و منع حقه بالحميـة و العصبيـة، و أنكرت حقوقه، و أظهر عقوقه، حتى قضى نحبه، و لقى ربه.

رجع:

و قال سيف الدين المشد رحمه اللّه تعالى: [بحر البسيط]

بشرى لأهل الهوى عاشوا به سعدا و إن يموتوا فهم من جملة الشّهدا

شعارهم رقة الشكوى و مذهبهم أن الضلالة فيهم فى الغرام هدى

عيونهم فى ظلام الليل ساهرة عبرى و أنفاسهم تحت الدجى صعدا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴

تجرعوا كأس خمر الحب مترعة ظلوا سكارى و ظنوا غيهم رشدا

و عاسل القدّ معسول مقبله كالغصن لما انثنى و البدر حين بدا

رقيم عارضه كهف لعاشقه يأوى إليه فكم فى حيّه شهدا

نادمته و ثغور البرق باسمة و الغيث ينزل منحلا و منعقدا

كأن جلّق حيا اللّه ساكنها أهدت إلى الغور من أزهارها مددا

فاسترسل الجوّ منهلّا يزيد على «ثورى» و يعقد محلول الندى «بردا»

و قال أيضا: [بحر الطويل]

فؤادى إلى بانات جلق مائل و دمعى على أنهارها يتحدّر

يرنّحنى لوز ابن كلّاب مزهرا و تهتزنى أغصانه و هو مثمر

و إنى إلى زهر السفر جل شيق إذا ما بدا مثل الدراهم ينثر

غياض يفيض الماء فى عرصاتها فتزهو جمالا عند ذاك و تزهر

ترى بردى فيها يجول كأنه و حصباءه سيف صقيل مجوهر

و بى أحور لاح العذار بخدّه يسامح قلبى فى هواه و يعذر

يحاورنى فيه على الصبر صاحبى و كيف أطيق الصبر و الطرف أحور

إذا اشتقت وادى النيربين لمحته فأنظر معناه به و هو أنضر

حوى الشرف الأعلى من الحسن خده على أن ميدان العوارض أخضر

و ما أحسن قوله رحمه اللّه تعالى: [بحر الكامل]

واد به أهل الحبيب نزول حيّا معاهده الحيا و النيل

واد يفوح المسك من جنباته و يصحّ فيه للنسيم عليل

يشتاقه و يودّ لثم ترابه شوقا و لكن ما إليه سبيل

متقلقل الأحشاء مسلوب الكرى طلق الدموع فؤاده متبول

يصبو إلى الأثلاث من وادى الغضى و يحن إن خطرت هناك شمول

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵

قالوا تبدّل قلت يا أهل الهوى و الناس فيهم عاذر و جهول

هل بعد قطع الأربعين مسافة للعمر فيها يحسن التبديل

و لقد هفا بى فى دمشق مهفهف يسبى العقول رضابه المعسول

يهتز إن مر النسيم بقدّه و يميل بى نحو الصّبا فأميل

أبدى لنا بردا تبسّم ثغره و إذا انثنى فقوامه المجدول

لزم التسلسل مدمعى و عذاره فانظر إلى المهجات كيف تسيل

و سقمت من سقم الجفون لأنها هى علة و فؤادى المعلول

لا تعجبوا إن راعنى بذوائب فالليل هول و المحب ذليل

ما صح لى أن الذاؤبة حية حتى سعت فى الأرض و هى تجول

و قال ناظر الجيش عون الدين بن العجمى: [بحر البسيط]

يا سائقا بقطع البيداء معتسفا بضامر لم يكن فى سيره وانى

إن جزت بالشام شم تلك البروق و لا تعدل بلغت المنى عن دير مرّان

و اقصد أعالى قلاليه فإن بها ما تشتهى النفس من حور و ولدان

من كل بيضاء هيفاء القوام إذا ماست فوا خجل المران و البان

و كل أسمر قد دان الجمال له و كمّل الحسن فيه فرط إحسان

و رب صدغ بدا فى خد مرسله فى فترة فتنت من سحر أجفان

فليت ريقته وردى و وجنته وردى و من صدغه آسى و ريحانى

وعج على دير متّى ثم حى به الر بان بطرس فالربان ربانى

فهمت منه إشارات فهمت بها و صنت منشورها فى طى كتمان

و ادخل بدير حنين و انتهز فرص الل ذات ما بين قسيس و مطران

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٣، ص: ٣۶

و استجل راحا بها تحيا النفوس إذا دارت براح شماميس و رهبان

حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت بشهبها من همومى كل شيطان

كم رحت فى الليل أسقيها و أشربها حتى انقضى و نديمى غير ندمان

سألت توماس عمن كان عاصرها أجاب رمزا و لم يسمح بتبيان

و قال: أخبرنى شمعون ينقله عن ابن مريم عن موسى بن عمران

بأنها سفرت بالطّور مشرقة أنوارها فكنوا عنها بنيران

و هى المدام التى كانت معتّقة من عهد هرمس من قبل ابن كنعان

و هى التى عبدتها فارس فكنى عنها بشمس الضحى فى قومه مانى

سكرت منها فلا صحو وجدت بها على الندامى و ليس الشح من شانى

و سوف أمنحها أهلا و أنشده ما قيل فيها بترجيع و ألحان

حتى تميل لها أعطافه طربا و ينثنى الكون من أوصاف نشوان

و هذه و إن لم تكن فى دمشق على الخصوص فلا تخرج عما نحن بصدده، و الأعمال بالنيات، و ديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية، و ممن حاك هذه البرود الشيخ الأكبر رحمه اللّه تعالى، و قيل: إنه الشيخ شعبان النحوى.

[بعض ما دار بين المؤلف و أهل الشام]

رجع:

و قال بعضهم: [بحر البسيط]

شوقى يزيد و قلب الصّبّ ما بردا و بان يأسى من المعشوق حين غدا

و مدمعى قنوات، و العذول حكى ثورى، يلوم الفتى فى عشقه حسدا

على مغنية بالجنك جاوبها شبّابة كم بها من عاشق سهدا

فالبدر جبهتها، و الردف ربوتها، و خلّها مات فى خلخالها كمدا

و لنذكر نبذة خوطبت به من علماء الشام و أدبائه حفظ اللّه تعالى كمالهم، و بلغ آمالهم!.

فمن ذلك قول شيخ الإسلام، مفتى الأنام، سيدى الشيخ عبد الرحمن العمادى الحنفى حفظه اللّه تعالى، و كتبه لى بخطه: [بحر السريع]

شمس هدى أطلعها المغرب و طار عنقاء بها مغرب

فأشرقت فى الشام أنوارها وليتها فى الدهر لا تغرب

أعنى الإمام العالم المقرى أحمد من يكتب أو يخطب

شهاب علم ثاقب فضله ينظم عقدا و هو لا يثقب

فرع علوم بالهدى مثمر و روض فضل بالندى معشب

قد ارتدى ثوب علا و امتطى غارب مجد فزها المركب

درس غريب كل يوم له يملى و لكن حفظه أغرب

محاضرات مسكر لفظها بكأس سمع راحها تشرب

رياض آداب سقاها الحيا ففاح مسكا نشرها الأطيب

فضائل عمت و طمّت فقد قصر فيها كل من يطنب

قلوبنا قد جذبت نحوه و الحب من عادته يجذب

إن بعدت عن غربه شرقنا فالفضل فينا نسب أقرب

كم طلبت تشريفه شامنا بشرى لها فليهنها المطلب

قد سبقت لى معه صحبة فى حرم يؤمن من يرهب

أخوّة فى اللّه من زمزم رضاعها طاب لها المشرب

أنهلنى ثمّ ودادا فلى بالشام منه علل أعذب

أهديت ذا النظم امتثالا له و قد هجرت الشعر مذ أحقب

نشّط قلبى لطفه فانثنى و القلب فى أهل الهوى قلّب

ضاء دجى العلم به للورى ما لاح فى جنح الدجى كوكب

تحية الفقير الداعى، عبد الرحمن العمادى، انتهى.

و أجبته بما نصه: [بحر السريع]

ما تبر راح كأسها مذهب ما للنهى عن حسنها مذهب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸

تستدفع الأكدار من صفوها و تنهل الأفراح أو تنهب

تسعى بها هيفاء من ثغرها أو شعرها النور أو الغيهب

فتانة الأعطاف نفاثة سحرا بألباب الورى يلعب

فى روضة قد كللت بالنّدى و الزهر رأس الغصن إذ يعصب

برودها بالنّور قد نمنمت كالوشى من صنعاء بل أعجب

و الماء يجرى تحت جناتها و النار من نارنجها تلهب

و الظّل ضاف و النسيم انبرى و الجوّ ذاكى العرف مستعذب

و الطير للعشاق بالعود قد غنّت فهاجت شوق من يطرب

أبهى و لا أبهج فى منظر من نظم من تقديمه الأصوب

مفتى دمشق الشام صدر الورى من فى العلا تم به المطلب

علامة الدهر و لا مرية و ملجأ الفضل و لا مهرب

للّه ما امتاز به من حلّى بغير منّ اللّه لا تكسب

أبدى به الرحمن فى عبده مظاهر المنح التى تحسب

جود بلا منّ و علم بلا دعوى به التحقيق يستجلب

و بيت مجد مسند ركنه إلى عماد الدين إذ ينسب

فبرقه الشامىّ من شامه نال مراما و السّوى خلب

و ما عسى أبدية فى مدحه أو وصف أبناء له أنجبوا

تسابقوا للمجد حتى حووا سبقا لما فى مثله يرغب

أعيذهم بالله من شر ما يخشى من الأغيار أو يرهب

و أسأل اللّه لهم عزة بادية الأضواء لا تحجب

و لما حللت دمشق المحروسة، و طلبت موضعا للسكنى يكون قريبا من الجامع الأموى الذى يعجز البليغ وصفه و إن ملأ طروسه، أرسل إلى أديب الشام فرد الموالى المدرسين ساحب أذيال الفخار المولى أحمد الشاهينى حفظه اللّه تعالى بمفتاح المدرسة الجقمقية، و كتب لى معه ما نصه: [بحر الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹

كنف المقرى شيخى مقرّى و إليه من الزمان مفرّى

كنف مثل صدره فى اتساع و علوم كالدر فى ضمن بحر

أى بدر قد أطلع الغرب منه ملأ الشرق نوره؟ أى بدر؟

أحمد سيدى و شيخى و ذخرى و سميّى و فوق ذاك و فخرى

لو بغير الأقدام يسعى مشوق جئته زائرا على وجه شكرى

العبد الحقير المستعين، المخلص أحمد بن شاهين، انتهى.

فأجبته بقولى: [بحر الخفيف]

أى نظم فى حسنه حار فكرى و تحلّى بدرّه صدر ذكرى

طائر الصّيت لابن شاهين ينمى من بروض الندى له خير و كر

أحمد الممتطين ذروة مجد لعوان من المعالى و بكر

حل مفتاح فضله باب وصل من معانى تعريفه دون نكر

يا بديع الزمان دم فى ازديان بالعلا و ازدياد تجنيس شكر

و كتب إلى لما وقف على كتابى «فتح المتعال، فى مدح النعال» بما نصه: لكاتبه الحقير أحمد بن شاهين الشامى فى تقريظ تأليف سيدى و مولاى و قبلتى و معتقدى شيخ الدنيا و الدين، و بركة الإسلام و المسلمين، حفظ اللّه تعالى وجوده آمين: [بحر الطويل]

أ أحمد، فخرا يا ابن شاهين ساميا بأحمد ذاك المقرىّ المسدّد

بمن راح خدّاما لنعل محمد و ناهيك فى العليا بأرفع سؤدد

فإن أنا أخدم نعله فلطالما غدا خادما نعل النبى الممجد

بتأليفه فى وصف نعل تكرمت كتابا حوى إجلال كل موحّد

و يكفيك فخرا يا ابن شاهين أن ترى خدوما لخدّام لنعل محمد

فقلت له طوبى بخدمة أحمد فقال كذا طوبى بخدمة أحمد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰

فلا زال يرقى للمعالى مكرما و ينتعل العيوق فى رغم فرقد

فأجته بقولى:

أ أحمد وصف بالعوارف يرتدى و أشرف مولى للمعارف يهتدى

نجومك إذ أنت الخليل توقّدت فأنّى أجاريها بنحو المبرد

أتانى نظام منك خيّر فكرتى على أنه أعلى مرامى و مقصدى

فأنت ابن شاهين الذى طار صيته بجو العلا و الضد ضل بفرقد

فبرّك موصول و شانيك منكر و قدرك مرفوع على رغم حسد

و عند حديث الفضل أسند عاليا بشام فهم يروون مسند أحمد

فوجهك عن بشر و يمناك عن عطا و فكرك يروى فى الهدى عن مسدّد

فلا زلت ترقى أوج سعد و رفعة و دمت بتوفيق و عز مخلد

و لما خاطبته بقولى: [بحر الطويل]

يصيد ابن شاهين بجو بلاغة سوانح فى وكر البدائع تفرخ

و ما كان ديك الجن مدرك نيلها إذا صرصر البازى فلا ديك يصرخ

و لو جاد فكر البحترى بمثلها لكان على الطائى بالأنف يشمخ

و لو أن نظم ابن الحسين أتيحها لفاز بسبق حكمه ليس ينسخ

فلا زال ملحوظا بعين عناية و كتب التهانى عن علاه تؤرخ

أجابنى بما نصه: [بحر الطويل]

أ أنفاس عيسى ما بروعى ينفخ أم الطرس أضحى بالعبير يضمّخ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۱

و هذى قواف أم هى الشمس؟ إننى أراها على الجوزاء بالأنف تشمخ

بل هى نصّ من ودادك محكم تزول الرواسى و هى لم تك تنسخ

أتتنى بمدح مخجل فكأنها لفرط حيائى قد أتتنى توبخ

و هل أنا إلا خادم نعل سيدى و بينى و بين المدح فى الحق برزخ

و ما هى إلا غرة حزت فخرها و إنى بها بادى المحاسن أشدخ

فلا درّ درّى و انحرفت عن العلا إذا كان ودى عن معاليك يفسخ

و حبك مهما طال شرقا و مغربا بوكر ابن شاهين الوفىّ يفرّخ

و إنى و إن أرخت مجدا لماجد فإنى باسم المقرى أؤرخ

سمى و مولاى الذى راح مدحه لرأس الأعادى بالمعاريض يرضخ

و دم يا نظير البدر ترقى بأوجه و لا زلت فى طرفى و قلبى ترسخ

و كنت يوما أروم الصعود لموضع عال فوقعت، و انفكت رجلى، و ألمت، فكتب إلى:

[بحر السريع]

لا ألمت رجلك يا سيدى و صانها اللّه من الشّين

ما هى إلا قدم للعلا لا احتاج ذاك النصل للقين

زانت دمشق الشام فى حلها فلا رأت فيها سوى الزين

بانت عن الأهل لتشريفنا لا جمعت أينا إلى بين

عجبت من راسخة فى العلا و العلم إذ زاغت من العين

إنى أعاف المين بين الورى و لست و اللّه أخا مين

للمقرى المجتبى أحمد دين الهوى و المدح كالدين

و أحمد اللّه على أننى رأيته حاز الفريقين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۲

فلا أراه اللّه فى عمره بينا يؤدّيه إلى أين

تعويذا لمحب العبد الحقير الداعى أحمد بن شاهين، انتهى.

و أهديت إليه حفظه اللّه تعالى سبحة و خاتما، و كتبت إليه: [بحر مجزوء الكامل]

يا نجل شاهين الذى أحيا المعالى و المعالم

يا من به ريشت من الم جد الخوافى و القوادم

يا من دمشق بطيب ما يبديه عاطرة النواسم

فالنهر منها ذو صفا و الزهر مفترّ المباسم

و الغصن يثنى عطفه طربا لتغريد الحمائم

يا أحمد الأوصاف يا من حاز أنواع المكارم

أنت الذى طوّقتنى مننا لها تعنو الأعاظم

فمتى أؤدى شكرها و العجز لى وصف ملازم

و العذر باد إن بعث ت إليك من جنس الرتائم

بنتيجة الذكر التى جاءت بتصحيف ملائم

و بحائم صاد إلى فيض الندى من كف حاتم

فامدد على جهد المق لّ رواق صفح ذا دعائم

و اقبل عقيلة فكر من هو فى بحار العىّ عائم

لا زلت سابق غاية بين الأعارب و الأعاجم

فأجابنى بما صورته: [بحر مجزوء الكامل]

يا سيدا شعرى له ما إن يقاوى أو يقاوم

كلا، و لا قدرى له يوما يساوى أو يساوم

يا من رأيت عطاردا منه بدا فى شخص عالم

يا من بنفحة خلقه و بنظمه السامى الملائم

أضحى يرينى معجز ين من النواسم و المباسم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۳

ما زلت أبصر منهما حسن النّعامى و النعائم

بهما زمانى حاسدا أضحى و بالتنغيص حاسم

قلمى و قلبى بين‌ها م فى الثناء له و هائم

حبّى لأحمد سيدى شيخ الورى فرض ملازم

المقرى المعتلى شرف المعالى و المعالم

مالى إليه وسيلة إلا هوى فى القلب دائم

قد جاء ما شرفتنى بخصوصه دون الأعاظم

من خاتم كفى به ورثت سليمان العزائم

و جعلتنى لا أحسب العى وق لى فى فص خاتم

و بسبحة شبهتها بالشهب فى أسلاك ناظم

فلتحسد الجوزاء ما أحرزت من تلك المكارم

هى آلة للذكر لك ن ليس ذكرى فى الحيازم

فهواك فى قلبى و ما فى القلب جلّ عن الرتائم

ما ذى رتائم سيدى بل إنها عندى تمائم

لو أنها من جنس ما يطوى غدت فوق العمائم

لكنها قد زيّنت كفى و أزرت بالخواتم

يا من يريش إذا رمى نسر السماء بلحظ حازم

إن ابن شاهين حوى منك الخوافى و القوادم

هذى نوافل يا إما م الدهر ليست باللوازم

العذر عنها مخجل عبدا لنعلك جدّ خادم

بل أنت فوق العذر قد أصبحت للشعرى تنادم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۴

لا زال دهرك سيدى يلقاك منه ثغر باسم

يهدى إليك من المرا حم و المكارم و الغنائم

ما لا يساوم مثله ذو الحظ فى أسنى المواسم

العبد الحقير الداعى لأستاذه مولاى الأجل بالتمكين، أحمد بن شاهين، حامدا مصليا مسلما، انتهى.

و قال مستجيزا: [بحر المجتث]

الشيخ يشرب ماء و نحن نشرب قهوه

فقلت: [المجتث]

لأنه ذو قصور فغطّ بالعذر سهوه

و لما أزمعت العود إلى مصر أوائل شوال سنة ۱۰۳۷ خاطبنى بقوله- حفظه اللّه!-:

[بحر الكامل]

أبدا إليك تشوّقى و حنينى و إلى جنابك ما علمت سكونى

و لديك قلبى لا يزال رهينة غلقت و تعلم ذمّة المرهون

و عليك قد حبست شوارد مدحتى لما رأيتك فوق كل قرين

قلبى كقلبك فى المحبة و الهوى إذ كان فى الأشواق دينك دينى

ولّيته بهواك أرفع رتبة و غدوت تعزل عنه كل خدين

و أطاع أمرك فى الوداد فلو أشا منه- و حاشا- سلوة يعصينى

ما كنت أحسب قبل طبعك أن أرى يوما عطارد ناطقا بفنون

حتى رأيتك فاستبنت بأنه يروى أحاديث العلا بشجون

و يفيد سمعى معجزا بهر النهى و يرى عيونى آية التكوين

يا من غدا يحيى القلوب بلفظه و يردّد الأنفاس عن جبرين

أحييت بالوحى المبين قلوبنا وحى- لعمر اللّه- جدّ مبين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۵

هذى دمشق، لعمر خلقك، روضة قد جاد طبعك دوحها بمعين

قد زارها غيث الندى فبهارها أضحى يلوح بحلّة النّسرين

لو لم تكن بدرا لما أحرزت ما قد خص فى الأنوار بالتلوين

حققّت ما قد قيل حين حللتها إن المكان مشرّف بمكين

هى غادة حلّيتها فتزينت ما كان أحوجها إلى التزيين

مولاى أحمد يا سليل بنى العلا يا فوق مدحى فيك أو تحسينى

أغنى وجودك و هو عين الدّين عن علّامة الدنيا لسان الدين

انظره تستغنى به عن غيره و إلى العيان ارغب عن المظنون

تلقى علوم الناس فى أوراقهم و علومه فى صدره المشحون

فبعلمه اعبر كل بحر زاخر و بفهمه اسبر غامض المخزون

و بحلمه ارغب عن تحلم أحنف و بعزمه اصحب بأس ليث عرين

لما رأيتك فاستقمت لقبلتى أدعو و أشكر واردات شؤونى

ألفيت قطرك يمنتى فأفادنى فضل اليمين على اليسار يقينى

فسقى الحيا للمقّرىّ أخى العلا بلدا بأقصى الغرب جدّ هتون

بلدا تبينت الهلال بأفقه و رأيت منه قرة لعيونى

لو لا هلال الغرب نوّر شرقنا بتنا بليل الحدس و التخمين

يا راحلا رحل الفؤاد بعزمه رفقا بقلب للوفاء ضمين

أستودع اللّه العظيم، و إننى مستودع منه أجلّ أمين

إنى أودع يوم بينك مهجتى و شبيبتى و تصبرى و سكونى

و أعود من توديع وجهك عودة خلطت يقينى فى الهوى بظنون

حتى كأنى قد فقدت تمائما تقضى على بحالة المجنون

و تود نفسى أنها لو حرمت أبدا سكونى للهوى و ركونى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۶

أو شكت أقتل بين معترك الهوى نفسى و معترك الهوى بيمينى

و لقد وددت بأننى متحمل تلك الخطا بمحاجرى و جفونى

كيف السبيل إلى الحياة و مهجتى فى قبضة الأشواق كالمسجون

ما أنت إلا البدر لاح بأفقنا شهرا و كان ضياؤه يهدينى

و إليكها يا شيخ دهرى غادة غنيت عن التحسين و التزيين

جاءتك تعرض فى الوداد كمالها و إذا لحظت جمالها يكفينى

هى بنت لحظتك التى تؤوى النهى لا بنت ليلتى التى تؤوينى

ما الفخر فى دعوى البديهة عندها الفخر قولك إنها ترضينى

حسبى أبا العباس منك إصاخة تقضى بموت عداى أو تحيينى

يا لهف نفسى كيف أبلغ مدحة أضمرتها فى سرّى المكنون

فلسان حبى بالغ أقصى المدى و لسان مدحى فى القصور يلينى

ما الشعر يستوفى حقوقكم و لو أهديت من نظمى عقود سنينى

حلّقت أصطاد النجوم، و إنها تزهو بعقد فى علاك ثمين

فرأيت فى العيّوق طبعك سيدى نسرا أسفّ لعجزه شاهينى

قد خف شعرى من قصور طبيعتى و لربما قد كان جدّ ركين

يكفيك أحمد يا ابن شاهين بأن أحرزت خصل السبق دون الدون

و إذا عجزت عن الفرائض جاهدا فادأب عساك تفوز بالمسنون

هو قبلتى فلأغتدى متمسكا منه بحبل فى النجاة متين

و اسلم فديتك زائرا و مشرفا أفدى مواطئ نعله بجبينى

و كذلك عمرى فى هواك مقسّم بين الدعاء الجد و التأمين

و قال حفظه اللّه تعالى فى ذلك: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۷

حنانيك إن الدمع بالود معرب و إنى فى شرق و أنت مغرب

و رحماك بى إنى قتيل صبابة بمن هو أوفى فى الفؤاد و أنجب

و وعدك لى بالعود إنى معلل به مهجة قد أوشكت تتصوّب

و هبتك قلبى ما حييت و لم أقل (و لكن من الأشياء ما ليس يوهب)

فلو كنت شيخا واحدا هدّ صده فكيف بشيخ لم يكن مثله أب

و إنا بحمد اللّه لما خصصتنا بزورة ذى ودّ دعاه التحبب

فرشنا له منا الخدود مواطئا وعدنا به شوقا نجىء و نذهب

و قلنا دمشق أنت فيها محكم و أشرافها و دوا و جدّوا و أوجبوا

و أنت لها روح و مولى و مفخر و قد زنت شرقا مثل ما ازدان مغرب

و فخرا عظيما يا ابن شاهين إنه غدا و كرنا نسر السما فيه يرغب

فنحن، و نحن الناس، خدام نعله فلا غرو أن يقلى الغضنفر أكلب

و ما نقموا منه سوى أنه امرؤ ليأكل فيما قدروه و يشرب

هو الشيخ شيخ الدهر أحمد من غدت دمشق و من فيها بعلياه تخطب

هو المقرىّ العالم العلم الذى إليه تناهى الفضل و المجد ينسب

و ما هو إلا الشمس أزمع رحلة و إنا لفى ليل إذا هى تغرب

أو الغيث قد وافى فأمرعت النهى به و انثنى و الصدر بالود معشب

أو الطائر العنقاء جاء مشرقا فأغرب و العنقاء فى الطير مغرب

و إنك للخلّ الوفىّ و إنه هو الواحد المطلوب إن عز مطلب

و إنك بالتحقيق فى كل حالة لأسنى و أندى ثم أوفى و أغرب

رعى اللّه وجها رحت ترغب نحوه و أى أخى جدّ له أنت ترغب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۸

و حيّا الحيا أرضا وطئت ترابها فأصبح مسكا و هى بالمجد تخصب

و لا فارقت يوما علاك كلاءة من اللّه أنّى كنت و اللّه أغلب

مدى الدهر ما حنت جوانح واله مشوق فأمسى للحقيقة يطرب

و لما قرأ على- أدام اللّه تعالى عزته، و حرس حوزته!- عقيدتى المسماة «بإضاءة الدجنة، فى عقائد أهل السنة» سألنى أن أجيزه فيها و فى غيرها، فكتبت إليه بما نصه: [بحر الرجز]

أحمد من أطار فى جوّ العلا صيت ابن شاهين الذى زان الحلى

و راش منه للمعالى أجنحه نال بها فضلا غدا مستمنحه

و أسكن البيان من أوكار أفهامه بقنّة الأفكار

فاصطاد كل شارد بمخلب أبحاثه و من يعارض يغلب

و الصقر لا يقاس بالبغاث و الحق ممتاز عن الأضغاث

نشكر من بلغه مناه على نواله الذى سناه

و ننتحى نهج صلاة باديا لخير من جاء الأنام هاديا

مبينا دلائل التوحيد و موضحا طرائق التسديد

محمد خير البرايا المنتقى أجل من خاف الإله و اتقى

صلى عليه اللّه مع أصحابه و آله الراوين عن سحابه

ما اعترف العبد الفقير ذو العدم للربّ باستغنائه و بالقدم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۴۸

و بعد، فالعلوم و العوارف من أمّها يأوى لظل وارف

و روضة أزهارها تضوّعت لأنها أفنانها تنوعت

و ليس يحتاط بها نبيل إذ ذاك أمر ما له سبيل

فليصرف القول إلى ما ينفعه دنيا و فى أوج الأجور يرفعه

و إن فى علم أصول الدين هدى و خيرا جلّ عن تبيين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۹

لأنه أصل يعم النفع به و كل ما سواه فرع

و كيف يعبد الإله من لا يعرفه و عن رشاد صلا

فهو الذى لا تقبل الأعمال إلا به و تنجح الآمال

و إننى كنت نظمت فيه لطالب عقيدة تكفيه

سميتها «إضاءة الدجنة» و قد رجوت أن تكون جنّة

و بعد أن أقرأتها بمصر و مكة بعضا من اهل العصر

درستها لما دخلت الشاما بجامع فى الحسن لا يسامى

و كان فى المجلس جمع وافر من جلة بدورهم سوافر

منهم فريد الدهر ذو المعالى فخر دمشق الطيب الفعال

أحمد من راح لعلم و اغتدى و شام أنوار الفهوم فاهتدى

العالم الصدر الأجل المولى من وصفه الممدوح يعيى القولا

و هو ابن شاهين و ما أدراكا من بذ جنس العرب و الأتراكا

و رام من مثلى بحسن الظن إجازة فيما رواه عنى

فحرت فى أمرين قد تناقضا بالنفى و الإثبات إذ تعارضا

ترك الإجابة لوصفى بالخطل و بالخطا و الجيد منى ذو عطل

و كم فرائض بعجز تسقط فكيف غيرها و هذا أحوط

أو فعلها بحسب الإمكان رعيا لود محكم الأركان

منه و ما له من الحقوق و لا يجازى البر بالعقوق

و بعد ما مر من الترداد أسعفته بمقتضى الوداد

و سرت فى طرق من التساهل معترفا بالجهل لا التجاهل

مع أنه الأهل لأن يجيزا لا أن يجاز إذ حوى التبريزا

و من رأى عيبى بعين للرضا لم يقف نهج من غدا معترضا

فليرو عنى كل ما أسمعته إياه بالشرط و ما جمعته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۰

مع القصور راجيا للأجر من الفنون نظمها و النثر

كهذه القصيدة السديده و النعل ذات المدح العديده

كذاك ما ألفت فى عمامه من خص بالإسراء و الإمامه

و الفقه و الحديث و النحو و فى أسرار وفق و هو بالقصد و فى

و غيرها مما به الوهاب من على فقير عاجز فى غير فن

و ما أخذت فى بلاد المغرب عن كل فذّ فى العلوم مغرب

ولى أسانيد إذا سردتها طالت و فى كتبى قد أوردتها

و قد أخذت الجامع الصحيحا و غيره عمن حوى الترجيحا

عمى سعيد عن سفين و هو عن القلقشندى عن الواعى السنن

العسقلانى فى الشهاب بن حجر بما له من الروايات اشتهر

و قد أجزته بكل مالى يصحّ من ذاك بلا احتمال

على شروط قرروها كافيه ليست على أفكاره بخافيه

و قال هذا المقرىّ الخطّا و العىّ عمّ لفظه و الخطّا

عام ثلاثين و ألف بعدها سبع أتمت فى السنين عدها

و كان ذا فى رمضان السامى بحضرة السعد دمشق الشام

و اللّه نرجو أن يتيح الختما بالخير كى نعطى القبول حتما

بجاه خير العالمين أحمدا صلى عليه اللّه ما طال المدى

و آله و صحبه و من زكا فنال من حسن الختام مدركا

و تذكرت بهذه الإجازة نظيرتها التى سألنى فيها مولانا عين الأعيان، مفتى الأنام فى مذهب النعمان، مولانا الشيخ عبد الرحمن العمادى مفتى الشام- حفظه اللّه تعالى!- لأولاده الثلاثة، و كتب لى أصغرهم سنا استدعاء لذلك: [بحر الرجز]

أحمد من شيّد بالإسناد بيت العلوم السامى العماد

و عم من خصص بالروايه بنورها النافى دجى الغوايه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۱

وزان صدر النبها كل زمن بجوهر الإجازة الغالى الثمن

نحمده سبحانه أن عرّفا من الحديث ما به قد شرفا

و نسأل المزيد من صلاته لمن أتيح القصد من صلاته

ملجؤنا المعصوم أعلى سند لنا برغم جاحد مفنّد

كهف الضعيف و القوى المرتجى باب الهدايات و ليس مرتجا

من جاءنا بالجامع الصحيح من كلامه الهادى إلى نهج أمن

من فضله ما شك فيه مسلم من حبه بكل خير معلم

نبينا المرسل ذو الخلق الحسن و المعجز المفحم أرباب اللّسن

محمد المرفوع قدره على سائر خلق اللّه جل و علا

صلى عليه ربنا و سلما أزكى صلاة ننتحيها معلما

مع آله و صحبه و من روى آثاره عن صحة و ما غوى

و بعد فالعلم عظيم القدر و ليس من يدرى كمن لا يدرى

و لم تزل همة أهل المجد منوطة بنيل علم مجدى

و منه علم السنة الشريفة لأنه ظلاله و ريفه

فمن درى الأخبار و الشمائل لم يك عن صوب الهدى بمائل

و كم سميدع لأجله رفض أوطانه و ثوب ترحال نفض

و كيف لا و هو أجل ما طلب موفق يروم حسن المنقلب

لأنه وسيلة السعادة و العز فى الإبداء و الإعادة

و إننى لما انتحيت المشرقا ميمما بدر اهتداء مشرقا

ألقيت فى مصر عصا التسيار بعد بلوغى أشرف الديار

و بعد ذا جئت دمشق الشام مسكن من يزدان باحتشام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۲

فشاهدت عيناى فيها ما ملا قلبى سرورا إذ بلغت مأملا

مدينة فياضة الأنهار فضفاضة الأثواب بالأزهار

أرجاؤها زاكية العبير و مدحها يجل عن تعبير

و جلّ أهليها بحبى دانوا مع أن مثلى منهم يزدان

فلاحظوا بالأعين الكليلة عبدا غدا تقصيره دليله

و قابلوا عيبى بما اقتضاه فضل لهم ربّ الورى ارتضاه

خصوصا المولى الكبير المعتبر قرة عين من رآه و اختبر

مفتى الورى فى مذهب النعمان بها الوجيه عابد الرحمن

ابن عماد الدين من تعيى القلم أوصافه اللاتى كنور فى علم

حاوى طراف المجد و التّلاد نال المنى فى النفس و الأولاد

و كنت فى مكة قد أبصرت منه علا عن مدحه قصرت

جلالة و محتدا و علما و رفعة و سوددا و حلما

مع التواضع الذى قد زانه حسن اعتقاد مثقل ميزانه

فحثّ من فى الشام من أخيار لم يسلكوا مناهج الأغيار

أن يأخذوا بعض الفنون عنى بما اقتضاه منه حسن الظن

مع أننى و اللّه لست أهلا لذاك، و التصدير ليس سهلا

و كان من جملتهم أبناؤه عماد دين قد علا بناؤه

و صنوه الشهاب من توقدا فهما و إبراهيم سباق المدى

و هو الذى قد ابتغى الإجازة لهم بوعد طالبا إنجازه

و كتب القصيدة الطنانة فى ذاك لى مهتصرا أفنانه

و إنهم كحلقة قد أفرغت دامت لهم آلاء فيض سوّغت

فلم أجد بدّا من الإجابة مع كون جهلى سادلا حجاجه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۳

فقد أجزتهم بما رويته طرا، و ما ارتجلت أو روّيته

و كل ما صنفت فى الفنون مؤمّل التحقيق للظنون

و ما أخذت عن شيوخ المغرب و غيرهم من كل حبر مغرب

ولى أسانيد يطول شرحها شيد على تقوى الإله صرحها

و لو سردت كل مروياتى هنا لطال القول فى الأبيات

و كل طول غالبا مملول و حدّ من يعنى به مفلول

فلنقتصر إذن على القليل تبركا بالمطلب الجليل

و قد أخذت جامع البخارى عن عمى الحائز للفخار

المقرى سعيد الإمام عن محمد يدعى خروفا حين عنّ

التونسىّ الطيب الأنفاس نزيل حضرة الملوك فاس

عن الكمال القادرىّ المرتضى عن الحجازىّ عن الحبر الرضا

نجل أبى المجد عن الحجارى عن الزبيدىّ بنقل جارى

عن مسند الإسلام عبد الأوّل عن الشهير الداودى المعتلى

عن السرخسى عن الفربرى عن البخارىّ الإمام الحبر

و فضله أظهر من أن يذكر و علمه المعروف غير المنكر

و مسلم به إلى الكمال عن علم الدين أخى الجلال

منسوب بلقين عن التّنوخى عن ابن حمزة عن الشيوخ

كابن المقير عن ابن ناصر عن ابن مندة اللبيب القاصر

عن جوزقىّ قد روى عن مكى عن مسلم نافى دياجى الشّكّ

فليخبروا عنى بذا الباقى من ستة جائزة السباق

كذا موطأ الإمام مالك إمامنا منير كل حالك

و مسند الفذ الرضا ابن حنبل و الدارمىّ ذى الثناء الأجمل

و الطبرانىّ و ما أرويه من المعاجيم بما تحويه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۴

و كلها تشمله الإجازة بشرطها عند الذى أجازه

فلتقبلوه فهى من جهد المقلّ إذ لست بالمطلوب منى أستقل

و من أسانيدى عن القصّار مفتى الأنام بهجة الأعصار

عن شيخه خروف الراقى الدرج عن الشريف الطحطحائى فرج

قال: سمعت المصطفى فى النوم صلى عليه اللّه كل يوم

يقول: من أصبح، يعنى آمنا فى سربه، الحديث فاعرف كامنا

و لنمسك العنان فى هذا الأرب مصليا على الذى زان العرب

و آله و صحبه الأعلام و من تلا من أنجم الإسلام

و خط هذا المقرئ العاصى أجير يوم الأخذ بالنواصى

سنة سبع و ثلاثين تلت ألفا لهجرة بياسين علت

عليه أزكى صلوات تستتم نرجو بها الزلفى و حسن المختتم

و نص الاستدعاء المشار إليه و هو: [بحر السريع]

فازت دمشق الشام بالمقرى الألمعىّ اللوذعى العبقرى

علامة العصر بلا مفترى و واحد الدهر بلا ممترى

كم سمعت أخبار أوصافه فقصر المخبر عن منظر

جامع علم بثّ إملاءه بالشام ملء الجامع الأكبر

يقرى فتقرى السمع أنفاسه أنفس ما يقرى و ما قد قرى

مولاى يا من درّ ألفاظه صحاحها تزرى على الجوهر

إجازة نرفل من فضلها فى ثوب عز وردا مفخر

مسبلة الذيل على أكبر و أوسط الإخوة و الأصغر

أطل لنا إنشاءها بل أطب و انظم لنا من درها و انثر

لا زلت فى نفع الورى دائبا تجود جود العارض الممطر

العبد الداعى إبراهيم العمادى، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۵

و من الإجازات التى قلتها بدمشق الشام ما كتبته للأديب الحسيب سيدى يحيى المحاسنى حفظه اللّه تعالى: [بحر الرجز]

أحمد من زين بالمحاسن دمشق ذات الماء غير الآسن

و أطلع النجوم من أعيان بأفقها السامى مدى الأحيان

فكل أيامهم مواسم من الصفا ثغورها بواسم

و ذكرهم قد شاع بين الأحيا إذ قطرهم به الكمال يحيا

و بشرهم حديثه لا ينكر و مسند الجامع عنهم يذكر

و قد حكت جوارح الذى ارتحل إليهم صحيح ما له انتخل

فسمعه عن جابر، و العين عن قرّة تروى، و اللسان عن حسن

فحل من أتاحهم آلاءه حتى أبان نورهم لألاءه

نحمده سبحانه أن اسدى من الأمان ما أنال القصدا

و ننتحى صوب صلاة باهره إلى الرسول ذى السجايا الطاهره

أجلّ من خاف الإله و اتقى محمد الهادى الرسول المنتقى

صلى عليه اللّه طول الأبد مع آله و صحبه و المقتدى

و بعد، فالعلم أساس الخير و كيف لا و هو مزيح الضير

و هو موصل إلى منهاج هدى و رشد ما له من هاجى

و ما بغير العلم يبدو العلم و ليس من يدرى كمن لا يعلم

خصوصا الحديث عن خير البشر فإن فضله على الكل انتشر

و لم يزل يعنى به كلّ زمن من الرواة كلّ صدر مؤتمن

و إننى عند دخول الشام لقيت من بها من الأعلام

و شاهدت عيناى من إنصافهم ما حقق المحكى عن أوصافهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۶

و إن من جملتهم أوج الذكا و النير المزرى سناه بذكا

ابن المحاسن الذى قد طابقا منه مسمى الاسم إذ تسابقا

اللوذعىّ الألمعىّ يحيى لا زال رسم المجد منه يحيا

و هو الذى أغراه حسن الظن على انتمائه لأخذ عنى

و كان قارىء الحديث النبوى لدىّ فى الجامع، أعنى الأموى

بمحضر الجمع الغزير الوافر ممن وجوه فضلهم سوافر

و بعد ذاك استمطر الإجازة من نوء وعدى و اقتضى إنجازه

فلم أجد بدّا من الإجابة مع أننى لست بذى النجابة

و إن أكن أجبت أمرا يمتثل منه ففى ذلك تصديق المثل

فيمن درى شيئا و غابت أشيا عنه و من أهدى لصنعا وشيا

فليرو عنّى كل ما يصح لى بشرطه الذى يزين كالحلى

و قد أخذت جامع البخارى عن عمى الإمام ذى الفخار

سعيد الذى نأى عن دنس عن شيخه الحبر الشهير التّنسى

أعنى أبا عبد الإله و هو عن والده محمد راوى السنن

عن ابن مرزوق محمد الرضا عن جده الخطيب عن بدر أضا

الفارقىّ عن إمام يدعى بابن عساكر الجميل المسعى

بما له من الروايات التى على علوّ قدره قد دلّت

و ليرو عنّى ما انتمى للنووى بذا إلى السابق ذى النهج السوى

أعنى ابن مرزوق الخطيب الراوى عن شيخه يحيى الرضى المغراوى

و هو روى عن صاحب التمكين النووىّ الشيخ محيى الدين

و خط هذا أحمد البادى الوجل المقرى المالكى على خجل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۷

فى عام ألف و ثلاثين خلت من هجرة الهادى و سبعة تلت

ألبسه اللّه البرود الضافيه من منّه و عفوه و العافيه

بجاه سيد البرايا طرّا ملجأ من إلى الكروب اضطرا

عليه أسنى صلوات تسدى حسن الختام ببلوغ القصد

و سأل منى بعض ساكنى دمشق المحروسة أن أقرظ له على شرحه لرسالة العارف بالله تعالى سيدى الشيخ أرسلان، فكتبت ما صورته: [بحر الرجز]

أحمد من خصص بالأسرار قدما من الصوفية الأبرار

أتاحهم عوارف المعارف و الحكم السابغة المطارف

فهم بهم تستمطر الأنواء و تظهر الأنوار و الأضواء

و من أجلّهم سناء و سنى من ذاد عن عين المعالى الوسنا

شيخ الشيوخ العارف الكبير الشيخ أرسلان الشهير

فكم إشارات له أبانا بها علوما من حلاها ازدانا

و كم عبارات تلا آياتها تعيا الفحول عن مدى غاياتها

و من رأى رسالة التوحيد له انتحى مناهج التسديد

فهى تنادى من أبى أن يسلكا يا معرضا شرك خفىّ كلّكا

و من أضل القصد فى مهامه هدته للخروج عن أوهامه

و كم بها من باب معنى مغلق عمن يقيد الوجود المطلق

فما بغير الفتح يدرى الباطن و وارد الفيض له مواطن

و قد رأيت فى دمشق الشام شرحا لها أنبأ عن إلهام

للكلشنىّ ذى الوفا بالوعد شمس العلا محمد بن سعد

لا زال فى أوج التجلى صاعدا و عون ربنا له مساعدا

و مذ أجلت ناظرى فى حسنه ألفيته مستبدعا فى فنه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۸

و دلّ ما أبداه من معانى على شهور بالهدى معانى

لأنه أجاد فى تقرير ما اعتاص بالإتقان و التحرير

و أبرز الأبكار من خدور أفكاره حالية الصدور

فاللّه يجزيه الجزاء الأوفى فى يوم تبدى الأنبياء الخوفا

و خطّ هذا المقرىّ من وجل مرتجيا من ربه عز و جل

كشف كروب عقد صبر حلت منه و غفران ذنوب جلت

بجاه طه الهاشمى أحمدا عليه أزكى صلوات سرمدا

عاطرة النشر بلا اكتتام تأرجت بالمسك فى الختام

و خاطبنى السرى الحسيب الماجد فخر المدرسين الأعيان مولانا الشمس محمد بن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقى حفظه اللّه تعالى بقوله: [بحر الكامل]

شمس المحاسن شرّقى أو غرّبى سعدت منازلنا بشمس المغرب

شمس لنا منها شموس فضائل و سنا هدى قد راح غير محجّب

المقرىّ العالم النّدب الذى لسوى اسمه درج الحجا لم يكتب

بدر و لم تبد البدور بمشرق إلا بدت من قبل ذاك بمغرب

لسوى اكتساب سناه لم تغرب ذكا فلو انها شعرت به لم تغرب

علّامة ملأ البلاد بفضله و أفاده لمشرّق و مغرّب

عمرى هو البحر المحيط فضائلا إن قيس بالعذب الذى لم يعذب

مولى له سند قوىّ فى العلا فعن الجدود روى العلا و عن الأب

نسب له المجد المؤثّل فى الورى و المجد لم يكسب إذا لم يوهب

هو فى جبين الفضل أضحى غرة يجلى بها للجهل ظلمة غيهب

آمالنا قطعت ببشر جبينه أن لا ترى للدهر وجه مقطب

بدر به زهيت دمشق و أهلها أحب ببدر حيث حل محبّب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۵۹

طود الفضائل باكرت أرجاءه ديم الحجا فغدا كروض مخصب

بحر الهدى و العلم إلا أنه صفو من الأكدار عذب المشرب

هو قطب دائرة الفضائل فى الورى فيكاد يخبرنا بكل مغيب

فى الفضل ما جاولت يوما مثله كلّا و لا قست البدور بكوكب

أنى يجارى فى الفضائل من له انق اد الزمان بأدهم و بأشهب

سنن لمدح الغير تسقط عندنا فله العلا تقضى بفرض أوجب

ما روضة حلّى أزاهرها الحيا فافتر فيها كل ثغر أشنب

و مشت بها خود الصبا فتعطرت أذيالها من كل عرف طيب

للنور فيها جدول أخذت به شهب المجرة حيرة المتعجب

باتت تناشدنى بها ذكر الهوى ورق الأراك بكل صوت مطرب

تشكو إلىّ بمثل ما أشكو لها شكوى المعذّب فى الهوى لمعذب

فعلمت ما قد حل من وجد بها و جهلن، و هو الفرق، ما قد حلّ بى

لم تلق فيها من عليل يشتكى إلا النسيم و ذا الهوى إن تطلب

بأغض حسنا من ربا آداب من حيّا رياض حجاه ألطف صيب

طبع أرق من النسيم و منطق مستعذب، و كذاك كل مهذب

لو جاد صوب حجاه قفرا مجدبا لنعمت منه بكل روض معشب

مولاى عذرا فالزمان يعوقنى عن مطلبى و الآن مدحك مطلبى

عفوا إذا أخّرت مدحك سيدى فعوائق الأيام عذر المذنب

و كذاك يفعل بالأديب زمانه فلذا يطول على الزمان تعتّبى

لم ألق يوما من يديه مهربا إلا ثناك، و حبذا من مهرب

لولاك ما جال القريض بخاطرى فالدهر يوجب للقريض تجنّبى

لولاك لم ينهض جواد قريحتى فى كل واد للضلالة متعب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۰

فاسمع، و لست بآمر، نظما غدا فى عقد مدحك لؤلؤا لم يثقب

كالراح يلعب بالعقول للطفه لكن بغير مسامع لم يشرب

من كل قافية غدت من حسنها مثلا لغيرك فى العلا لم يضرب

خود تقلّد من ثناك قلائدا بكر لغيرك فى الورى لم تخطب

غنيت بمدحك زينة و لربما يغنى الجمال عن الوشاح المذهب

هى بعض أوصاف لذاتك قد غدت كالبحر عذبا ماؤه لم ينضب

جاءتك تسألك القبول و حسبها فخرا قبولك و هو جلّ المطلب

و تروم منك إجازة فاقت بما ترويه بالسند القوى عن النبى

حسبى الإجازة منك جائزة و لم أك قبل غير الفضل بالمتطلب

لا بدع و الإيجاز إطنابا غدا فى مدحه إن لم أطل أو أسهب

هيهات لا تحصى مآثر فضله بالمدح إن أطنب و إن لم أطنب

خدمة الداعى محمد بن يوسف الكريمى، انتهى.

فأجزته بما [صورته و] نصه: [بحر الرجز]

أحمد من أطلع شمس الدين فى أفق الرواية المبين

و خص فضلا منه بالإسناد أمّة طه مذهب العناد

فلم يكن عصر من الأعصار إلا و فيه أهل الاستبصار

ينفون عن حوزة دين اللّه ما يروم من عليه رشد أبهما

و أنتحى سبل صلاة كامله على الذى له العطايا الشامله

محمد المرسل بالشرع الحسن ذو المعجز المفحم أرباب اللسن

مع حزبه من صحبه و عترته و من تلا مؤمّلا لأثرته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۱

و بعد فالعلم أجل ما اعتمد موفق من فيض مولاه استمد

خصوصا الحديث عن خير الورى صلى عليه اللّه ما زند ورى

و لم يزل ذوو النهى يسعون فى تحصيله إذ فضله غير خفى

و إن مولانا الشهير السامى الماجد المولى نبيه الشام

سالك نهج السنة القويم محمد بن يوسف الكريمى

لا زال فى عز و فى أمان مبلّغا من قصده الأمانى

وجّه لى لما حللت الشاما و برق حسن الظن منى شاما

قصيدة بليغة مستعذبه غريبة فى فنها مهذبه

يسأل من مثلى بها الإجازة بشرطها عند الذى أجازه

مستمسكا بعروة الصواب و لم أجد بدّا من الجواب

فليرو عنى ما سمعت كله و ما جمعت فى الفنون جمله

على شروط قررت فى الفن مرتجيا حصول كل منّ

و صنوه الأكمل قد أبحته ذاك على الوجه الذى شرحته

و إن أكن فيما ابتغى مقصرا فذو الرضا ليس لعيب مبصرا

ولى أسانيد أبى وقتى عن تفصيلها لما من الرحلة عنّ

و العذر باد و الكريم يقبل و الصفح نهج يقتفيه الأنبل

و خطّ هذا المقرىّ الجانى أمنه اللّه من الأشجان

فى عام ألف و ثلاثين قفا سبعا لهجرة النبى المصطفى

عليه أزكى صلوات تغتنم يزكو بها مفتتح و مختتم

و كتب إلىّ الفاضل الخطيب، الفهامة الأديب، وارث الفضل عن الأعلام ذوى اللّسن، سيدى الشمس محمد المحاسنى سبط شيخ الإسلام مولانا البورينى حسن، حفظه اللّه تعالى [بقوله]: [بحر المجتث]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۲

يا سيدى و ملاذى و عالم الثقلين

و من غدا بمكان علا على النّيّرين

أجزت بالدرس قوما فاقوا به الفرقدين

فزيّن العبد أيضا من مثل ذاك بزين

و إن لم يكن فى ختام فذاك قرّة عينى

فأجزته بما نصه: [بحر الرجز]

أحمد من أطلع من محاسن دمشق ما أربى على المحاسن

وزانها بالجلّة الأعيان الرافلين فى حلى التبيان

الراغبين فى الحديث النبوى السالكين فى الهدى النهج السوى

و بعد فالعلم أجل زينه و سبله فى الرشد مستبينه

و إن علم السنة الشريفه ظلاله ضافية و ريفه

لذاك كان باعتناء أجدرا من كل ما يمليه من تصدرا

و إن ذا الفضل الأديب البارع سابق ميدان الذكا المسارع

الماجد المسدّد السامى الحسب محمد من للمحاسن انتسب

ابن الشهير الصدر تاج الدين لا زال فى عز و فى تمكين

وجده لأمه الشيخ الحسن و ذاك بوريتيهم معطى اللسن

يسألنى إجازة بكل ما أرويه عنوانا بحالى معلما

وها أنا أجبته غير بطل مستغفرا من خطإ و من خطل

فليرو عنى كل ما يصح على شروط غيثها يسح

و هى عن الشروط لن تريما و ليس يخفى علمه الكريما

و كل ما ألفت أو جمعت نظما و نثرا مثل ما أسمعت

ولى أسانيد يضيق الوقت عن سردها و بعضها قد سقت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۳

فی غیر هذا فلیحقّق ذلک مقتفیا لأوضح المسالک

و قد أخذت جامع البخاری و مسلم عن حائز الفخار

عمی سعید و هو عمن یدعی بالتّنسیّ قد أفاد الجمعا

عن حافظ الغرب الرضا أبیه عن ابن مرزوق عن النبیه

الحافظ المبجّل العراقی و قد سما فی سلم المراقی

و ما له من الروایات علم من کتبه التی حوت خیر الکلم

و خطّ هذا المقریّ عن عجل مؤملا من ربه عزّ و جلّ

غفران ما جنی من الذنوب و الصفح عن معرّة العیوب

بجاه خیر العالمین أحمدا صلی علیه اللّه دأبا سرمدا

و آله و صحبه الأخیار و من تلا لآخر الأعصار

و لما سألنی فی الإجازة الفاضل الأدیب سیدی محمد بن علی بن مولانا عالم الشام الشهیر الذکر شیخ الإسلام سیدی و مولای الشیخ عمر القاری - حفظه اللّه تعالی!- و أنا مستوفز للسفر؛ کتبت له عن عجل ما صورته: [بحر الرجز]

أحمد من زین بالآثار جیدا من الراوی النبیه القاری

و شاد للعلیاء فی أوج السند منازلا لم یبلها طول الأمد

و میز الواعین للحدیث بالفضل فی القدیم و الحدیث

و زان منهم سماء الدین فأشرقت بالحفظ و التبیین

فهم بها للمهتدی نجوم و إنها للمعتدی رجوم

فکم أزاحوا عن حدیث المجتبی صلی علیه اللّه ما هبت صبا

تحریف ذی غل مضل غالی شان لمنهاج الرشاد قالی

و بعد فالإسناد للروایه وسیلة تزحزح الغوایه

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۳، ص: ۶۴

و اللّه قد خصص هذی الأمه به امتنانا و أزاح الغمّه

هذا و لو لا ذاک قال من شا ما شاءه فهو بحق منشا

فلم یزل أهل النهی کل زمن یسعون فی تحصیله عن مؤتمن

و إن من جملة من تحری لجملة من العلوم غرّا

الفاضل المسدد النجیب الواصل الممجد الأریب

محمد سلیل ذی المجد علی ابن الإمام العالم الحبر الولی

عمر الشیخ الشهیر القاری طود السکون هضبة الوقار

شیخ الشیوخ فی دمشق الشام لا زال محفوفا بعز سامی

فکان من جملة من عنّی روی بعض الصحیح ظافرا بما نوی

و بعد ذاک اقترح الإجازة منی و وعدها اقتضی إنجازه

فانعجمت نفسی عن الإجابة إذ لست فی ذا الأمر ذا نجابه

مع أننى مقصر ذو عىّ فى مثل هذا المطلب المرعى

و خفت أن آتيها شنعاء بحملى الوشى إلى صنعاء

و بعد ذا أجبت قصد الأجر مرتجيا بذاك ربح التّجر

و قد أجبته و إنى أعلم أنى من خوف الخطا لا أسلم

فليروها ببالغ التمنى جميع ما يصح لى و عنى

من ذلك الجامع للبخارى عن عمى الشهير ذى الفخار

سعيد الآخذ عن سفين عن قلقشندىّ مزيح المين

عن حافظ الإسلام أعنى ابن حجر بما له من الروايات اشتهر

و بعضها فى صدر فتح البارى مبيّن لطالب الأخبار

ولى أسانيد يطول شرحها و الروضة الغناء يكفى نفحها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۵

و من رواياتى عن القصّار مفتى البرايا بهجة الأعصار

حدثنا خروف الذاكى الأرج عن الشريف الطحطحائى فرج

سمعت فى المنام طه يملى حديث من أصبح وفق النقل

أى آمنا فى سربه معافى فى جسمه مع قوت يوم وافى

و كل ما ألّفت فى الفنون أرجو به التحقيق للظنون

فليروه عنى بشرط معتبر و ربما يصدّق الخبر الخبر

ولى تآليف على العشرينا زادت ثمانيا حوت تعنينا

فليروها إن شا بلا استثناء و اللّه أرجو نيل قصد نائى

بجاه من شرف بالإدناء صلى عليه اللّه فى الآناء

أحمد خير المرسلين الهادى غوث البرايا ملجأ الأشهاد

عليه أسنى صلوات زاكيه مع صحبه ذوى المزايا الزاكيه

و من تلا ممن أطاب عمله فنال من رجائه ما أمّله

و شم من عرف قبول أرجا فنال من حسن الختام ما رجا

و خاطبنى من أهلها أيضا خادم الشيخ الأكبر ابن عربى محيى الدين، و هو الشيخ الأكرمى سيدى إبراهيم، سلك اللّه بى و به سبل المهتدين! بقوله: [بحر مجزوء الكامل]

فكرت فى فضل الإما م المقرئ الحبر حينا

فوجدته بكر الزما ن و واحد الدنيا يقينا

ما إن رأيت و لا سمع ت بمثله فى العالمينا

وافى دمشقا زائرا ألو انه أضحى قطينا

و أتى عجيب الاتفا ق بفطر شهر الصائمينا

فكأن غرّته الهلا ل و نحن كنا ناذرينا

و العلم قال مؤرخا أدى بها فضلا مبينا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۶

و خاطبنى أيضا منهم الفقيه النبيه سيدى مصطفى بن محب الدين حفظه اللّه تعالى بقوله: [بحر الطويل]

فضائل قطب الغرب فى العلم و الفضل هو المقرىّ الأصل حائزة الخصل

حوى كل علم كلّ عن بعضه السّوى فلا غرو أن أضحى فريدا بلا مثل

و حاز فنونا من ضروب معارف و من فضل تحقيق و من منطق فصل

توخّى دمشق الشام فافترّ ثغرها سرورا به و ازيّنت من حلى الفضل

و شرف مصرا قبلها فاكتست به ملابس فخر زانها كرم الأصل

لقد أشرقت من أفق غرب شموسه و ناهيك أفقا نوره قدره يعلى

نفاسته فيها تنافست الورى بما قد غدا من در ألفاظه يملى

ملىء من التحقيق إن عنّ مشكل تكفل بالتبيان و الشرح و الحل

إذا ما أدار الدر من كأس لفظه سقانا عقار الفضل علا على نهل

نظام له يحكى قلائد عسجد و ثغر مليح فائق الحسن و الدل

و أسجاعه إن حاك و شى نسيجها حكت حبرا حيكت نمارق من غزل

له القلم الأعلى بشرق و مغرب له الموضع الأسمى على الكل فى الكل

فيا سيدا حاز المفاخر و العلا و فاقت حلى الآداب منه على الحلى

إليك من العبد الحقير تحيۀ لقد نشأت عن خالص الود من خل

موال يوالى الحب و القرب منكم بظاهر غيب لا يحيد عن الوصل

فلا زلت محبوّا بسابغ نعمۀ و فضل نعيم وافر وارف الظل

و دمت لدى الأسفار فى نجح أوبۀ و جمع لشمل بالمواطن و الأهل

و خاطبنى أيضا الشيخ سيدى محمد بن سعد الكلشنى بقوله: [بحر الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۷

شهر شعبان جاءنا ليهنى بقدوم الأستاذ كنز الفضائل

بهجۀ الكون روض علم و حلم و هو مغنى اللبيب إن جاء سائل

بمصابيح فضله قد أضاءت ساحۀ الجامع الكبير لآمل

و بمختار لفظه صار يحوى لحديث مسلسل عن أفاضل

و من الغرب حين وافى لشرق فاق بدر التمام وسط المنازل

حل منى فى القلب و الطرف لما لاح سعد السعود لى غير آفل

و غدا بالأمان و السعد أرخ أحمد المقرى فى الشام قائل

و قال أيضا شكرا للّه تعالى نيته، و بلغه أمنيته: [بحر الطويل]

أتاك دمشق الشام أكرم وارد فقرى به عينا و للحسن شاهدى

و هزّى دلالا فى أزاهر روضه معاطف لين كالغصون الأمالد

لك البشر يا عينى ظفرت بأمجد رفيع الذرى من فوق فرق الفراقد

لقد شاع بين الناس واسع فضله فكم قاصد يسعى لنيل الفوائد

من العلم الفرد المفيد الذى له أياد سمت بالجود تولى لقاصد

و ذاك أبو العباس أحمد من صفت مناهله دوما إلى كل وارد

تراه إذا وافيته متهللا و يبسم حبّا فى وجوه الأماجد

إمام سما قدرا على النجم رفعة أرى وصفه فى بيت نظم مشاهد

لديه ارتفاع المشترى و سعوده و سطوة بهرام و ظرف عطارد

شهدت بأن اللّه أولاه منحة بنقل حديث فى جميع المساجد

و مذ حلّ فى وادى دمشق ركابه و سؤدده وافى بأعدل شاهد

حوى كل إفضال و كل فضيلة بها يهتدى حقا لنيل المقاصد

و ما ذا عسى فى مدحه أنا قائل و لو جئت فيه مطنبا بالقصائد

إذا رمت أن تلقى نظيرا لمثله عجزت و رب الناس عن عد واحد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۸

فكم من معان حازها ببيانه و فكرته قد قيّدت للشوارد

و منطقه حاوى الشفا بجواهر صحاح بها يزدان عقد القلائد

من الغرب وافى نحو شرق فأشرقت شموس علوم أسفرت عن محامد

فناديته يا سيدى من بفضله تواترت الأخبار عن غير واحد

عسى عطفة منكم على بنظرة فأنت لموصول الجدا خير عائد

و أنت على ريب الزمان مساعدى و أنت يمينى للحسود و ساعدى

فلا زلت تولى كل من هو آمل لبغيته من صادر ثم وارد

و تبقى مدى الأيام فى المجد رافلا بثوب الهنا تكفى شرور الحواسد

و هاك عروسا تجتلى فى حليّها إليك أتت فى زى عذراء ناهد

تهنى بعيد الفطر من بعد صومكم بخير جزيل من لذيذ الموائد

و ترجو جميل الستر إن هى مثلت بحضرتك العلياء يا خير ماجد

و عش فى أمان اللّه بالعز دائما مدى الدهر ما سحّ الحيا فى الفدافد

و ما دارت الأفلاك من نحو قطبها و ما بزغت شمس الضحى للمشاهد

و قال أيضا زاده اللّه تعالى من فضله: [بحر مخلع البسيط]

ظبى بوسط الفؤاد قائل أعجز بالوصف كل قائل

ظبى بأجفانه سبانى و سحرها ينتمى لبابل

يرمى بسهم اللحاظ لما يرنو فيصمى الفؤاد عاجل

قد فتن العقل مذ تجنّى علىّ حتى غدوت ذاهل

له قوام كخوط بان أو كالقنا السّمهرى عادل

بدر بدا كامل المعانى فى القلب و الطرف عاد نازل

قد أسر القلب فى هواه بقيد حسن و فرع سابل

و ما بقى منه لى خلاص سوى مديحى رضا الأفاضل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۶۹

أعنى به المقرىّ من قد سما على البدر فى المنازل

أحمد مولى له أياد كالغيث يغنى لكل سائل

علامة حاز كل فضل سبقا و من بالعلوم عامل

من قد نشا فى العلوم طرّا و حاز علم البيان الكامل

طويل باع بسيط فضل مديد جود لكل آمل

و وافر العقل راح يهدى سريع فضل لكل فاضل

و جامع العلم فى ابتهاج بمنطق فى الأصول حافل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۶۹

و هكذا فى الكلام مهما أفاده فى الدروس شامل

يروى صحيح الحديث دأبا بالسند الواصل الدلائل

و كم علوم أفاد من قد أتاه فى مشكل المسائل

و حل إبهام كل شكل من فن وفق إلى الوسائل

و غاص فى لجة المعانى و استخرج الدر فى المحافل

و فى فنون البديع أضحى جناسه قد حوى رسائل

و كم دليل أقام لما برهانه أبهت المعازل

إن كان وافى لنا أخيرا فهو الذى فاخر الأوائل

بحر محيط يفيض منه على رياض بكل ساحل

وافى من المغرب نحو شرق يجوب من فوق متن بازل

فى مهمه صحصح مهول و حزنه كم به غوائل

و حثّ فيه المسير حتى خلفه من وراء كاهل

و جاء باليمن فى أمان و صحة الجسم و الشمائل

و حل فى الشام عند قوم من أكرم الناس فى القبائل

ذاك ابن شاهين ذو المعالى رب الندى للألوف باذل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۰

كأنه الشمس جاء يهدى للبدر نورا و ليس آفل

بل كان غيثا لهم و كانوا روضا أريضا لشكر وابل

فبجّلوه و عظموه و ادّخروا عاجلا لآجل

جزاهم اللّه كل خير و صانهم من جدال جاهل

و أحمد دام فى أمان المقرىّ الرضا المعامل

لربه فى دجى الليالى و يرشد الناس فى الأصائل

لا زال فى نعمة و خير و فى أمان يعود عاجل

و خاطبنى الأديب الفاضل، الشيخ أبو بكر العمرى شيخ الأدباء بدمشق، حفظه اللّه تعالى بقوله: [بحر الرجز]

تاهت تلمسان على مدن الدنى بعالم فى العالمين يحمد

المقرى أحمد رب الحجا الكامل البحر الخضم المزبد

مالك هذا العصر شافعيه أحمده نعمانه المسدد

مذ حل مصر أذعنت أعلامها لفضله و بجّلوا و مجدوا

و فى دمشق الشام دام سعدها كان له بها المقام الأسعد

العلماء أجمعوا جميعهم على معاليه التى لا تجحد

أقام شهرا أو يزيد و انثنى و فى الحشا منه المقيم المقعد

سالت على فراقه دموعنا و فى القلوب زفرة لا تخمد

لو قيل من يحمد فى تاريخه ما قلت إلا المقرىّ أحمد

لا برحت أوقاته مفيدة ما صاح فوق عوده مغرّد

قلت: و ذكرى لكلام أعيان دمشق- حفظهم اللّه تعالى!- و مديحهم لى، ليس علم اللّه لاعتقادى فى نفسى فضلا، بل أتيت به دلالة على فضلهم الباهر، حيث عاملوا مثلى من القاصرين بهذه المعاملة، و كسوه حلل تلك المجاملة، مع كونى لست فى الحقيقة له بأهل، لما أنا عليه من الخطأ و الخطل و الجهل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۱

و لقد خاطبت من مصر مفتى الشام صدر الأكابر، وارث المجد كابرا عن كابر، ساحب أذيال الكمال، صاحب الخلال المبلغة الآمال، مولانا شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن العمادى الحنفى، بكتاب لم يحضرنى منه الآن غير بيتين فى أوله، و هما: [بحر السريع]

يا حادى الأظعان نحو الشّآم بلغ تحياتى لتلك الفئام

و ابدأ بمفتيها العمادىّ الرّضا دام به شمل الهنا فى التئام

فأجابنى بما نصه: [السريع]

إلى أهالى مصر أهدى السلام مبتدئا بالمقرىّ الهمام

من ضاع نشر العلم من عرفه و لم يضع منه الوفا للذّمام

أهدى تحف التحية، إلى حضرته العلية، و ذاته ذات الفضائل السنية الأحمدية، التى من صحبها لم يزل موصولا بطرائف الصّلات و العوائد، الأوحدية الجامعة التى لها منها عليها شواهد: [بحر السريع]

و ليس للّه بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فيا من جذب قلوب أهل عصره إلى مصره، و أعجز عن وصف فضله كلّ بليغ و لو وصل إلى النثرة بنثره، أو إلى الشّعرى بشعره، و من زرع حبّ حبّه فى القلوب فاستوى على سوقه، و كاد كل قلب يذوب بعد بعده من حر شوقه، و ظهرت شمس فضله من الجانب الغربى فبهرت بالشروق، و أصبح كل صب و هو إلى بهجتها مشوق، زار الشام ثم ما سلّم حتى ودّع، بعد أن فرع بروضها أفنان الفنون فأبدع، و أسهم لكل من أهلها نصيبا من وداده، فكان أوفرهم سهما هذا المحب الذى رفع بصحبته سمك عماده، و علق بمحبته شغاف فؤاده، فإنه دنا من قلبه فتدلّى، و فاز من حبه بالسهم المعلّى، أدام اللّه تعالى لك البقاء، و أحسن لنا بك الملتقى، و منّ علينا منك بنعمة قرب اللقاء، آمين بمنه و يمنه، هذا، و قد وصل من ذلك الجناب الوفى، كتاب كريم هو اللطف الخفى، بل هو من عزيز مصر القميص اليوسفى، جاء به البشير ذو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۲

الفضل السنى، الخل الأعز الأجل التاج المحاسنى، مشتملا على عقود الجواهر، بل النجوم الزواهر، بل الآيات البواهر، تكاد تقطر

البلاغة من حواشيه، و يشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لموشّيه، فليت شعرى بأى لسان، أثنى على فصوله الحسان، العالية الشان، الغالية الأثمان، التى هى أنفس من قلائد العقيان، و أبدع من مقامات بديع الزمان، فطفقت أرتع من معانيها فى أمتع رياض، و أقطع بأنّ فى منشئها اعتياضا لهذا العصر عن عياض: [بحر البسيط]

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح فلا أرضى لها كلمى

و لا سيما فصل التعزية و التسلية، المشتمل على عقد التخلية بل عقود التحلية، لتلميذكم الولد إبراهيم، فإنه كان له كرقية السليم، بعد أن كاد يهيم، فجاء و للّه دره فى أحسن المحال، و وقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركته من عقال: [بحر الرمل]

و إذا الشيء أتى فى وقته زاد فى العين جمالا لجمال

فجزاكم اللّه تعالى عنا أحسن الجزاء، ثم أحسن لكم جميل العزاء، فيمن ذكرتم من كريمتى الأصل و الفرع، و أبقى منكم ماكنا فى الأرض من به للناس أعم النفع، و أما من كان وليى و سميى و منجدى، الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدى، فإنها و إن أصابت منا و منكم الأخوين، فقد عمّت الحرمين، بل طمت الثقلين، و لقد عدّ مصابه فى الإسلام ثلمة، و فقد به فى حرم اللّه تعالى من كان يدعى للملمة، و لم يبق بعده إلا- من يدعى إذا يحاس الحيس، و استحق أن ينشد فى حقه و إن لم يقس به قيس: [بحر الطويل]

و ما كان قيس هلكه هلك واحد و لكنه بنيان قوم تهدما

فاللّه تعالى يرفع درجاته فى علّيين، و يبقى وجودكم للإسلام و المسلمين، و تلامذتكم الأولاد، يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الأمداد، و يهدون أكمل التحية، إلى حضرتكم العلية، و نبلغكم دعاء صاحب السعادة، أدام اللّه تعالى إسعادكم و إسعاده، و نحن من صحبته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۳

الشهية، فى رياض فنون أدبية، أبهاها لمعات محاضرة فى ذكر شمائلكم الجميلة، تنور المجالس، و أشهاها نسمات محاورة بنشر فضائلكم الجليلة، تعطر المجالس، و سلام جملة الأصحاب من أهل الشام، و عامة الخواص و العام، و الدعاء على الدوام- المخلص الداعى عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية، بدمشق المحمية.

و وردت علىّ مع المكتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم اللّه تعالى؛ فمنها من الصديق الحميم، الرافل فى حلل المجد الصميم، الخطيب، الأديب، سيدى الشيخ المحاسنى يحيى، أسمى اللّه تعالى قدره فى الدين و الدنيا، كتابان نص أولهما: باسمه سبحانه:

[بحر الطويل]

لئن حكمت أيدى النّوى أو تعرّضت عوارض بين بيننا و تفرّق

فطرفى إلى رؤياكم متشوّف و قلبى إلى لقياكم متشوّق

يقبل الأرض الشريفة لا زالت مركزا لدائرة التهانى، و قطبا لفلك تجرى المجرة فى حجرته على الدقائق و الثوانى، و لا برحت ألسن البلاغة عن تمييز براعة يراعة حامى حماها معربة، و بلابل الآداب على الأغصان فى رياض فضله بمثانى الثناء صادحة و بألحان سجعها مطربة: [بحر الكامل]

أرض بها فلك المعالى دائر و الشمس تشرق و البدور تحوم

و لها من الزهر المنضّد أنجم و لها على أفق السماء نجوم

عمر اللّه تعالى بالمسرات محلها، و عم بالخيرات من حلّها، و يبتدئ بسلام يخبر عن صحيح وده السالم، و مزيد غرام يؤكد حبه الذى هو للولاء حازم، و ينعت شوقا يحرك ما سكن صميم الضمير، من صدق حب سلم جمعه من التكسير، و يؤكد السلام بتوابع المدح و

الثناء، و يعرب عن محبة مشيدة البناء، و ينهى أن السبب فى تسطيرها، و الباعث على تحريرها، أشواق أضرم نارها فى الفؤاد، و محبة لو تجسمت لملأت البلاد، و أقول: [بحر البسيط]

شوقى لذاتك شوق لا أزال أرى أجدّه يا إمام العصر أقدمه

ولى فم كاد ذكر الشوق يحرقه لو كان من قال نار أحرقت فمه

هذا و إن تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باق على ما تشهد به الذات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۴

[اللطيفة] العلية، من صدق المحبة و رقّ العبودية، و لم يزل يزين أفق المجالس بذكركم، و لا يقتطف عند المحاضرة إلا من زهركم، و لم ينس حلاوة العيش فى تلك الأوقات التى مضت فى خدمتكم المحروسة بعناية [الملك] المتعال، و ليالى الأنس التى قيل فيها، و كانت بالعراق لنا ليال: [بحر البسيط]

واها لما من ليال هل تعود كما كانت، و أىّ ليال عاد ماضيها؟

لم أنسها مذ نأت عنى ببهجتها و أى أنس من الأيام ينسيها؟

فنسأل اللّه تعالى أن يمنّ بالتلاق، و يفصل مانعة الجمع بطىّ شقة الفراق، إن ذلك على اللّه يسير، و هو على جمعهم إذا يشاء قدير، و بعد، فالمعروض على مسامع سيدى الكريمة، لا زالت من كل سوء سليمة، أنه وصلنا مكتوبكم الكريم، صحبة العم المحب القديم، فحصل لهذا العبد به جبر عظيم، و أنس جسيم، كما شهد بذلك السميع العليم، فعزمت على ترك الإجابة، لعدم الإجادة، و متى تبلغ الألفاظ المذمومة ما بلغته الألفاظ المقريّة؟

و أين يصل صاحب الزّمر كما قيل إلى الدقات الخليلية؟ و لكننى خشيت من ترك الإجابة توهم نقض ما أبنيه من رق العبودية و صحة الوداد، و من انقطاع برق شيخى الذى هو لبيت شرفى العمدة و العماد، فلزم من ذلك أن كتبت لجنابه الشريف الجواب، و إن كان خطؤه أكثر من الصواب، و أرسلته قبل ذلك بعشرة أيام، و مكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان: أحدهما من محبكم شيخ الإسلام المفتى العمادى، و الآخر من محبكم أحمد أفندى الشاهينى، و هما و بقية أكابر البلدة و أعيانها يبلغونكم السلام التام، و لا تؤاخذونا فى هذا المكتوب فإنى كتبته عجلا، و من جنابكم خجلا، دام خيركم على الدوام، إلى قيام الساعة و ساعة القيام، و حرره يوم الاثنين ۱۱ من جمادى الثانية سنة ۱۰۳۸، الفقير الداعى يحيى المحاسنى، انتهى.

و نص الكتاب الثانى من المذكور أسماه اللّه باسمه سبحانه: مخلصك الذى محض لك وداده، و محبك الذى أسلم لمحبتك قياده، بل عبدك الذى لا يروم الخروج عن رقّك،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۵

و تلميذك الذى لم يزل مغترفا من فيض علومك معترفا بحقك، من أسكنك لبه، و أخلص لك حبه، و أتخذك من بين الأنام ذخرا نافعا، و كهفا مانعا، و مولى رفيعا، و شهابا ساطعا، و تشبّث بأسباب علومك و تمسك، يهدى إليك سلاما كأنما تعطر بمسك ثنائك و تمسك، و اكتسب من لطف طبعك الرقة، و استعار من سنا وجهك حلة مستحقة، و تحية لم يكن مناه إلا أن تكون بالمواجهة، و المحاضرة و المشافهة، على أن فؤاده لم يبرح لك سكنا، و أحشاءه لك موطنا، و يبدى دعوات يحقق الفضل أنها من القضايا المنتجة، و أن أبواب القبول لها غير مرتجة، مقبلا أياديك التى و كفت بوابل جودها، و كفت المهمّ بنتائج سعودها، و حاكت الوشى المرقوم، و سلكت الدّرّ المنظوم، فهذا يرفل فى حللها، و هذا يتحلى بعقودها: [بحر الكامل]

فهى التى تعنو لرقمها و يغار منها الدرّ فى تنضيدها

و يحار أرباب البيان لنظمها فهم بحضرتها كبعض عبيدها

متمسكا من ولائك بوثيق العرا، متمسكا من ثنائك الذى لا يزال الكون منه معنبرا، متشوقا للقائك الذى بالمهج يستام و بالنفوس

يشترى، متشوقا إلى ما يرد من أنبائك التى تسرّ خبرا، و تحمد أثرا، أعنى بذلك المولى الذى أقام بفناء الفسطاط مخيما، و انتجع حماه رائد الفضل ميمما، و شدّت لفضائله الرّحال، و وقفت عندها بل دونها فحول الرجال، و طلعت شموس علومه فى سماء القاهرة، فاختفت نجوم فضلائها و الأشعة باهرة: [بحر الطويل]

هو الشمس علما و الجميع كواكب إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب

فهو العالم الذى سرى ذكره فى الآفاق، مسير الصّبا جاذب ذيلها النسيم الخفاق، الذى أطلع شمس التحقيق من أفق بيانه، و أظهر بدر التدقيق من تبيانه، فلهذا عقدت عليه الخناصر بين علماء عصره، و انقطعت إليه الأواصر من فضلاء مصره، فلا يضاهيه فى ذلك أحد فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۶

زمانه، و ينسق ما نسقه من دره و مرجانه، فهو المعوّل عليه فى مشكلات العلوم، معقولها و منقولها و المنطوق و المفهوم، الذى لم تسمح بمثله الأزمان و العصور، و لم يأت بنظيره تتابع الأعصار و الدهور، من عجز لسان القلم، عن التصريح باسمه الشريف فى هذا الرقم، لا- زالت المدارس مشرقة بإلقائه فيها الدروس، و لا برحت البقع عامرة بوجوده بعد الدّروس، ما سطّرت آيات الأشواق فى الصحائف و الطروس، و أرسلت من تلميذ إلى أستاذ بسبب نسبته إليه فحصل على المطلوب من شرف النفوس، هذا، و الذى يبدى لحضرتكم، و ينهى لطلعتكم، أن الراقم لهذه الصحيفة، المشرفة ببعض أوصافكم اللطيفة، المرسلة لساحة فضائلكم المنيفة، هو تلميذكم من تشرف بدرسكم، و افتخر بإجازتكم، يبدى لكم تلهفه لنيران أشواقه التى التهبت، و تأسفه على الأيام السالفة مذهبة فى خدمتكم لا ذهبت، و توجّعه لهذه الأزمان التى استرجعت بالبعد عنه من ذمّته ما وهبت، و تطلعه إلى ما يشنّف به الأسماع من فضائله التى سلبت العقول و انتهبت، فلم يزل يسأل الرواة عنها، ليلتقط منها، و قد تحقق أن فرائدها لا يلفى لها نظيرا و لا يدرك لها كنها، و كيف لا و منها يتعلم الفاضل اللبيب، و إليها يفتقر السعيد و يتودد حبيب، و عليها يعتمد ابن العميد، و لم تنفك راقية فى درج المزيد، و عبد الحميد عبد الحميد، و علم شيخى محيط بصدق محبتى و إخلاصها، و شدة حرصى على تحصيل فوائد مولانا و اقتناصها، و أننى لا- أزال ذاكرا لمحاسنه التى ليست فى غيره مجموعة، و متطفلا- على ثمار أفكاره التى هى لا- مقطوعة و لا ممنوعة، و خاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك، فلا يحتاج هذا العبد إلى بينة لدى مولانا الأستاذ المالك، و حقيق على من فارق تلك الأخلاق الغرّ، و الشمائل الزّهر، و العشرة المعشوقة، و السجايا الموموقة، و الفضائل الموفورة، و المآثر المشهورة، أن يشق جيب الصبر، و يجعل النار حشو الصدر: [بحر الطويل]

و إنى لتعرونى لذكراك هزّة كما انتفض العصفور بلله القطر

و لو ملكت مرادى، لما اخضرّ إلا فى ذراه مرادى، بل لو دار الفلك على اختيارى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۷

لما نضوت إلا عنده ليلى و نهارى: [بحر الوافر]

و لو نعطى الخيار لما افترقنا و لكن لا خيار مع الزّمان

[بحر الطويل]

و تحت ضلوعى لوعة لو كتمتها لخفت على الأحشاء أن تتضرّما

و لو بحت فى كتبى بما فى جوانحى لأنطقتها نارا و أبكيتها دما

و أنا لا أقترح على الدهر إلا لقياه، و لا أقطع حاضر الوقت إلا بذكراه، و ما أعد أيامى التى سعدت فيها بلقائه إلا مفاتح السرور، و مطالع السعود و الحبور، و لست أعيبها إلا بقلة البقاء، و سرعة الانقضاء، و كذلك عمر السرور قصير، و الدهر بتفريق الأحبة بصير، و ربما نضر العود بعد الذبول، و طلع النجم بعد الأفول، و أديل الوصال من الفراق، و عاد العيش المرّ حلو المذاق: [بحر الطويل]

و ما أنا من أن يجمع اللّه شملنا كأحسن ما كنّا عليه بآيس

فأما الآن فلا أزجّى الوقت إلا بقلب شديد الاضطراب، و جوانح لا تفيق من التوقد و الالتهاب، و كيف لا و حالى حال من ودّع صفو الحياة يوم وداعه، و انقطع عنه الأنس ساعة انقطاعه، و طوى الشوق جوانحه على غليل، و حل أضلاعه على كمد دخيل، و أغرى بى فلزمنى و لزمته، و ألف بينى و بين الوجد فألفنى و ألفته، فلا أسلك للعزاء طريقا إلا وجدته مسدودا، و لا أقصد للصبر بابا إلا ألفيته مردودا، و لا- أعد اليوم بعد فراق سيدى إلا شهرا، و الشهر دون لقائه إلا دهرا، و لست بناس أيامنا التى هى تاريخ زمانى، و عنوان الأمانى، إذ ماء الاجتماع عذب، و غصن الازدياد رطب، و أعين الحواسد راقدة، و أسواق صروف الدهر كاسدة، فما كانت إلا لمحة الطّرف، و وثبة الطّرف، و لمعة البرق الخاطف، و زورة الخيال الطائف، و ما تذكّر تلك الأيام فى أكناف فضائله و نضرتها، و رياض علومه فى ظله و خضرتها، إلا- أوجب على عينه أن تدمع، و انثنى على كبده خشية أن تصدّع، ثم لما ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم، صحبة حضرة العم المحب القديم، فكان كالعافية للصب السقيم، كما يشهد بذلك السميع العليم، فوقف له منتصبا، و خفف عنه برؤيته و صبا و ذكر أيام الجمع فهام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۸

وجدا بها وصبا، فاستخفه الإعجاب طربا، و شاهد صدوره فقال: هكذا تكون الرياش، و عاين لطفه فقال: هكذا تكون الصبا، و قبّل كل حرف منه و وضعه على الراس، و حصل له بعد ترقبه غاية المجاورة و الاستئناس، فعند ذلك أنشد قول بعض الناس: [بحر الكامل]

ورد الكتاب فكان عند وروده عيدا، و لكن هيّج الأشواقا

ألفاته قد عانقت صاداته كعناق مشتاق يخاف فراقا

فكأنما النونات فيه أهلة و كأنما صاداته أحداقا

فعسى الإله كما قضى بفراقنا يقضى لنا يوما بأن نتلاقى

فجعلته نصب عينى أتسلى به عند استيلاء الشوق على قلبى، و أطفىء بتأمّله نيران وجدى إذا التهبت فى صدرى، و سررت به سرور من وجد ضالة عمره، و أدرك جميع أمانيه من دهره، و أنست بتصحفه أنس الرياض بانهلال القطر، و السارى بطلوع البدر، و المسافر بتعريسة الفجر، و كيف لا و قد أصبح فى وجه الأمانى خدّا، بل فى خدّها وردا، و صار حسنة من حسنات دهرى، لا يمحو مرور الأيام موضعها من صدرى، و طلعت طوالع السرور و كانت آفلة، و اهتزت غصون الفرح و كانت ذابلة، لا سيما لا تضمن من البشارة السارة بصحة المولى و سلامته، و حلوله فى منازل عزه و كرامته، و موعده الكريم بعوده إلى دمشق الشام، كساها ثوب الفخام مرة ثانية، و يتم افتخارها على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهية، نسأل اللّه تعالى أن يحقق ذلك، و أن يسلك بسيدى أحسن المسالك، إنه سبحانه و تعالى سامع الأصوات، و مجيب الدعوات، فإن عودكم يا سيدى و اللّه مرة أخرى هو الحياة الشهية، و الأمنية التى ترتجى النفس بلوغها قبل المنية، و ما أنا من اللّه بآيس من أن يتيح سببا، يعيد المزار مقتربا، و الشمل مجتمعا، و حبل البين منقطعا، ثم ليعرض على مسامع سيدى الكريمة، لا- زالت من كل سوء سليمة، أنا أوصلنا مكاتيبكم كما أمرتم لأربابها، لا سيما مكتوب شيخ الإسلام سيدى عبد الرحمن أفندى المفتى بالشام، و مكتوب المولى الأعظم، و الهمام الأفخم، أحمد أفندى الشاهينى، أعزه اللّه تعالى! فإنه وقع عنده الموقع العظيم، و حصل له به السرور المقيم، كما يدل على ذلك جوابه الكريم، المحفوف بالتعظيم و التكريم، غير أنه قد ساءنا ما اتصل بمولانا من نفوذ قضاء اللّه تعالى الذى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۷۹

يعم، فى البنت و الأم، فجعل اللّه تعالى فى عمر سيدى البركة! و كان له فى السكون و الحركة! و ما ذا عسى أن يذكر لجنابكم فى أمر التعزية و يقرر، و منكم يستفاد مثله و عنكم يحرّر، و الأستاذ أدرى بصروف الدهر و تفننها، و أحوال الزمان و تلوّنها، و أعرف بأن الدنيا دار لها بسكانها مدار، و أن الحياة ثوب مستعار، و نعيم الدنيا و بؤسها ما لواحد منهما فيها قرار، و أن لكل طالع أفولا، و لكل

ناضر ذبولا، و وراء كل ضياء ظلاما، و لكل عروة من عرا الدنيا انفصاما، فهو محلّ لأن يقوى فى العزاء عزائمه، و يصغر فى عينه نوائب الدهر و عظائمه، و يغنيه عن عظة تجد له مقالا، و تحلّ عن عقله عقالا، و هو يتلقى المصائب، بفكر ثاقب، و فهم صائب، و صبر يقصر عنه الطّود الأشم، و عزم ينفلق دونه الصخر الأصم، و حلم يرجح إذا طاشت الأحلام، و قدم تثبت إذا زلّت الأقدام، و مدّ المقال فى ضرب الأمثال، إلى جنابكم الشريف نوع من تجاوز حدّ الإجلال، و أنا أسأل اللّه تعالى أن يجعل هذه المصيبة خاتمة، و لا يريه بعدها إلا دولة و نعمة دائمة، و أن يحرسه من غير الليل و النهار، و يجعله وارث الأعمار بجاه نبينا محمد المختار، صلى اللّه عليه و سلم على آله و صحبه الأطهار، بمنه و كرمه. ثم أبلغ سيدى- أطال اللّه عمره، و شرح صدره، و نشر بالخير ذكره!- السلام التام، المقرون بألف تحية و إكرام، من أهل البلدة جميعا، لا سيما من مفتيها العمادى، حرس اللّه ذاته التى هى منهل للصادى و الغادى، و أولاده الكرام، المستحقين للإعزاز و الإكرام، و من كبيرها، و مدبّرها و مشيرها، أحمد أفندى الشاهينى، أعزه اللّه تعالى بعزه، و جعله تحت كنفه و حرزه! و من خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسى، و نقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين، و جميع المحبين الداعين لذلكم الجناب، و المتمسكين بتراب تلكم الأعتاب، و من الوالد و العم، و اللّه يا سيدى إنه ناشر لواء الثناء و المحامد، وداع لذلك الجناب الكاسب للمفاخر و المحامل، و حضرة شيخنا شيخ الإسلام، و بركة الشام، مولانا و سيدنا الشيخ عمر القارى، أبقى اللّه تعالى وجوده! و ضاعف علينا إحسانه وجوده! و أولاده يسلمون عليكم السلام الوافر، و ينهون لكم الشوق المتكاثر، و حرّر فى ۲ جمادى الثانية سنة ۱۰۳۸، المحب الداعى يحيى المحاسنى، انتهى.

و كتب إلىّ عمّه الفاضل الأسمى ما صورته: باسمه سبحانه و تعالى: [بحر الطويل]

و إنى لمشتاق إلى وجهك الذى تهلّله أهدى السناء إلى البدر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۰

و أخلاقك الغر اللواتى كأنها تساقط أنداء الغمام على الزّهر

سيدى الذى عبوديتى إليه مصروفة، و دواعى محبتى لديه موفورة و عليه موقوفة، علم اللّه سبحانه أننى لا أزجّى أوقاتى إلا بذكراه، و لا أرجّى اليمن من ساعاتى إلا باستنشاق نسيم ريّاه، و أننى إلى طلعته أشوق من الصادى إلى ماء صداء، و من كثير عزة إلى نوء تيماء. [بحر الوافر]

يرنّحنى إليك الشوق حتّى أميل من اليمين إلى الشمال

و يأخذنى لذكراك اهتزاز كما نشط الأسير من العقال

ولى على صدق هذه الدعوى من نباهة لبه شاهد معدّل، و من نزاهة قلبه مزكّ غير ملوم و لا معذل، كيف لا و مطالع البيان مشرقها من أفلاك فهومه، و جواهر التبيان مقذفها من بحار علومه، و هو بحر العلم الذى لا يقتحم بسفن الأفكار، و جبل الحلم الذى رسخ بالهيبة و الوقار: [بحر الطويل]

لو اقتسمت أخلاقه الغر لم تجد معيبا و لا خلقا من الناس عائبا

و ما ذا عسى أصف به مولانا و قد عجز عن وصفه لسان كل واصف، و حار فى بث فضائله أرباب المعارف و العوارف: [بحر المجتث]

فلو نظمت الثريّا و الشّعريين قريضا

و كاهل الأرض ضربا و شعب رضوى عروضا

وصفت للدرّ ضدّا و للهواء نقيضا

و لكننى أقول: الثناء منجح أنى سلك، و السخىّ جوده بما ملك، و إن لم يكن خمر فخل، و إن لم يصبها وابل فطل، هذا، و قد أوصلنا مكاتيبكم الشريفة لأربابها، فكانت لديهم أكرم قادم، و أشرف منادم، و قد تداولها الأفاضل و شهدوا أنها من بنات الأفكار،

التى لم يكشف عنها لغير سيدى حجب الأستار، و قد وجدنا كلا منهم ملتهبا بجمرات الشوق، متجاوزا حدّ الصبابة و التّوق، ليس لهم شغل إلا ذكر أوصافكم الحميدة، و بثّ ما أبديتموه بدروسكم المفيدة، و ما منهم إلا و يرجو بلّ الصدى و نقع الظمأ برؤية ذلك المحيا، و التملّى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۱

بتلك الطلعة العليا، و إن سأل سيدى عن أخبار دمشق المحروسة، دامت ربوعها المأنوسة، فهى و للّه الحمد منتظمة الأحوال، أمنها اللّه من الشرور و الأهوال، و لم يتجدد من الأخبار ما نعلم به ذلكم الجناب، لا زال ملحوظا بعين عناية رب الأرباب، و أنا أسأل اللّه تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحدثان، و أن يحمى تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران. [بحر البسيط]

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمينا

و هذا دعاء للبرية شامل - العبد الداعى، بجميع البواعث و الدواعى، تاج الدين المحاسنى، عفا اللّه تعالى عنه! انتهى.

و بالهامش ما صورته: و كاتب الأحرف العبد الداعى محمد المحاسنى يقبل يدكم الشريفة، و يخصكم بالسلام الوافر، و يبث لديكم الشوق المتكاثر، غير أنه قد نازعته نفسه فى ترك المعاتبة، لسيده الذى لم يسعد عبده منه بالمكاتبة، على أنها مكاتبة تحكم عقد العبودية، و لا تخرج رقبته من طوق الرقّيّة، و المطلوب أن يخصه سيده و شيخه بدعواته المستطابة، التى لا شك أنها مستجابة، كما هو فى سائر أوقاته، و حسبان ساعاته، و دمتم، و حرر فى رابع جمادى الثانية سنة ۱۰۳۸، انتهى.

و كتب سيدى التاج المذكور لى ضمن رسالة من بعض الأصحاب ما صورته: [بحر المجتث]

يا فاضل العصر يا من للشّرق و الغرب شرّف

يا أحمد الناس طرّا فى كل ما يتصرف

يهدى إليك محبّ دموعه تتذرف

شوقا و ودّا قديما منكّرا يتعرف

و لنختم مخاطبات أهل دمشق لى بما كتبه لى أوحد الموالى الكرام، السرى، عين الأعيان، صدر أرباب البلاغة و البيان، مولانا أحمد الشاهينى السابق الذكر فى هذا التأليف مرات، ضاعف اللّه تعالى لديه أنواع المبرات و المسرات، آمين، ليكون مسكا للختام، إذ محاسنه ليس بها خفاء و لا لها اكتتام، و نص محل الحاجة منه هو الفياض: [بحر السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۲

يا سيدا أحرز خصل العلا بالبأس و الرأى الشديد السديد

و من على أهل النّهى قد علا بطبعه السامى المجيد المجيد

و من يزين الدهر منه حلى قول نظيم كالفريد النضيد

و من صدا فكرى منه جلا نظم له القلب عميد حميد

و من له من يوم قالوا «بلى» فى مهجتى حبّ جديد مزيد

و من غدا بين جميع الملا بالعلم و الحلم الوحيد الفريد

أفديك بالنفس مع الأهل لا بالمال، و المال عتيد عديد

أقسم بالله الذى علت كلمته، و عمت رحمته، و سحرت القلوب و العقول رأفته و محبته و جعل الأرواح جنودا مجنّدة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف، أننى أشوق إلى تقبيل أقدام شيخى من الظمآن للماء، و من السارى لطلعة ذكاء، و ليس تقبيل الأقدام، مما يدفع عن المشوق الأوام، و قد كانت الحال هذه و ليس بينى و بينه حاجز إلا الجدار، إذ كان حفظه اللّه تعالى جار الدار، فكيف الآن بالغرام، و هو حفظه اللّه تعالى بمصر و أنا بالشام، و ليس غيبة مولانا الأستاذ عنا، إلا غيبة العافية عن الجسم المضنى، بل غيبة

الروح، عن الجسد البالى المطروح، و لا العيشة بعد فراقه، و هجر أحبابه و رفاقه، إلا- كما قال بديع الزمان- عيشة الحوت فى البر، و الثلج فى الحر، و ليس الشوق إليه بشوق، و إنما هو العظم الكسير، و النزع العسير، و السم يسرى و يسير، و ليس الصبر عنه بصبر، و إنما هو الصاب و المصاب، و الكبد فى يد القصاب، و النفس رهينة الأوصاب، و الحين الحائن و أين يصاب، و لا أعرف كيف أصف شرف الوقت الذى ورد فيه كتاب شيخى بخطه، مزينا بضبطه، بلى، قد كان شرف عطارد، حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندى كل شارد، و أما خطه فكما قال الصاحب ابن عباد: أهذا خط قابوس، أم جناح الطاووس؟ أو كما قال أبو الطيب: [بحر الكامل]

من خطه فى كل قلب شهوة حتى كأن مداده الأهواء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۳

و أنا أقول ما هو أبدع و أبرع، و فى هذا الباب أنفع و أجمع: بل هو خط الأمان من الزمان، و البراءة من طوارق الحدثان، و الحرز الحريز، و الكلام الحر الإبريز، و الجوهر النفيس العزيز، و أما الكتاب نفسه فقد حسدنى عليه إخوانى، و استبشر به أهلى و خلّانى، و كان تقبيلى لأماليه، أكثر من نظرى فيه، شوقا إلى تقبيل يد وشّته وحشته، و اعتيادا للثم أنامل جسته و مسّته، و أما اليراعة، فلا شك أنها ينبوع البراعة، حتى جرى من سحر البلاغة منها ما جرى.

[بحر المتقارب]

فجاء الكتاب كسحر العيون بما راح يسبى عقول الورى

و ينادى بإحراز خصل السبق من الثريا إلى الثرى، و لم أر كتابا قبل تكون محاسنه متداخلة مترادفة، و لطائفه و بدائعه متضاعفة متراصفة، و ذلك لأنه سرد من غرر درره الأحاسن، و ورد على يد رأس أحبابنا تاج بنى محاسن: [بحر الطويل]

أولئك قوم أحرزوا الحسن كله فما منهم إلا فتى فاق فى الحسن

و كما قلت فيهم أيضا: [بحر مجزوء الكامل]

فبنو المحاسن بيننا كبنى المنجّم فى النجابه

فهم القرابة إن عد مت من الأنام هوى القرابه

فيهم محاسن جمّة منها الخطابة و الكتابه

ثم لم يكتف سيدى و شيخى بما أنعم به، و أحسن بكتبه، من كتابه المزين بخطه، المبين بضبطه، المسمى بين أهل الوفاء، بكتاب الأصفياء، حتى أضاف إليه كتاب الشفاء، فى بديع الاكتفاء، كأنه لم يرض طبعه الشريف المفرد المستثنى إلا أن تكون حسناته لدى أحبابه مثنى مثنى، حتى كأن مراده بتضعيف هذا الإكرام و الإحسان، تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بحصر البيان و عقد اللسان، إذ لست ذا لسانين، حتى أؤدى شكر إحسانين، و غاية البليغ فى هذا المضمار الخطير، أن يعترف بالقصور و يلتزم بالتقصير.

و من فصول هذا الكتاب ما نصه: و من باب إدخال السرور على سيدى و شيخى و بركتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۴

خبر المدرسة الداخلية التى تصدى لها ذلك المولى العظيم، و السيد الحكيم، صدر الموالى، و رونق الأيام و الليالى، سيدى و سندى، و عمادى و معتمدى، الفهامة شيخى أفندى، المعروف بالعلامة، حفظه اللّه، و وقاه و أبقاه! الذى صدق عليه و علىّ قول الأول: [بحر المنسرح]

ولى صديق ما مسّنى عدم مذ وقعت عينه على عدمى

أغنى و أقنى فما يكلفنى تقبيل كف له و لا قدم

قام بأمرى لما قعدت به و نمت عن حاجتى و لم ينم

و قول الثانى: [مجزوء الوافر]

صديق لى له أدب صداقة مثله نسب

رعى لى فوق ما يرعى و أوجب فوق ما يجب

فلو نقدت خلائقه لبهرج عندها الذهب

و لعمرى إنه كذلك قد تصدى لحاجتى فقضاها، و لحجتى فأمضاها، و لم يكن لى فى الروم سواه و سواها، و ما أصنع بالروم، إذا تخلف عنى ما أروم، أبى اللّه إلا أن ينفعنى ذلك الحر الكريم بنهيه و أمره، و أن يكون بيانى و بنانى مرتبطين بحمده و شكره، و هذه حاجة فى نفسى قضيتها، و أمنية رضيت بها و أرضيتها، و للّه الحمد. و لست أحصى، و لا أستقصى، يا سيدى و مولاى، شوق أخيكم سيدى و مولاى المفتى العمادى، حفظه اللّه تعالى و إياكم! و قد بلغ به شوقه و غرامه، و تعطشه [و هيامه] و أوامه، أن أفرد الجناب مولانا كتابا، يستجلب مفخرا و جوابا، إذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف و السلام، و كذلك أولاده الكرام، تلامذتكم يقبلون الأقدام، و أما محبكم و صديقكم الشيخ البركة شيخ الإسلام مولانا عمر القارى فقد بلغته سلام سيدى، فكان جوابه الدعاء و الثناء، مع العزيمة علىّ بأن أبالغ لجنابكم الكريم فى تأدية سلامه، و تبليغ ما يتضمنه من المحبة الخالصة فصيح كلامه، و أما الكريميّان ولدكم محمد أفندى و أخوه سيدى أكمل الدين، فهما لتقبيل أقدامكم من المستعدين، و كذلك لا أحصى ما هما عليه من الدعاء و الثناء لجنابكم الكريم العالى، تلميذاكم بل عبداكم ولدانا الشيخ يحيى ابن سيدى أبى الصفاء، و ولدنا الشيخ محمد بن سيدى تاج الدين المحاسنيان، و أما

عبداكم و تلميذاكم ولداى الشيخان الداعيان الأخوان الشيخ عبد السلام و القاضى نعمان، فليس لهما وظيفة إلا الدعاء و الثناء، فى كل صبح و مساء، لأن كلا منهما خليفتى، و الاشتغال بالدعاء لسيدى وظيفتى، و لا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين، و لا بد من تقبيل القدمين المباركتين، و بعد، فلا ينقضى عجبى من بلاغة كتابكم الشريف الوارد لجناب أخيكم المفتى العمادى حفظكم اللّه تعالى و إياه! و لا- كان من يشناك! و عجبه به أعظم و أكبر، إذ هو- حفظه اللّه!- بفهم كلام سيدى أحق و أجدر، فلا عدمنا تلك الأنفاس الملكية الفلكية، من كل منكما إذ هى و اللّه البغية و الأمنية، كما قلت: [بحر الخفيف]

ليس فخرى و لا اعتدادى بدهر غير دهر أراكما من بنيه

اللهم اختم هذا الكلام، للقبول التام، بالصلاة على سيدنا محمد و آله الطيبين الطاهرين!.

و من فصول هذا الكتاب ما صورته: أطال اللّه يا سيدى بقاءك! و لا كان من يكره لقاءك! و رعاك بعين عنايته و وقاك! و أدامك و أبقاك! و ضمن لك جزاء الصبر! و عوضك عن مصابك الخير و الأجر! و لقد كنت عزمت على أن أجعل فى مصاب سيدى بأمه، متعه اللّه بعمره و علمه! و دفع عنه سورة همه و غمه! قصيدة تكون مرثية، تتضمن تعزية و تسلية، فنظرت فى مرثية أبى الطيب المتنبى لأمه، و اكتفيت بنظمها و نثرها، و عقدها و حلها، و انتخبت قوله منها: [بحر الطويل]

لك اللّه من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير مكسبها وصما

و منها:

و لو لم تكونى ينت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت منى لآنفهم رغما

فقلت: هذه حال مولانا الراغم لأنوف الأعداء، المجدد لأسلافه حمدا و مجدا، القاتل بشوقه لا خطأ و لا عمدا، ثم إنى لما رأيت قوله فى مرثية أخت سيف الدولة: [بحر الخفيف]

إن يكن صبرى ذى الرزية فضلا تكن الأفضل الأعز الأجلّا

أنت يا فوق أن تعزّى عن الأحب اب فوق الذى يعزّيك عقلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۶

و بألفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذى له قلت قبلا

قد بلوت الخطوب حلوا و مرّا و سلكت الأيام حزنا و سهلا

و قتلت الزمان علما فما يغ رب قولا و ما يجدّد فعلا

قلت: هذه و اللّه حلى مولانا الأستاذ الذى عرف للزمان فعله، و فهم قوله، قد استعارها أبو الطيب و حلّى بها مخدومه سيف الدولة، و كيف أستطيع إرشاد شيخى لطريق الصبر، و أذكره بالثواب و الأجر، و كيف و أنا الذى استقيت من ديمه، و اهتديت إلى سبيل المعروف بشيمه، و سلكت جادة البراعة بهداية ألفاظه، و ارتقيت إلى سماء البلاغة برعاية ألحاظه، و هل يكون التلميذ معلما، و هل يرشد الفرخ قشعما، و كيف يعضد الشبل الأسد، و هو ضعيف المنّة و المدد، و من يعلم الثغر الابتسام، و الصدر الالتزام، و يختبر الحسام، و هو مجرب صمصام، و هل تفتقر الشمس فى الهداية إلى مصباح؟ و هل يحتاج البدر فى سراه إلى دلالة الصباح؟ ذلك مثل شيخى و مثل من يرشده إلى فلاح أو نجاح، و إنما نأخذ عنه ما ورد فى ذلك من الكتاب و السنة، و نحذو حذوه فى الطريق الموصّلة إلى الجنة، ثم لما وصلت فى هذه القصيدة إلى قول أبى الطيب: [بحر الخفيف]

إن خير الدموع عينا لدمع بعثته رعاية فاستهلا

رأيته قد أبدع فيه كل الإبداع، و نظم ما كاد يجرى الدمع من طريق السماع، فقلت:

إنا للّه! و أكثرت الاسترجاع، و قلت فى نفسى: إن ذلك الدمع الذى بعثته رعاية الحقوق، هو دمع شيخى الذى حمى اللّه قلبه الشفوق من العقوق، للمصيبة فى الأم، التى حزنها يغم، و مصابها يعم، و كيف لا يعمنا مصابها، و قد كمل للمصيبة كفاها اللّه بموتها نصابها، هذا مع الفقد للسليلة الجليلة، و الكريمة الخليلة و أى دمع لم تبعثه تلك الرعاية؟ و أى نفس لا تتمنى أن تكون لسيدنا من كل ما يكره وقاية؟ و أى كبد قاسية، لم تكن لأحبابها مواسية؟ و أنى يتسنّى، للعبد المعنّى، تسلية شيخه و هو الصبور الشكور، العارف بالأمور، العالم بتصاريف الدهور؟ و ما ظننت أن بنانى، يساعدنى على تحرير بيانى، لتعزية شيخى حفظه اللّه تعالى فى أصله و فرعه، و ضرعه و زرعه، و فرعه و نبته، و أمه و بنته، أما الوالدة الماجدة فإنى إن أمسكت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۷

عن بيان كرم أصلها، يسمو بها كرم فرعها و نسلها، فرحم اللّه تعالى سلفها، و أبقى خلفها، و لا حرم سيدى ثمرة رضاها، و رضى عنها و أرضاها! و أما المخدّرة الصغيرة، فالمصيبة بها كبيرة، إذ العمومة مقّرية، و الخؤولة وفائية، فهى ذات النّجارين، و حائزة الفخارين، كأن سيدى- أعزه اللّه تعالى!- لم يرض لها كفؤا و مهرا، فاختار القبر أن يكون له صهرا، و خطبة الحمام لا يمكن ردها، و سطوة الأيام لا يستطاع صدها، كما قال أبو الطيب المتنبى أيضا: [بحر الخفيف]

خطبة للحمام ليس لها ردّ و إن كانت المسمّاة ثكلا

و إذا لم تجد من الناس كفؤا ذات خدر أرادت الموت بعلا

أسأل اللّه تعالى أن تكون هذه الخطبة قافية الخطوب، و هذا النّدب المبرّح آخر الندوب، و أن يعوض سيدى عن حبيبه المبرقع المقنع، حبيبا معمّما تتحرى النجابة منه المصنع، و أن يبدله عن ذات الخمار و الخضاب، بمن يصول بالحراب، و يسطو باليراع و يشتغل بالكتاب: [بحر الوافر]

و ما التأنيث لاسم الشمس عيب و لا التذكير فخر للهلال

و لو كان النساء كمن فقدنا لفضّلت النساء على الرجال

اللهم يا أرحم الراحمين، إنى أتوسّل إليك بنبيك محمد صلى اللّه عليه و سلم و آله الطيبين الطاهرين، أن تأخذ بيد عبدك شيخى المقرىّ فى كل وقت و حين، آمين.

و من فصول هذه الكتاب ما صورته: و لما وصلنى سيدى بهديته التى أحسن بها من كتاب الاكتفاء، داخل طبعى الصفاء، و نشطت إلى نظم بيتين فيهما التزام عجيب لم أر مثله، و هو أن يكون اللفظ المكتفى به بمعنى اللفظ المكتفى منه، فإن الاحتفاء و الاحتفال بمعنى الاعتناء، كما أفاده شيخى، فيكون على هذا الاكتفاء و عدمه على حدّ سواء، إذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لأغنى عنه لفظ الاحتفاء، مع تسمية النوع فيهما، و هما: [بحر السريع]

إن احتفال المرء بالمرء لا أحبّه إلا مع الاكتفاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۸

مبالغات الناس مذمومة فاسلك سبيل القصد فى الاحتفا

و لقد انقطع الثلج أيام الخريف، و كانت الحاجة إليه شديدة بعد غيبة سيدى حفظه اللّه تعالى عن دمشق، فتذكرت شغف شيخى به، فزاد على فقده غرامى، و فاض عليه تعطشى و أوامى، فجعلت فى ذلك عدة مقاطيع، و أحببت عرضها على سيدى: أوّلها: [بحر الخفيف]

ثلج يا ثلج يا عظيم الصفات أنت عندى من أعظم الحسنات

ما بياض بدا بوجهك إلا كبياض بدا بوجه الحياة

ثانيها: [بحر الرجز]

قد قلت لما ضلّ عنى رشدى و ما رأيت الثلج يوما عندى

لا تقطع اللهم عن ذا العبد أعظم أسباب الثنا و الحمد

ثالثها: [بحر الخفيف]

ثلج يا ثلج أنت ماء الحياة ضل من قال ضر ذاك لهاتى

ما بياض بدا بوجهك إلا كبياض قد لاح فى المرآة

قد رأى الناس وجههم فى المرايا و أنا فيك شمت وجه حياتى

و ما عللت سيدى هذا التعليل، إلا لأشوقه إلى نسيم دمشق الذى خلفه سيدى حفظه اللّه عليلا، و هو على الصحة غير عليل، و لم يشف أعزه اللّه تعالى منه الغليل، و لسيدى الدعاء بطول البقاء و الارتقاء، و هذه أبيات أحدثها العبد فى وصف القهوة، طالبا من سيّده أن يغفر خطأه فيها و سهوه: [بحر الرجز]

و قهوة كالعنبر السحيق سوداء مثل مقلة المعشوق

أتت كمسك فائح فتيق شبهتها فى الطعم بالرّحيق

تدنى الصديق من هوى الصديق و تربط الود مع الرفيق

فلا عدمت مزجها بريق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۸۹

و ما زلت ألهج بما أفادنيه شيخى من أماليه، و أتصفح الدهر الذى جمعته فيه، من أسافله إلى أعاليه، و استشكل على الأحباب و الأصحاب فى أثناء المسامرة، ما أفادنيه سيدى من تسمية المرحوم القاضى التنوخى كتابه «نشوار المحاضرة» حتى ظفرت بأصلها فى القاموس فى مادة «نشر»، فإذا هى عربية محضة، فإنه قال: «و نشورت الدابة نشوارا: أبقت من علفها» و لقد تعجبت من بلاغة هذه التسمية و عذوبتها، و حسن المجاز فيها مع سلاستها و سهولتها، و أحببت عرضها على شيخى حفظه اللّه تعالى ليفرح لى بين تلامذته كما فرح طبعى به حفظه اللّه تعالى بين أساتذته، و ليعلم أنى لم أنس ما أفادنيه فى خلال المحاورة، أيام المؤانسة و المجاورة، فو اللّه إنه سميرى، فى ضميرى، و كليمى، ما بين عظمى و أديمى: [بحر الطويل]

يديروننى عن سالم و أديرهم و جلدة بين العين و الأنف سالم

الطرس طما و ما مضت قصتنا لاذنب لنا حديثنا لذّ فطال

و حرر يوم السبت المبارك غرة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمان و ثلاثين بعد الألف، أحسن اللّه ختامها بحرمة محمد و آله الطيبين الطاهرين، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل، نعم المولى و نعم النصير، و الحمد للّه وحده، عبده الفقير الحقير المشتاق، المذنب المقصر لسيده عن اللحاق، الذى لم يبرح عن العهد المتين، أحمد الشامى بن شاهين، انتهى.

و لو تتبعت ما له حفظه اللّه تعالى من النظم و النثر، اللذين غلب فيهما بلغاء أهل العصر، بالشام و مصر، و غيرهما من الأقطار، لا زال مقامه مقضى الأوطار، لاستوعبت، الأسفار.

و فى الإشارات ما يغنى عن الكلم، و قد تقدم فى خطبة هذا التأليف، ذكر شىء من نظمه و نثره و أنه هو السبب الداعى إلى جمع هذا التصنيف، و اللّه سبحانه يديم جنابه السرى الشريف، و يبوئه من العز الظل الوريف، فلقد أولى من الحقوق ما لا نؤدى بعضه فضلا عن كله، و ناهيك بما جلبناه من كلامه دليلا على شرفه و فضله.

و رسالته هذه إلى كانت جوابا عن مكتوب كتبته إليه من جملته: [بحر السريع]

يا من له طائر صيت علا فى الجو فاصطاد الشريد الشديد

يا نجل شاهين البديع الحلى تملّ بالعز الطويل المديد

و فز بخصل السّبق بين الملا و سر بنهج للمعالى سديد

ورد مع الأحباب عذبا حلا منتظما من الأمانى البديد

و ارفل على طول المدى فى ملا مسرة راقت و عز جديد

و الوالد المحروس بالله، لا بعدّة الخلق و لا بالعديد

و من نثرها: سيدى الذى فى الأجياد من عوارفه أطواق، و فى البلاد من معارفه ما تشهد به الفطر السليمة و الأذواق، و تشتدّ إلى مجده المطنب الذى لا يحطّ له رواق الأشواق، و تعمر بفوائده و فرائده من الآداب الأسواق، و تنقطع دون نداه السحب السواكب، و تقصر عن مداه فى السّمو الكواكب، و اللّه سبحانه له واق، المولى الذى ألقت إليه البلاغة أفلاذها و اتخذت البراعة طاعته عصمتها و ملاذها، إذ بذّ أفرادها و أفذاذها، و أمطرت سماء أفكاره، على كل محبّ أوكاره، طائر فى جو أو مستقر فى أوكاره، صيبها و رذاذها، و فاخرت دمشق بعلاه و حلاه أقطار البسيطة و بغذاذها.

و منها: أبقاه اللّه تعالى و حقيقة و عوده ينمقها المجاز، و حقيقة سعوده لا يطرقها المجاز.

و منها: فأنت الذى نفّست عنى مخنّقا، و أصفيت مشربى و كان مرنّقا، و كاثرت بما به آثرت، و ما استأثرت- رمل النقا فلو رآك المأمون بن الرشيد، لعلم أنك المتمنى ببيتى الغناء الذى غنى به و النشيد: [بحر الطويل]

و إنى لمشتاق إلى قرب صاحب يروق و يصفو إن كدرت لديه

عذيرى من الإنسان لا إن جفونه صفا لى، و لا إن كنت طوع يديه

و لم يقل: أعطنى هذا الصديق و خذ منى الخلافة، و أنا أقول: قد ظفرنا به بحمد اللّه و لم أجد أحدا فى دهره وافق الغرض فلم نر خلافه.

و منها: فهذه يا ابن شاهين أياديك البيض، تفرخ لك الشكر و تبيض، فلا دليل على ولائى، كإملائى، و لا شاهد لما فى أحنائى، كثنائى، و لا حجة على ودادى، كتكرارى ذكرك و ترادى.

و هى طويلة، لا يحضرنى الآن منها سوى ما ذكرته.

و لنقتصر من مكاتبات أعيان العصر من أهل دمشق المحروسة على هذا المقدار، و نسأل اللّه تعالى أن يحفظهم جميعا فى الإيراد و الإصدار.

[رسائل من المغرب إلى المؤلف]

و فى تاريخ ورود هذه المكاتيب الشامية السابقة علىّ، اتفق ورود كتب من المغرب، وجّهها جماعة من أعيانه إلىّ.

فمن ذلك كتاب كتبه لى الأستاذ المجوّد الأديب الفهامة معلم الملوك سيدى الشيخ محمد بن يوسف المراكشى التامليّ نصه: الحمد للّه تعالى، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد تتوالى، من المحب المخلص المشتاق، إلى السيد الذى وقع على محبته الاتفاق، و طلعت شموس معارفه فى غاية الإشراق، و صار له فى ميدان الكمال حسن الاستباق، الصدر الكامل، و العالم العامل، الفقيه الذى تهتدى الفقهاء بعلمه و عمله، البليغ الذى تقتدى البلغاء ببراعه و قلمه، ناشر ألوية المعارف، و مسدى أنواع العوارف، العلّامة إمام العصر، بجميع أدوات الحصر، سيدى أحمد بن محمد المقرى قدّس اللّه السلف! كما بارك فى الخلف. سلام من النسيم أرقّ، و ألطف من الزهر إذا عبق.

و بعد، فإن أخباركم دائما ترد علينا، و تصل إلينا، بما يسر الخاطر، و يقرّ الناظر، مع كل وارد و صادر، و العبد يحمد اللّه تعالى على ذلك، و يدعو اللّه بالاجتماع معكم هنالك.

و يرحم اللّه عبدا قال آمينا كتبته إليكم أيها السيد من الحضرة المراكشية مع كثرة أشواق، لا تسعها أوراق، كتبكم اللّه سبحانه فيمن عنده، كما جعلكم ممن أخلص فى موالاة الحق قصده، و ودى إليكم غضّ الحدائق، مستجل فى مطلع الوفاء بمنظر رائق، لا يحيله عن مركز الثبوت عائق، و حقيق بمودة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۲

ارتبطت فى الحق و للحق معاقدها، و أسست على المحبة فى اللّه قواعدها، أن يزيد عقدها على مر الأيام شدة، و عهدها و إن شط المزار جدّة، و أن تدّخر للأخرى عدّة، و إنى و يعلم اللّه تعالى لممن يعتقد محبتكم و موالاتكم عملا صالحا يقرّب من اللّه تعالى و يزلف إليه، و يعتمدهما وزرا يعوّل فى الآخرة يوم لا- ظل إلا- ظله عليه، فإنكم و اليتم فأخلصتم فى الولاء، و عرفتم اللّه تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولاء، معرضين فى تلكم الأخوّة عن عرض الدنيا و عرضها، موفين بشروط نفلها و مفترضها، إلى أن قضى اللّه تعالى بإفتراقنا، و حقوقكم المتأكدة دين علينا، و الأيام تمطل بقضائها عنا، و توجه الملام إلينا، فآونة أقف فأقرع السنّ على التقصير ندما، و آونة أستنيم إلى فضلكم، فأتقدم قدما، و فى أثناء هذا لا يخطر بالبال حق لكم سابق، إلا و قد كر عليه منكم آخر له لاحق، حتى وقفت موقف العجز، و ضاقت على العبارة عن حقيقة مقامكم فى النفس فكدت لا- أتكلم إلا بالرمز، إجلالا لحقكم الرفيع، و إشفاقا من التقصير المضيع، و قد كنت كتبت- أعزكم اللّه تعالى!- إليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عجالة قصائد كالعصائد، لا- كالثريد من الكلام ككلامكم السلس الكثير الفوائد، فعذرا ممن كان أخرس من سمكة، و أشد تخبطا من طائر فى شبكة، فما عرفت أوصل شىء من ذلك، أم حصل فى أيدى المعاطب و المهالك؟ و ما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوما بالحضرة المراكشية فقال لى: الشيخ الإمام المقرى يسأل عنك، و قد أرسل معى كتابا إليك فوقع فى البحر مع جملة ما وقع، فقلت له: لا غرابة فى ذلك فقد رجع إلى أصله، و من ظلمة البحار تستخرج الدرر، و قد جاءنى كتاب من بعض الأخلاء الصديقين و هو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها اللّه تعالى، و ذكر لى فيه أنه متعه اللّه تعالى بلقائكم، و أخبرنى بسؤالكم عنى كثيرا، و إلى الآن يا نعم السيد إنما عرفته بما كتبته لسيادتكم تعريف تذكر لا تعريف منة، فأنصفونا فى الحكم عليكم فى عدم الجواب بما ألفته الأدباء شريعة و سنة، و بالجملة ففؤادى لمجدكم صحيح لا سقيم، و اعتدادى بودكم منتج غير عقيم، و اللّه تعالى يجعل الحب

فى ذاته الكريمة، و يقضى عن الأحبة دين المحبة، فيوفى كل غريم غريمه، و يصلكم إن شاء اللّه تعالى هذا المرقوم، و به سؤال منظوم، لتتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد اللّه، و الصلاة و السلام على مولانا رسول اللّه، صلى اللّه عليه و سلم. [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۳

إلى المقرىّ الحبر صدر الأئمة من المخلص الوداد أزكى تحية

فذلك يا صدر الصدور عجالة لتسمح بالجواب عمّا أكنت

فتى قد رأى عند العذارى فتية محرّمة عند الزوال فحلّت

و عادت حراما عند عصر فعندما عشاء أتى عادت حلالا تجلّت

و فى صبح ثانى اليوم عادت محرّما و زالت زوالا منه فى غير مرية

و فى ظهره حلت فطابت قريرة و فى عصره محرّما قد تبدت

و عند العشاء بالضّرورة حلّلت و ذلك بعد غرم مال كفدية

و فى صبحه عادت حراما ترى به بروق سيوف لامعات بسنة

و كان يضيق حسرة و تأسّفا و حلت له وقت العشاء و تمت

و عن أمة أيضا يموت سريّها قد اولدها فى ملكه بعد وطأة

و عادت لمملوك السرىّ حليلة بعقد نكاح بعد من غير شبهة

فجاءت ببنت، هل لها من تزوّج بنجل السرىّ؟ بيّنوا لى قصتى

فإن السيورى مانع من تزوج له بابنة منها بتلك القضية

و ما الفرق بينها و بين التى أتى بها ابن أبى زيد بأوضح حجة

و عن مشتر مملوكة غير محرم و مسلمة شرا صحيحا بشرعة

و ليس بملكه له وطؤها يرى جوازا على التأبيد من حين حلت

و ما طالق من عدّة خرجت و لا يجوز على التأبيد فى خير ملة

نكاح لها من واحد و مطلق لها غير معصوم ترى فى الشريعة

و تمت بحمد اللّه مبدية لكم سلاما كما أبدته فى صدر طلعة

و تقرير السؤال الثانى: أمة أولدها سيدها فصارت حرة، فمات عنها السيد، ثم تزوجها عبد سيدها، فأتت ببنت، أما لولد سيدها أن يتزوّج هذه البنت؟ فإن الرجل له أن يتزوّج بنت زوجة أبيه من رجل غيره، و هذه سرّيّة أبيه، فإن الإمام السيورى يمنع هذه المسألة، و ما الفرق بينهما؟ و تصلكم أيضا إن شاء اللّه تعالى عجالة رجزية، فى مآثركم السنية، ضمنتها أشطارا من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۴

الألفية، فتفضلوا بالإغضاء، و حسن الدعاء، أن يجمع اللّه شملنا بكم فى تلك الأماكن المشرفة، ثم المأمول من سيدنا و مولانا أن يتفضل علينا بكتاب «طبقات القراء» للإمام الحافظ الدانى، إذ ليس عندنا منه نسخة، و أما تأليفكم الكثير الفوائد المسمى «بأزهار الرياض، فى أخبار عياض، و ما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح و للعقل ارتياض» فقد انتشر فى هذه الأقطار المراكشية، و انتسخت منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدى أحمد بن عبد العزيز بن الولى سيدى أبى عمرو، و كسا اللّه سبحانه تأليفكم المذكور جلباب القبول، فما رآه أحد إلا نسخه، و عندى النسخة التى كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن، و على هامشها فى بعض الأماكن خطكم الرائق، و بعض التنبيهات من كلامكم الفائق، و أعلمونا بتأليفكم الذى سميتموه «قطف المهتصر، من أفنان المختصر» هل خرج من المبيضة أم لا؟

و وددنا لو اتصلنا منه بنسخة، و قد اشتاق فقهاء هذا الإقليم إليه غاية كالفقيه قاضي القضاة محبكم سيدى عيسى و غيره من أخلاء خليل، فى كل محفل جليل، إلى أن قال: و أنا أتمثل بكلام مولانا علىّ كرم اللّه وجهه حيث يقول، تبركا به: [بحر المتقارب]

رضيت بما قسم اللّه لى و فوّضت أمرى إلى خالقى

كما أحسن اللّه فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

ولى حفظكم اللّه تعالى تخميس على البيتين، و ذلك أنه نزلت بى شدة لا يمكن الخلاص منها عادة، فما فرغت من تخميسهما إلا و جاء الفرج فى الحين، و نصه: [بحر المتقارب]

إذا أزمة نزلت قبلى و ضقت و ضاقت بها حيلى

تذكرت بيت الإمام على (رضيت بما قسم اللّه لى

و فوّضت أمرى إلى خالقى)

لأن الإله اللطيف قضى على خلقه حكمه المرتضى

فسلّم و قل قول من فوّضا (كما أحسن اللّه فيما مضى

كذلك يحسن فيما بقى)

فعذرا- أعزكم اللّه سبحانه و نفع بإخائكم!- عن إغباب المراسلة بالمكاتبة عذرا،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۵

و صبرا على بعد اللقاء صبرا، فإن يقدر فى هذه الدار نلنا فيها ما نتمنى، و إلا فلن نعدم بفضل اللّه جزاء الحسنى، و لقاء لا يبيد و لا يفنى، مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، إيقانا بالوعد و تحقيقا، فمن أوجب له محبته، أدخله جنته، و أحضره مأدبته، و كمّل له أمنيته، جعلنا اللّه من المتحابين فى جلاله، بكرمه و إفضاله! و كتبه محبكم و معظمكم، الواصل حبل وده بودكم، المشرف لعهدكم، المنوه بفخركم و مجدكم، العبد الفقير الحقير، المشفق على نفسه من التقصير و الذنب الكبير، محمد بن يوسف التاملى، غفر اللّه ذنبه! و ستر عيبه! و جبر قلبه! و جمعه بمن أحبه! بالنبى صلى اللّه عليه و سلم، فى عاشوراء المحرم فاتح سنة ثمانية و ثلاثين و ألف، انتهى.

و صحبة هذا المكتوب ورقة نصها: بسم اللّه الرحمن الرحيم، و صلى اللّه على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم. [بحر الرجز]

للّه در العالم الجيّانى كأنما ينظر بالعيان

للمقّرىّ العالم المفضال منظّرا بأحسن المثال

و عالم بأننى من بعده أشير فى نظامنا لقصده

وها أنا بالله أستعين مضمنا و ربّنا المعين

بالشطر من ألفية ابن مالك أيدنا اللّه لنسج ذلك

قال محمد عبيد المالك و سالك الأحسن من مسالك

نشير بالتضمين للتحرير المقرى الفاضل الشهير

ذاك الإمام ذو العلاء و الهمم (كعلم الأشخاص لفظا و هو عم)

فلن ترى فى علمه مثيلا (مستوجبا ثنائى الجميلا)

و مدحه عندى لازم أتى (فى النظم و النثر الصحيح مثبتا)

أوصاف سيدى بهذا الرجز (تقرب الأقصى بلفظ موجز)

فهو الذى له المعالى تعتزى (و تبسط البذل بوعد منجز)

رتبته فوق العلا يا من فهم (كلامنا لفظ مفيد كاستقم)

و كم أفاد دهره من تحف (مبدى تأوّل بلا تكلف)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۶

لقد رقى على المقام الطاهر (كطاهر القلب جميل الظاهر)

و فضله للطالبين وجدا (على الذى فى رفعه قد عهدا)

قد حصل العلم و حرر السير (و ما بإلا أو بإنما انحصر)

فى كل فن ماهر صفه و لا (يكون إلا غاية الذى تلا)

سيرته جرت على نهج الهدى (و لا يلى إلا اختيارا أبدا)

و علمه و فضله لا ينكر (مما به عنه مبينا يخبر)

يقول دائما بصدر انشرح (اعرف بنا فإننا نلنا المنح)

يقول مرحبا لقاصديه من (يصل إلينا يستعن بنا يعن)

صدق مقالتى و كن متبعا (و لم يكن تصريفه ممتنعا)

و انهض إليه فهو بالمشاهده (الخبر الجزء المتم الفائدة)

و الزم جنابه و إياك الملل (إن يستطل وصل و إن لم يستطل)

و اقصد جنابه ترى مآثره (و اللّه يقضى بهبات وافره)

و انسب له فإنه ابن معطى (و يقتضى رضا بغير سخط)

و اجعله نصب العين و القلب و لا (تعدل به فهو يضاهى المثلا)

قد طالما أفاد علم مالك (أحمد ربى اللّه خير مالك)

و حاسد له و مبغض زمن (و هالك و ميّت به قمن)

و ليس يشفى مبغض له أعل (عينا و فى مثل هراوة جعل)

يقول عبد ربه محمد (فى نحو خير القول إنى أحمد)

و هو بدهره عظيم الأمل (مروّع القلب قليل الحيل)

فادع له و سادة قد حضروا (و افعل أوافق نغتبط إذ تشكر)

و اجبره بالدعا عساه يغتنم (فجره و فتح عينه التزم)

أنشدت فيكم ذا و قال قائل (فى نحو نعم ما يقول الفاضل)

أدعو لكم بالستر فى كل زمن (لكونه بمضمر الرفع اقترن)

مآثر لكم كثيرة سوى (ما مر فاقبل منه ما عدل روى)

قد انتهى تعريف ذا المعرف (و ذو تمام ما برفع يكتفى)

لأنتم تاج الأئمة الأول (و ما بجمعه عنيت قد كمل)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۷

فاللّه يبقيكم لدينا و كفى (مصليا على الرسول المصطفى)

تترى عليه دائما منعطفا (و آله المستكملين الشرفا)

و من ذلك ما كتبه لى بعض الأصحاب ممن كان يقرأ على بالمغرب، و صورته: سيدنا و سيد أهل الإسلام، حامل راية علوم الأمة

الأحمديـة، على صاحبها الصـلاة و السـلام، آية اللّه فى المعانى و المعالى، و حسـنة الأيام و الليالى، و واسـطة عقود الجواهر و اللآلى، إمام مذهب مالك و الأشـعرى و البخارى، و الواقدى و الخليل، العلامّة القدوة السيد الكبير الشهير الجليل، ذو الأخلاق العذبة المذاق، و الشـمائل المفصـحة عن طيب الأـصول و الأـعراق، كبير زمـانه دون منـازع، و عالم أوانه من غير منكر و لا مـدافع، شـيخنا و معلمنا و مفيدنا و حبيب قلوبنا مولانا شـيخ الشـيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقرّى المغربى التلمسانى نزيل فاس ثم الديار المصرية، حفظه اللّه تعـالى فى مواطن اسـتقراره! و رفع درجته بإشـادة فخـاره على مناره! عن شوق يود له الكاتب أن لو كان فى طى كتابه، و توق إلى مشاهـدتكم هـو الغايـة فى بـابه، بعـد إهـداء السـلام المحفوف بـأنواع التحيـات و الكرامـات و البركـات، الـدائم مـا دامت فى الوجود السـكنات و الحركـات، لمقـامكم الأـكبر، و محفلكم الأشـهر، و من تعلق بأذيـالكم أو كـان مسـتمطرا لنوالكم، أو صـبت عليه شآبيب أفضالكم، من أهل و محب و صاحب و خديم، هذا و إنه ينهى إلى الوداد القديم، أن أهل المغرب الأدنى و الأقصـى حاضـرة و باديه، كلهم يتفكهون بل يتقوتون بذكركم، و يشـتاقون لرؤية وجهكم، و يتلذذون بطيب أخباركم، و إن كان المغرب الآن فى تفاقم أحوال، و تراكم أهوال، فى الغاية مدائن و بوادى، لا سـيما مدينة فاس فإنها فى شر عظيم، و أميرها مولاى عبد الملك مات فى السنة السابعة و الثلاثين بل فى ذى الحجة قبلها، و فى المحرم من سـنة سـبع و ثلاثين، توفى ملك المغرب السلطان أبو المعالى زيدان و بويع من بعده ابنه مولاـى عبـد الملـك، و تقاتـل مع أخويه الأميرين الوليـد و أحمـد و هزمهما، و إلى اللّه عاقبـة الأمور، و أهل داركم بفاس بخير و عافية، و نعم ضافية، سوى ما أدركهم من طول الغيبة، نسأل اللّه تعالى أن يملأ بقدومكم العيبة، و محبكم الأكبر، و وليكم لأصغر، سيد أهل المغرب اليوم و شيخ الطريقة، و المربى فى سلوك أهل الحقيقة، العارف باللّه الشيخ الربانى، ذو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۸

المقامات و الكرامات سـيدى محمـد بن أبى بكر الدلائى، يحييكم، و يعظم قدركم، و لسانه لكم ذاكر ناشـر شاكر، و هو على خير، و قـد اجتمعت علىّ من بركتكم فى مدينـة سـلا جماعـة من طلاب العلم و فتح اللّه تعالى على بتآليف عديدة منها «كفاية الطالب النبيل، فى حل ألفاظ مختصـر خليل» و منها شـرح على المنهج المنتخب للزّقاق فى قواعد مالك، و منظومة فى أكثر من ألف بيت فى السير و الشـمائل، و منهـا فى رجـال البخـارى و لاـ كنسـج الكلابـاذى، و منهـا خطـب، و غير ذلـك، و الكـل من بركتكم، و نسـبته إليكم فى صحيفتكم، و السـلام من ولـدكم المقر بفضـلكم تراب نعالكم على بن عبد الواحد الأنصارى، لطف اللّه تعالى به، و حامله كبير كبراء قومه ممن يحبكم و يعزكم و ما تفعلوا معه خير فلن تكفروه، و السلام، انتهى.

و منهـا كتـاب وافـانى من علم قسـنطينة و صالحهـا و كبيرهـا و مفتيهـا سـلالة العلمـاء الأكابر، و وارث المجـد كابرا عن كابر، المؤلف العلامة سيدى الشيخ عبد الكريم الفكّون حفظه اللّه، نصه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، و صلى اللّه على من أنزل عليه فى القرآن وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (۴) [القلم: ۴] و آله و صحبه و سلم أفضل التسـليم، من مدنّس الإزار، المتسربل بسرابيل الخطايا و الأوزار، الراجى للتنصل منه رحمة العزيز الغفار، عبد اللّه عبد الكريم بن محمد الفكون، أصـلح اللّه بالتقوى حاله! و بلغه من متابعة السـنة النبوية آماله! إلى الشـيخ الشـهير، الصدر النحرير، ذى الفهم الثاقب و الحفظ الغزير، الأحبّ فى اللّه المؤاخى من أجله سـيدى أبى العباس أحمد المقرى، أحمد اللّه عاقبتى و عاقبته! و أسبل على الجميع عافيته! أمّا بعد فإنى أحمد اللّه إليك، و أصـلى على نبيه سيدنا محمد صلى اللّه عليه و سلم، و لا أريد إلا صالح الدعاء و طلبه منكم، فإنى أحوج النـاس إليه، و أشـدهم فى ظنى إلحاحـا عليه، لما تحققت من أحوال نفسـى الأمّارة، و اسـتبطنت من دخيلائها المثابرة على حب الـدنيا الغرّارة، كأنهـا عميت عن الأـهوال، التى أشـابت رؤوس الأطفـال، و قطعت أعنـاق كمل الرجال، فتراها فى لجـج هواها حائضـة، و فى ميدان شهواتها راكضة، طغت فى غيها و ما لانت، و جمحت فما انقادت و لا استقامت، فويلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۹۹

ثم ويلى من يوم تبرز فيه القبائـح، و تنشـر الفضائـح، و منـادى العـدل قـائم بين العالمين، وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَـةِ فَلا تُظْلَمُ

نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ (۴۷) [الأنبياء: ۴۷]، فاللّه أسأل حسن الإلطاف، و الستر عما ارتكبناه من التعدى و الإسراف، و أن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، و ممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم، سيدنا و مولانا و شفيعنا النبى الرؤوف الرحيم، و لنكفّ من القلم عنانه، لما أرجو من أجله ثواب اللّه سبحانه، و قد اتصل بيدى جوابكم، أطال اللّه فى العلم بقاءكم، فرأيت من عذوبة ألفاظكم، و بلاغة خطابكم، ما يذهل من العلماء فحولها، و ينيلها لدى الجثوّ لسماعه سؤلها و مأمولها، بيد ما فيه من أوصاف من أمره قاصر، و عن الطاعة و الاجتهاد فاتر، و أصدق قول فيه عند مخبره و مرآه، أن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه، لكن يجازيكم المولى بحسن النية، البلوغ فى بحبوحة الجنان غاية الأمنية، و قد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها، على أنى غير قائم بفرضها و نفلها، فاللّه تعالى يمدّكم بمعونته، و يجعلكم من أهل مناجاته فى حضرته، و يسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته، و قد ساعد البنان الجنان، فى إجابتكم بوزنها و قافيتها، و العذر لى أننى لست من أهل هذا الشان، و الاعتراف بأننى جبان و أىّ جبان، و الكمال لكم فى الرضا و القبول، و الكريم يغضى عن عورات الأحمق الجهول، و ظننا حققه اللّه تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى «إضاءة الدّجنّة» تقييدا، أرجو من اللّه توفيقا و تسديدا، بحسب قدرى لا على قدركم، و على مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم، و إن ساعد الأوان، و قضى بتيسيره ربّ الزمان، فآتى به إن شاء اللّه الآجل معى لأننى بالأشواق، إلى حضرة راكب البراق، و مخترق السبع الطباق، و كنت عازما على أن أبعث لكم من الأبيات أكثر من الواقع، إلا أن الرفقة أعجلت، و صادفتنى أيام موت قعيدة البيت، فلم يتيسر عاجلا إلا ما ذكر و على اللّه قصد السبيل، و هو حسبى و نعم الوكيل: [بحر مخلع البسيط]

يا نخبة الدهر فى الدراية علما تعاضده الروايه

لا زلت بحرا بكل فنّ يروى به الطالبون غايه

لقد تصدّرت فى المعالى كما تعاليت فى العنايه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۰

من فيك تستنظم المعانى بلّغت فى حسنها النهايه

رقّاك مولاك كل مرقّى تحوى به القرب و الولايه

أعجوبة ما لها نظير فى الحفظ و الفهم و الهدايه

يا أحمد المقرىّ دامت بشراك تصحبها الرعايه

بجاه خير العباد طرا و الآل و الصحب و النّقايه

صلى عليه الإله تترى نكفى بها الشر و الغوايه

و أختم كتابى بالصلاة و السلام على سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كتب بغاية عجلة يوم السبت سابع أو ثامن رجب، من عام ثمانية و ثلاثين و ألف للهجرة على صاحبها الصلاة و السلام! انتهى.

و المذكور عالم المغرب الأوسط غير مدافع، و له سلف علماء ذوو شهرة، و لهم فى الأدب الباع المديد، غير أن المذكور مائل إلى التصوّف، و نعم ما فعل، تقبل اللّه تعالى عملى و عمله! و بلغ كلا منا أمله! و لأشهر أسلافه العلّامة الشيخ حسن بن على بن عمر الفكون القسنطينى أحد أشياخ العبدرى صاحب الرحلة قصيدة مشهورة عند العلماء بالمغرب، و هى من در النظام، و حرّ الكلام، و قد ضمنها ذكر البلاد التى رآها فى ارتحاله من قسنطينة إلى مراكش، و أوّلها: [بحر الوافر]

ألا قل للسّرىّ ابن السّرىّ أبى البدر الجواد الأريحىّ

و منها:

و كنت أظنّ أن الناس طرا سوى زيد و عمرو غير شىّ

فلما جئت ببلة خير دار أمالتنى بكل رشا أبىّ

و كم أورت ظباء بنى أوار أوار الشوق بالريق الشهى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۱

و جئت بجايهٔ فجلت بدورا يضيق بوصفها حرف الرويّ

و فى أرض الجزائر هام قلبى بمعسول المراشف كوثريّ

و فى مليانهٔ قد ذبت شوقا بلين العطف و القلب القسيّ

و فى تنس نسيت جميل صبرى و همت بكل ذى وجه وضى

و فى مازونهٔ ما زلت صبّا بوسنان المحاجر لوذعى

و فى وهران قد أمسيت رهنا بظامى الخصر ذى ردف رويّ

و أبدت لى تلمسان بدورا جلبن الشوق للقلب الخلى

و لما جئت وجدهٔ همت وجدا بمنخنث المعاطف معنوى

و حل رشا الرباط رشا رباطى و تيمنى بطرف بابليّ

و أطلع قطر فاس لى شموسا مغاربهنّ فى قلب الشجى

و ما مكناسهٔ إلّا كناس لأحوى الطرف ذى حسن سنى

و إن تسأل عن ارض سلا ففيها ظباء كاسرات للكميّ

و فى مراكش يا ويح قلبى أتى الوادى فطمّ على القريّ

بدور بل شموس بل صباح بهىّ فى بهى فى بهى

أبحن مصارع العشاق لما سعين به فكم ميت وحيّ

بقامهٔ كل أسمر سمهريّ و مقلهٔ كل أبيض مشرفى

إذا أنسيننى حسنا فإنى أنسّيهم هوى غيلان مىّ

فها أنا قد تخذت الغرب دارا و أدعى اليوم بالمراكشى

على أن اشتياقى نحو زيد كشوقك نحو عمرو بالسوى

تقسمنى الهوى شرقا و غربا فيا للمشرقى المغربى

فلى قلب بأرض الشرق عان و جسم حل بالغرب القصى

فهذا بالغدوّ يهيم غربا و ذاك يهيم شرقا بالعشى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۲

فلولا اللّه مت هوى و شوقا و كم للّه من لطف خفى

و قد خرجنا بالاستطراد إلى الطول، و ذلك منا استرسال مع جاذب الأدب، فلنمسك العنان، و اللّه المستعان.

و ما عددناه من القصائد و المقطوعات فى مدح دمشق الشام فهو غيض من فيض، و فى نيتى أن أجمع فى ذلك كتابا حافلا أسميه «نشق عرف دمشق» أو «مشق قلم المدح لدمشق» و لسان حالى الآن ينشد قول بعض الأكابر: [بحر الخفيف]

نحن فى مصر رهن شوق إليكم هل لديكم بالشام شوق إلينا

فعجزنا عن أن ترونا لديكم و أبيتم عن أن نراكم لدينا

و حفظ اللّه عهد من حفظ العه د و وفّى به كما قد وفينا

و قول ابن الصائغ: [بحر المجتث]

وددت لو أن عينى مكان كتبى إليكم
حتى أراكم و أملى أخبار شوقى عليكم

[عود إلى ابن جبير]

رجع إلى ابن جبير رحمه اللّه تعالى:
و من شعره قوله: [البحر السريع]
إياك و الشهرة فى ملبس و البس من الأثواب أسمالها
تواضع الإنسان فى نفسه أشرف للنفس و أسمى لها
و قال: [بحر الطويل]
تنزّه عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس فهو بالحر أشبه
إذا أنت جاوبت السفيه مشاتما فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه
و قال: [الطويل]
أقول و قد حان الوداع و أسلمت قلوب إلى حكم الأسى و مدامع:
أيا ربّ أهلى فى يديك وديعة و ما عدمت صونا لديك الودائع
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۱۰۲
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۳
و قال أبو عبد اللّه بن الحجاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور: [بحر الكامل]
لأبى الحسين مكارم لو أنها عدّت لما فرغت ليوم المحشر
و له علىّ فضائل قد قصرت عن بعض نعماها عظام الأبحر
و قال ابن جبير من قصيدة مطلعها: [بحر الرمل]
يا وفود اللّه فزتم بالمنى فهنيئا لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات بعدكم فلهذا برّح الشوق بنا
نحن فى الغرب و يجرى ذكركم بغروب الدمع يجرى هتّنا
و منها:
فيناديه على شحط النّوى من لنا يوما فقلت ملّنا
سر بنا يا حادى الركب عسى أن نلاقى يوم جمع سربنا
ما دعا داعى النوى لما دعا غير صب شفه برح العنا
شم لنا البرق إذا لاح و قل جمع اللّه بجمع شملنا
علنا نلقى خيالا منكم بلذيذ الذكر و هنا علنا
لو حنا الدهر علينا لقضى باجتماع بكم بالمنحنى
لاح برق موهنا من نحوكم فلعمرى ما هنا العيش هنا
أنتم الأحباب نشكو بعدكم هل شكوتم بعدنا من بعدنا
و له رحمه اللّه تعالى من قصيدة مطوّلة أوّلها: [بحر المتقارب]

لعل بشير الرضا و القبول يعلل بالوصل قلب الخليل

و له أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة، على صاحبها الصلاة و أتم السلام! و هى ثلاثة و ثلاثون بيتا من الغر، أولها: [بحر المتقارب]

أقول و آنست بالليل نارا لعل سراج الهدى قد أنارا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۴

و إلا فما بال أفق الدجى كأن سنا البرق فيه استطارا

و نحن من الليل فى حندس فما باله قد تجلّى نهارا

و كان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة، ثم رفضها و زهد فيها.

و قال صاحب «الملتمس» فى حقه: الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير، ممن لقيته و جالسته كثيرا و رويت عنه، و أصله من شاطبة، و كان أبوه أبو جعفر من كتابها و رؤسائها، ذكره ابن اليسع فى تاريخه، و نشأ أبو الحسين على طريقة أبيه، و تولع بغرناطة، فسكن بها، قال:

و مما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بإشبيلية: [بحر الوافر]

أبا عمران قد خلّفت قلبى لديك و أنت أهل للوديعه

صحبت بك الزمان أخا وفاء فها هو قد تنمّر للقطيعه

قال: و كان من أهل المروءات، عاشقا فى قضاء الحوائج، و السعى فى حقوق الإخوان، و المبادرة لإيناس الغرباء، و فى ذلك يقول: [بحر الرمل]

يحسب الناس بأنى متعب فى الشفاعات و تكليف الورى

و الذى يتعبهم من ذاك لى راحة فى غيرها لن أفكرا

و بودى لو أقضّى العمر فى خدمة الطلاب حتى فى الكرى

قال: و من أبدع ما أنشده رحمه اللّه تعالى أول رحلته: [الخفيف]

طال شوقى إلى بقاع ثلاث لا تشدّ الرحال إلا إليها

إن للنفس فى سماء الأمانى طائرا لا يحوم إلا عليها

قصّ منه الجناح فهو مهيض كلّ يوم يرجو الوقوع لديها

و قال: [بحر المتقارب]

إذا بلغ العبد أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أمّ له

فإن زار قبر نبى الهدى فقد أكمل اللّه ما أمّله

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۵

و عاد رحمه اللّه تعالى إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التى حلّ فيها دمشق و الموصل و بغداد، و ركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج، فعطب فى خليج صقلية الضيق، و قاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ۵۸۱، ثم أعاد المسير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدم.

و من شعره أيضا: [بحر الخفيف]

لى صديق خسرت فيه ودادى حين صارت سلامتى منه ربحا

حسن القول سيىء الفعل كالج زار سمّى و أتبع القول ذبحا

و حدّث رحمه اللّه تعالى بكتاب «الشفاء» عن أبى عبد اللّه محمد بن عيسى التميمى عن القاضى عياض، و لما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى و أبو الحسن يحيى بن على القرشى.

و توفى ابن جبير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع و العشرين من شعبان سنة ۶۱۴، و الدعاء عند قبره مستجاب، قاله ابن الرقيق رحمه اللّه تعالى و قال ابن الرقيق: فى السنة بعدها.

و قال أبو الربيع بن سالم: أنشدنى أبو محمد عبد اللّه بن التميمى البجائى، و يعرف بابن الخطيب، لأبى الحسين بن جبير، و قال: و هو مما كتب به إلىّ من الديار المصرية فى رحلته الأخيرة لما بلغه ولايتى قضاء سبتة، و كان أبو الحسين سكنها قبل ذلك، و توفيت هنالك زوجته بنت أبى جعفر الوقّشى فدفنها بها: [بحر المتقارب]

بسبتة لى سكن فى الثّرى و خلّ كريم إليها أتى

فلو أستطيع ركبت الهوا فزرت بها الحىّ و الميتا

و أنشد ابن جبير رحمه اللّه تعالى لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة، أو فى طريقها قوله: [بحر البسيط]

لى نحو أرض المنى من شرق أندلس شوق يؤلف بين الماء و القبس

إلى آخرها.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۶

و من شعره قوله: [بحر مخلع البسيط]

يا خير مولى دعاه عبد أعمل فى الباطل اجتهاده

هب لى ما قد علمت منى يا عالم الغيب و الشهاده

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر المتقارب]

و إنى لأوثر من أصطفى و أغضى على زلة العاثر

و أهوى الزيارة ممن أحب لأعتقد الفضل للزائر

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر البسيط]

عجبت للمرء فى دنياه تطمعه فى العيش و الأجل المحتوم يقطعه

يمسى و يصبح فى عشواء يخبطها أعمى البصيرة و الآمال تخدعه

يغتر بالدهر مسرورا بصحبته و قد تيقن أن الدهر يصرعه

و يجمع المال حرصا لا يفارقه و قد درى أنه للغير يجمعه

تراه يشفق من تضييع درهمه و ليس يشفق من دين يضيعه

و أسوأ الناس تدبيرا لعاقبة من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

و قال: [بحر الطويل]

صبرت على غدر الزمان و حقده و شاب لى السم الزعاف بشهده

و جرّبت إخوان الزمان فلم أجد صديقا جميل الغيب فى حال بعده

و كم صاحب عاشرته و ألفته فما دام لى يوما على حسن عهده

و كم غرنى تحسين ظنى به فلم يضىء لى على طول اقتداحى لزنده

و أغرب من عنقاء فى الدهر مغرب أخو ثقة يسقيك صافى وده

بنفسك صادم كلّ أمر تريده فليس مضاء السيف إلا بحده

و عزمك جرّد عند كل مهمة فما نافع مكث الحسام بغمده

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۷

و شاهدت فى الأسفار كل عجيبة فلم أر من قد نال جدّا بجدّه

فكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها فأحسن أحوال الفتى حسن قصده

و ما يحرم الإنسان رزقا لعجزه كما لا ينال الرزق يوما بكدّه

حظوظ الفتى من شقوة و سعادة جرت بقضاء لا سبيل لرده

و قال: [بحر البسيط]

الناس مثل ظروف حشوها صبر و فوق أفواهها شىء من العسل

تغرّ ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخل

و قال: [بحر المتقارب]

تغير إخوان هذا الزمان و كل صديق عراه الخلل

و كانوا قديما على صحة فقد داخلتهم حروف العلل

قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البدل

و قد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور، و رأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر، و هو قوله: [بحر المتقارب]

ثكلت أخلّاء هذا الزمان فعندى مما جنوه خلل

قضيت التعجب من شأنهم فصرت أطالع باب البدل

و لابن جبير رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

من اللّه فاسأل كل أمر تريده فما يملك الإنسان نفعا و لا ضرا

و لا تتواضع للولاة فإنهم من الكبر فى حال تموج بهم سكرا

و إياك أن ترضى بتقبيل راحة فقد قيل عنها إنها السجدة الصغرى

و هو نحو قول القائل: [بحر الخفيف]

[قل لنصر و المرء فى دولة السلطان أعمى ما دام يدعى أميرا]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۸

[فإذا زالت الولاية عنه و استوى بالرّجال عاد بصيرا]

[و قال ابن جبير، رحمه اللّه تعالى]: [بحر الخفيف]

أيّها المستطيل بالبغى أقصر ربّما طأطأ الزّمان الرّؤوسا

و تذكّر قول الإله تعالى إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى و قال، و قد شهد العيد بطندتة من قرى مصر: [بحر الطويل]

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة بأحواز مصر و الأحبة قد بانوا

فقلت لخلّى فى النوى جد بمدمع فليس لنا إلا المدامع قربان

و قال: [بحر السريع]

قد أحدث الناس أمورا فلا تعمل بها إنى امرؤ ناصح

فما جماع الخير إلا الذى كان عليه السّلف الصالح

و قال: [بحر مجزوء الرمل]

رب إن لم تؤتنى سعة فاطو عنى فضلة العمر

لا أحب اللبث فى زمن حاجتى فيه إلى البشر

فهم كسر لمنجبر ما هم جبر لمنكسر

و لما وصل ابن جبير- رحمه اللّه تعالى!- إلى مكة فى ۱۲ ربيع الآخر سنة ۵۷۹ أنشد قصيدته التى أولها: [بحر المتقارب]

بلغت المنى و حللت الحرم فعاد شبابك بعد الهرم

فأهلا بمكة أهلا بها و شكرا لمن شكره يلتزم

و هى طويلة، و سيأتى بعضها.

و قال رحمه اللّه تعالى عند تحركه للرحلة الحجازية: [بحر الوافر]

أقول و قد دعا للخير داع حننت له حنين المستهام

حرام أن يلذ لى اغتماض و لم أرحل إلى البيت الحرام

و لا طافت بى الآمال إن لم أطف ما بين زمزم و المقام

و لا طابت حياة لى إذا لم أزر فى طيبة خير الأنام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۰۹

و أهديه السلام و أقتضيه رضا يدنى إلى دار السلام

و قال: [بحر المتقارب]

هنيئا لمن حجّ بيت الهدى و حطّ عن النفس أوزارها

و إن السعادة مضمونة لمن حج طيبة أو زارها

و لنختم ترجمته بقوله: [بحر الطويل]

أحب النبى المصطفى و ابن عمه عليا و سبطيه و فاطمة الزهرا

هم أهل بيت أذهب الرجس عنهم و أطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا

موالاتهم فرض على كل مسلم و حبهم أسنى الذخائر للأخرى

و ما أنا للصّحب الكرام بمبغض فإنى أرى البغضاء فى حقهم كفرا

هم جاهدوا فى اللّه حق جهاده و هم نصروا دين الهدى بالظّبا نصرا

عليهم سلام اللّه ما دام ذكرهم لدى الملإ الأعلى و أكرم به ذاكرا

و قوله فى آخره الميمية: [بحر المتقارب]

نبى شفاعته عصمة فيوم التنادى به يعتصم

عسى أن تجاب لنا دعوة لديه فنكفى بها ما أهم

و يرعى لزواره فى غد ذماما فما زال يرعى الذّمم

عليه السلام، و طوبى لمن ألم بتربته فاستلم

أخى كم نتابع أهواءنا و نخبط عشواءها فى الظلم

رويدك جرت فعج و اقتصد أمامك نهج الطريق الأعم

و تب قبل عض بنان الأسى و من قبل قرعك سنّ الندم

و منها:

و قل ربّ هب رحمة فى غد لعبد بسيما العصاة اتسم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۰

جرى فى ميادين عصيانه مسيئا و دان بكفر النعم

فيا رب صفحك عما جنى و يا رب عفوك عما اجترم

۱۸۰- و من الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر بن عيشون.

قال الفتح: رجل حلّ المشيّدات و البلاقع، و حكى النسرين الطائر و الواقع، و استدرّ خلفى البؤس و النعيم، و قعد مقعد البائس و الزعيم، فآونة فى سماط، و أخرى بين درانك و أنماط، و يوما فى ناووس، و أخرى فى مجلس مأنوس، رحل إلى المشرق فلم يحمد رحلته، و لم يعلق بأمل نحلته، فارتد على عقبه، و ردّ من حبالة الفوت إلى منتظره و مرتقبه، و مع هذا فله تحقق بالأدب، و تدفق طبع إذا مدح أو نسب، و قد أثبتّ له ما تعلم حقيقة نفاذه، و ترى سرعة وجده فى طريق الإحسان و إغذاذه.

ثم قال: و أخبرنى أنه دخل مصر و هو سار فى ظلم البوس، عار من كل لبوس، قد خلا من النقد كيسه، و تخلى عنه إلا تعذيره و تنكيسه، فنزل بأحد شوارعها لا يفترش إلا نكده، و لا يتوسّد إلا عضده، و بات بليلة ابن عبدل، تهب عليه صرصر لا ينفح منها عنبر و لا مندل، فلما كان من السحر دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله، و فرط إمحاله، و أعلمه أن الأفضل ابن أمير الجيوش استدعاه، و لو ارتاد جوده بقطعة يغنيها له لأخصب مرعاه، فصنع له فى حينه: [بحر البسيط]

قل للملوك و إن كانت لهم همم تأوى إليها الأمانى غير متّئد

إذا وصلت بشاهنشاه لى سببا فلن أبالى بمن منهم نفضت يدى

من واجه الشمس لم يعدل بها قمرا يعشو إلى ضوئه لو كان ذا رمد

فلما كان من الغد وافاه فدفع إليه خمسين مثقالا مصرية و كسوة و أعلمه أنه غناه، وجود الإظهار للفظه و معناه، و كرره، حتى أثبته فى سمعه و قرره، فسأله عن قائله فأعلمه بقلته،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۱

و كلمه فى رفع خلّته، فأمر له بذلك.

و له أيضا رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

قصدت على أن الزيارة سنة يؤكّدها فرض من الود واجب

فألفيت بابا سهّل اللّه إذنه و لكن عليه من عبوسك حاجب

مرضت و مرّضت الكلام تثاقلا إلىّ إلى أن خلت أنك عاتب

فلا تتكلف للعبوس مشقة سأرضيك بالهجران إذ أنت غاضب

فلا الأرض تدمير و لا أنت أهلها و لا الرزق إن أعرضت عنّى جانب

و له يستعتبنى: [بحر الطويل]

كتبت و لو وفّيت بركك حقه لما اقتصرت كفى على رقم قرطاس

و نابت عن الخط الخطا و تبادرت فطورا على عينى و طورا على راسى

سل الكأس عنى هل أديرت فلم أصغ مديحك ألحانا يسوغ بها كاسى

و هل نافح الآس الندامى فلم أذع ثنائى أذكى من منافحة الآس

۱۸۱- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطبنى، و هو عبد الملك بن زيادة اللّه.

قال فى الذخيرة: كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام، و حملة ألوية الأقلام، من أهل بيت اشتهروا بالشعر، اشتهار المنازل بالبدر، أراهم طرؤوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة، و انتثار شمل الطاعة، و أناخوا فى ظلها، و لحقوا بسروات أهلها، و أبو مضر أبوه زيادة اللّه بن على التميمى الطبنى هو أوّل من بنى بيت شرفهم، و رفع فى الأندلس صوته بنباهة سلفهم.

قال ابن حيان: و كان أبو مضر نديم محمد بن أبى عامر أمتع الناس حديثا و مشاهدة، و أنصفهم ظرفا، و أحذقهم بأبواب الشّحذ و الملاطفة، و آخذهم بقلوب الملوك و الجلّة، و أنظمهم لشمل إفادة و نجعة، انتهى المقصود منه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۲

ثم قال فى الذخيرة: فأمّا ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث و الرواية، و رحل إلى المشرق، و سمع من جماعة من المحدثين بمصر و الحجاز، و قتل بقرطبة سنة سبع و خمسين و أربعمائة، انتهى.

و قد ذكر قصة قتله المستبشعة و اتهم باغتياله ابنه.

و من نظم أبى مروان الطّبنى المذكور ما وجده صاحب الذخيرة فى بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال: لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبى عامر على الحذلمى فى مجلسه و ضربه ضربا موجعا، و أقرّ بذلك أعين مطالبيه، قال أبو مروان الطّبنى فيه: [بحر المنسرح]

شكرت للعامرىّ ما صنعا و لم أقل للحذيلمىّ لعا

ليث عرين عدا بعزته مفترسا فى وجاره ضبعا

لا برحت كفه ممكّنة من الأمانى فنعم ما صنعا

وددت لو كنت شاهدا لهما حتى ترى العين ذلّ ما خضعا

إن طال منه سجوده فلقد طال لغير السجود ما ركعا

قال ابن بسام: و ابن رشيق القائل قبله: [بحر البسيط]

كم ركعة ركع الصّفعان تحت يدى و لم يقل سمع اللّه لمن حمده

ثم قال ابن بسام فى الذخيرة ما نصه: و العرب تقول: «فلان يركع لغير صلاة» إذا كنوا عن عهر الخلوة، و من مليح الكناية لبعض المتقدّمين يخاطب امرأته: [بحر الكامل]

قلت: التشيّع حبّ أصلع هاشم فترفّضى إن شئت أو فتشيعى

قالت: أصيلع هاشم، و تنفّست بأبى و أمى كل شىء أصلع

و لما صنت كتابى هذا من شين الهجاء، و كبرته أن يكون ميدانا للسفهاء، أجريت ههنا طلقا من مليح التعريض، فى إيجاز القريض، مما لا أدب على قائليه، و لا وصمة عظمى على من قيل فيه، و الهجاء ينقسم قسمين: فقسم يسمونه هجو الأشراف و هو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعا، و لا هجوا مستبشعا، و هو طأطأ قديما من الأوائل، وثلّ عرش القبائل، إنما هو

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۳

توبيخ و تعبير، و تقديم و تأخير، كقول النجاشى فى بنى العجلان، و شهرة شعره، منعتنى عن ذكره، و استعدوا عليه عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه، و أنشدوه قول النجاشى فيهم، فدرأ الحد بالشبهات، و فعل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة، و سأله أن ينشد ما قاله فيه، فأنشده قوله: [بحر البسيط]

دع المكارم لا ترحل لبغيتها و اقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فسأل عن ذلك كعب بن زهير، فقال: و اللّه ما أودّ بما قال له حمر النعم، و قال حسان:

لم يهجه، و لكن سلح عليه بعد أن أكل الشّبرم، فهمّ عمر رضى اللّه تعالى عنه بعقابه، ثم استعطفه بشعره المشهور.

و قال عبد الملك بن مروان يوما: أحسابكم يا بنى أميۀ، فما أود أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس و أن الأعشى قال فى: [بحر الطويل]

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم و جاراتكم غرثى يبتن خمائصا

و لما سمع علقمۀ بن علاثۀ هذا البيت بكى، و قال: أ نحن نفعل هذا بجاراتنا؟! و دعا عليه، فما ظنك بشىء يبكى علاثۀ، و قد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال حس.

و قد كان الراعى يقول: هجوت جماعۀ من الشعراء، و ما قلت فيهم ما تستحى العذراء أن تنشده فى خدرها.

و لما قال جرير: [بحر الوافر]

فغضّ الطّرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت و لا كلابا

أطفأ مصباحه و نام، و قد كان بات ليلته يتململ، لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته و شفى غيظه.

قال الراعى: فخرجنا من البصرۀ فما وردنا ماء من مياه العرب إلا و سمعنا البيت قد سبقنا إليه، حتى أتينا حاضر بنى نمير فخرج إلينا النساء و الصبيان يقولون: قبحكم اللّه و قبح ما جئتمونا به!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۴

و القسم الثانى: هو السباب الذى أحدثه جرير أيضا و طبقته، و كان يقول: إذا هجوتم فأضحكوا، و هذا النوع منه لم يهدم قط بيتا، و لا عيرت به قبيلۀ؛ و هو الذى صنّا هذا المجموع عنه، و أعفيناه أن يكون فيه شىء منه، فإن أبا منصور الثعالبىّ كتب منه فى يتيمته ما شانه اسمه، و بقى عليه إثمه.

و من مليح التعريض لأهل أفقنا قول بعضهم فى غلام كان يصحب رجلا يسمى بالبعوضۀ: [بحر المتقارب]

أقول لشادنكم قولۀ و لكنّها رمزۀ غامضه

لزوم البعوض له دائما يدل على أنها حامضه

و أنشدت فى مثله قول بعض أهل الوقت: [بحر البسيط]

بينى و بينك سرّ لا أبوح به الكل يعلمه و اللّه غافره

و حكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال: عاتبت بعض الإخوان عتابا شديدا عن أمر أوجع فيه قلبى، و كان آخر الشعر الذى خاطبته به هذا البيت: [بحر الطويل]

و إنى على ما هاج صدرى و غاظنى ليأمننى من كان عندى له سرّ

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد، و لم يزل يقلق به حتى بكى إلى منه بالدموع، و هذا الباب ممتدّ الأطناب، و يكفى ما مر و يمرّ منه فى أضعاف هذا الكتاب، انتهى كلام ابن بسام فى الذخيرۀ بلفظه.

و لا خفاء أنه عارض بالذخيرۀ يتيمۀ الثعالبى، و لذا قال فى خطبۀ الذخيرۀ: أما بعد حمد اللّه ولى الحمد و أهله، و الصلاۀ على سيدنا محمد خاتم رسله، فإن ثمرۀ هذا الأدب، العالى الرتب، رسالۀ تنثر و ترسل، و أبيات تنظم و تفصل، تنثال تلك انثيال القطار، على صفحات الأزهار، و تتصل هذه اتصال القلائد، على نحور الخرائد، و ما زال فى أفقنا هذا الأندلسى القصىّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّين، و أئمۀ النوعين، قوم هم ما هم طيب مكاسر، و صفاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۵

جواهر، و عذوبۀ موارد و مصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقق، لعب الدجنّ بجفون المؤرق، و جدّوا بفنون السحر المنمق، جدّ

الأعشى ببنات المحلّق، فصبوا على قوالب النجوم، غرائب المنثور و المنظوم، و باهوا غرر الضحى و الأصائل، بعجائب الأشعار و الرسائل، نثر لو رآه البديع لنسى اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، و نظم لو سمعه كثير ما نسب و لا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى و لا نبح، إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام و العراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، و تلوا ذلك كتابا محكما، و أخبارهم الباهرة، و أشعارهم السائرة، مرمى القصيّة، و مناخ الرّذيّة، لا يعمر بها جنان و لا خلد، و لا يصرف فيها لسان و لا يد، فغاظنى منهم ذلك، و أنفت مما هنالك، و أخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى، و تتبع محاسن أهل بلدى و عصرى، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، و تصبح بحوره ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، و وفور علمائه، و قديما ضيعوا العلم و أهله، و ربّ محسن مات إحسانه قبله، و ليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان، و خص أهل المشرق بالإحسان، و قد كتبت لأرباب هذا الشان، من أهل الوقت و الزمان، محاسن تبهر الألباب، و تسحر الشعراء و الكتاب، و لم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية، و لا المدائح العامرية، إذ كان ابن فرج الجيّانى قد رأى رأيى فى النّصفة، و ذهب مذهبى من الأنفة، فأملى فى محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق معارضا لكتاب الزهرة للأصبهانى، فأضربت أنا عما ألف، و لم أعرض لشيء مما صنف، و لا تعدّيت أهل عصرى، مما شاهدته بعمرى أو لحقه أهل دهرى، إذ كل مردّد ثقيل، و كل متكرر مملول، و قد مجّت الأسماع:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند

إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى و القاضى عبد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۶

الوهاب و الوزير ابن المغربى و غيرهم ممن يطول، ما صورته: و إنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبى منصور، فى تأليفه المشهور، المترجم بيتيمة الدهر، فى محاسن أهل العصر، انتهى المقصود منه.

قلت: و تذكرت بما أنشده فى الهجاء قول الباقعة الشاعر المشهور أبى العباس أحمد الغفجومى الشهير بالجوارى و عامة الغرب يقولون الجراوى يهجو قومه بنى غفجوم و هم بربر بتادلا متوصلا بذلك إلى هجو أصلاء فاس بنى الملجوم، و مستطردا فى ذلك ما هو فى اطراده كالماء السجوم، و هو [قوله]: [بحر الكامل]

يا ابن السبيل إذا مررت بتادلا لا تنزلنّ على بنى غفجوم

أرض أغار بها العدو فلن ترى إلا مجاوبة الصدى للبوم

قوم طووا ذكر السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم

لا حظّ فى أموالكم و نوالهم للسائل العافى و لا المحروم

لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصّراخ بدعوة المظلوم

يا ليتنى من غيرهم و لو اننى من أرض فاس من بنى الملجوم

و قد ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحد بنى الملجوم قضاة فاس و أصلائها بيعت أوراق كتبه التى هى غير مجلدة بل متفرقة بستة آلاف دينار، و يكفيك ذلك فى معرفة قدر القوم، و مع ذلك هجاهم بهذا، و اللّه سبحانه يغفر الزلات.

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر من ارتحل من علماء الأندلس إلى البلاد المشرقية المحروسة، فنقول:

[۱۸۲- حبيب بن الوليد بن حبيب المعروف بدحّون]

۱۸۲- و منهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان.

من أهل قرطبة، و يعرف بدحّون [رحل إلى المشرق، و كان فقيها عالما، أديبا شاعرا محسنا، و] رحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن بن

الحكم، و حج، و لقى أهل الحديث

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۷

فكتب عنهم، و قدم بعلم كثير، و كانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها، و هو يلبس الوشى الشامى، إلى أن أوصى إليه الأمير عبد الرحمن بترك ذلك، فتركه، و توفى بعد المائتين.

و من شعره قوله: [بحر الكامل]

قال العذول: و أين قلبك؟ كلما رمت اهتداءك لم يزل متحيرا

قلت: اتئد فالقلب أول خائن لما تغير من هويت تغيرا

و نأى فبان الصبر عنى جملة و بقيت مسلول العزاء كما ترى

و من ولده سعيد بن هشام، و كان أديبا عالما فقيها، رحم اللّه تعالى الجميع!.

و دخل دمشق وطنهم الأقدم و عاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرج الرّخّجى، فوافق دخوله إياها غلاء شديدا و مجاعة أشكت أهلها، فضجوا إلى الرّخجى أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد، فأمر بالنداء فى المدينة على كل من بها من طارىء و ابن سبيل ليخرجوا عنها، و ضرب لهم أجلا- ثلاثة أيام أوعد من تخلف منهم بعدها بالعقاب، فابتدر الغرباء الخروج عنها، و أقام دحّون لم يتحرك، فجيء به إلى الرخّجى بعد الأجل، فقال له: ما بالك عصيت أمرى؟ أو ما سمعت ندائى؟ فقال له دحّون: ذلك النداء الذى وقفنى، فقال له: و كيف؟ فانتمى له، فقال له الرخّجى: صدقت و اللّه إنك لأحقّ بالإقامة فيها منا، فأقم ما أحببت، و انصرف إذا شئت.

و كان لدحّون هذا ابن يقال له بشر بن حبيب، و يعرف بالحبيبى، و هو من المشهورين بقرطبة، و أمه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضى اللّه تعالى عنه! و بنته عبدة بنت بشر مشهورة، و لها رواية عنه، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۱۸۳- و منهم بهلول بن فتح من أهل أقليش

، له رحلة حجّ فيها، و كان رجلا صالحا خيرا، حكى عن نفسه أنه رأى فى منامه بعد قدومه من الحج كأنه بمكة و قائل يقول: انطلق بنا نصلّ مع النبى صلى اللّه عليه و سلم، قال: فكنت أقول لرجل من جيرانى بأقليش: يا أبا فلان انطلق بنا نصلّ مع النبى صلى اللّه عليه و سلم، فيقول لى: لست أجد إلى ذلك سبيلا، فكنت أتوجه و أصلى مع الناس و النبى صلى اللّه عليه و سلم إمامنا، فلما سلم من الصلاة رجع إلى و قال لى: من أين أنت؟ قلت له: من الأندلس، فكان يقول: من أى موضع؟ فكنت أقول: من مدينة أقليش، فيقول لى: أتعرف أبا إسحاق البوّانى؟ فكنت أقول: هو جارى، و كيف لا أعرفه؟ فيقول لى: أقرئه منى السلام.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۸

۱۸۴- و منهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولى، الشاطبى.

روى عن أبى زيد عبد الرحمن بن يعيش المهرى، و رحل حاجا، فسمع منه بالإسكندرية أبو الحسن بن المفضل المقدسى، و حدث عنه بالحديث المسلسل فى الأخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبى محمد عبد العزيز بن عبد اللّه بن سعيد بن خلف الأنصارى عن أبى الحسن طاهر بن مفوّز، و عليه مداره بالأندلس، عن نصر السمرقندى بإسناده، و فيه بعد، قال الحافظ ابن الأبار: و قد رويته مسلسلا من طرق بعضها عن ابن المفضل، و أنبأنى به ابن أبى جمرة عن أبى بحر الأندلسى، عن نصر السمرقندى، فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه ممن سمعه منى، و الحمد للّه تعالى، انتهى.

۱۸۵- و منهم أبو أحمد جعفر بن لبّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن ميمون، اليحصبى.

سكن شاطبة، و أصله من أنشيان عملها، و يكنى أبا الفضل أيضا، حج و سمع أبا طاهر بن عوف و الحافظ السّلفى و أبا عبد اللّه بن الحضرمى و أبا الثناء الحرانى و بدر بن عبد اللّه الحبشى و أبا الحسن بن المفضل و غيرهم، و كان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح و العدالة، حسن الخط، جيد الضبط، سماه التّجيبى فى معجم مشيخته و هو فى عداد أصحابه لاشتراكهما فى السماع بإسكندرية و تركه هنالك، ثم قدم عليه تلمسان من شاطبة فى أضحى سنة ست و ثمانين و خمسمائة، و حكى مما أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد اللّه الكيزانى - و كان شاعرا مجيدا- أتته امرأة مات ولدها، فسألته أن يرثيه، فقال: [بحر المجتث]

تبكى عليه بشجو فقلت لا تندبيه

هذا زمان عجيب قد عاش من مات فيه

و أخذ عنه الحافظ أبو الربيع بن سالم و قال: إنه توفى بعد التسعين و خمسمائة، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۱۹

۱۸۶- و منهم أبو أحمد جعفر بن عبد اللّه بن محمد بن سيدبونه، الخزاعى، العابد.

من أهل قسطنطانية عمل دانية، أخذ القراءات عن ابن هذيل، و سمع منه و من ابن النعمة ببلنسية، و رحل حاجا فأدى الفريضة، و دخل الإسكندرية مرافقا لمن سمع من السّلفى، و لم يسمع منه هو شيئا، قال ابن الأبار: فيما علمت، و قفل إلى بلده مائلا إلى الزهد و الإعراض عن الدنيا، و كان شيخ المتصوفة فى وقته، و علا ذكره، و بعد صيته فى العبادة، إلا أنه كانت فيه غفلة، قال ابن الأبار: [بحر و] رأيته إذ قدم بلنسية لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة و ستمائة، و توفى عن سن عالية تقارب المائة، منتصف ذى القعدة سنة أربع و عشرين و ستمائة، و شهد جنازته بشر كثير من جهات شتى، و انتاب الناس قبره دهرا طويلا يتبركون بزيارته إلى حين إجلاء الروم من كان يشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الأندلس التى تغلبوا عليها، و ذلك فى شهر رمضان سنة خمس و أربعين و ستمائة.

۱۸۷- و منهم أبو جعفر النحوى.

أندلسى نزل مصر، و كان من رؤساء أهل العلم بالنحو، و ممن له حال جليلة ذكره الطّبنى فيما حكاه ابن الأبار.

۱۸۸- و منهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد اللّه، الخزرجى، القرطبى، و كناه بعضهم أبا الفضل.

سمع ببلده من أبى محمد بن عتاب و غيره، و رحل حاجا فأدى الفريضة، و كان أديبا ناظما، كتب عنه أبو محمد العثمانى بالإسكندرية بعض شعره.

۱۸۹- و منهم أبو الحسن جهور بن خلف بن أبى عمر بن قاسم بن ثابت المعافرى.

رحل حاجا إلى المشرق فأدى الفريضة، و سمع بالإسكندرية من أبى طاهر السّلفى سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و سمع أيضا من غيره، و طال مكثه هنالك، و هو- فيما رجحه بعضهم- من أهل غرب الأندلس.

۱۹۰- و منهم أبو على الحسن بن حفص بن الحسن، البهرانى، الأندلسى.

رحل و تجول ببلاد المشرق، فسمع أبا محمد عبد اللّه بن حمّويه و أبا حامد أحمد بن محمد بن رجاء بسرخس، و أبا محمد بن أبى شريح بهراة، و أبا عبد اللّه الحسين بن عبد اللّه المفلحى بالأهواز، و أبا بكر أحمد بن جعفر البغدادى و أبا حامد أحمد بن الخليل و أبا حاتم حامد بن العباس و أبا محمد الحسن بن رشيق بمصر، و قدم دمشق فروى عنه من أهلها تمام بن محمد، و بنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربى و غيره.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۰

ذكره ابن عساكر و قال: أخبرنا أبو عبد اللّه الحسين بن أحمد بن على بن فطيمة و أبو القاسم زاهر بن طاهر قالا: أنا أبو بكر أحمد بن منصور أنا أبو على الحسن بن جعفر القضاعى، و أنا الحسن بن رشيق بمصر، أنا المفضل بن محمد الجندى، أنا أبو مصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لا يحمل العلم عن أهل البدع كلهم، و لا يحمل العلم عمن لم يعرف بالطلب و مجالسة أهل العلم، و لا- يحمل عمن يكذب فى حديث الناس، و إن كان فى حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم صادقا؛ لأن الحديث و العلم إذا سمع من العالم فقد جعل حجة بين الذى سمعه و بين اللّه تبارك و تعالى، و إنما قال فيه «القضاعى» لأن بهراء من قضاعة.

۱۹۱- و منهم أبو على الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد، الأموى.

من أهل دانية، و يعرف بابن برنجال، سمع من أبى بكر بن صاحب الأحباس و أبى عثمان طاهر بن هشام و غيرهما، و له رحلة حج فيها و سمع من أبى إسحاق إبراهيم بن صالح القروى، و ببيت المقدس من أبى الفتح نصر بن إبراهيم سنة خمس و ستين و أربعمائة، و بعسقلان من أبى عبد اللّه محمد بن الحسن بن سعيد التّجيبى، و أخذ عنه كتاب الوقف و الابتداء لابن الأنبارى بسماعه من عبد العزيز الشعيرى عن مؤلفه، و كان فقيها على مذهب مالك، و ولى الأحكام ببلده، و حدّث، و أخذ عنه، و سمع الناس منه بالإسكندرية سنة تسع و ستين، ثم بدانية سنة اثنتين و سبعين و أربعمائة، و توفى فى نحو الخمسمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۹۲- و منهم أبو على الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقى، الجذامى، المالقى.

روى بقرطبة عن أبى محمد بن عتّاب، و عن أبى سكّرة الصّدفى بمرسية سنة ثمان و خمسمائة، و صحب أبا مروان بن مسرّة، و كان من أهل الرواية و التقييد، و كانت له رحلة سمع فيها من أبى طاهر السّلفى مجالسه التى أملاها بسلماس برجب سنة خمس عشرة و خمسمائة حسبما ألفى بخط السلفى، و فى رحلته لقيه أبو على الحسن بن على البطليوسى نزيل مكة، و حدّث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتّنوخى من أهل الإسكندرية بكتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر، و أجاز له إجازة عامة فى السنة السابقة، و قال ابن عساكر فى تاريخه، و ذكر أبا ذر الهروى: سمعت أبا الحسن على بن سليمان المرادى الحافظ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۱

الأندلسى بنيسابور يقول: سمعت أبا على الحسن بن على الأنصارى البطليوسى، قال ابن عساكر: و قد لقيته، و لم أسمعها منه، قال: سمعت أبا على الحسن بن إبراهيم بن تقى الجذامى المالقى يقول: سمعت بعض الشيوخ يقول: قيل لأبى ذر الهروى: أنت من هراة، فمن أين تمذهبت لمالك و الأشعرى؟ فقال: إنى قدمت بغداد أطلب الحديث، فلزمت الدارقطنى فلما كان فى بعض الأيام كنت معه، فاجتاز به القاضى أبو بكر بن الطيب، فأظهر الدارقطنى من إكرامه ما تعجبت منه، فلما فارقه قلت: أيها الشيخ الإمام من هذا الذى أظهرت من إكرامه ما رأيت؟ فقال: أو ما تعرفه؟ قلت: لا، فقال: هذا سيف السنة أبو بكر الأشعرى، فلزمت القاضى منذ ذلك، و اقتديت به فى مذهبه، انتهى.

۱۹۳- و منهم أبو على الحسن بن على بن الحسن بن عمر، الأنصارى، البطليوسى.

رحل إلى المشرق، فأدى الفريضة، و تجوّل هناك، و لقى أبا الحسن بن المفرّج الصقلى و أبا عبد اللّه الفراوى، فسمع منهما الصحيحين بعلوّ، و سمع من أبى الفتح ناصر بن أبى على الطوسى سنن أبى داود، و حدّث بالموطإ عن أبى بكر الطّرطوشى، و له أيضا رواية عن زاهر بن الشّحّامى و عبد المنعم بن عبد الكريم القشيرى و أبى محمد الحريرى سمع منه مقاماته الخمسين ببستانه من بغداد، و نزل بمكة، و جاور بها، و حدث فيها و فى غيرها، و أسن، و كان ثقة مسندا يروى عنه أبو عبد اللّه بن أبى الصيف اليمنى و أبو حفص بن شراحيل الأندلسى و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم الإربلى، و سمع منه فى صفر سنة ست و ستين و خمسمائة، و قد لقيه أبو القاسم بن عساكر الحافظ و روى عنه.

۱۹۴- و منهم أبو على الحسن بن محمد بن الحسن الأنصارى.

من أهل المرية عمل بلنسية، و يعرف بابن الرّهبيل، سمع من أبى الحسن بن النعمة كثيرا، و اختص به، و عنه أخذ القراءات، و سمع من ابن هذيل أيضا، ثم رحل حاجا، فلقى بالإسكندرية سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة أبا طاهر السّلفى و أبا عبد اللّه بن الحضرمى، و سمع منهما، و جاور بمكة، و أخذ بها عن أبى الحسن على بن حميد الطرابلسى صحيح البخارى، و كان يرويه عن أبى مكتوم عيسى بن أبى ذر الهروى عن أبيه، و سمع أيضا من أبى محمد المبارك بن الطباخ البغدادى، و أجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمى و أبو محمد عبد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۲

الحق بن عبد الرحمن الإشبيلى ببجاية عند صدوره فى ربيع الأول سنة سبع و سبعين، و قفل إلى بلده فلزم الانقطاع و الانقباض عن الناس و الإقبال على ما يعنيه، و كان قد خطب به قبل رحلته، و حكى التجيبى أن طلبة الإسكندرية تزاحموا عليه لسماع «التيسير» لأبى عمرو المقرى منه بروايته عن ابن هذيل سماعا فى سنة ثلاث و خمسين، و صارت له بذلك عندهم وجاهة، و بعد قفوله أصابه خدر منعه من التصرف، و كان الصلاح غالبا عليه، و توفى غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، و كانت جنازته مشهودة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۹۵- و منهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حى، التّجيبى، القرطبى.

أخذ علم العدد و الهندسة عن أبى عبد اللّه محمد بن عمر المعروف بابن برغوث، و كان كلفا بصناعة التعديل، و له زيج مختصر ذكره القاضى صاعد و نسبه، و حكى أنه خرج من الأندلس فى سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة بعد أن نالته بها و بالبحر محن شداد، و لحق بمصر، ثم رحل عنها إلى اليمن، و اتصل بأميرها، فحظى عنده، و بعثه رسولا إلى القائم بأمر اللّه الخليفة ببغداد، و نال هناك دنيا عريضة، و توفى باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست و خمسين و أربعمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۱۹۶- و منهم أبو يوسف حماد بن الوليد، الكلاعى.

أخذ بقرطبة عن أبى المطرف القنازعى و غيره، و رحل إلى المشرق، و حدث بالإسكندرية فسمع منه بها يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن شبل شرح الاعتقاد من تأليفه، و رسالة قمع الحرص، و قصر الأمل، و الحث على العمل، و ذلك فى سنة سبع و أربعين و أربعمائة، و لقيه هنالك أبو مروان الطّبنى، فسمع منه بعض فوائده.

۱۹۷- و منهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد اللّه بن جبير.

من أهل طرطوشة، يعرف بالجبيرى، و هو والد أبو عبيد القاسم بن خلف الجبيرى الفقيه، و كانت له رحلة إلى المشرق، و معه رحل ابنه و هو صغير، و كان من أهل العلم و النزاهة، و عليه نزل القاضى منذر بن سعيد بطرطوشة فى ولايته قضاء الثغور الشرقية، قال أبو عبيد: نزل القاضى منذر بن سعيد على أبى بطرطوشة، و هو يومئذ يتولى القضاء فى الثغور الشرقية قبل أن يلى قضاء الجماعة بقرطبة، فأنزله فى بيته الذى كان يسكنه، فكان إذا تفرغ نظر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۳

فى كتب أبى، فمر على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء و يجعل معاوية رابعهم، و لم يذكر عليا فيهم، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بنى مروان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلما رأى ذلك منذر غضب و سبّ ابن عبد ربه، و كتب فى حاشية الكتاب: [بحر الكامل]

أوما علىّ- لا برحت ملعنا يا ابن الخبيثة!- عندكم بإمام؟

ربّ الكساء و خير آل محمد دانى الولاء مقدّم الإسلام

قال أبو عبيد: و الأبيات بخطه فى حاشية كتاب أبى إلى الساعة، و كانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها و النظر فى المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ثلاثين و ثلاثمائة.

۱۹۸- و منهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف، الغرناطى.

له رحلة روى فيها بالإسكندرية عن مهدى بن يوسف الوراق، و حدث عنه أبو العباس بن عيسى الدانى بالتلقين للقاضى عبد الوهاب.

۱۹۹- و منهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون، القنطرى.

من قنطرة السيف، و سكن بطليوس و يعرف بابن الرويهة، رحل حاجا فأدى الفريضة، و لقى بمكة رزين بن معاوية الأندلسى فحمل عنه كتابه فى تجريد الصحاح سنة خمس و خمسمائة، و فيها حج و قفل إلى بلده بعد ذلك، و كان فقيها مشاورا، حدّث عنه ابن خير فى كتابه إليه من بطليوس فى نحو الثلاثين و خمسمائة.

۲۰۰- و منهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسى.

رحل حاجا إلى المشرق، و سمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع و ستين و ثلاثمائة و أبا بكر مسرّة بن مسلم الصدفى، حدث، و أخذ عنه.

۲۰۱- و منهم طاهر الأندلسى، من أهل مالقة، يكنى أبا الحسن.

رحل إلى قرطبة، و خرج منها لما دخلها البرابر عنوة سنة ثلاث و أربعمائة، فلم يزل بمكة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۴

إلى حدود الخمسين و أربعمائة، و كان من أصحاب أبى عمر الطّلمنكى و ملازميه لقراءة القرآن، و طلب العلم مع أبى محمد الشّنتجالى و أبى أيوب الزاهد إمام مسجد الكوّائين بقرطبة، و جاور بمكة طويلا، و أقرأ على مقربة من باب الصفا، و كان الشّيبيون يكرمونه و يفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام، ذكره الطبنى، قال ابن الأبار: و أحسبه المذكور فى برنامج الخولانى، و الذى قرأ لهم أكثر المدونة على أبى عمر أحمد بن محمد الزيات، انتهى.

۲۰۲- و منهم أبو الطاهر الأندلسى، من أهل لبلة.

نزل مصر، و كانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص، و كان- رحمه اللّه تعالى!- نحويا له شعر و ترسيل و تعلق بالملوك للتأديب بالنحو، ثم ترك ذلك.

۲۰۳- و منهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش، المنصفى، المخزومى.

و المنصفى نسبة إلى قرية بغربى بلنسية، و يكنى أيضا أبا الحسن، رحل قبل العشرين و خمسمائة، فأدى الفريضة، و جاور بمكة، و سمع بها من أبى عبد اللّه الحسين بن على الطبرى، و من الشريف أبى محمد عبد الباقى الزهرى المعروف بشقران أخذ عنه كتاب «الإحياء» للغزالى عن مؤلفه، و سمع بالإسكندرية من أبى بكر الطرطوشى و أبى الحسن بن مشرف و أبى عبد اللّه الرازى و أبى طاهر السّلفى و غيرهم ثم قفل إلى بلده فحدث، و أخذ الناس عنه، و سمعوا منه، و كان شيخا صالحا عالى الرواية ثقة، قال ابن عياد: لم ألق أفضل منه، و كان مجاب الدعوة، و حدث عنه بالسماع و الإجازة جلّة، منهم أبو الحسن بن هذيل و أبو محمد القلّنى و أبو مروان بن الصّيقل و أبو العباس الإقليشى و أبو بكر بن خير و ابن سعد الخير و أبو محمد عبد الحق الإشبيلى و أبو بكر بن جزى و غيرهم، ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبى العباس الأقليشى و أبى الوليد بن خيرة الحافظ سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة، و قد نيف على السبعين، فأقام بمكة مجاورا إلى أن توفى بها عن سن عالية- رحمه اللّه تعالى!- سنة تسع و أربعين و خمسمائة.

۲۰۴- و منهم محمد بن إبراهيم بن مزين الأودى.

من أهل أكشونية غربى الأندلس، يكنى أبا مضر، ولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۵

الجماعة بقرطبة، و ذلك فى المحرم سنة سبعين و مائة، و أقام أشهرا، ثم استعفى فأعفاه، و رحل حاجا فأدى الفريضة، و سمع فى رحلته إمامنا مالك بن أنس و انصرف و مات عن سن عالية سنة ثلاث و ثمانين و مائة، و ذكره ابن شعبان فى الرواة عن مالك، و حكى أنه روى عنه: من قطع لسانه استؤنى به عاما، و أن مالكا قال له: قد بلغنى أن بالأندلس من نبت لسانه فإن لم ينبت أقيد، انتهى.

۲۰۵- و منهم أبو عبداللّه محمد بن أحمد حيّاز، الشاطبى، الأوسى.

قدم مصر، و كان قد أخذ عن ابن برطلة و ابن البراء و غيرهما، و عمل فهرست شيوخه على حروف المعجم، و حج و عاد إلى بلده، و مات يوم الجمعة حادى عشر رجب سنة ثمانى عشرة و سبعمائة، رحمه اللّه تعالى و غفر له!.

[۲۰۶- محمد بن أحمد بن عبدالملك بن عبد العزيز بن عبد الملك (ابن سماعة)]

۲۰۶- و منهم القاضى أبو مروان محمد بن أحمد بن عبدالملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن على بن شريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة، اللّخمى، الأندلسى، الإشبيلى.

قال أبو شامة: هو من بيت كبير بالأندلس يعرف ببنى الباجى مشهور، كثير العلماء و الفضلاء، و أصلهم من باجة القيروان، و ليس منهم القاضى أبو الوليد الباجى الفقيه، فإنه من بيت آخر من باجة الأندلس، و قدم أبو مروان حاجا من بلاده فى البحر إلى عكا من ساحل دمشق، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع و ثلاثين و ستمائة، و نزل عندنا بالمدرسة العادليّة، و جدّه الأعلى أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن على قدم إلى الديار المصرية، و حج منها و معه ولده محمد أخو عبد الملك و يعرف بصاحب الوثائق، و سمعا بها

من جماعة من العلماء، و ذكر أبو عبد اللّه الحميدى أحمد بن عبد اللّه هذا فى «المقتبس»، و كناه أبا عمر، و ذكر أنه سكن إشبيلية و أثنى عليه كثيرا، و قال: مات فى حدود الأربعمائة، و روى عنه ابن عبد البر و غيره.

و أبوه عبد اللّه بن محمد بن على يعرف بالرواية، ذكره الحميدى أيضا.

و ذكر ابن بشكوال فى «الصلة» عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم و أثنى عليه، و قال: توفى سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة.

و كان هذا الشيخ أبو مروان حسن الأخلاق فاضلا متواضعا محسنا، و سمعته يقول، و قد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۶

سئل إعارة شيء، فبادر إليه، ثم قال: عندى فى قوله تعالى: وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (۷) [الماعون: ۷] هو كل شيء.

و استفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة، و هى معاينة قدر مدّ النبى صلى اللّه عليه و سلم، و هو عندهم متوارث، و قد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم فى كتابه «المحلى» و عايرت بذلك المدّ المدّ الذى لنا بدمشق حينئذ، و هو الكيل الكبير، فوجدت مدّنا يسع صاعين إلا يسيرا، و وجدته ممسوحا يسع صاعا و نصفا و شيئا فيكون مدان ممسوحان ثلاثة آصع زائدة، و قرأت فى كتاب «المحلى» لابن حزم قال أبو محمد: و خرط لى مدّ على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد اللّه بن على الباجى، و هو عند أكثرهم لا يفارق داره، أخرجه إلىّ ثقتى الذى كلفته ذلك على بن عبد اللّه بن أحمد بن عبد الله بن على المذكور، و ذكر أنه مدّ أبيه، و أن جده أخذه و خرطه على مد أحمد بن خالد، و أخبره أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى بن يحيى، على مد مالك، قال أبو محمد: و لا شك أن أحمد بن خالد صححه أيضا على مد محمد بن وضاح الذى صححه ابن وضاح بالمدينة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة و السلام! قال أبو محمد: ثم كلته بالقمح الطيب، ثم وزنته فوجدته رطلا و نصف رطل بالفلفلى لا يزيد حبة، وكلته بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب فوجدته رطلا واحدا و نصف أوقية، و سألت عن الرطل الفلفلى، فقيل لى: هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم، و فى تقدير ابن حزم نظر.

و توفى هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس و ثلاثين و ستمائة بعد رجوعه من الحج، رحمه اللّه تعالى! انتهى كلام أبى شامة، و بعضه بالمعنى.

۲۰۷- و منهم أبو العباس أحمد بن محمد، الواعظ، الإشبيلى، ثم المصرى.

فاضل شرح الصدور بلفظه، و متكلم أحيا القلوب بوعظه، أحواله مشهورة، و مجالسه بالذكر معمورة، و له معرفة بالأدب، و خبرة بالشعر و الخطب، و كلام وجهه حسن، و نظم يمتاز به على كثير من أرباب اللّسن، قاله ابن حبيب الحلبى، قال: و هو القائل: [بحر البسيط]

من أنت محبوبه من ذا يعبّره و من صفوت له من ذا يكدره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۷

هيهات عنك ملاح الكون تشغلنى و الكل أعراض حسن أنت جوهره

و قال: [بحر الخفيف]

اكشف البرقع عن بكر العقار و اخل فى ليلك مع شمس النهار

و انهب العيش و دعه غلطا ينقضى ما بين هتك و استتار

إن تكن شيخ خلاعات الصبا فالبس الصبوة فى خلع العذار

و ارض بالعار و قل: قد آن لى فى هوى خمّار كاسى لبس عارى

و قال: [بحر السريع]

حثّوا إلى نجد نياق الهوى فثمّ واد جوّه معشب

و انتظروا حتى يلوح الحمى فالعيش فيه طيب طيب

و توفى سنة أربع و ثمانين و ستمائة، هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب، ثم بعد كتبها حصل لى شك: هل هو ممن ارتحل بنفسه من الأندلس أو ولد بمصر و إنما ارتحل إليها بعض سلفه؟

و اللّه تعالى أعلم.

[۲۰۸- إبراهيم الإشبيلى المالكى، و بقى الدين بن مخلد]

۲۰۸- و كذا ذكر آخر بقوله فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة: و فيها توفى الإمام زكى الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن على الإشبيلى المالكى، محدث، عالم، زاهد فيما ليس بدائم، كثير الخير، جزيل المير، كان حسن المناهج، قاضيا للحوائج، محسنا إلى الصامت و المعرب، مقصدا لمن يرد من الحجاز و المغرب، سمع بمصر و دمشق و حلب، و أفتى و درس، مفيدا لذوى الطلب، و لم يبرح يعين بأياديه و يغيث، و هو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث، و كانت وفاته بدمشق عن نيف و سبعين سنة، انتهى.

[۲۰۹- بقىّ بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن، القرطبى، الأندلسى، الحافظ،]

۲۰۹- و منهم الأحق بالسبق و التقدم، بقىّ بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن، القرطبى، الأندلسى، الحافظ، أحد الأعلام، و صاحب التفسير و المسند.

أخذ عن يحيى بن يحيى الليثى و محمد بن عيسى الأعشى، و ارتحل إلى المشرق، و لقى الكبار، و سمع بالحجاز مصعبا الزهرى و إبراهيم بن المنذر و طبقتهما، و بمصر يحيى بن بكير و زهير بن عبّاد و طائفة، و بدمشق إبراهيم بن هشام الغسانى، و صفوان بن صالح و هشام بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۸

عمار و جماعة، و ببغداد أحمد بن حنبل و طبقته، و بالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحمانى و محمد بن عبد اللّه بن نمير و أبا بكر بن أبى شيبة و طائفة، و بالبصرة أصحاب حماد بن زيد، و عنى بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها، و عدد شيوخه مائتان و أربعة و ثلاثون رجلا، و كان إماما، زاهدا، صوّاما، صادقا، كثير التهجد، مجاب الدعوة، قليل المثل، مجتهدا، لا يقلد، بل يفتى بالأثر.

ولد فى رمضان سنة إحدى و مائتين، و توفى فى جمادى الآخرة سنة ست و سبعين و مائتين.

قال ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلّف فى الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جرير و لا غيره، و كان محمد بن عبد الرحمن الأموى صاحب الأندلس محبا للعلوم عارفا بها، فلما دخل بقى بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبى شيبة و قرىء عليه أنكر جماعة من أهل الرأى ما فيه من الخلاف و استبشعوه، و قام جماعة من العامة عليه، و منعته من قراءته، فاستحضره الأمير محمد و إياهم، و تصفح الكتاب جزءا جزءا حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن كتبه: هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه، فانظر فى نسخه لنا، و قال لبقى: انشر علمك، و ارو ما عندك، و نهاهم أن يتعرضوا له.

قال ابن حزم: مسند بقى روى فيه عن ألف و ثلاثمائة صاحب و نيف، و رتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند و مصنّف، و ما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته و ضبطه و إتقانه و احتفاله فى الحديث و له مصنف فى فتاوى الصحابة و التابعين ممن ذكرهم أربى فيه على مصنف أبى بكر بن أبى شيبة و على مصنف عبد الرزاق و على مصنف سعيد بن منصور.

ثم ذكر تفسيره فقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، و كان متخيرا لا يقلد أحدا، و كان جاريا فى مضمار البخارى و مسلم و النسائى.

و ذكر القشيرى أن امرأة جاءته فقالت له: إن ابنى قد أسرته الفرنج، و إنى لا أنام الليل من شوقى إليه، ولى دويرة أريد أن أبيعها لأفتكّه بها، فإن رأيت أن تشير إلى من يأخذها و يسعى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۲۹

فى فكاكه، فليس لى ليل و لا نهار، و لا صبر و لا قرار، فقال: نعم، انصرفى حتى ننظر فى ذلك إن شاء اللّه تعالى، و أطرق الشيخ و حرك شفتيه يدعو اللّه عز وجل لولدها بالخلاص، فذهبت، فما كان غير قليل حتى جاءت و ابنها معها، فقالت: اسمع خبره يرحمك اللّه تعالى! فقال: كيف كان أمرك؟ فقال: إنى كنت فيمن يخدم الملك، و نحن فى القيود، فبينا أنا ذات يوم أمشى إذ سقط القيد من رجلى، فأقبل على الموكل بى فشتمنى، و قال: فككت القيد من رجليك، فقلت: لا و اللّه و لكن سقط و لم أشعر، فجاؤوا بالحداد فأعاده، و سمر مسماره و أيده، ثم قمت، فسقط أيضا، فسألوا رهبانهم، فقالوا: أ لك والدة؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنه قد استجيب دعاؤها له، فأطلقوه، فأطلقونى و خفرونى إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام، فسأله [بقى] عن الساعة التى سقط القيد من رجليه فيها، فإذا هى الساعة التى دعا له فيها، فرحمه اللّه تعالى.

۲۱۰- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأندلسى الأزدى، المعروف بالمغامى.

من أهل قرطبة، و أصله من طليطلة، و هو من ذرية أبى هريرة رضى اللّه عنه تعالى!.

سمع من يحيى بن يحيى و سعيد بن حسان، و روى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته، و ارتحل إلى مصر، و سمع من يوسف بن يزيد القراطيسى، و عاد إلى الأندلس، و كان فقيها، نبيلا، فصيحا بصيرا بالعربية، ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أعواما، ثم عاد إلى مصر، و أقام بها، و سمع الناس منه، و عظم أمره بالبلاد بالمشرقية، ثم إنه عاد إلى المغرب فتوفى بالقيروان سنة ثمان و ثمانين و مائتين، و بين بمصر الواضحة لابن حبيب، و صنف شيئا فى الرد على الشافعية فى عشرة أجزاء، و ألف كتاب فضائل مالك رضى اللّه تعالى عنه، و الذى يرتضى أن من قلد إماما من المجتهدين لا ينبغى له أن يغضّ من قدر غيره، و إن كان و لا بد من الانتصار لمذهبه و تقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة، رضى اللّه تعالى عنهم! فإنهم على هدى من ربهم، و قد ضلّ بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز فى حق العلماء الذين هم نجوم الملّة، و لا حول و لا قوة إلا باللّه العلى العظيم، و قد حكى أبو عبد اللّه الوادى آشى- حسبما رأيته بخطه- أن القاضى عبد الوهاب بن نصر البغدادى المالكى ألف كتابا لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب فى مائة جزء، و سماه «النصرة، لمذهب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۰

إمام دار الهجرة» فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر، فغرقه فى النيل، فقضى اللّه تعالى أن السلطان فرج بن برقوق سافر إلى الشام و معه القضاة الأربعة و غيرهم من الأعيان لدفع تيمور لنك عن البلاد، فلم يستطع شيئا، و هزم إلى مصر، و تفرقت العساكر، و أخذ القضاة و العلماء أسارى و من جملتهم ذلك القاضى، فبقى فى أسر تيمور لنك إلى أن ارتحل عن الشام، فأخذه معه أسيرا إلى أن وصل إلى الفرات، فغرق فيه، أعنى القاضى، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور، و الجزاء من جنس العمل، و اللّه تعالى أعلم.

و قد نجى اللّه تعالى من هذه الورطة قاضى القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى المالكى صاحب كتاب «العبر، و ديوان المبتدأ و الخبر، فى تاريخ العرب و العجم و البربر، و من عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» فإنه كان من جملة القضاة الحاضرين فى الهزيمة، فلما أدخلوا على تيمور لنك قال لهم ابن خلدون: قدّمونى للكلام تنجوا إن شاء اللّه تعالى، و إلا فأنتم أخبر، فقدموه و عليه

زى المغاربة، فلما رآه تيمور لنك قال: ما أنت من هذه البلاد؟ و تكلم معه فخلبه ابن خلدون بلسانه، و كان آية اللّه الباهرة، ثم قال لتيمور لنك: إنى ألفت كتابا فى تاريخ العالم، و حليته بذكرك، أو كما قال، و يقال: إن تيمور لنك هو الذى قال له: بلغنى أنك ألفت كتابا فى تاريخ العالم، ثم قال له تيمور لنك: كيف ساغ لك أن تذكرنى فيه و تذكر بختنصر مع أننا خربنا العالم؟ فقال له ابن خلدون: أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوى المراتب الجسيمة، أو نحو هذا من العبارات فأعجبه ذلك، و قيل: إنه لما أنس بابن خلدون قال له: يا خوند، ما أسفى إلا على كتاب ألفته فى التاريخ، و أنفقت فيه أيام عمرى، و قد تركته بمصر، و إن عمرى الماضى ذهب ضياعا حيث لم يكن فى خدمتك و تحت ظل دولتك، و الآن أذهب فآتى بهذا الكتاب و أرجع سريعا حتى أموت فى خدمتك، و نحو هذا من الكلام، فأذن له، فذهب و لم يعد إليه، و قال بعض العلماء: إنه لم ينج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون و رجل آخر، و قد ذكر ذلك ابن عرب شاه فى «عجائب المقدور» و قد طال عهدى به فليراجع، و حكى غير واحد أن تيمور لنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور فى كتب التاريخ جمع العلماء فقال لهم على عادته فى التعنت: قتل منا و منكم جماعة، فمن الذى فى الجنة قتلانا أو قتلاكم؟ و كان مراده إبراز سبب لقتلهم، لأنهم إن قالوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۱

أحد الأمرين هلكوا، فقال بعض العلماء، و أظنه ابن الشّحنة: دعونى أجبه، و إلا هلكتم، فتركوه، فقال له: يا خوند، هذا السؤال أجاب عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حين سئل عنه، فغضب [تيمور لنك] و قال: كيف يمكن أن يجيب عن هذا السؤال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و نحن لم نكن فى زمانه؟ أو كلاما هذا معناه، فقال العالم المذكور: روينا فى الصحيح أن النبى صلى اللّه عليه و سلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة و يقاتل حمية و يقاتل ليذكر و يرى مكانه، فمن الذى فى الجنة؟ فقال النبى صلى اللّه عليه و سلم: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هى العليا فهو الّذى فى الجنّة» أو كما قال صلى اللّه عليه و سلم، فتعجب تيمور لنك من هذا الجواب المفحم المسكت، و حقّ له أن يتعجب منه، فإن هذا من الأجوبة التى يقل نظيرها، و فيها المخلص على كل حال بالإنصاف، و قد وفق اللّه تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئك الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذى جعل اللّه تعالى فتنته فى الإسلام و فتنة جنكزخان و أولاده من أعظم الفتن التى و هى بها المسلمون.

و ذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمور لنك قال له: دعنى أقبل يدك، فقال: و لم؟ فقال له: لأنها مفاتيح الأقاليم، يشير إلى أنه فتح خمسة أقاليم، و أصابع يده خمسة: فلكل أصبع إقليم، و هذا أيضا من دهاء ابن خلدون.

و قد كدنا نخرج عن المقصود فى هذه الترجمة فلنصرف العنان، و اللّه سبحانه المستعان.

۲۱۱- و من الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية، رحمه اللّه تعالى!

قال الفتح: شيخ العلم، و حامل لوائه، و حافظ حديث النبى صلى اللّه عليه و سلم و كوكب سمائه، شرح اللّه تعالى لحفظه صدره، و طاول به عمره، مع كونه فى كل علم وافر النصيب، مياسرا بالمعلّى و الرقيب، رحل إلى المشرق لأداء الفرض، لابس برد من العمر الغض، فروى و قيد، و لقى العلماء و أسند، و أبقى تلك المآثر و خلد، نشأ فى بيئة كريمة، و أرومة من الشرف غير مرومة، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم، و أرباب مجد ضخم، قد قيدت مآثرهم الكتب، و أطلعتهم التواريخ كالشهب، و ما برح الفقيه أبو بكر يتسنم كواهل المعارف و غواربها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۲

و يقيد شوارد المعانى و غرائبها، لاستضلاعه بالأدب الذى أحكم أصوله و فروعه، و عمر برهة من شبيبته ربوعه، و برز فيه تبريز الجواد المستولى على الأمد، و جلّى عن نفسه به كما جلى الصقال عن النصل الفرد، و شاهد ذلك ما أثبته من نظمه الذى يروق جملة و تفصيلا، و يقوم على قوة العارضة دليلا، فمن ذلك قوله يحذر من خلطاء الزمان، و ينبه على التحفظ من الإنسان: [بحر الرمل]

كن بذئب صائد مستأنسا و إذا أبصرت إنسانا ففر

إنما الإنسان بحر ما له ساحل فاحذره إياك الغرر

و اجعل الناس كشخص واحد ثم كن من ذلك الشخص حذر

و له فى الزهد: [بحر الرمل]

أيها المطرود من باب الرضا كم يراك اللّه تلهو معرضا

كم إلى كم أنت فى جهل الصبا قد مضى عمر الصبا و انقرضا

قم إذا الليل دجت ظلمته و استلذّ الجفن أن يغتمضا

فضع الخد على الأرض و نح و اقرع السّنّ على ما قد مضى

و له فى هذا المعنى: [مخلع البسيط]

قلبى يا قلبى المعنّى كم أنا أدعى فلا أجيب

كم أتمادى على ضلال لا أرعوى لا و لا أنيب

ويلاه من سوء ما دهانى يتوب غيرى و لا أتوب

وا أسفى كيف برء دائى دائى كما شاءه الطبيب

لو كنت أدنو لكنت أشكو ما أنا من بابه قريب

أبعدنى منه سوء فعلى و هكذا يبعد المريب

ما لى قدر و أى قدر لمن أخلّت به الذنوب

و له فى هذا المعنى أيضا: [بحر الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۳

لا تجعلن رمضان شهر فكاهة تلهيك فيه من القبيح فنونه

و اعلم بأنك لا تنال قبوله حتى تكون تصومه و تصونه

و له فى مثل ذلك: [بحر الطويل]

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون و فى بصرى غضّ و فى مقولى صمت

فحظى إذا من صومى الجوع و الظما و إن قلت إنى صمت يوما فما صمت

و له فى المعنى الأول: [بحر الطويل]

جفوت أناسا كنت آلف وصلهم و ما فى الجفا عند الضرورة من باس

بلوت فلم أحمد، و أصبحت آيسا و لا شىء أشفى للنفوس من الياس

فلا تعذلونى فى انقباضى فإننى رأيت جميع الشر فى خلطة الناس

و له يعاتب بعض إخوانه: [بحر الوافر]

و كنت أظن أن جبال رضوى تزول و أن ودك لا يزول

و لكنّ الأمور لها اضطراب و أحوال ابن آدم تستحيل

فإن يك بيننا وصل جميل و إلا فليكن هجر طويل

و أما شعره الذى اقتدحه من مرخ الشباب و عفاره، و كلامه الذى و شحه بمآرب الغزل و أوطاره، فإنه نسى إلى ما تناساه، و تركه حين كساه العلم و الورع من ملابسه ما كساه، فمما وقع من ذلك قوله: [بحر الكامل]

كيف السلو ولى حبيب هاجر قاسى الفؤاد يسومنى تعذيبا

لما درى أن الخيال مواصلى جعل السهاد على الجفون رقيبا

و له أيضا: [بحر مخلع البسيط]

يا من عهودى لديك ترعى أنا على عهدك الوثيق

إن شئت أن تسمعى غرامى من مخبر عالم صدوق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۴

فاستخبرى قلبك المعنى يخبرك عن قلبى المشوق

انتهى كلام الفتح.

و أبو بكر بن عطيۀ المذكور هو والد الحافظ القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطيۀ صاحب التفسير الشهير، رحم اللّه تعالى الجميع!.

قال فى الإحاطۀ فى حقه ما ملخصه: هو الشيخ الإمام المفسر عبد الحق بن غالب بن عطيۀ المحاربى، فقيه عالم بالتفسير و الأحكام و الحديث و الفقه و النحو و اللغۀ و الأدب، حسن التقييد، له نظم و نثر، ولى قضاء المريۀ سنۀ تسع و عشرين و خمسمائۀ فى المحرم، و كان غايۀ فى الذكاء و الدهاء و التهمم بالعلم، سرىّ الهمۀ فى اقتناء الكتب توخى الحق، و عدل فى الحكم، و أعز الخطۀ، روى عن أبيه و أبوى على الغسانى و الصدفى و طبقتهما، و ألف كتابه «الوجيز» فى التفسير فأحسن فيه و أبدع، و طار بحسن نيته كلّ مطار، و برنامجا ضمنه مروياته و أسماء شيوخه فحرر و أجاد.

و من نظمه يندب عهد شبابه: [بحر البسيط]

سقيا لعهد شباب ظلت أمرح فى ريعانه و ليالى العيش أسحار

أيام روض الصبا لم تذو أغصنه و رونق العمر غضّ و الهوى جار

و النفس تركض فى تضمير شرّتها طرفا له فى زمان اللهو إحضار

عهدا كريما لبسنا فيه أردية كانت عيانا و محّت فهى آثار

مضى و أبقى بقلبى منه نار أسى كونى سلاما و بردا فيه يا نار

أبعد أن نعمت نفسى و أصبح فى ليل الشباب لصبح الشّيب إسفار

و قارعتنى الليالى فانثنت كسرا عن ضيغم ما له ناب و أظفار

إلا سلاح خلال أخلصت فلها فى منهل المجد إيراد و إصدار

أصبو إلى روض عيش روضه خضل أو ينثنى بى عن العلياء إقصار

إذا فعطّلت كفى من شبا قلم آثاره فى رياض العلم أزهار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۵

مولده سنۀ إحدى و ثمانين و أربعمائۀ، و توفى فى الخامس و العشرين من شهر رمضان سنۀ ست و أربعين و خمسمائۀ بلورقۀ، قصد ميورقۀ يتولى قضاءها فصدّ عن دخولها و صرف منها إلى لورقۀ اعتداء عليه، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و قال الفتح فى حقه ما نصه: فتى العمر كله العلاء، حديث السن قديم السناء، لبس الجلالۀ بردا ضافيا، و ورد ماء الأصالۀ صافيا، و أوضح للفضل رسما عافيا، و ثنى فى ذهنه للأغراض فننا قصدا، و جعل فهمه شهابا رصدا، سما إلى رتب الكهول صغيرا، و سنّ كتيبۀ ذهنه على العلوم مغيرا، فسباها معنى و فصلا، و حواها فرعا و أصلا، و له أدب يسيل رضراضا، و يستحيل ألفاظا مبتدعۀ و أغراضا.

و قال أيضا فيه: نبعۀ دوح العلاء، و محرز ملابس الثناء، فذّ الجلالۀ، و واحد العصر و الأصالۀ، و قار كما رسا الهضب، و أدب كما اطّرد السّلسل العذب، و شيم تتضاءل لها قطع الرياض، و تبادر الظن به إلى شريف الأغراض، سابق الأمجاد فاستولى على الأمد بعباه، و

لم ينض ثوب شبابه، أدمن التعب فى السؤدد جاهدا، فتى تناول الكواكب قاعدا، و ما اتكل على أوائله، و لا سكن إلى راحات بكره و أصائله، أثره فى كل معرفة علم فى رأسه نار، و طوالعه فى آفاقها صبح أو منار، و قد أثبتّ من نظمه المستبدع ما ينفح عبيرا، و يتضح منيرا، فمن ذلك قوله من قصيدة: [بحر البسيط]

و ليلة جبت فيها الجزع مرتديا بالسيف أسحب أذيالا من الظلم

و النجم حيران فى بحر الدجى غرق و البرق فى طيلسان الليل كالعلم

كأنما الليل زنجىّ بكاهله جرح فيثعب أحيانا له بدم

انتهى المقصود منه.

و هو- أعنى أبا بكر- أحد مشايخ عياض، حسبما ألمعت به فى «أزهار الرياض».

[۲۱۲- أحمد بن فرح اللّخمى، الإشبيلىّ، الشافعى]

۲۱۲- و منهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح- بالحاء المهملة- بن أحمد بن محمد، الإمام، الحافظ، الزاهد، بقية السلف، اللّخمى، الإشبيلىّ، الشافعى، أسره الإفرنج

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۶

سنة ست و أربعين و ستمائة، و خلص، و قدم مصر سنة بضع و خمسين، و قيل: إنه تمذهب للشافعى، و تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام قليلا، و سمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصارى الحموى، و المعين أحمد بن زين الدين و إسماعيل بن عزون و النجيب بن الصيقل و ابن علّان، و بدمشق من ابن عبد الدائم و خلق، و عنى بالحديث، و أتقن ألفاظه، و عرف رواته و حفاظه، و فهم معانيه، و انتقى لبابه و مبانيه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۱۳۶

ل الصفدى: و كان من كبار أئمة هذا الشان، و ممن يجرى فيه و هو طلق اللسان، هذا إلى ما فيه من ديانة، و ورع و صيانة، و كانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الأموى يلازمها، و يحوم عليه من الطلب حوائمها، سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبى، و استفاد منه، و روى فى تصانيفه عنه، و عرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فأباها، و لم يقبل حباها، و كان بزىّ الصوفية، و معه فقاهة بالشافعية، و لم يزل على حاله حتى أحزن الناس ابن فرح، و تقدّم إلى اللّه و سرح، و شيع الخلق جنازته، و تولّوا وضعه فى القبر و حيازته، و توفى رحمه اللّه تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين و ستمائة، و مولده سنة خمس و عشرين و ستمائة.

و له قصيدة غزلية فى ألقاب الحديث سمعها منه الدّمياطى و اليونينى، و سمع منه البرزالى و المقاتلى و النابلسى و أبو محمد بن الوليد، و مات بتربة أم الصالح بالإسهال.

و القصيدة المذكورة هى هذه: [بحر الطويل]

غرامى صحيح و الرّجا فيك معضل و حزنى و دمعى مطلق و مسلسل

و صبرى عنكم يشهد العقل أنه ضعيف و متروك، و ذلّى أجمل

و لا حسن إلا سماع حديثكم مشافهة يملى على فأنقل

و أمرى موقوف عليك، و ليس لى على أحد إلا عليك المعوّل

و لو كان مرفوعا إليك لكنت لى على رغم عذالى ترقّ و تعدل

و عذل عذولى منكر لا أسيغه و زور و تدليس يرد و يهمل

أقضّى زمانى فيك متصل الأسى و منقطعا عما به أتوصّل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۷

وها أنا فى أكفان هجرك مدرج تكلّفنى ما لا أطيق فأحمل

و أجريت دمعى بالدماء مدبّجا و ما هو إلا مهجتى تتحلّل

فمتفق سهدى و جفنى و عبرتى و مفترق صبرى و قلبى المبلبل

و مؤتلف شجوى و وجدى و لوعتى و مختلف حظى و ما منك آمل

خذ الوجد عنى مسندا و معنعنا فغيرى موضوع الهوى يتحيل

و ذى نبذ من مبهم الحب فاعتبر و غامضه إن رمت شرحا أحول

عزيز بكم صب ذليل لغيركم و مشهور أوصاف المحب التذلل

غريب يقاسى البعد عنك، و ما له و حقّ الهوى عن داره متحوّل

فرفقا بمقطوع الوسائل، ما له إليك سبيل لا و لا عنك معدل

فلا زلت فى عز منيع و رفعة و ما زلت تعلو بالتجنى فأنزل

أورّى بسعدى و الرّباب و زينب و أنت الذى تعنى و أنت المؤمّل

فخذ أوّلا من آخر ثم أولا من النّصف منه فهو فيه مكمل

أبر إذا أقسمت أنى بحبّه أهيم و قلبى بالصبابة يشعل

و قد ذكرت شرحها فى الجزء الثلاثين من تذكرتى، انتهى كلام الصفدى.

و ظاهر كلامه أنه ابن فرح- بفتح الراء- و الذى تلقيناه عن شيوخنا أنه بسكون الراء، و قد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق و المغرب يطول تعدادهم، و هى وحدها دالة على تمكن الرجل، رحمه اللّه تعالى!

۲۱۳- و منهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر، أبو الأصبغ، الأموى، الأندلسى.

سمع بمكة و بدمشق و مصر و غيرها، و حدث عن سليمان بن أحمد بن يحيى بسنده إلى جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم «إنّ لكلّ نبىّ أب عصبة ينتمون إليها، إلّا ولد فاطمة فأنا وليّهم و أنا عصبتهم، و هم عترتى، خلقوا من طينتى، ويل للمكذّبين بفضلهم، من أحبّهم أحبّه اللّه، و من أبغضهم أبغضه اللّه» و حدث عن أبى العباس أحمد بن محمد البرذعى بسنده إلى عبد اللّه بن المبارك قال: كنت عند مالك بن أنس و هو يحدثنا، فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة، و مالك يتغير لونه و يتصبر، و لا يقطع حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فلما فرغ من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۸

المجلس و تفرق الناس عنه قلت له: يا أبا عبد اللّه، قد رأيت منك عجبا، قال: نعم، أنا صبرت إجلالا لحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

ولد أبو الأصبغ المذكور بقرطبة و توفى ببخارى سنة ۳۶۵.

قال الحاكم أبو عبد اللّه: رأيت أبا الأصبغ فى المنام فى بستان فيه خضرة و مياه جارية و فرش كثيرة، و كأنى أقول: إنها له، فقلت: يا أبا الأصبغ، بماذا وصلت إليه؟ أبا لحديث؟

فقال: إى و اللّه، و هل نجوت إلا بالحديث؟ قال: و رأيته أيضا و هو يمشى بزى أحسن ما يكون، فقلت: أنت أبو الأصبغ؟ فقال: نعم، قلت: ادع اللّه تعالى أن يجمعنى و إياك فى الجنة، فقال: إن أمام الجنة أهوالا، ثم رفع يديه و قال: اللهم اجعله معى فى الجنة بعد عمر طويل، انتهى.

۲۱۴- و منهم القاضى أبو البقاء خالد، البلوى، الأندلسى، رحمه اللّه تعالى.

و هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد، البلوى، و وصفه الشاطبى بأنه الشيخ الفقيه القاضى الأعدل، انتهى.

و هو صاحب الرحلة المسماة: «تاج المفرق، فى تحلية أهل المشرق»، و مما أنشده رحمه اللّه تعالى فيها لنفسه: [بحر الكامل]

و لقد جرى يوم النوى دمعى دما حتى أشاع الناس أنك فانى

و اللّه إن عاد الزمان بقربنا لكففت عن ذكر النوى و كفانى

و هذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد و الفرائد، و فيها من العلوم و الآداب ما لا يتجاوزه الرائد، و قد قال رحمه اللّه تعالى فيها فى ترجمة الولى نجم الدين الحجازى رضى اللّه تعالى عنه، ما نصه: و ذكر لى رضى اللّه تعالى عنه قال: مما وصّى به الجد الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور- يعنى سيدى أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الأقصرى القطب الغوث رضى اللّه تعالى عنه، و أعاد علينا من بركاته- خواصّه و أصدقاءه، قال: إذا أدركتكم الضرورة و الفاقة فقولوا: حسبى اللّه، ربى اللّه يعلم أننى فى ضيق، قال: و ذكر لى أيضا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۳۹

رضى اللّه تعالى عنه قال: رأى هذا الجد يوسف المذكور النبىّ صلى اللّه عليه و سلم فى النوم، بعد أن سأل اللّه تعالى ذلك، و قد كان أصابته فاقة، فشكا إلى النبى صلى اللّه عليه و سلم، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «قل يا برّ يا رحيم، يا برّ يا رحيم، الطف بى فى قضائك، و لا تولّ أمرى أحدا سواك، حتى ألقاك» فلما قالها أذهب اللّه تعالى عنه فاقته. قال: و كان رحمه اللّه تعالى يوصى بها أصحابه و أحبابه، انتهى.

و نسب بعضهم القاضى خالدا المذكور إلى انتحال كمال العماد فى «البرق الشامى»، لأن خالدا أكثر فى رحلته من الأسجاع التى للعماد، فلذا قال لسان الدين ابن الخطيب فيه: [بحر الطويل]

خليلىّ إن يقض اجتماع بخالد فقولا له قولا و لن تعدوا الحقّا

سرقت العماد الأصبهانى برقه و كيف ترى فى شاعر سرق البرقا

و أظن أن لسان الدين كان منحرفا عنه، و لذلك قال فى كتابه «خطرة الطيف، و رحلة الشتاء و الصيف» عندما جرى ذكر قنتورية و قاضيها خالد المذكور ما صورته: لم يتخلف ولد عن والد، و ركب قاضيها ابن أبى خالد، و قد شهرته النزعة الحجازية، و لبس من خشن الحجازيّة، و أرخى من البياض طيلسانا، و تشبّه بالمشارقة شكلا و لسانا، و البداوة تسمه على الخرطوم، و طبع الماء و الهواء يقوده قود الجمل المخطوم، انتهى.

و من نظم أبى البقاء خالد البلوى المذكور قوله: [بحر الطويل]

أتى العيد و اعتاد الأحبة بعضهم ببعض و أحباب المتيم قد بانوا

و أضحى و قد ضحوا بقربانهم و ما لديه سوى حمر المدامع قربان

و قال فى رحلته: إنه قال هذين البيتين بديهة بمصلّى تونس فى عيد النحر من سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة.

و من نظمه أيضا قوله رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

و مستنكر شيبى و ما ذهب الصّبا و لا جف إيناع الشبيبة من غصنى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۰

فقلت فراقى للأحبة مؤذن بشيبى و إن كنت ابن عشرين من سنى

و محاسنه- رحمه اللّه تعالى!- كثيرة، و فى الرحلة منها جملة.

۲۱۵- و منهم برهان الدين أبو إسحاق بن الحاج إبراهيم، النميرى، الغرناطى.

و هو أيضا مذكور فى ترجمة ابن الخطيب بما يغنى عن تكرير اسمه هنا و قال رحمه اللّه تعالى فى رحلته: أخبرنى شيخنا- يعنى الشيخ الإمام الصالح أبا عبد اللّه محمد المعروف بخليل التوزرى إمام المالكية بالحرم الشريف رضى اللّه تعالى عنه- قال: اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كفّا لشرّتى عن الناس، خصوصا أدّى الغيبة، نحو خمسين ليلة، أردت أن أدعو لطائفة من أصحابى بمطالب مختلفة، كل بحسب ظنى فيه يومئذ، فأدركتنى حيرة فى التمييز و التخصيص، فألهمت أن قلت بديهة: [بحر المتقارب]

شهدنا بتقصير ألبابنا فحسن اختيارك أولى بنا

و أنت البصير بأعدائنا و أنت البصير بأحبابنا

قال: ثم أردفتها بدعاء، و هو: اللهم يا من لا يعلم خيره إلا هو، أنت أعلم بأعدائنا و أودّائنا، فافعل بكل منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا، حسبما علمته منا، و كفى بك عليما، و كفى بك قديرا، و كفى بك بصيرا، و كفى بك لطيفا، و كفى بك خبيرا، و كفى بك نصيرا، و صلى اللّه على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا كثيرا.

و قال ابن الحاج المذكور فى الرحلة المذكورة: إذا التقى الرجل بعدوه و هو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف كهيعص (۱) [مريم: ۱]، حم (۱) عسق (۲) [الشورى: ۱- ۲] و ليعقد بكل حرف منها أصبعا، يبدأ بإبهام يده اليمنى و يختم بإبهام يده اليسرى، فإذا قرب من عدوه فليقرأ فى نفسه سورة الفيل، فإذا وصل إلى قوله تَرْمِيهِمْ [الفيل: ۴] فليكررها، و كلما كررها فتح أصبعا من أصابعه المعقودة تجاه العدو، فيكررها عشر مرات، و يفتح جميع أصابعه، فإذا فعل ذلك أمن من شره إن شاء اللّه تعالى و هو مجرب، انتهى.

و من بديع نظم أبى إسحاق ابن الحاج النميرى المذكور قوله: [بحر الكامل]

يا رب كاس لم يسحّ شمولها فاعجب لها جسما بغير مزاج

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۱

لما رأينا السحر من أشكالها جملا نسبناه إلى الزجاج

و له فيما أظن: [بحر الوافر]

له شفة أضاعوا النّشر فيها بلثم حين سدّت ثغر بدر

فما أشهى لقلبى ما أضاعوا (ليوم كريهة و سداد ثغر)

و هو تضمين حسن.

[۲۱۶- أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف النفزى الأثرى الغرناطى]

۲۱۶- و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق إمام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان، النّفزى، الأثرى، الغرناطى.

قال ابن مرزوق الخطيب فى حقه: هو شيخ النحاة بالديار المصرية، و شيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية، انتهت إليه رياسة التبريز فى علم العربية و اللغة و الحديث سمعت عليه و قرأت، و أنشدنى الكثير، و إذا أنشدنى شيئا و لم أقيده استعاده منى، فلم أحفظه، فأنشدنى و كنت أظنه لنفسه ارتجالا إلى أن أخبرنى أحد أصحابنا عنه أنه أخبره أنهما لأبى الحسن التّجانى أنشدهما له ببيته بالمدرسة الصالحية رحمه اللّه تعالى: [بحر السريع]

إن الذى يروى و لكنه يحفظ ما يروى و لا يكتب

كصخرة تنبع أمواجها تسقى الأراضى وهى لا تشرب

قال: و رويت عنه تآليف ابن أبى الأحوص: منها «التبيان، فى أحكام القرآن» و «المعرب المفهم، فى شرح مسلم» و لم أقف عليه و

«الوسامة، فى أحكام القسامة» و «و المشرع السلسل، فى الحديث المسلسل» و غير ذلك.

و حدثنى بسنن أبى داود عن ابن خطيب المزّة عن أبى حفص بن طبرزد عن أبى البدر الكرخى و مفلح الرومى عن أبى بكر بن ثابت الخطيب عن أبى عمر الهاشمى عن اللؤلؤى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۲

عن أبى داود، و بسنن النسائى عن جماعة عن ابن باقا عن أبى زرعة عن ابن حميد الدّوسى عن أبى نصر الكسار عن ابن السنى عن النسائى، و بالموطإ عن أبى جعفر بن الطباع بسنده.

و شكوت إليه يوما ما يلقاه الغريب من أذاة العداة، فأنشدنى لنفسه: [بحر الطويل]

عداتى لهم فضل علىّ و منّه فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا

هم بحثوا عن زلّتى فاجتنبتها و هم نافسونى فاكتسبت المعاليا

و أنشدنى أيضا من مداعباته، و له فى ذلك النظم الكثير مع طهارته و فضله: [بحر البسيط]

علقته سبجىّ اللون قادحه ما ابيضّ منه سوى ثغر حكى الدررا

قد صاغه من سواد العين خالقه فكل عين إليه تدمن النظرا

و أنشدنى فى جاهل لبس صوفا و زهى فيه: [بحر الطويل]

أيا كاسيا من جيّد الصوف نفسه و يا عاريا من كل فضل و من كيس

أتزهى بصوف و هو بالأمس مصبح على نعجة و اليوم أمسى على تيس

انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب ابن مرزوق:

و أنشد الرحالة ابن جابر الوادى آشى لأبى حيّان قوله: [بحر الطويل]

و قصّر آمالى مآلى إلى الردى و أنّى و إن طال المدى سوف أهلك

فصنت بماء الوجه نفسا أبية و جادت يمينى بالذى كنت أملك

و وقفت على «أعيان العصر، و أعوان النصر» للصفدى، فوجدت فيه ترجمة أبى حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد، و هى:

الشيخ، الإمام، العالم، العلامة، الفريد، الكامل، حجة العرب، مالك أزمّة الأدب، أثير الدين، أبو حيان الأندلسى الجيّانى- بالجيم، و الياء آخر الحروف مشدّدة، و بعد الألف نون- و كان أمير المؤمنين فى النحو، و الشمس السافرة شتاء فى يوم الصّحو، و المتصرف فى هذا العلم فإليه الإثبات و المحو، لو عاصر أئمة البصرة لبصّرهم، أو أهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد و حذرهم، نزل منه كتاب سيبويه فى وطنه بعد أن كان طريدا، و أصبح به

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۳

التسهيل بعد تعقيده مفيدا، و جعل سرحة شرحه و جنة راقت النواظر توريدا، ملأ الزمان تصانيف، و أمال عنق الأيام بالتآليف، تخرج به أئمة فى هذا الفنّ، و روّق لهم فى عصره منه سلافة الدّن، فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير مجيب، أو عيسى بن عمر لأصبح من تقصيره و هو محذّر، أو الخليل لكان بعينه قذاه، أو سيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية برداه، أو الكسائى لأعراه حلة جاهه عند الرشيد و أناسه، أو الفرّاء لفرّ منه و لم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه، أو اليزيدى لما ظهر نقصه من مكامنه، أو الأخفش لأخفى جملة من محاسنه، أو أبو عبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية، أو أبو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية، أو السكرى لما راق كلامه فى المعانى و لا- حلا- أو المازنى لما زانه قوله: «إن مصابكم رجلا» أو قطرب لما دبّ فى العربية و لا درج، أو ثعلب لاستكن بمكره فى وكره و لما خرج، أو المبرد لأصبحت كواه مقترة، أو الزجاج لأمست قواريره مكسرة، أو ابن الوزان لعدم نقده، أو

الثمانينى لما تجاوز حدّه، أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطرد، أو ابن دريد ما بلع ريقه و لا ازدرد، أو ابن قتيبة لأضاع رحله، أو ابن السراج لمشى إذ رأى وحله، أو ابن الخشاب لأضرم فيه نارا، و لم يجد معه نورا، أو ابن الخباز لما سجّر له تنورا، أو ابن القوّاس لما أغرق فى نزعه، أو ابن يعيش لأوقعه فى نزعه، أو ابن خروف لما وجد له مرعى، أو ابن إياز لما وجد لأوزاره وقعا، أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طريا، أو الدباج لكان من جلته الرائقة عريّا، و على الجملة فكان إمام النحاة فى عصره شرقا و غربا، و فريد هذا الفن الفذ بعدا و قربا، و فيه قلت: [بحر السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۴

سلطان علم النحو أستاذنا الش يخ أثير الدين حبر الأنام

فلا تقل زيد و عمرو، فما فى النحو معه لسواه كلام

خدم هذا العلم مدّة تقارب الثمانين، و سلك من غرائبه و غوامضه طرقا متشعبة الأفانين، و لم يزل على حاله إلى أن دخل فى خبر كان، و تبدّلت حركاته بالإسكان، و توفى رحمه اللّه تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة فى يوم السبت بعد العصر الثامن و العشرين من صفر سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و دفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر، و صلى عليه بالجامع الأموى بدمشق صلاة الغائب فى شهر ربيع الآخر، و مولده بمدينة مطخشارش فى أخريات شوال سنة أربع و خمسين و ستمائة.

و قلت أنا أرثيه رحمه اللّه تعالى: [بحر السريع]

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق و استعبرا

ورق من حزن نسيم الصبا و اعتل فى الأسحار لمّا سرى

و صادحات الأيك فى نوحها رثته فى السجع على حرف را

يا عين جودى بالدموع التى يروى بها ما ضمه من ثرى

و اجرى دما فالخطب فى شأنه قد اقتضى أكثر مما جرى

مات إمام كان فى فنه يرى إماما و الورى من ورا

أمسى منادى للبلى مفردا فضمه القبر على ما ترى

يا أسفا كان هدى ظاهرا فعاد فى تربته مضمرا

و كان جمع الفضل فى عصره صح فلما أن قضى كسّرا

و عرّف الفضل به برهة و الآن لما أن مضى نكّرا

و كان ممنوعا عن الصرف لا يطرق من وافاه خطب عرا

لا أفعل التفضيل ما بينه و بين من أعرفه فى الورى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۵

لا بدل عن نعته بالتقى ففعله كان له مصدرا

لم يدّغم فى اللحد إلا و قد فكّ من الصبر و ثيق العرا

بكى له زيد و عمرو فمن أمثلة النحو و ممن قرا

ما أعقد التسهيل من بعده فكم له من عسرة يسّرا

و جسر الناس على خوضه إذ كان فى النحو قد استبحرا

من بعده قد حال تمييزه و حظه قد رجع القهقرى

شاركك من قد ساد فى فنه و كم له فنّ به استأثرا

دأب بنى الآداب أن يغسلوا بدمعهم فيه بقايا الكرى

و النحو قد سار الردى نحوه و الصرف للتصريف قد غيرا

و اللغة الفصحى غدت بعده يلغى الذى فى ضبطها قررا

تفسيره البحر المحيط الذى يهدى إلى وراده الجوهرا

فوائد من فضله جمة عليه فيها نعقد الخنصرا

و كان ثبتا نقله حجة مثل ضياء الصبح إن أسفرا

و رحلة فى سنّة المصطفى أصدق من يسمع إن أخبرا

له الأسانيد التى قد علت فاستفلت عنها سوامى الذرا

ساوى بها الأحفاد أجدادهم فاعجب لماض فاته من طرا

و شاعرا فى نظمه مفلقا كم حرّر اللفظ و كم حبّرا

لها معان كلما خطها تستر ما يرقم فى تسترا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۶

أفديه من ماض لأمر الردى مستقبلا من ربه بالقرى

ما بات فى أبيض أكفانه إلا و أضحى سندسا أخضرا

تصافح الحور له راحة كم تعبت فى كل ما سطر

إن مات فالذكر له خالد يحيا به من قبل أن ينشرا

جاد ثرى وافاه غيث إذا مساه بالسّقى له بكّرا

و خصه من ربه رحمة تورده فى حشره الكوثرا

و كان قد قرأ القراءات على الخطيب أبى محمد عبد الحق بن على بن عبد اللّه نحوا من عشرين ختمة إفرادا و جمعا، ثم على الخطيب الحافظ أبى جعفر أحمد الغرناطى المعروف بالطباع بغرناطة، ثم قرأ السبعة إلى آخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ أبى على الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحوص بمالقة، ثم إنه قدم الإسكندرية، و قرأ القراءات على عبد النصير بن على بن يحيى المريوطى، ثم قدم مصر فقرأ بها القراءات على أبى الطاهر إسماعيل بن هبة اللّه المليحى، و سمع الكثير على الجم الغفير بجزيرة الأندلس و بلاد إفريقية و الإسكندرية و ديار مصر و الحجاز، و حصّل الإجازات من الشام و العراق و غير ذلك، و اجتهد فى طلب التحصيل و التقييد و الكتابة، و لم أر فى أشياخى أكثر اشتغالا منه، لأنى لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب، و لم أره على غير ذلك، و له إقبال على الطلبة الأذكياء، و عنده تعظيم لهم، و نظم و نثر، و له الموشحات البديعة، و هو ثبت فيما ينقله، محرر لما يقوله، عارف باللغة، ضابط لألفاظها، و أما النحو و الصرف، فهو إمام الناس كلهم فيهما، لم يذكر معه فى أقطار الأرض غيره فى حياته، و له اليد الطّولى فى التفسير و الحديث و الشروط و الفروع و تراجم الناس و طبقاتهم و حوادثهم، خصوصا المغاربة، و تقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة و ترقيق و تفخيم، لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج و أسماؤهم قريبة من لغاتهم، و ألقابهم كذلك، و قيده و حرره، و سأله شيخنا الذهبى أسئلة فيما يتعلق بذلك، و أجابه عنها.

و له التصانيف التى سارت و طارت، و انتشرت و ما انتثرت، و قرئت و دريت و نسخت و ما فسخت، أخملت كتب الأقدمين، و ألهت المقيمين بمصر و القادمين، و قرأ الناس عليه، و صاروا أئمة و أشياخا فى حياته، و هو الذى جسّر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۷

تعالى، و رغبهم فى قراءتها، و شرح لهم غامضها، و خاض بهم لججها، و فتح لهم مقفلها، و كان يقول عن مقدمة ابن الحاجب: هذه نحو الفقهاء، و كان التزم أن لا يقرئ أحدا إلا إن كان فى كتاب سيبويه أو فى التسهيل لابن مالك أو فى تصانيفه، و لما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه اللّه تعالى كثيرا، و أخذ عنه كتب الأدب، و كان شيخا حسن العمة، مليح الوجه، ظاهر اللون، مشرب الحمرة، منور الشيبة، كبير اللحية، مسترسل الشعر فيها لم تكن كثّة، عبارته فصيحة بلغة الأندلس يعقد حرف القاف قريبا من الكاف، على أنه لا ينطق بها فى القرآن إلا فصيحة، و سمعته يقول: ما فى هذه البلاد من يعقد حرف القاف.

و كانت له خصوصية بالأمير سيف الدين أرغون كافل الممالك، ينبسط معه، و يبيت عنده فى قلعة الجبل، و لما توفيت ابنته نضار طلع إلى السلطان الملك الناصر محمد، و سأل منه أن يدفنها فى بيته داخل القاهرة فى البرقوقية، فأذن له فى ذلك، و كان أولا يرى رأى الظاهرية، ثم إنه تمذهب للشافعى رضى اللّه تعالى عنه، بحث على الشيخ علم الدين العراقى «المحرر» للرافعى، و «مختصر المنهاج» للنووى، و حفظ «المنهاج» إلا يسيرا، و قرأ أصول الفقه على أستاذه أبى جعفر بن الزبير، بحث عليه من الإشارة للباجى، و من المستصفى للغزالى، و على الخطيب أبى الحسن بن فضيلة، و على الشيخ علم الدين العراقى، و على الشيخ شمس الدين الأصبهانى، و على الشيخ علاء الدين الباجى، و قرأ شيئا من أصول الدين على شيخه ابن الزبير، و قرأ عليه شيئا من المنطق، و قرأ أشياء من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادى، و قرأ عليه شيئا من «الإرشاد» للعميدى فى الخلاف، و لكنه برع فى النحو، و انتهت إليه الرياسة و المشيخة فيه، و كان خاليا من الفلسفة و الاعتزال و التّجسيم، و كان أولا يعتقد فى الشيخ تقى الدين بن تيمية و امتدحه بقصيدة، ثم إنه انحرف عنه لما وقف على كتاب «العرش» له، قال الفاضل كمال الدين الأدفوى: و جرى على مذهب كثير من النحويين فى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۸

تعصبه للإمام على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه التعصب المتين، قال: حكى لى أنه قال لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة: إن عليا رضى اللّه تعالى عنه عهد إليه النبى صلى اللّه عليه و سلم أن لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق، أ تراه ما صدق فى هذا! فقال: صدق، قال فقلت له:

فالذين سلّوا السيوف فى وجهه يبغضونه أو يحبونه أو غير ذلك؟ قال: و كان سيّىء الظن بالناس كافة، فإذا نقل له عن أحد خبر لا يتكيف به و ينثنى عنه حتى عمن هو عنده مجروح، فيقع فى ذم من هو بألسنة العالم ممدوح،، و بسبب ذلك وقع فى نفس جمع كبير، منه ألم كثير، انتهى.

قلت: أنا لم أسمع منه فى حق أحد من الأحياء و الأموات إلا خيرا، و ما كنت أنقم عليه شيئا إلا ما كان يبلغنى عنه من الحط على الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، على أننى أنا ما سمعت فى حقه شيئا، نعم كان لا يثق بهؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوما: يا سيدى، فكيف تعمل فى الشيخ أبى مدين؟ فقال: هو رجل مسلم دين، و إلا ما كان يطير فى الهواء، و لا يصلى الصلوات الخمس فى مكة كما يدعى فيه هؤلاء الأغمار.

و كان فيه- رحمه اللّه تعالى!- خشوع يبكى إذا سمع القرآن، و يجرى دمعه عند سماع الأشعار الغزلية، و قال كمال الدين المذكور: قال لى: إذا قرأت أشعار العشق أميل إليها، و كذلك أشعار الشجاعة تستميلنى، و غيرهما، إلا أشعار الكرم ما تؤثر فىّ، انتهى.

قلت: كان يفتخر بالبخل، كما يفتخر غيره بالكرم، و كان يقول لى: أوصيك احفظ دراهمك و يقال عنك بخيل، و لا تحتج إلى السفل.

و أنشدنى من لفظه لنفسه: [بحر الطويل]

رجاؤك فلسا قد غدا فى حبائلى قنيصا رجاء للنّتاج من العقم

أ أتعب فى تحصيله و أضيعه إذن كنت معتاضا من البرء بالسقم

قلت: و الـذى أراه فيه أنه طـال عمره، و تغرب، و ورد البلاد و لا شـىء معه، و تعب حتى حصل المناصب تعبا كثيرا، و كان قـد جرب الناس، و حلب أشطر الدهر و مرت به حوادث،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۴۹

فاسـتعمل الحزم، و سمعته غير مرة يقول: يكفى الفقير فى مصر أربعة أفلس: يشترى له بائتة بفلسين، و بفلس زبيبا، و بفلس كوز ماء، و يشترى ثانى يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز، و كان يعيب على مشترى الكتب و يقول: اللّه يرزقك عقلا تعيش به، أنا أى كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف، و إذا أردت من أحد أن يعيرنى دراهم ما أجد ذلك، و أنشدنى له إجازة: [بحر الكامل]

إن الدراهم و النساء كلاهما لا تأمننّ عليهما إنسانا

ينزعن ذا اللب المتين عن التقى فترى إساءة فعله إحسانا

و أنشدنى له من أبيات: [بحر الطويل]

أتى بشفيع ليس يمكن رده دراهم بيض للجروح مراهم

تصيّر صعب الأمر أهون ما يرى و تقضى لبانات الفتى و هو نائم

و من حزمه قوله:

عداتى لهم فضل- البيتين

و قد مدحه كثير من الشعراء، و الكبار الفضلاء، فمنهم القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر بقوله: [بحر الكامل]

قد قلت لما أن سمعت مباحثا فى الذات قرّرها أجلّ مفيد

هذا أبو حيان قلت صدقتم و بررتم هذا هو التوحيدى

و كان قـد جاء يوما إلى بيت الشـيخ صدر الدين بن الوكيل فلم يجده، فكتب بالجص على مصـراع الباب، فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال: [بحر الكامل]

قالوا أبو حيان غير مدافع ملك النحاة فقلت بالإجماع

اسم الملوك على النقود و إننى شاهدت كنيته على المصراع

و مدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة أولها: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۰

إليك أبا حيان أعملت أنيقى و ملت إلى حيث الركائب تلتقى

دعانى إليك الفضل فانقدت طائعا و لبيت أحدوها بلفظى المصدق

و مدحه نجم الدين إسحاق بن المنّىّ التركى، و سأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة، و أرسلها إليه من دمشق، و أولها: [بحر الطويل]

تبدّى فقلنا وجهه فلق الصبح و كمله باليمن فيه و بالنجح

و سهلت تسهيل الفوائد محسنا فكن شارحا صدرى بتكملة الشرح

و مدحه مجير الدين عمر بن اللّمطى بقصيدة أولها: [بحر السريع]

يا شيخ أهل الأدب الباهر من ناظم يلفى و من ناثر

و مدحه نجم الدين يحيى الإسكندرى بقصيدة أولها: [بحر البسيط]

ضيف ألمّ بنا من أبرع الناس لا ناقض عهد أيامى و لا ناسى

عار من الكبر و الأدناس ذو شرف لكنه من سرابيل العلا كاسى

و مدحه نجم الدين الطوفى بقصيدتين أول الأولى: [بحر الرمل]

أ تراه بعد هجران يصل و يرى فى ثوب وصل مبتذل

قمر جار على أحلامنا إذ تولاها بقدّ معتدل

و أول الثانية: [بحر الرمل]

اعذروه فكريم من عذر قمرته ذات وجه كالقمر

و مدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمى بقصيدة أولها: [بحر البسيط]

[إن الأثير أبا حيان أحيانا بنشره طى علم مات أحيانا

و مدحه القاضى ناصر الدين شافع بقصيدة أولها]: [بحر الطويل]

فضضت عن العذب النمير ختامها و فتّحت عن زهر الرياض كمامها

و مدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم، و كتبت أنا إليه من الرحبة سنة ۷۲۹: [بحر البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۱

لو كنت أملك من دهرى جناحين لطرت لكنه فيكم جنى حينى

يا سادة نلت فى مصر بهم شرفا أرقى به شرفا ينأى عن العين

و إن جرى لسما كيوان ذكر علا أحلنى فضلهم فوق السماكين

و ليس غير أثير الدين أثّله فشاد ما شاد لى حقا بلا مين

حبر و لو قلت إن الباء رتبتها من قبل صدّقك الأقوام فى ذين

أحيا علوما أمات الدهر أكثرها مذ جلّدت خلّدت ما بين دفين

يا واحد العصر ما قولى بمتهم و لا أحاشى امرأ بين الفريقين

هذى العلوم بدت من سيبويه كما قالوا و فيك انتهت يا ثانى اثنين

قدم لها و بودى لو أكون فدى لما ينالك فى الأيام من شين

يا سيبويه الورى فى الدهر لا عجب إذا الخليل غدا يفديك بالعين

يقبل الأرض و ينهى ما هو عليه من الأشواق التى برّحت بألمها، و أجرت الدموع دما، و هذا الطرس الأحمر يشهد بدمها، و أربت بسحّها على السحائب، و أين دوام هذه من ديمها، و فرقت الأوصال على السقم لوجود عدمها: [بحر الطويل]

فيا شوق ما أبقى، و يا لى من النوى و يا دمع ما أجرى، و يا قلب ما أصبى

و يذكر ولاءه الذى تسجع به فى الأرض الحمائم، يسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمائم، و ثناءه الذى يتضوّع كالزهر بين الكمائم، و يتنسّم تنسّم هامات الربا إذا لبست من الربيع ملوّنات العمائم، و يشهد اللّه على ما قد قلته و اللّه سبحانه نعم الشهيد.

فكتب هو الجواب عن ذلك و لكنه عدم منى.

و أنشدته يوما لنفسى: [بحر الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۲

قلت للكاتب الذى ما أراه قط إلا و نقّط الدمع شكله

إن تخطّ الدموع فى الخد شيئا ما يسمى؟ فقال خطّ ابن مقله

و أنشدنى هو من لفظه لنفسه:

سبق الدمع بالمسير المطايا إذ نوى من أحبّ عنى نقله

و أجاد الخطوط فى صفحة الخ دّ و لم لا يجيد و هو ابن مقله

و أنشدنى فى مليح نوتىّ: [بحر الطويل]

كلفت بنوتىّ كأن قوامه إذا ينثنى خوط من البان ناعم

مجاذفه فى كل قلب مجاذب و هزاته للعاشقين هزائم

و أنشدته أنا لنفسى: [بحر الخفيف]

إنّ نوتىّ مركب نحن فيه هام فيه صبّ الفؤاد جريحه

أقلع القلب عن سلوّى لما أن بدا ثغره و قد طاب ريحه

و أنشدته لنفسى أيضا: [بحر مخلع البسيط]

نوتيّنا حسنه بديع و فيه بدر السماء مغرى

ما حكّ برّا إلا و قلنا يا ليت أنا نحكّ برّا

فأعجباه رحمه اللّه تعالى، و زهزه لهما.

و أنشدنى هو لنفسه فى مليح أحدب: [بحر المتقارب]

تعشقته أحدبا كيسا يحاكى نحيبا حنين النّعام

إذا كدت أسقط من فوقه تعلقت من ظهره بالسّنام

فأنشدته لنفسى: [بحر السريع]

و أحدب رحت به مغرما إذ لم تشاهد مثله عينى

لا غرو إن هام فؤادى به و خصره ما بين دفين

و أنشدنى من لفظه لنفسه فى أعمى: [بحر البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۳

ما ضرّ حسن الذى أهواه أنّ سنى كريمتيه بلا شين قد احتجبا

قد كانتا زهرتى روض و قد ذوتا لكنّ حسنهما الفتان ما ذهبا

كالسيف قد زال عنه صقله فغدا أنكى و آلم فى قلب الذى ضربا

و أنشدته لنفسى فى ذلك: [بحر السريع]

و رب أعمى وجهه روضة تنزّهى فيها كثير الديون

و خدّه ورد غنينا به عن نرجس ما فتحته العيون

و أنشدته أيضا لنفسى فى ذلك: [بحر الطويل]

فيا حسن أعمى لم يخف حدّ طرفه محبّ غدا سكران فيه و ما صحا

إذا صاد خلّ بات يرعى حدوده غدا آمنا من مقلتيه الجوارحا

و كتبت إليه استدعاء، و هو: المسؤول من إحسان سيدنا الإمام العالم العلامة، لسان العرب، ترجمان الأدب، جامع الفضائل، عمدة وسائل السائل، حجة المقلّدين، زين المقلّدين، قطب المؤملين، أفضل الآخرين، وارث علوم الأولين، صاحب اليد الطولى فى كل مكان ضيق، و التصانيف التى تأخذ بمجامع القلب فكل ذى لبّ إليها شيّق، و المباحث التى أثارت الأدلة الراجحة من مكامن أماكنها، و قنصت أوابدها الجامحة من مواطئ مواطنها، كشاف معضلات الأوائل، سبّاق غايات قصر عن شأوها سحبان وائل، فارع هضبات البلاغة فى اجتلاء اجتلابها و هى فى مرقى مرقدها، سالب تيجان الفصاحة فى اقتضاء اقتضابها من فوق فرقدها، حتى أبرز كلامه جنان فكلّ جنّان من بعده عن الدخول إليها جبان، و أتى ببراهين وجوه حورها لم يطمثهن إنس قبله و لا جان، و أبدع خمائل نظم و نثر لا

تصل إلى أفنان فنونها يد جان، أثير الدين أبى حيان، لا زال ميت العلم يحييه و هل عجيب ذلك من أبى حيان: [بحر الكامل]

حتى ينال بنو العلوم مرامهم و يحلهم دار المنى بأمان

إجازة كاتب هذه الأحرف ما رواه فسح اللّه تعالى فى مدته من المسانيد و المصنفات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۴

و السنن و المجاميع الحديثية، و التصانيف الأدبية، نظما و نثرا، إلى غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها، و تباين أجناسها و أنواعها، مما تلقاه ببلاد الأندلس و إفريقية و الإسكندرية و الديار المصرية و البلاد الحجازية و غيرها من البلدان، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة، كيفما تأدّى ذلك إليه، و إجازة ما له أدام اللّه إفادته من التصانيف فى تفسير القرآن العظيم و العلوم الحديثية و الأدبية و غيرها، و ما له من نظم و نثر إجازة خاصة، و أن يثبت بخطه تصانيفه إلى حين هذا التارخ، و أن يجيزه إجازة عامة لما يتجدّد له من بعد ذلك على رأى من يراه و يجوّزه، منعما متفضلا إن شاء اللّه تعالى.

فكتب الجواب رحمه اللّه تعالى: أعزك اللّه! ظننت بإنسان جميلا فغاليت، و أبديت من الإحسان جزيلا و ما باليت، وصفت من هو القتام يظنه الناس سماء، و السراب يحسبه الظمآن ماء، يا ابن الكرام و أنت أبصر من يشيم، أمع الروض النضير يرعى الهشيم أما أغنتك فضائلك، و فواضلك، و معارفك، و عوارفك، عن نغبة من دأماء، و تربة من يهماء، لقد تبلجت المهارق من نور صفحاتك، و تأرجت الأكوان من أريج نفحاتك، و لأنت أعرف من يقصد للدراية، و أنقد من يعتم عليه فى الرواية، لكنك أردت أن تكسو من مطارفك، و تتفضل من تالدك و طارفك، و تجلو الخامل فى منصة النباهة، و تنقذه من لكن الفهاهة، فتشيد له ذكرا، و تعلى له قدرا، و لم يمكنه إلا إسعافك فيما طلبت، و إجابتك فيما إليه ندبت، فإن المالك لا يعصى، و المتفضل المحسن لا يقصى، و قد أجزت لك- أيدك اللّه تعالى!- جميع ما رويته عن أشياخى بجزيرة الأندلس و بلاد إفريقية و ديار مصر و الحجاز و غير ذلك، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة بمشافهة و كتابة و وجادة، و جميع ما أجيز لى أن أرويه بالشام و العراق و غير ذلك، و جميع ما صنفته و اختصرته و جمعته و أنشأته نظما و نثرا، و جميع ما سألت فى هذا الاستدعاء: فمن مروياتى الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة من أعلاهم الشيخ المسند المعمّر فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل بن هبة اللّه بن على بن هبة اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۵

المصرى ابن المليحى، آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبى الجود، و الكتب الستة و الموطأ و مسند عبد بن حميد و مسند الدارمىّ و مسند الشافعى و مسند الطّيالسى و المعجم الكبير للطّبرانى و المعجم الصغير له و سنن الدارقطنى و غير ذلك.

و أما الأجزاء فكثيرة جدا، و من كتب النحو و الآداب فأروى بالقراءة كتاب سيبويه، و الإيضاح، و التكملة، و المفصل، و جمل الزجاجى، و غير ذلك، و الأشعار الستة و الحماسة و ديوان حبيب و المتنبى و المعرى، و أما شيوخى الذين رويت عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير، و أذكر الآن منهم جماعة: فمنهم القاضى أبو على الحسن بن عبد العزيز بن أبى الأحوص القرشى، و المقرى أبو جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الأنصارى، و إسحاق بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك بن درباس، و أبو بكر بن عباس بن يحيى بن غريب القوّاس البغدادى، و صفى الدين الحسين بن أبى منصور بن الخزرجى، و أبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى، و وجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأزدى بن الدّهّان، و قطب الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد بن القسطلانى، و رضى اللّه محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبى اللغوى، و نجيب الدين محمد بن أحمد [بن محمد] بن المؤيد الهمدانى، و مكى بن محمد بن أبى القاسم بن حامد الأصبهانى الصّيفّار، و محمد بن عمر بن محمد بن على السعدى الضرير بن الفارض، و زين الدين أبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد اللّه بن الأنماطى، و محمد بن إبراهيم بن ترجم بن حازم المازنى، و محمد بن الحسين بن الحسن بن إبراهيم الدارىّ بن الخليلى، و محمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف الأنصارى بن الخيمى، و محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عمر العنسى عرف بابن النّنّ، و عبد اللّه بن محمد بن هارون بن عبد العزيز الطائى

القرطبى، و عبد اللّه بن نصر اللّه بن أحمد بن رسلان بن فتيان بن كامل الخزمى، و عبد اللّه بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن فارس التميمى، و عبد الرحمن بن يوسف بن يحيى بن يوسف ابن خطيب المزة، و عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلى المصرى السكرى، و عبد العزيز بن عبد المنعم بن على بن نصر بن الصيقل الحرانى، و عبد العزيز بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۶

عبد القادر بن إسماعيل الفيالى الصالحى الكتّيانى، و عبد المعطى بن عبد الكريم بن أبى المكارم بن منجى الخزرجى، و على بن صالح بن أبى على بن يحيى بن إسماعيل الحسنى البهنسى المجاور، و غازى بن أبى الفضل بن عبد الوهاب الحلاوى، و الفضل بن على بن نصر بن عبد اللّه بن الحسين بن رواحة الخزرجى، و يوسف بن إسحاق بن أبى بكر الطبرى المكى، و اليسر بن عبد اللّه بن محمد بن خلف بن اليسر القشيرى، و مؤنسة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى، و شامية بنت الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد التيمية، و زينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على البغدادى.

و ممن كتبت عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن على بن الفرج المالقى بن المرحل، و أبو الحسن بن حارم بن محمد بن حازم الأنصارى القرطاجنى، و أبو عبد اللّه محمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد اللّه الهذلى التطيلى، و أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن محمد بن زنّون المالقى، و أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن جبير الجليانى العكى المالقى، و أبو الحسين يحيى بن عبدالعظيم بن يحيى الأنصارى الجزار، و أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تولو القرشى، و أبو حفص عمر بن محمد بن أبى على الحسن المصرى الوراق، و أبو الربيع سليمان بن على بن عبد اللّه بن ياسين الكومى التلمسانى، و أبو العباس أحمد بن أبى الفتح نصر اللّه بن باتكين القاهرى، و أبو عبد اللّه محمد بن سعيد [بن محمد] بن حماد بن محسن الصنهاجى البوصيرى، و أبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم العزازى.

و ممن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخشنى الأبّدى، و أبو الحسن على بن محمد بن على بن يوسف الكتامى بن الضائع، و أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفى، و أبو جعفر أحمد بن يوسف بن على بن يوسف الفهرى اللّبلى، و أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر الحلبى ابن النحاس.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۷

و ممن لقيته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن على بن خالص الأنصارى الإشبيلى الزاهد، و أبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهرى الشّنتمرى.

و جملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة شخص و خمسين. و أما الذين أجازونى فعالم كثير جدا من أهل غرناطة و مالقة و سبتة و ديار إفريقية و ديار مصر و الحجاز و العراق و الشام، و أما ما صنفته فمن ذلك «البحر المحيط» فى تفسير القرآن العظيم «إتحاف الأديب، بما فى القرآن من الغريب» كتاب «الأسفار، الملخص من كتاب الصِّفّار» شرحا لكتاب سيبويه، كتاب «التجريد لأحكام سيبويه» كتاب «التذييل و التكميل، فى شرح التسهيل» كتاب «التنخيل، الملخص من شرح التسهيل» كتاب «التذكرة» كتاب «المبدع» فى التصريف، كتاب «الموفور» كتاب «التقريب» كتاب «التدريب» كتاب «غاية الإحسان» كتاب «النكت الحسان» كتاب «الشذا، فى مسألة كذا» كتاب «الفضل، فى أحكام الفصل» كتاب «اللمحة» كتاب «الشذرة» كتاب «الارتضاء، فى الفرق بين الضاد و الظاء» كتاب «عقد اللآلى» كتاب «نكت الأمالى» كتاب «النافع، فى قراءة نافع» «الأثير، فى قراءة ابن كثير» «المورد الغمر، فى قراءة أبى عمرو» «الروض الباسم، فى قراءة عاصم» «المزن الهامر، فى قراءة ابن عامر» «الرمزة، فى قراءة حمزة» «تقريب النائى، فى قراءة الكسائى» «غاية المطلوب، فى قراءة يعقوب» قصيدة «التير الجلىّ، فى قراءة زيد بن علىّ» «الوهاج، فى اختصار المنهاج» «الأنور الأجلى، فى اختصار المحلى» «الحلل الحالية، فى أسانيد القرآن العالية» كتاب «الإعلام، بأركان الإسلام» «نثر الزهر، و نظم الزهر» قطر الحبّى، فى جواب أسئلة الذهبى» فهرست مسموعاتى «نوافث السحر، فى دمائث الشعر» «تحفة النّدس، فى نحاة الأندلس» «الأبيات الوافية، فى علم القافية» جزء

فى الحديث، مشيخة ابن أبى المنصور، كتاب «الإدراك، للسان الأتراك» «زهو الملك، فى نحو التركى» «نفحة المسك، فى سيرة التركى» كتاب «الأفعال، فى لسان التركى» «منطق الخرس، فى لسان الفرس» و مما لم يكمل تصنيفه كتاب «مسلك الرشد، فى تجريد مسائل نهاية ابن رشد» كتاب «منهج السالك، فى الكلام على ألفية ابن مالك» «نهاية الإغراب، فى علمى التصريف و الإعراب» رجز «مجانى الهصر، فى آداب و تواريخ لأهل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۸

العصر» «خلاصة التبيان، فى علمى البديع و البيان» رجز «نور الغبش، فى لسان الحبش» «المخبور، فى لسان اليخمور» قاله و كتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان.

و أنشدنى الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه فى صفات الحروف: [بحر الخفيف]

أنا هاو لمستطيل أغنّ كلما اشتد صارت النفس رخوه

أهمس القول و هو يجهر سبّى و إذا ما انخفضت أظهر علوه

فتح الوصل ثم أطبق هجرا بصفير و القلب قلقل شجوه

لان دهرا ثم اغتدى ذا انحراف و فشا السر مذ تكررت نحوه

و أنشدنى أيضا لنفسه: [بحر الوافر]

يقول لى العذول و لم أطعه تسلّ فقد بدا للحبّ لحيه

تخيل أنها شانت حبيبى و عندى أنها زين و حليه

و أنشدنى لنفسه أيضا: [بحر البسيط]

شوقى لذاك المحيّا الزاهر الزاهى شوق شديد و جسمى الواهن الواهى

أسهرت طرفى و ولّهت الفؤاد هوى فالطرف و القلب منى الساهر الساهى

نهبت قلبى و تنهى أن أبوح بما يلقاه و اشوقه للناهب الناهى

بهرت كل مليح بالبهاء فما فى النّيّرين شبيه الباهر الباهى

لهجت بالحب لما أن لهوت به عن كل شىء فويح اللاهج اللاهى

و أنشدنى من لفظه لنفسه: [بحر السريع]

راض حبيبى عارض قد بدا يا حسنه من عارض رائض

و ظن قوم أن قلبى سلا و الأصل لا يعتدّ بالعارض

و أنشدنى من لفظه لنفسه: [بحر الطويل]

تعشقته شيخا كأن مشيبه على و جنتيه ياسمين على ورد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۵۹

أخا العقل يدرى ما يراد من الهوى أمنت عليه من رقيب و من صدّ

و قالوا الورى قسمان فى شرعة الهوى لسود اللحى ناس و ناس إلى المرد

ألا إننى لو كنت أصبو لأمرد صبوت إلى هيفاء مائسة القدّ

و سود اللحى أبصرت فيهم مشاركا فأحببت أن أبقى بأبيضهم وحدى

و أنشدنى من لفظه لنفسه: [بحر الطويل]

ألا إن ألحاظا بقلبى عوابثا أظنّ بها هاروت أصبح نافثا

إذا رام ذو وجد سلوّا منعنه و كنّ على دين التصابى بواعث

وقيدن من أضحى عن الحب مطلقا و أسر عن للبلوى بمن كان رائثا

بروحى رشا من آل خافان راحل و إن كان ما بين الجوانح لابثا

غدا واحدا فى الحسن للفضل ثانيا و للبدر و الشمس المنيرة ثالثا

و أنشدنى لنفسه، و من خطه نقلت: [بحر الطويل]

أسحر لتلك العين فى القلب أم و خز و لين لذاك الجسم فى اللمس أم خز

و أملود ذاك القدّ أم أسمر غدا له أبدا فى قلب عاشقه هز

فتاة كساها الحسن أفخر حلة فصار عليها من محاسنها طرز

و أهدى إليها الغصن لين قوامه فماس كأن الغصن خامره العز

يضوع أديم الأرض من نشر طيبها و يخضرّ من آثار تربتها الجرز

و تختال فى برد الشباب إذا مضت فينهضها قدّ و يقعدها عجز

أصابت فؤاد الصب منها بنظرة فلا رقية تجدى المصاب و لا حرز

و أنشدنى إجازة فى مليح أبرص، و من خطه نقلت: [بحر الطويل]

و قالوا الذى قد صرت طوع جماله و نفسك لاقت فى هواه نزاعها

به وضح تأباه نفس أولى النهى و أفظع داء ما ينافى طباعها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۰

فقلت لهم لا عيب فيه يشينه و لا علة فيه يروم دفاعها

و لكنها شمس الضحى حين قابلت محاسنه ألقت عليه شعاعها

و أنشدنى من لفظه لنفسه فى فحام: [بحر الطويل]

و علّقته مسود عين و وفرة وثوب يعانى صنعة الفحم عن قصد

كأن خطوط الفحم فى و جناته لطاخة مسك فى جنىّ من الورد

و أنشدنى إجازة، و من خطه نقلت: [بحر الخفيف]

سأل البدر هل تبدّى أخوه قلت يا بدر لن تطيق طلوعا

كيف يبدو و أنت يا بدر باد أو بدران يطلعان جميعا

و أنشدنى من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمسانى.

عاذلى فى الأهيف الأنس لو رآه الآن قد عذّرا

رشأ قد زانه الحور

غصن من فوقه قمر

قمر من سحبه الشعر

ثغر من فيه أم درر

حال بين الدر و اللّعس خمرة من ذاقها سكرا

رجة بالردف أم كسل

ريقة بالثغر أم عسل

وردة بالخد أم خجل

كحل بالعين أم كحل

يا لها من أعين نعس جلبت للناظر السهرا

مذ نأى عن مقلتيّ سنى

ما أذيقا لذة الوسن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۱

طال ما ألقاه من شجن

عجبا ضدّان فى بدن

بفؤادى جذوة القبس و بعينى الماء منفجرا

قد أتانى اللّه بالفرج

إذ دنا منى أبو الفرج

قمر قد حل فى المهج

كيف لا يخشى من الوهج

غيره لو صابه نفسى ظنه من حره شررا

نصب العينين لى شركا

فانثنى و القلب قد ملكا

قمر أضحى له فلكا

قال لى يوما و قد ضحكا

أتجى من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمرا

و أما موشحة ابن التلمسانى فهى:

قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا

آمن من شبهة الكلف

ذبت من عينيه بالكلف

لم يزل يسعى إلى تلفى

بركاب الدّلّ و الصّلف

آه لولا أعين الحرس نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جار مذ وليا

كيف لا ترثى لمن بليا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۲

فبثغر منك قد جليا

قد حلا طعما و قد حليا

و بما أوتيت من كيس جد فما أبقيت مصطبرا

بدرتم فى الجمال سنى

و لهذا لقبوه سنى

قد سبانى لذة الوسن

بمحيا باهر حسن

هو خشفى و هو مفترسى فارو عن أعجوبتى خبرا

لك خدّ يا أبا الفرج

زين بالتوريد و الضّرج

و حديث عاطر الأرج

كم سبى قلبا بلا حرج

لو رآك الغصن لم يمس أو رآك البدر لاستترا

يا مذيبا مهجتى كمدا

فقت فى الحسن البدور مدى

يا كحيلا كحله اعتمدا

عجبا أن تبرىء الرمدا

و بسقم الناظرين كسى جفنك السحار و انكسرا

و أنشدنى من لفظه لنفسه أيضا:

إن كان ليل داج و خاننا الإصباح فنورها الوهاج، يغنى عن المصباح

سلافة تبدو كالكوكب الأزهر

مزاجها شهد و عرفها عنبر

و حبذا الورد منها و إن أسكر

قلبى بها قد هاج، فما ترانى صاح عن ذلك المنهاج، و عن هوى يا صاح

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۳

و بى رشا أهيف قد لج فى بعدى

بدر فلا يخسف منه سنى الخدّ

بلحظه المرهف يسطو على الأسد

كسطوة الحجاج فى الناس و السفاح فما ترى من ناج، من لحظه السفاح

علل بالمسك قلب رشا أحور

منعم المسك ذى مبسم أعطر

ريّاه كالمسك و ريقه كوثر

غصن على رجراج، طاعت له الأرواح فحبذا الآراج، إن هبت الأرواح

مهلا أبا القاسم على أبى حيان

ما إن له عاصم من لحظك الفتان

و هجرك الدائم قد طال بالهيمان

فدمعه أمواج، و سره قد باح لكنه ما عاج، و لا أطاع اللاح

يا رب ذى بهتان يعذل فى الراح

و فى هوى غزلان دافعت بالراح

و قلت لا سلوان عن ذاك يا لاح

سبع الوجوه و التاج، هى منية الأفراح فاختر لى يا زجّاج، قمصال و زوج أقداح

و أنشدنى من لفظه لنفسه القصيدة الدالية التى نظمها فى مدح النحو و الخليل و سيبويه، ثم خرج منها إلى مديح صاحب غرناطة و غيره من أشياخه، و أولها: [بحر الطويل]

هو العلم لا كالعلم شيء تراوده لقد فاز باغيه و أنجح قاصده

و هى قصيدة جيدة تزيد على مائة بيت.

و حكى لى أن الشيخ أثير الدين رحمه اللّه تعالى ضعف فتوجه إليه جماعة يعودونه، و فيهم شمس الدين بن دانيال، فأنشدهم الشيخ رحمه اللّه تعالى القصيدة المذكورة، فلما فرغت قال ابن دانيال: يا جماعة أخبركم أن الشيخ قد عوفى، و ما بقى عليه بأس، لأنه لم يبق عنده فضلة، قوموا باسم اللّه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۴

و أنشدنى من لفظه لنفسه رحمه اللّه تعالى قصيدة السينية التى أولها: [بحر الطويل]

أهاجك ربع حائل الرسم دارسه كوحى كتاب أضعف الخط دارسه

انتهى نص الصفدى، و ما ذكره رحمه اللّه تعالى فى موضع ولادة أبى حيان غير مخالف لما ذكره فى الوافى أنه ولد بغرناطة، إلا أن قوله: «بمدينة مطخشارش» فيه نظر، لأنه يقتضى أنها مدينة، و ليس كذلك، و إنما هى موضع بغرناطة، و لذا قال الرعينى: إن مولد أبى حيان بمطخشارش من غرناطة، و نحوه لابن جماعة، انتهى، و هو صريح فى المراد، و صاحب البيت أدرى [بالذى فيه] على أنه يمكن أن يرد كلام الصفدى لذلك، و اللّه تعالى أعلم.

و ذكر فى الوافى أنه تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية، و الإقراء بالجامع الأقمر، قال الصفدى: و قال لى: لم أر بعد ابن دقيق العيد أفصح من قراءتك، و كان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة، انتهى.

و ما وقع فى كلام كثير من أهل المغرب أن أبا حيان توفى سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة غير ظاهر، لأن أهل المشرق أعرف بذلك، إذ توفى عندهم، و قد تقدم أنه توفى سنة خمس و أربعين و سبعمائة، فعلى كلام أهل المشرق فى هذا المعول، و اللّه أعلم.

و كانت نضار بنت أبى حيان حجت، و سمعت بقراءة العلم البرزالى على بعض الشيوخ، و حدثت بشيء من مروياتها، و حضرت على الدمياطى، و سمعت على جماعة، و هى بضم النون و تخفيف الضاد، و أجازها من المغرب أبو جعفر بن الزبير، و حفظت مقدمة فى النحو، و لما توفيت عمل والدها فيها كتابا سماه «النّضار، فى المسلاة عن نضار» و كان والدها يثنى عليها كثيرا، و كانت تكتب و تقرأ، قال الصفدى: قال لى والدها: إنها خرّجت جزءا لنفسها، و إنها تعرب جيدا، و أظنه قال لى: إنها تنظم الشعر، و كان يقول دائما: ليت أخاها حيان كان مثلها، و توفيت رحمها اللّه تعالى فى جمادى الآخرة سنة ۷۳۰، فى حياة والدها، فوجد عليها وجدا عظيما و لم يثبت، و انقطع عند قبرها بالبرقية، و لازمه سنة، و مولدها فى جمادى الآخرة سنة ۷۰۲، قال الصفدى: و كنت بالرحبة لما توفيت، فكتبت لوالدها بقصيدة أولها:

[بحر الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۵

بكينا باللجين على نضار فسيل الدمع فى الخدين جارى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۱۶۵

فياللّه جارية تولّت فنبكيها بأدمعنا الجوارى

و قال الفقيه المحدث أبو عبد اللّه محمد بن سعيد الرعينى الأندلسى فى برنامجه، عند ذكره شيخه أبا حيان زيادة على ما قدمناه، ما ملخصه: إن أبا حيان قال: سمعت بغرناطة و مالقة و بلش و المرية و بجاية و تونس و الإسكندرية و مصر و القاهرة و دمياط و المحلة و طهرمس و الجيزة و منية ابن خصيب و دشنا و قنا و قوص و بلبيس و بعيذاب من بلاد السودان و ينبع و مكة شرفها اللّه تعالى وجدة و أيلة، ثم فصّل من لقيه فى كل بلد إلى أن قال: و بمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن عبد اللّه بن عساكر، إلى أن قال: فهذه نبذة من شيوخى، و جملة من سمعت منهم [نحو] خمسمائة، و المجيزون أكثر من ألف، وعد من كتب القراءات التى أخذ تسعة عشر كتابا، و قال فى حق ابن المليحى: إنه أعلى شيوخى فى القراءات و إن آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذرى اللّخمى، و إجازته منه سنة ۶۰۴، قال: و قرأت البخارى على جماعة أقدمهم إسنادا فيه أبو العز الحرانى قرأته عليه بلفظى إلا بعض كتاب التفسير من قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (۲۲۲) [البقرة: ۲۲۲] إلى قوله سبحانه: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) [النور: ۲۴] فى سورة النور، فسمعته بقراءة غيرى، قال: أنبأنا به أبو المعالى أحمد بن يحيى بن عبيد اللّه الخازن البيع سماعا عليه سنة ستمائة ببغداد، أنبأنا أبو الوقت بسنده، و كمل له رحمة اللّه تعالى جامع الترمذى بين قراءة و سماع على ابن الزبير بغرناطة، و سمعه على محمد بن ترجم، أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكرخى بسنده، و قرأ السنن لأبى داود بغرناطة على أبى زيد عبد الرحمن الربعى، عرف بالتونسى، أنبأنا به سهل بن مالك، و قرأه بالقاهرة على أبى الفضل عبد الرحيم ابن خطيب المزة عن أبى حفص بن طبرزد عن أبى بدر الكرخى و مفلح الرومى عن أبى بكر بن ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمى أنبأنا اللؤلؤى أنبأنا أبو داود، و قرأ الموطأ على أبى حفص بن الطباع عن أبى القاسم بن بقى عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع بسنده، و هذا أعلى سند يوجد عن يونس بن مغيث فى عصره،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۶

و سمع أبو حيان الأجزاء الخلعيات و الغيلانيات و القطيعيات و النهروانيات و المحامليات و الثقفيات و سداسيات الرازى بعلو، قرأها على صفى الدين عبد الوهاب بن الفرات عن أبى الطاهر إسماعيل بن ياسين الجيلى، و هو آخر من حدث عنه، عن أبى عبد اللّه الرازى سماعا، و قرأ جزء الأنصارى على أبى بكر بن الأنماطى بسماعه حضورا فى الرابعة على أبى اليمن زيد بن الحسن الكندى، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقى البزار سنة ۵۳۲، أنبأنا إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكى قراءة عليه فى رجب سنة ۴۴۵، أنبأنا عبد اللّه بن إبراهيم بن ماس، أنبأنا أبو مسلم الكشى البصرى، أنبأنا محمد بن عبد اللّه الأنصارى، و قرأ جميع كتاب سيبويه على البهاء بن النحاس المشهور بالنحو فى مصر و الشام، بقراءته على علم الدين أبى محمد القاسم بن أحمد بن الموفق، بقراءته على التاج أبى اليمن الكندى، أنبأنا أبو محمد عبد اللّه بن على بن أحمد البغدادى مؤلف كتاب المبهج، أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن محمد بن يعقوب عرف بابن الدبّاس، أنبأنا أبو القاسم عبد الواحد بن على بن عمر بن برهان الأسدى، أنبأنا القاسم على بن عبيد اللّه الرقيقى، أنبأنا على بن عيسى بن عبد اللّه الرمانى، أنبأنا أبو بكر بن السراج، أنبأنا أبو العباس المبرد، أنبأنا أبو عمر الجرمى و أبو عثمان المازنى، قالا: أنبأنا أبو الحسن الأخفش، أنبأنا سيبويه، قال الشيخ أبو حيان: و لا أعلم راويا له بمصر و الشام و العراق و اليمن و المشرق غيرى، و رويته عن الأساتيذ أبوى على بن الضائع و ابن أبى الأحوص و أبى جعفر اللّبلى عن أبى على الشلوبين، و سنده مشهور بالمغرب، و وقع لأبى حيان تساعيات كثيرة، و أغرب ما وقع له ثلاثة أحاديث بينه و بين رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فيها ثمانية، أخبره المحدث نجيب محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمدانى بقراءته عليه و الجليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى قراءة عليها و هو يسمع قالا: أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح فى كتابه، أخبرتنا فاطمة بنت عبد اللّه بن أحمد الجوزدانية، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن ريدة الضبى الأصبهانى، أنبأنا الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر

اللخمى الطبرانى، أنبأنا عبيد اللّه بن رماحس القيسى برمادة الرملة سنة ۲۷۴، أنبأنا أبو عمر زياد بن طارق و قد أتت عليه عشرون و مائة سنة، قال:

سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمى يقول: لما أسرنا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يوم هوازن أتيته فقلت: [بحر البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۷

امنن علينا رسول اللّه فى كرم فإنك المرء ترجوه و ننتظر

امنن على بيضة قد عاقها قدر مشتّت شملها فى دهرها غير

أبقت لنا الدهر هتّانا على حزن علا قلوبهم الغماء و الغمر

إن لم تداركهم نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلما حين يختبر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها و إذ يربيك ما تأتى و ما تذر

لا تجعلنّا كمن شالت نعامته و استبق منا فإنا معشر زهر

إنا لنشكر للنعماء إذ كفرت و عندنا بعد هذا اليوم مدّخر

فألبس العفو من قد كنت ترضعه من أمهاتك إن العفو مشتهر

يا خير من مرحت كمت الجياد به عند الهياج إذا ما استوقد الشرر

إنا نؤمل عفوا منك تلبسه هذى البرية إذ تعفو و تنتصر

فاعف عفا اللّه عما أنت راهبه يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

فلما سمع صلى اللّه عليه و سلم هذا الشعر قال: «ما كان لى و لبنى عبد المطلب فهو لكم» فقالت قريش:

ما كان لنا فهو للّه و لرسوله، و قالت الأنصار: ما كان لنا فهو للّه و لرسوله، قال أبو القاسم الطبرانى: لا يروى عن زهير إلا بهذا الإسناد، و تفرد به عبيد اللّه بن رماحس، و بالإسناد إلى الطبرانى أنبأنا جعفر بن حميد بن عبد الكريم بن فرّوخ بن ديزج بن بلال بن سعد الأنصارى الدمشقى، قال: حدثنى جدى لأمى عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدنى، قال: أرانى أنس بن مالك الوضوء: أخذ ركوة فوضعها عن يساره، و صبّ على يده اليمنى فغسلها ثلاثا، ثم أدار الركوة عن يده اليمنى و صبّ على يساره فغسلها ثلاثا و ثلاثا و مسح برأسه ثلاثا و أخذ ماء جديدا لصماخيه فمسح صماخيه، فقلت له: قد مسحت أذنيك، فقال: يا غلام، هل رأيت و فهمت أو أعيد عليك؟ فقلت: قد كفانى، و قد فهمت، قال: فكذا رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يتوضأ، قال الطبرانى: لم يرو عمر بن أبان عن أنس حديثا غير هذا، و بالإسناد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۸

إلى الطبرانى: حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصرى، أنبأنا دينار بن عبد اللّه مولى أنس بن مالك، حدثنى أنس بن مالك، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «طوبى لمن رآنى و آمن بى، و من رأى من رآنى و آمن بى، و من رأى من رأى من رآنى».

ثم قال الرعينى: و تصانيف أبى حيان تزيد على خمسين ما بين طويل و قصير، ثم قال الرعينى: و خرج أبو حيان من الأندلس مفتتح سنة ۶۷۹، و استوطن القاهرة بعد حجه، و أنشد لشيخه أبى الحسن الزّجّاج: [بحر الطويل]

رضيت كفافى رتبة و معيشة فلست أسامى موسرا و وجيها

و من جر أثواب الزمان طويلة فلا بد يوما أن سيعثر فيها

و أنشد بإسناده لموسى بن أبى تليد: [بحر المنسرح]

حالى مع الدهر فى تقلّبه كطائر ضم رجله شرك

فهمه فى خلاص مهجته يروم تخليصها فتشتبك

ثم أورد الرعينى جملة من نظم الإمام أبى حيان، منها قوله: [بحر الطويل]

أريد من الدنيا ثلاثا و إنها لغاية مطلوب لمن هو طالب

تلاوة قرآن، و نفس عفيفة، و إكثار أعمال عليها أواظب

و قوله: [بحر البسيط]

أرحت روحى من الإيناس بالناس لما غنيت عن الأكياس بالياس

و صرت فى البيت وحدى لا أرى أحدا بنات فكرى و كتبى هنّ جلاسى

و قوله: [بحر الطويل]

و زهدنى فى جمعى المال أنه إذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا

فلا روحه يوما أراح من العنا و لم يكتسب حمدا و لم يدخر أجرا

و قوله: [بحر الوافر]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۶۹

يظن الغمر أن الكتب تجدى أخا ذهن لإدراك العلوم

و ما يدرى الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم

إذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم

و تلتبس الأمور عليك حتى تصير أضل من توما الحكيم

و له لغز فى قيراط زاعما أنه لا يفكّ: [بحر الطويل]

و ما اسم خماسى إذا ما فككته يصير لنا فعلين أمرا و ماضيا

بعكس و هو كل و جزء و جمعه بإبدال عين حاز فيه التناهيا

و مع كونه فردا و جمعا فأول و آخره أضحى لشخص معاديا

و فى عكسه صوت فتبنيه صيغة و تبنى بمعناه و ما أنت بانيا

فكم فيه من معنى خفى و إنما عنيت بذكرى للذى ليس خافيا

ثم قال الرعينى: و هو شيخ فاضل، ما رأيت مثله، كثير الضحك و الانبساط، بعيد عن الانقباض، جيد الكلام، حسن اللقاء، جميل المؤانسة، فصيح الكلام، طلق السان، ذو لمة وافرة، و همة فاخرة، له وجه مستدير، و قامته معتدلة التقدير، ليس بالطويل و لا بالقصير، انتهى ما لخصته من كلام الرعينى.

و لما قدم الأستاذ أبو حيان إلى مصر أوصى أهله بقوله: ينبغى للعاقل أن يعامل كل أحد فى الظاهر معاملة الصديق، و فى الباطن معاملة العدو فى التحفظ منه و التحرز، و ليكن فى التحرز من صديقه أشد من التحرز من عدوه، و أن يعتقد أن إحسان شخص إلى آخر و تودده إليه إنما هو لغرض قام له فيه يتعلق به يبعثه على ذلك لا لذات ذلك الشخص، و ينبغى أن يترك الإنسان الكلام فى ستة أشياء: فى ذات اللّه تعالى، و ما يتعلق بصفاته، و ما يتعلق بأحوال أنبيائه صلوات اللّه و سلامه عليهم أجمعين! و فى التعرض لما جرى بين الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين! و فى التعرض أيضا لأئمة المذاهب رحمهم اللّه تعالى و رضى عنهم! و فى الطعن على صالحى الأمة نفع اللّه بهم! و على أرباب المناصب و الرتب من أهل زمانه، و أن لا يقصد أذى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۰

أحد من خلق اللّه سبحانه و تعالى إلا على حسب الدّفع عن نفسه، و أن يعذر الناس فى مباحثهم و إدراكاتهم، فإن ذلك على حسب عقولهم، و أن يضبط نفسه عن المراء و الاستزراء و الاستخفاف بأبناء زمانه، و أن لا يبحث إلا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة و الفهم و المزاولة لما يبحث، و أن لا يغضب على من لا يفهم مراده و من لم يدر ما يدركه، و أن يلتمس مخرجا لمن ظاهر كلامه الفساد، و أن لا يقدم على تخطئة أحد ببادى الرأى، و أن يترك الخوض فى علوم الأوائل، و أن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة، و أن لا ينكر على الفقراء، و ليسلم لهم أحوالهم، و ينبغى للعاقل أن يلزم نفسه التواضع لعبيد اللّه سبحانه و تعالى، و أن يجعل نصب عينيه أن عاجز مفتقر، و أن لا يتكبر على أحد، و أن يقلّ من الضحك و المزاح و الخوض فيما لا يعنيه، و أن يتظاهر لكل بما يوافقه فيما لا معصية للّه تعالى فيه و لا خرم مروءة، و أن يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور، و أن لا يظهر الشكوى لأحد من خلق اللّه تعالى، و أن لا يعرض بذكر أهله، و لا يجرى ذكر حرمه بحضرة جليسه، و أن لا يطلع أحدا على عمل خير يعمله لوجه اللّه تعالى، و أن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ و جميل التغاضى، و أن لا يركن إلى أحد إلا إلى اللّه تعالى، و أن يكثر من مطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلا جديدا، و اللّه سبحانه و تعالى أعلم، انتهت وصية أبى حيان الجامعة النافعة، و قد نقلتها من خط الشيخ العلامة أبى الطيب بن علوان التونسى المالكى الشهير المصرى، و هو ممن أخذ عن تلامذة الشيخ أبى حيان، رحمه اللّه تعالى.

قلت: و بما فى هذه الوصية من نهيه عن الطعن فى صالحى الأمة نفع اللّه تعالى بهم و أمره بالتسليم لأحوالهم و عدم الإنكار عليهم؛ تعلم أن ما نقله الصفدى عنه فيما تقدم من قوله: «إن الشيخ أبا مدين إلى آخره» كلام فيه نظر، لأن أبا حيان رضى اللّه تعالى عنه لا ينكر كرامات الأولياء، كيف و قد ذكر رحمه اللّه تعالى منها كثيرا، فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعينى بسنده إلى الفقيه المقرى الصالح أبى تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونة الخزاعى، حدث أنه زار قبر أبى الحسن بن جالوت، و لم يكن زاره قبل، فاشتبه عليه فتركه، فسمع النداء من قبر معين: يا غالب أ تمشى و ما زرتنى؟ فزار ذلك القبر، و قعد عنده، ثم جاء ابن أبى الحسن المذكور، فسأله عن القبر، فقال: هو الذى قعدت عنده، و غالب هذا و ابن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۱

جالوت هما من أصحاب الشيخ أبى أحمد [جعفر] بن سيد بونة الخزاعى، و هو من أصحاب الشيخ أبى مدين، انتهى، فكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين و هو ينهى عن الطعن فيهم، و يحكى كراماتهم، نعم قول الصفدى قبل ذلك الكلام «إنه كان ينكر على فقراء الوقت» كلام صحيح فى الجملة، لكثرة الدعاوى الباطلة ممن ليس من أهل الصلاح، و أما إنكار الكرامات مطلقا فمقام أبى حيان يجل عن ذلك، و اللّه تعالى أعلم.

و قد أورد ابن جماعة له من قطعة قوله فى أهل عصره: [بحر الوافر]

و من يك يدّعى منهم صلاحا فزندیق تغلغل فى الضلال

و أول هذه القطعة: [الوافر]

حلبت الدهر أشطره زمانا و أغنانى العيان عن السؤال

فما أبصرت من خلّ وفىّ و لا ألفيت مشكور الخلال

ذئاب فى ثياب قد تبدّت لرائيها بأشكال الرجال

و من يك يدعى منهم صلاحا فزندیق تغلغل فى الضلال

ترى الجهال تتبعه و ترضى مشاركة بأهل أو بمال

فينهب مالهم و يصيب منهم نساءهم بمقبوح الفعال

و يأخذ حاله زورا فيرمى عمامته و يهرب فى الرمال

و يجرون التيوس وراء رجس تقرمط فى العقيدة و المقال

أى اعتقـدوا رأى القرامطة، و مذهبهم مشـهور، فلا نطيل به، فظهر بما ذكر أن أبا حيان إنما أنكر على أهل الدعاوى، لا على غيرهم، و اللّه تعالى أعلم.

و قد أورد قاضى القضاة ابن جماعة للشيخ أبى حيان من النظم غير ما قدمنا ذكره [و هو] قوله: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۲

أما إنه لولا ثلاث أحبّها تمنّيت أنى لا أعدّ من الأحيا

فمنها رجائى أن أفوز بتوبة تكفّر لى ذنبا و تنجح لى سعيا

و منهن صونى النفس عن كل جاهل لئيم فلا أمشى إلى بابه مشيا

و منهن أخذى بالحديث إذا الورى نسوا سنة المختار و اتّبعوا الرأيا

أتترك نصّا للرسول و تقتدى بشخص؟ لقد بدّلت بالرشد الغيّا

و قوله: [بحر الخفيف]

سال فى الخد للحبيب عذار و هو لا شكّ سائل مرحوم

و سألت التثامه فتجنّى فأنا اليوم سائل محروم

و قوله: [بحر الطويل]

أ مدّعيا علما و لست بقارئ كتابا على شيخ به يسهل الحزن

أ تزعم أن الذهن يوضح مشكلا بلا موضح؟ كلا لقد كذب الذهن

و إن الذى تبغيه دون معلم كموقد مصباح و ليس له دهن

و قوله «عداتى- البيتين» قال: و أخذ هذا المعنى من قول الطغرائى: [بحر الكامل]

من خص بالود الصحاب فإننى أحبو بخالص ودّى الأعداء

جعلوا التنافس فى المعالى ديدنى حتى وطئت بأخمصى الجوزاء

و نعوا إلىّ مثالبى فحذرتها و نفيت عن أخلاقى الأقذاء

و لربما انتفع الفتى بعدوّه كالسم أحيانا يكون دواء

و من نظم أبى حيان: [بحر البسيط]

يا منضى الطّرف فى ميدان لذته و ناضى الطرف بين الراح و الرود

ستشرب الروح راح الوقت كارهة و يذهب الجسم بين الترب فى الدود

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۳

و له رحمه اللّه تعالى قصيدة سماها «بالمورد العذب، فى معارضة قصيدة كعب» و قصيدة فى مدح الإمام الشافعى مطلعها:

غذيت بعلم النحو إذ درّ لى ثديا

و له رحمه اللّه تعالى من قصيدة فى مدح أم ولده حيّان: [بحر الطويل]

جننت بها سوداء لون و ناظر و يا طالما كان الجنون بسوداء

وجدت بها برد النعيم و إن يكن فؤادى منها فى جحيم و لأواء

و شاهدت معنى الحسن فيها مجسدا فأعجب لمعنى صار جوهر أشياء

أ طاعنة من قدها بمثقف أصبت و ما أغنى الفتى لبس حصداء

لقد طعنت و القلب ساه فما درى أ بالقدّ منها أم بصعدة سمراء

ثم غير البيت الأول، و أنشد:

جننت بها سوداء شعر و ناظر و سمراء لون تزدرى كل بيضاء

و قال يهنئ، قال ابن جماعة: خاطبنى به ارتجالا عند ولادة ابنى عمر بعد بنتين: [بحر المتقارب]

حبيت بريحانتى روضة و بعدهما جاء نجل أغر

و سميته اسم إمام إذا رآه أبو مرّة منه فر

و لا عجب منك عبد العزيز إذا كان نجلك يسمى عمر

تفرّعتما من إمام الهدى و بدر الدجى و رئيس البشر

فلا زال يوضح سبل الهدى و لا زلتما تقفوان الأثر

و قال: [بحر الطويل]

لقد زادنى بالناس علما تجاربى و من جرّب الأيام مثلى تعلما

و إنى و تطلابى من الناس راحة لكالمبتغى وسط الجحيم تنعما

سأزهد حتى لا أرى لى صاحبا و أنجد حتى لا ألاقى متهما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۴

قال ابن جماعة: و قال فى إملاك على بن قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى. و كان جميل الصورة، على أختى شقيقتى فاطمة: [بحر الطويل]

هنيئا بتأليف غريب نظامه لقد حار فى أوصافه نظم عارف

غدت شمس حسن بنت بدر سيادة تزفّ لبدر نجل شمس معارف

سميان للزهرا البتول و للرضا على و نجلا الأكرمين الغطارف

فدام علىّ عالى الجد سيدا و لا زال فى ظل من العيش وارف

و قال يخاطب شيخه ابن النحاس و قد أغبّ زيارته: [بحر الطويل]

أعين حياتى و الذى ببقائه بقائى لقد أصبحت نحوك شيّقا

أقمت بقلبى غير أنّ لمقلتى برؤيتك الحظ الذى يذهب الشقا

و ما كان ظنى أنك الدهر تاركى و لو أننى أصبحت بين الورى لقا

لطائف معنى فى العيان و لم تكن لتدرك إلا بالتزاور و اللّقا

و قال يخاطب قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى، و قد أعيد إلى منصب القضاء، و كان يتطلع إليه رجل يدعى نجم الدين: [بحر الطويل]

ذوو العلم فى الدنيا نجوم زواهر و إنك فيها الشمس حقا بلا لبس

إذا لحت أخفى نوركم كل نير أ لم تر أن النجم يخفى مع الشمس

و قال: [بحر الخفيف]

لم أؤخر عمن أحب كتابى لقلى فيه أو لترك هواه

غير أنى إذا كتبت كتابا غلب الدمع مقلتى فمحاه

و قال: [بحر البسيط]

تذكرى للبلى فى قعر مظلمة أصارنى زاهدا فى المال و الرتب

أنّى أسرّ بحال سوف أسلبها عما قريب و أبقى رمّة الترب؟

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۵

و قال: [بحر الطويل]

أتيت و ما أدعى و أقبلت سامعا فوائد مولى سيد ماجد ندب

و أحضر جمعا أنت فيه جماله أشنف سمعى منك باللؤلؤ الرطب

و قال: [بحر البسيط]

لنا غرام شديد فى هوى السّود نختارهن على بيض الطلا الغيد

لون به أشرقت أبصارنا و حكى فى اللون و العرف نفح المسك و العود

لا شىء أحسن من آس تركّبه فى آبنوس و لا أشفى لمبرود

لا تهو بيضاء لون الجص و اسم إلى سوداء حسناء لون الأعين السود

فى جيدها غيد، فى قدها ميد فى خدّها صيد، من سادة صيد

من آل حام حمت قلبى بنار جوى من هجرها و ابتلت عينى بتسهيد

و قال فى عكسه: [بحر الوافر]

إذا مال الفتى للسود يوما فلا رأى لديه و لا رشاد

أتهوى خنفساء كأن زفتا كسا جلدا لها و هو السّواد

و ما السوداء إلا قدر فرن و كانون و فحم أو مداد

و ما البيضاء إلا الشمس لاحت تنير العين منها و الفؤاد

سبيكة فضة حشيت بورد يلذ السهد معها و الرقاد

و بين البيض و السودان فرق لدى عقل به اتضح المراد

وجوه المؤمنين بها ابيضاض و وجه الكافرين به اسوداد

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

أعاذل ذرنى و انفرادى عن الورى فلست أرى فيهم صديقا مصافيا

ندامای كتب أستفيد علومها أحبّای تغنى عن لقائى الأعاديا

و آنسها القرآن فهو الذى به نجاتى إذا فكرت أو كنت تاليا

لقد جلت فى غرب البلاد و شرقها أنقب عمن كان للّه داعيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۶

فلم أر إلا طالبا لرياسة و جمّاع أموال و شيخا مرائيا

قبضت يدى عنهم و آثرت عزلة عن الناس و استغنيت بالله كافيا

قال العز بن جماعة: و خاطب والدى و قد أبلّ من ضعف أشيع فيه موته مهنئا له: [بحر المتقارب]

أدام الإله لكك العافيه و صيّر دور العدا عافيه

إذا لاح من بدركم نوره فكل النجوم به خافيه

تخذت كلام الإله الدوا فآياته كانت الشافيه

تشوّف ناس لمنصبكم و رتبتهم للعلا نافيه

فأين العلوم و أين الحلوم و خلق موارده صافيه؟

هم عصبة لا تنال العلا و لو أنها قد سعت حافيه

إذا كان خرق تداركته و ليست لما مزقت رافيه

فإن عنّ خطب ثبتّ له و آراؤهم عنده هافيه

سجاياك لين و رفق بنا و أخلاقهم كلها جافيه

تصلى على سبعة منهم و ثامنهم نفسه طافيه

يقيمون فى تربهم همّدا و تسفى على قبرهم سافيه

فلا زلت فى صحة دائما تجر ذيول السنى ضافيه

و يوردك اللّه عين الحياة فتحيا بها مائة وافيه

فإن زاد عشرا فذاك المنى و عشرون أيضا هى الكافيه

و هذى القوافى أتت كمّلا فلم تبق لى بعدها قافيه

و قال رحمه اللّه تعالى أيضا: [بحر الرمل]

خلق الإنسان فى كبد بوجود الأهل و الولد

كل عضو فيه نافعه غير عضو ضر للأبد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۷

منتج ذلا و فقد غنّى و فراخا جمة العدد

من يمت منهم يذقه أسى أو يعش ألقاه فى نكد

عاش فى أمن فتى عزب مستريح الفكر و الجسد

و قال رحمه اللّه تعالى أيضا: [بحر الخفيف]

جنّ غيرى بعارض فترجّى أهله أن يفيق عما قريب

و فؤادى بعارضين مصاب فهو داء أعيا دواء الطبيب

و قال: [بحر الطويل]

سعت حية من شعره نحو صدغه و ما انفصلت من خده، إن ذا عجب

و أعجب من ذا أنّ سلسال ريقه برود و لكن شبّ فى قلبى اللهب

و قال: [بحر البسيط]

طالع تواريخ من فى الدهر قد وجدوا تجد خطوبا تسلّى عنك ما تجد

تجد أكابرهم قد جرعوا غصصا من الرزايا بها كم فتتت كبد

عزل و نهب و ضرب بالسياط و حب س ثم قتل و تشريد لمن ولدوا

و إن وقيت بحمد اللّه شرّتهم فلتحمد اللّه فالعقبى لمن حمدوا

و قال رحمه اللّه تعالى يمدح البخارى، و كتابه الصحيح: [بحر الطويل]

أ سامع أخبار الرسول لك البشرى لقد سدت فى الدنيا و قد فزت فى الأخرى

تشنف آذانا بعقد جواهر تود الغوانى لو تقلّده النحرا

جواهر كم حلّت نفوسا نفيسة فحلت بها صدرا و حلّت بها قدرا

هل الدين إلا ما روته أكابر لنا نقلوا الأخبار عن طيب خبرا

و أدوا أحاديث الرسول مصونة عن الزّيف و التصحيف فاستوجبوا الشكرا

و إن البخاريّ الإمام لجامع بجامعه منها اليواقيت و الدرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۸

على مفرق الإسلام تاج مرصع أضاء به شمسا و نار به بدرا

و بحر علوم يلفظ الدّرّ لا الحصا فأنفس بها درا و أعظم به بحرا

تصانيفه نور و نور لناظر فقد أشرقت زهرا و قد أينعت زهرا

نحا سنة المختار ينظم شتّها يلخصها جمعا و يخلصها تبرا

و كم بذل النفس المصونة جاهدا فجاز لها بحرا و جاب لها برا

فطورا عراقيا و طورا يمانيا و طورا حجازيا و طورا أتى مصرا

إلى أن حوى منها الصحيح صحيفة فوافى كتابا قد غدا الآية الكبرى

كتاب له من شرع أحمد شرعة مطهرة تعلو السماكين و النسرا

قلت: و تتصل روايتى عن الإمام أبى حيّان من طرق عديدة: منها من عمى وليّ اللّه العارف به شيخ الإسلام مفتى الأنام الخطيب الإمام ملحق الأحفاد بالأجداد سيدى سعيد بن أحمد المقرى التّلمسانى، عن شيخه العالم أبى عبد اللّه التّنسى، عن والده حافظ عصره سيدى محمد بن عبد اللّه بن عبد الجليل التّنسى ثم التلمسانى الأموى، عن عالم الدنيا أبى عبد اللّه بن مرزوق، عن جده الرئيس الخطيب سيدى أبى عبد اللّه محمد بن مرزوق، عن الأثير أبى حيان بكل مروياته: فمنها أن أبا حيان قال: حدثنا ابن أبى الأحوص عن قاضى الجماعة أبى القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقى بن مخلد بن يزيد القرطبى عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه الإمام بقى بن مخلد عن أبى بكر المقدمى عن عمر بن على و عبد اللّه بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد اللّه بن عمر أن النبى صلى اللّه عليه و سلم «مر بمجلسين أحدهما يدعون اللّه و يدعون إليه، و الآخر يتعلمون العلم و يعلمونه فقال: كل المجلسين خير، و أحدهما أفضل من الآخر، أما هؤلاء فيتعلمون و يعلمون الجاهل فهم أفضل، و أما هؤلاء فيدعون اللّه و يرغبون إليه إن شاء أعطاهم و إن شاء منعهم، و أنا بعثت معلما، ثم جلس معهم».

قال أبو حيان: قلت: لا أعرف حديثا اجتمعت فيه رواية الأبناء عن الآباء بعدد ما اجتمع فى هذا إلا ما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن بن ماجة بقراءتى عليه، أنبأنا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۷۹

أبو المعالى الأبرموى أنبأنا أبو بكر بن عبد اللّه بن محمد بن سابور القلانسى، أنبأنا أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازى، أنبأنا رزق اللّه بن عبد الوهاب التميمىّ، قال: سمعت أبى أبا الفرج عبد الوهاب يقول: سمعت أبى أبا الحسن عبد العزيز يقول: سمعت أبى أبا بكر الحارث يقول: سمعت أبى أسدا يقول: سمعت أبى الليث يقول: سمعت أبى سليمان يقول: سمعت أبى الأسود يقول: سمعت أبى سفيان يقول: سمعت أبى يزيد يقول: سمعت أبى أكيمة يقول: سمعت أبى الهيثم يقول: سمعت أبى عبد اللّه يقول: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «ما اجتمع قوم على ذكر إلّا حفّتهم الملائكة و عمّتهم الرّحمة» انتهى.

قلت: قال الحافظ ابن حجر فى فوائده: ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا، انتهى.

و رأيت بخط بعض الحفاظ على قول أبى أكيمة ما صورته: صوابه أكينة، انتهى، فليحرر.

و منها أن أبا حيان قال: أنبأنا الأستاذ أبو جعفر الزبير صاحب الصلة، أنبأنا القاضى أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أحمد الأزدى،

أنبأنا عبد اللّه بن محمد بن الحسن بن عطية، ح قال أبو حيان: و أنبأنا الأصولى أبو الحسين ابن القاضى أبى عامر بن ربيع الأشعرى، عن أبى الحسن أحمد بن على الغافقى، قال: أنبأنا عياض، ح و كتب لنا الخطيب أبو الحجاج يوسف بن أبى ركانة، عن القاضى أبى القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمحون عن عبد اللّه بن عطية قال هو و عياض: أنبأنا القاضى أبو بكر بن العربى، أنبأنا أبو محمد هبة اللّه الأكفانى، أنبأنا الحافظ عبد العزيز الكنانى الدمشقى، أنبأنا أبو عصمة نوح بن الفرغانى قال: سمعت أبا المظفر عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه ابن قتّ الخزرجى و أبا بكر محمد بن عيسى البخارى قالا: سمعنا أبا ذر عمار بن محمد بن مخلد التميمى يقول: سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخارى يقول: لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن يزيد الهمدانى عن قضاء الرىّ ورد بخارى سنة ۳۱۸ لتجديد مودة كانت بينه و بين أبى الفضل البلعمى، فنزل فى جوارنا، فحملنى معلمى أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الختلىّ إليه فقال له: أسألك أن تحدث هذا الصبى ما سمعته من مشايخك فقال: مالى سماع، فقال: و كيف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۰

و أنت فقيه؟ فما هذا؟ قال: لأنى لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسى إلى طلب الحديث و رواية الأخبار و سماعها، فقصدت محمد بن إسماعيل البخارى ببخارى صاحب التاريخ و المنظور إليه فى علم الحديث، و أعلمته مرادى، و سألته الإقبال على ذلك، فقال لى: يا بنى، لا تدخل فى أمر إلا بعد معرفة حدوده و الوقوف على مقاديره، فقلت. عرّفنى- رحمك اللّه تعالى!- حدود ما قصدتك له، و مقادير ما سألتك عنه، فقال لى: اعلم أن الرجل لا يصير محدّثا كاملا فى حديثه إلا بعد أن يكتب أربعا مع أربع كأربع مثل أربع فى أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لأربع، و كل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع، و ابتلى بأربع، فإذا صبر على ذلك أكرمه اللّه تعالى فى الدنيا بأربع، و أثابه فى الآخرة بأربع، قلت له: فسّر لى- رحمك اللّه تعالى!- ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صاف بشرح كاف و بيان شاف طلبا للأجر الواف، فقال: نعم، أما الأربع التى تحتاج إلى كتبها فهى أخبار الرسول صلى اللّه عليه و سلم و شرائعه، و الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم و مقاديرهم، و التابعين و أحوالهم، و سائر العلماء و تواريخهم، مع أسماء رجالهم و كناهم و أمكنتهم و أزمانهم، كالتحميد مع الخطب، و الدعاء مع التوسّل و البسملة مع السورة، و التكبير مع الصلوات، مثل المسندات و المرسلات، و الموقوفات و المقطوعات، فى صغره و فى إدراكه، و فى شبابه و فى كهولته، عند فراغه و عند شغله، و عند فقره و عند غناه، بالجبال و البحار، و البلدان و البرارى، على الأحجار و الأخزاف، و الجلود و الأكتاف، إلى الوقت الذى يمكنه نقلها إلى الأوراق، عمن هو فوقه و عمن هو مثله و عمن هو دونه، و عن كتاب أبيه يتيقن أنه بخط أبيه دون غيره، لوجه اللّه تعالى طلبا لمرضاته، و العمل بما وافق كتاب اللّه عز وجل منها، و نشرها بين طالبيها، و محبيها، و التأليف فى إحياء ذكره بعده، ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع، هى من كسب العبد، أعنى معرفة الكتابة و اللغة و الصرف و النحو، مع أربع هى من إعطاء اللّه تعالى، أعنى القدرة و الصحة و الحرص و الحفظ، فإذا صحت له هذه الأشياء كلها هان عليه أربع: الأهل، و الولد، و المال، و الوطن. و ابتلى بأربع: بشماتة الأعداء، و ملامة الأصدقاء، و طعن الجهلاء، و حسد العلماء، فإذا صبر على هذه المحن أكرمه اللّه جل و علا فى الدنيا بأربع: بعز القناعة، و بهيبة النفس، و بلذّة العلم، و بحياة الأبد، و أثابه فى الآخرة بأربع: بالشفاعة لمن أراد من إخوانه، و بظل العرش حيث لا ظل إلا ظله و بسقى من أراد من حوض نبيه صلى اللّه عليه و سلم، و بجوار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۱

النبيين فى أعلى عليين فى الجنة، فقد أعلمتك يا بنى بمجملات جميع ما سمعت من مشايخى متفرقا فى هذا الباب، فأقبل الآن على ما قصدتنى له أو دع، فهالنى قوله، فسكتّ متفكرا، و أطرقت متأدبا، فلما رأى ذاك منى قال: و إن لم تطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه، يمكنك تعلمه و أنت فى بيتك قارّ ساكن لا تحتاج إلى بعد الأسفار، و وطء الديار، و ركوب البحار، و هو ذا ثمرة الحديث، و ليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدّث فى الآخرة، و لا عزه بأقلّ من عز المحدث، فلما سمعت ذلك نقص عزمى فى طلب الحديث، و أقبلت على دراسة الفقه و تعلمه إلى أن صرت فيه متقدما، و وقفت منه على معرفة ما أمكننى من علمه بتوفيق اللّه تعالى و

منته، فلذلك لم يكن عندى ما أمليه لهذا الصبى يا أبا إبراهيم، فقال له أبو إبراهيم: إن هذا الحديث الواحد الذى لا يوجد عند غيرك خير للصبى من ألف حديث يجده عند غيرك، انتهى.

و جاء أبو حيان إلى ابن تيمية و المجلس غاصّ فقال يمدحه ارتجالا: [بحر البسيط]

لما أتينا تقىّ الدين لاح لنا داع إلى اللّه فرد ما له وزر

على محياه من سيما الألى صحبوا خير البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهره حبرا بحر تقاذف من أمواجه الدرر

قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا مقام سيد تيم إذ عصت مصر

فأظهر الحقّ إذ آثاره درست و أخمد الشر إذ طارت له الشرر

كنا نحدث عن حبر يجىء فها أنت الإمام الذى قد كان ينتظر

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تيمية، و مات و هو على انحرافه، و لذلك أسباب:

منها أنه قال له يوما: كذا قال سيبويه، فقال: يكذب سيبويه، فانحرف عنه، رحم اللّه تعالى الجميع!

و حضر الشيخ أبو حيان مع ابن بنت الأعز فى الروضة فكتب إلى أبى حيان و وجّهه مع بعض غلمانه: [بحر المنسرح]

حيّيت أثير الدين شيخ الأدبا أقضى له حقا كما قد وجبا

حييت فتى بطاق آس نضر كالقدّ بدا ملئت منه طربا

قال فأنشدته: [بحر البسيط]

أهدى لنا غصنا من ناضر الآس أقضى القضاة حليف الجود و الباس

لما رأى سقمى أهداه مع رشإ حلو التثنى فكان الشافى الآسى

و لما أنشد الشيخ أبو حيان قول نور الدين القصرى فى روضة مصر: [بحر الخفيف]

ذات وجهين فيهما قسم الحس ن فأضحت بها القلوب تهيم

ذا يلى مصر فهو مصر و هذا يتولى و سيم فهو وسيم

قد أعادت عصر التصابى صباها و أبادت فيها الغموم الغيوم

زاد فيها بيتا، و هو: [بحر الخفيف]

فبلجّ البحار يسبح نون و بفجّ القفار يسفح ريم

قال أبو حيان: و كنت ماشيا بين القصرين مع ابن النحاس، فعبر علينا صبى يدعى بجمال، و كان مصارعا، فقال البهاء: لينظم كل منا فيه، ثم قال: [بحر البسيط]

مصارع تصرع الآساد شمرته تيها فكل مليح دونه سمج

لما غدا راجحا فى الحسن قلت لهم عن حسنه حدثوا عنه و لا حرج

فنظمت أنا: [بحر الطويل]

سبانى جمال من مليح مصارع عليه دليل للملاحة واضح

لئن عزّ منه المثل فالكل دونه و إن خفّ منه الخصر فالرّدف راجح

و سمع العزازى نظمنا فقال، و أنشدنيه: [بحر السريع]

هل حكم ينصفنى فى هوى مصارع يصرع أسد الشرى

مذ فرّ عنى الصبر فى حبه حكى عليه مدمعى ما جرى

أباح قتلى فى الهوى عامدا و قال كم لى عاشق فى الورى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۳

رميته فى أسرحبى و من أجفان عينيه أخذت الكرى

و قال لسان الدين فى الإحاطة: كان أثير الدين أبو حيان نسيج وحده فى ثقوب الذهن، و صحة الإدراك، و الاضطلاع بعلم العربية و التفسير و طريق الرواية، إمام النحاة فى زمانه غير مدافع، نشأ فى بلده غرناطة مشارا إليه فى التبريز بميدان الإدراك، و تغيير السوابق فى مضمار التحصيل، و نالته نبوة لحق بسببها بالمشرق، و استقر بمصر، فنال بها ما شاء من عزّ و شهرة و تأثل وافر و حظوة، و أضحى لمن حل بساحته من المغاربة ملجأ و عدّة، و كان شديد البسط مهيبا جهوريا مع الدّعابة و الغزل و طرح التّسمّت، شاعرا، مكثرا، مليح الحديث، لا يمل و إن أطال، و أسن جدّا فانتفع به، قال لى بعض أصحابنا: دخلت عليه و هو يتوضأ، و قد استقر على إحدى رجليه لغسل الأخرى كما تفعل البرك و الأوز، فقال لى: لو كنت اليوم جار شلير ما تركنى لهذا العمل فى هذا السن، ثم قال لى بعد كلام حدثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبى يزيد خالد بن عيسى و المقرى الخطيب أبى جعفر الشّقورى و الشريف أبى عبد اللّه بن راجح و شيخنا الخطيب أبى عبد اللّه بن مرزوق قال: حدّثنا شيخنا أبو حيان فى الجملة سنة ۷۳۵ بالمدرسة الصالحية بين القصرين بمنزله، حدّثنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير سماعا من لفظه و كتبه من خطه بغرناطة، عن الكاتب أبى إسحاق بن عامر الهمدانى الطّوسى- بفتح الطاء- حدّثنا أبو عبد اللّه بن محمد العنسى القرطبى، و هو آخر من حدّث عنه، أنبأنا أبو على الحسن بن محمد الحافظ الجيّانى، أنبأنا حكم بن محمد، أنبأنا أبو بكر بن المهندس، أنبأنا عبد اللّه بن محمد، أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر، سمعت أبا أمامة الباهلى يقول: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: «اكفلوا لى بستّ أكفل لكم بالجنّة، إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، و إذا ائتمن فلا يخن، و إذا وعد فلا يخلف، غضّوا أبصاركم، و كفّوا أيديكم، و احفظوا فروجكم».

ثم قال ابن الخطيب: إن أبا حيان حملته حدّة الشبيبة على التعرض للأستاذ أبى جعفر الطباع، و قد وقعت بينه و بين أستاذة ابن الزبير الوحشة، فنال منه، و تصدّى للتأليف فى الرد عليه و تكذيب روايته فرع أمره للسلطان، فامتعض له، و نفذ الأمر بتنكيله، فاختفى، ثم أجاز البحر مختفيا، و لحق بالمشرق يلتفت خلفه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۴

ثم قال: و شعره كثير يتصف بالإجادة و ضدها، فمن مطوّلاته قوله: [بحر البسيط]

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول العقل مختبل و القلب متبول

هزت له أسمرا من خوط قامتها فما انثنى الصلب إلا و هو مقتول

جميلة فصّل الحسن البديع لها فكم لها جمل منه و تفصيل

فالنحر مرمرة، و النشر عنبرة، و الثغر جوهرة، و الريق معسول

و الطرف ذو غنج، و العرف ذو أرج و الخصر مختطف، و المتن مجدول

هيفاء ينطق فى الخصر الوشاح لها درماء تخرس فى الساق الخلاخيل

من اللواتى غذاهنّ النعيم فما يشقين، آباؤها الصّيد البهاليل

إلى أن قال: و قوله: [بحر الكامل]

نور بخدّك أم توقّد نار و ضنى بجفنك أم فتور عقار

و شذا بريقك أم تأرّج مسكة و سنى بثغرك أم شعاع درارى

جمعت معانى الحس فيك فقد غدت قيد القلوب و فتنة الأبصار

متصاون خفرا إذا ناطقته أغضى حياء فى سكون وقار

فى وجهه زهرات روض تجتلى من نرجس مع وردة و بهار

خاف اقتطاف الورد من و جناتها فأدار من آس سياج عذار

و تسللت نمل العذار بخده ليردن شهدة ريقه المعطار

و بخده نار حمته وردها فوقفن بين الورد و الإصدار

كم ذا أدارى فى هواه محبّتى و لقد وشى بى فيه فرط أوارى

و قال ابن رشيد: حدثنا أبو حيان قال: حدثنا التاجر أبو عبد اللّه البرجونى بمدينة عيذاب من بلاد السودان، و برجونة قرية من قرى دار السلام، قال: كنت بجامع لو لم من بلاد الهند و معنا رجل مغربى اسمه يونس، فقال لى: اذكر لنا شيئا، فقلت له: قال على رضى اللّه تعالى عنه: «إذا وضع الإحسان فى الكريم أثمر خيرا، و إذا وضع فى اللئيم أثمر شرا، كالغيث يقع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۵

فى الأصداف فيثمر الدر، و يقع فى فم الأفاعى فيثمر السم» فما راعنا إلا و يونس المغربى قد أنشد لنفسه: [بحر السريع]

صنائع المعروف إن أودعت عند كريم زكّت النّعما

و إن تكن عند لئيم غدت مكفورة موجبة إثما

كالغيث فى الأصداف در، و فى فم الأفاعى يثمر السما

قال أبو حيان: فلما سمعت هذه الأبيات نظمت معناها فى بيتين، و هما: [بحر الطويل]

إذا وضع الإحسان فى الخبّ لم يفد سوى كفره، و الحر يجزى به شكرا

كغيث سقى أفعى فجاءت بسمها و صاحب أصدافا فأثمرت الدرّا

قال أبو حيان: و أنشدنا الأمير بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدولة أبى المعالى بن رمّاح الهمدانى لنفسه بالقاهرة: [بحر الوافر]

فلا تعجب لحسن المدح منى صفاتك أظهرت حكم البوادى

و قد تبدى لك المرآة شخصا و يسمعك الصّدى ما قد تنادى

و بعد كتبى ما نقله ابن رشيد عن أبى حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذى ذكره ابن رشيد ليس هو أبو حيان النحوى الأندلسى، و إنما هو شخص آخر، و فيه عندى نظر لا يخفى، و الذى أعتقده و لا أرتاب فيه أنه أبو حيان النحوى.

و قال ابن رشيد: و أنشدنى أبو حيان لنفسه: [بحر الطويل]

إذا غاب عن عينى أقول سلوته و إن لاح حال اللون فاضطرب القلب

يهيّجنى عيناه و المبسم الذى به المسك منظوم به اللؤلؤ الرطب

و قال الشريف بن راجح: رأيت أن ما وضعه الشيخ أبو حيان فى تقديم لسان الأتراك تضييع لعمره، و قلت: [بحر السريع]

نفائس الأعمار أنفقتها أنا و أمثالى على غير شىء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۶

شيوخ سوء ليس يرضى بما ترضى به من المخازى صبى

و من نظم أبى حيان قوله: [بحر الخفيف]

إن علما تعبت فيه زمانى باذلا فيه طارفى و تلادى

لجدير بأن يكون عزيزا و مصونا إلا على الأجواد

و قوله: [بحر الطويل]

و مالك و الإتعاب نفسا شريفة و تكليفها فى الدهر ما ليس يعذب

أرحها فعن قرب تلاقى حمامها فتنعم فى دار البقا أو تعذب

و استشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع، و أجيب بأن مراده أمر الرزق، لا أمر التكليف.

و أفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبى حيان عن الأندلس أنه نشأ شر بينه و بين شيخه أحمد بن على بن الطباع فألف أبو حيان كتابا سماه «الإلماع، فى إفساد إجازة ابن الطباع» فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر المدعوّ بالفقيه، و كان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه، فنشأ شر عن ذلك، و ذكر أبو حيان أنه لم يقم بفاس إلا ثلاثة أيام، و أدرك فيها أبا القاسم المزياتى، و خرج أبو حيان من الأندلس سنة تسع و سبعين و ستمائة.

[۲۱۷- أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى]

۲۱۷- و كان جماعة من أعلام الأندلس رحلوا منها، فلما وصلوا إلى العدوة أقاموا بها، و لم يذهبوا إلى البلاد المشرقية، منهم الشيخ النحوى الناظم الناثر أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنّى، و هو القائل يمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس: [بحر الطويل]

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا تذكرت من حلّ الأجارع فالسقطا

و بان و لكن لم يبن عنك ذكره و شطّ و لكن طيفه عنك ما شطا

حبيب لو ان البدر جاراه فى مدى من الحسن لاستدنى مدى البدر و استبطا

إذا انتجعت مرعى خصيبا ركابه غدا لحظ عينى يشتكى الجدب و القحطا

لقد أسرعت عنى المطىّ بشادن تسرع فى قتل النفوس و ما أبطا

ظننت الفلا دار ابن ذى بزن بها و خلت المحاريب الهوادج و الغبطا

فكم دمية للحسن فيها و صورة تروق و تمثال من الحسن قد خطا

حمائل لاحت كالخمائل بهجة سقيط الحيا فيهن لا يسأم السقطا

توسّد غزلان الأوانس و المها به الوشى و الديباج لا السّدر و الأرطى

و لم يسب قلبى غير أبهرها سنى و أطولها جيدا و أخفقها قرطا

أيا ربة الأحداج سيرى فتعلمى و ما بك جهل، أن سهمك ما أخطا

قفى تستبينى ما بعينيك من ضنّى كجسمى و عنوان الهوى فيه مختطا

فلم أر أعدى منك لحظا و ناظرا لقلبى و لا أعدى عليه و لا أسطى

سقى اللّه عيشا قد سقانا من الهوى كؤوسا بمعسول اللّمى خلطت خلطا

و كم جنة قد ردت فى ظل كافر فلم أجز ما أولاه كفرا و لا غمطا

و كم ليلة قاسيتها نابغيّة إلى أن بدت شيبا ذوائبها شمطا

و بت أظن الشهب مثلى لها هوى و أغبطها فى طول ألفتها غبطا

على أنها مثلى عزيزة مطلب و من ذا الذى ما شاء من دهره يعطى

كأن الثريا كاعب أزمعت نوى و أمّت بأقصى الغرب منزلة تخطى

كأن نجوم الهقعة الزّهر هودج لها عن ذرا الحرف المناخة قد حطّا

كان رشاء الدلو رشوة خاطب لها جعل الأشراط فى مهرها شرطا

كأن السها قد دق من فرط شوقه إليها كما قد دقق الكاتب النّقطا

كأن سهيلا إذ تناءت و أنجدت غدا يائسا منها فأتهم و انحطا

كأن خفوق القلب قلب متيم تعدى عليه الدهر فى البين و اشتطا

كأن كلا النسرين قد ريع إذ رأى هلال الدجى يهوى له مخلبا سلطا

كأن الذى ضمّ القوادم منهما هوى واقعا للأرض أو قص أو قطا

كأن أخاه رام فوتا أمامه فلم يعد أن مد الجناح و أن مطا

كأن بياض الصبح معصم غادة جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۸

كأن ضياء الشمس وجه إمامنا إذا ازداد بشرا فى الوغى و إذا أعطى

محمد الهادى الذى أنطق الورى ثناء بما أسدى إليهم و ما أنطى

إمام غدا شمس المعالى و بدرها و قد أصبحت زهر النجوم له رهطا

جميل المحيا مجمل طيب ذكره يعاطى سرورا كالحميا و يستعطى

إذا ما الزمان الجعد أبدى تجهما أرانا الحياء الطلق و الخلق السّبطا

كلا أبوى حفص نماه إلى العلا فأصبح عن مرقاته النجم منحطا

بسيماه تدرى أن كعبا جدوده و إن هو لم يذكر رزاحا و لا قرطا

إذا قبض الروع الوجوه فوجهه يزيد لكون النصر نصلا له بسطا

به تترك الأبطال صرعى لدى الوغى كأن قد سقوا من خمر بابل إسفنطا

تراه إذا يعطى الرغائب باسما له جذل يربى على جذل المعطى

و كم عنق قد قلّدت بنواله فريدا و قد كانت قلادتها لطا

متى ما تقس جود الكرام بجوده فبالبحر قايست الوقيعة و الوقطا

يشف له عن كل غيب حجابه فتحسبه دون المحجّب ما لطّا

تطيع الليالى أمره فى عصاته و تردى أعاديه أساودها نشطا

و تمضى عليهم سيفه و سنانه فتبرى الكلى طعنا و تفرى الطّلى قطّا

فكيف ترجت غرة منه فرقة غدا عزها ذلا و رفعتها هبطا

و كم بالنهى و الحلم غطى عليهم إلى أن جنوا ذنبا على العلم قد غطّى

فأمطاهم دهم الحديد و طالما أنالهم دهم الجياد و ما أمطى

و رام لهم هديا و لكنهم أبوا بغيّهم إلا الضلالة و الخبطا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۸۹

و كان لهم يبغى المثوبة و الرضا و لكن أبوا إلا العقوبة و السخطا

و لو قوبلت بالشكر منه مآرب لما اعتاض منها أهلها الأثل و الخمطا

هو الناصر المنصور و الملك الذى أعاد شباب الدهر من بعدما اشمطّا

أصاخت له الأيام سمعا و طاعة و أحكمت الدنيا له عهدها ربطا

فلا بد من أن يملك الأرض كلّها و أن تملأ الدنيا إياله قسطا

و يغزو فى آفاق أندلس العدا بجيش تخطّ الأرض ذبّله خطا

و كل جواد خف سنبكه فما يمس الثرى إلا مخالسة فرطا

يؤم بها الأعداء ملك أمامه من الرعب جيش يسرع السير إن أبطا

و يرمى جبال الفتح من شط سبتة بها فتوافى سبّقا ذلك الشطا

بحيث التقى بالخضر موسى و طارق و موسى به رحلا لغزو العدا حطا

و سعيك ينسى ذكر سعيهما به و يوسع سعى المشركين به حبطا

و يوقع فى الأعداء أعظم وقعة بها تملأ الأسماع طير الملا لغطا

تجاوب سحم الطير فيه و شهبها كما راطن الزنج النبيط أو القبطا

و تنكر فيها الجو و الأرض أعين ترى الجو نارا و الصعيد دما عبطا

فتخضب منهم من أشابت بخوفها نصول ترى منها بفود الدجى و خطا

و يحسم أدواء العدا كل صارم حسام إذا لاقى الطلى حدّه قطّا

و كل كمىّ كلما خط صفحة بسيف غدا بالرمح ينقط ما خطا

شجاع إذا التفّ الرماحان مثل ما تقلقل فى أسنان مشط يد مشطا

إذا ما رجت منه أعاديه غرة رأت دون ما ترجو القتادة و الخرطا

فيجدع آناف العداة بسيفه و ينشقها بالرمح ريح الردى قسطا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۰

يبيد الأعادى سطوة و مكيدة فيحكى الأسود الغلب و الأذؤب الملطا

سرى فى طلاب المعلوات فلم يزل يمد يدا مبسوطة و ندى بسطا

و لو نازعت يمناه جذبا شماله لبوسا من الماذىّ لا نعقّ و انعطا

يصول بخطىّ فكل مرشة به أثر يعزوه للحية الرّقطا

قنا تبصر الآكام فرعا كواسيا بهنّ و قد أبصرن عارية مرطا

إذا نسبت للخطّ أو لردينة نسبن إلى العليا ردينة و الخطّا

كماة حماة ما يزال إلى الوغى حنين لهم ما حنّ نضو و ما أطّا

عليهم نسيج السابغات كأنها جلود عن الحيات قد كشطت كشطا

إذا لمع للشمس لاحت عليهم رأيت صلالا ألبست حللا رقطا

ترجرج كالزاروق لينا و مثله ترى نقطة من بعد ما طرحت خطا

جيوش إذا غطى البلاد عبابها و أمواجها غطت نفوس العدا غطا

فكم قد حكت فى حصر حصن و معقل و شاحا على خصر فآسفنه ضغطا

و خيل كأمثال النّعام تخالها لإفراط لوك اللجم تبغى لها سرطا

تخيلها فتخا إذا ارتفعت و إن سبحن بماء خلتها خفة بطا

فينعق منها مرط كل عجاجة موادع لا يسأمن مرا و لا مرطا

و كم خالطت سمر الرماح و أوردت مياها غدت حمر الدماء لها خلطا

يجرونها ليل السرى فإذا دعوا نزال امتطوا منهن أفضل ما يمطى

فكم جنبوها خلف معتادة السرى عوارف لم تسمع لها أذن نحطا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۱

و قد و سمت أعناقهن أزمة بطول السرى حتى تظن لها علطا

إذا أوقدت نارا بقذف الحصا حكت و بحر الدجى طام سفينا رمت نفطا

إمام الهدى أعليت للدين معلما و سمت العدا من بعد رفعتهم حطا

و ألحفتهم عقم المنى عن حيالها فما ولدت عقما و لا نتجت سقطا

و صيرتم فى عقلة سارح العدا و سرحتم الآمال من عقلها نشطا

و من كان يشكو سطوة الدهر قد غدا بعدلك لا يعدى عليه و لا يسطى

ففى كل حال تؤثر القسط جاريا على سنن التقوى و تجتنب القسطا

فبوركت سبطا جدّه عمر الرضا و بورك من جد غدوت له سبطا

تلوت الإمام العدل يحيى فلم تزل تزيد أمور الخلق من بعده ضبطا

فزدتم وضوحا بعده و استقامة و توطئة نهج السبيل الذى وطّا

و ما كان أبقى غاية غير أنه حبيت بما لم يحب خلق و لم يعطا

إذا درر الأملاك فى الفخر نظّمت على نسق عقدا فدولتك الوسطى

و له أيضا فيه: [بحر الكامل]

فى كل أفق من صباح دجاكم نور جلا خيط الظلام بخيطه

راقت محاسن مجدكم فبهرن ما كسيته من حبر المديح و ريطه

[۲۱۸- أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه القضاعى (ابن الأبّار)]

۲۱۸- و له- رحمه اللّه تعالى!- عدة تآليف، و ولد سنة ۶۰۸، و توفى ليلة السبت ۲۴ رمضان سنة أربع و ثمانين و ستمائة بتونس، و ممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهرى، و ذكره فى رحلته و أثنى عليه، كما أثنى عليه العبدرى فى رحلته، فقال: حازم، و ما أدرك ما حازم، و قد عرّفت به فى «أزهار الرياض» مما يغنى عن الإعادة، و كان هو و الحافظ أبو عبد اللّه بن الأبار فرسى رهان، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية و هو الإمام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبى بكر بن عبد اللّه بن أبى بكر، القضاعى، الأندلسى، البلنسى، كتب ببلنسية عن السيد أبى عبد اللّه بن السيد أبى حفص ابن أمير المؤمنين

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۲

عبد المؤمن بن على، ثم عن ابنه السيد أبى زيد، ثم كتب عن الأمير ابن مردنيش و لما نازل الطاغية بلنسية بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبى زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبى حفص و فى ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو، فأنشد السلطان قصيدته السينية التى مطلعها: [بحر البسيط]

أدرك بخيلك خيل اللّه أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

و قد ذكرناها فى غير هذا الموضع، ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، و رشّحه لكتب علامته فى صدور مكاتباته، فكتبها مدة، ثم أراد السلطان صرفها لأبى العباس الغسانى لكونه يحسن كتابتها،

فكتبها مدة بالخط المشرقى، و كان آثر عند السلطان من المغربى، فسخط ابن الأبار أنفة من إيثار غيره عليه، و افتات على السلطان فى وضعها فى كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ فى الحضرة عليه، و أن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها، فجاهر بالرد، و وضعها استبدادا و أنفة، و عوتب على ذلك، فاستشاط غضبا، و رمى بالقلم، و أنشد متمثلا: [بحر الخفيف]

اطلب العز فى لظّى و ذر ال ذلّ و لو كان فى جنان الخلود

فنمى ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب، و أعتبه، و سماه «إعتاب الكتاب» و استشفع فيه بابنه المستنصر، فغفر السلطان له، و أقال عثرته، و أعاده إلى الكتابة، و لما توفى السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه، و بعث إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، و ألفى أثناءها، فيما زعموا، رقعة بأبيات أولها: [بحر المجتث]

طغى بتونس خلف سموه ظلما خليفه

فاستشاط السلطان لها، و أمر بامتحانه، ثم بقتله، فقتل قعصا بالرماح وسط محرم سنة ۶۵۸، ثم أحرق شلوه، و سيقت مجلدات كتبه و أوراق سماعه و دواوينه فأحرقت معه، و كان مولده ببلنسية سنة ۵۹۵.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۳

و قال فى حقه ابن سعيد فى «المغرب» ما ملخصه: حامل راية الإحسان، المشار إليه فى هذا الأوان، و من شعره قوله يصف الياسمين: [مجزوء الوافر]

حديقة ياسمين لا تهيم بغيرها الحدق

إذا جفن الغمام بكى تبسّم ثغرها اليقق

فأطراف الأهلة سا ل فى أثنائها الشفق

و كتب إلى الوزير أبى عبد اللّه بن أبى الحسين بن سعيد يستدعى منه منثورا: [بحر الطويل]

لك الخير أتحفنى بخيرىّ روضة لأنفاسه عند الهجوم هبوب

أليس أديب الروض يجعل ليله نهارا فيذكو تحته و يطيب

و يطوى مع الإصباح منشور نشره كما بان عن ربع المحب حبيب

أهيم به عن نسبة أدبية و لا غرو أن يهوى الأديب أديب

و قوله فى الخسوف: [بحر المتقارب]

نظرت إلى البدر عند الخسوف و قد شين منظره الأزين

كما سفرت صفحة للحب يب يحجبها برقع أدكن

و قوله فى المعنى: [بحر الوافر]

أ لم تر للخسوف و كيف أبدى ببدر التم لماع الضياء

كمرآة جلاها القين حتى أنارت ثم ردت فى غشاء

و قوله: [بحر الخفيف]

و الثريّا بجانب البدر تحكى راحة أومأت لتلطم خدا

و قوله: [بحر الكامل]

من عاذرى من بابلى طرفه و لعمره ما حلّ يوما بابلا

أعتدّه خوطا لعيشى ناعما فيعود خطّيّا لقتلى ذابلا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۴

و هو حافظ متقن، له فى الحديث و الأدب تصانيف، و له كتاب فى متخير الأشعار سماه «قطع الرياض» و تكلمة الصّلة لابن بشكوال، و «هداية المعترف، فى المؤتلف و المختلف» و كتاب التاريخ، و بسببه قتله صاحب إفريقية، و أحرقت كتبه على ما بلغنا، رحمه اللّه تعالى! و له «تحفة القادم، فى شعر الأندلس» و «الحلة السيراء، فى أشعار الأمراء».

و من شعره قوله: [بحر مجزوء الكامل]

أمرى عجيب فى الأمور بين التوارى و الظهور

مستعمل عند المغ يب و مهمل عند الحضور

و سبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شىء أو ورد عليه لغز أو معمّى أو مترجم بعث به إليه، فيحله، و إذا حضر عنده لا يكلمه و لا يلتفت إليه، و وجد فى تعاليقه ما يشين دوله صاحب تونس، فأمر بضربه، فضرب حتى مات، و أحرقت كتبه، رحمه اللّه تعالى! و كان أعداؤه يلقبونه بالفار، و حصلت بينه و بين أبى الحسن على بن شلبون المعافرى البلنسى مهاجاة، فقال فيه: [بحر الكامل]

لا تعجبوا لمضرة نالت جمى ع الناس صادرة عن الأبار

أو ليس فارا خلقة و خليقة و الفار مجبول على الإضرار

فأجابه ابن الأبار: [بحر الكامل]

قل لابن شلبون مقال تنزه غيرى يجاريك الهجاء فجار

(إنا اقتسمنا خطّتينا بيننا فحملت برّة و احتملت فجار)

و هذا مضمن من شعر النابغة الذبيانى، انتهى ما لخصناه من كلام ابن سعيد فى حقه.

و من شعر ابن الأبار أيضا: [بحر الكامل]

لو عنّ لى عون من المقدار لهجرت للدار الكريمة دارى

و حللت أطيب طيبة من طيبة جارا لمن أوصى بحفظ الجار

حيث استبان الحق للأبصار لما استتار حفائظ الأنصار

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۵

يا زائرين القبر قبر محمد بشرى لكم بالسبق فى الزوّار

أوضعتم لنجاتكم فوضعتم ما آدكم من فادح الأوزار

فوزوا بسبقكم و فوهوا بالذى حملتم شوقا إلى المختار

أدوا السلام سلمتم و برده أرجو الإجارة من ورود النار

اللهمّ أجرنا منها يا رحيم يا رحمن يا كريم!.

و لنختم ترجمته بقوله: [بحر الوافر]

رجوت اللّه فى اللّأواء لما بلوت الناس من ساه و لاهى

فمن يك سائلا عنى فإنى غنيت بالافتقار إلى إلهى

و قد جوّدت ترجمته فى «أزهار الرياض، فى أخبار عياض» فليراجع ذلك فيه من شاء.

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر المرتحلين من الأندلس إلى المشرق:

۲۱۹- و منهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مسدّى.

و هو أبو بكر محمد، و يقال: أبو المكارم، ابن أبى أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن مسدّى، المهلبى، الأزدى، الأندلسى.

شيخ السنة، و حامل راياتها، و فريد الفنون، و محكم آياتها، عرف الأحاديث، و ميز بين شهرتها و غرابتها و كان المتلقّى لراية السنة بيمين عرابتها، طلع بمغربه شمسا قبل بزوغه بأفق المشرق، و ملأ جزيرته الخضراء من بحر علومه المتدفق، و أفعمها بنوره المشرق، و طاف البلاد الإسلامية، المغربية و المشرقية، فعقدت على كماله الخناصر، و جعله أرباب الدراية لمقلة الدين الباصر، و لقى أعيان الشيوخ فى القطرين، و أخذ عنهم ما تقر به العين، و يدفع به عن القلب الرّين، مع فصاحة لسان، و طلاقة بيان و بنان، و خلال حسان، و بلاغة سحبته على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۶

سحبان، و ظهر أزهار بان، و فوّضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال: هذا السّوار لمثل هذا المعصم، فكم وشّى بها من مطارف للبلاغة و كم عنّم، حتى يظن الرائى عود منبره من وعظه مائسا، و لئن مال من سجع الحمام رطبا فقد مال من سجع هذا الإمام يابسا، و ترجم على من لقى من الأعيان بسحر البيان، و فصّل أحوالهم بأحسن تبيان، و عدّتهم أربعة آلاف شيخ و ناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل فى أرسان، و أرى تحقيق قول القائل: جمع اللّه تعالى العالم فى إنسان، و له موضوعات مفيدة من حديث و فقه و نظم و نثر، و له مسند غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدّمين و المتأخرين، و هو أشهر من نار على علم، و كان يكتب بالقلمين المغربى و المشرقى، و كلاهما فى غاية الجودة، و مثل هذا يعدّ نادرا، توفى شهيدا مطعونا من أناس كانوا يحسدونه، فختم اللّه تعالى له بالشهادة، و بوّىء بها دار السعادة، و توفى سنة ۶۶۳ بمكة، و مولده سنة ۵۹۸، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه و نفعنا بأمثاله!.

[۲۲۰- أبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى]

۲۲۰- و منهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقى القبتورى- بفتح القاف، و سكون الباء الموحدة، و فتح التاء ثالثة الحروف، و سكون الواو، و بعدها راء- الإشبيلى المولد و المنشأ.

ولد فى شوال سنة ۶۱۵، و قرأ على الأستاذ الدباج كتاب سيبويه و السبع، و له باع مديد فى الترسّل مع التقوى و الخير، و له إجازة من الرضى بن برهان و النجيب بن الصيقل، و كتب لأمير سبتة، و حدث بتونس عن العراقى، و جاور زمانا، و توفى بالمدينة سنة ۷۰۴، و حج مرتين، قال أبو حيان: قدم القاهرة مرتين، و حج فى الأولى، و أنشدنى من لفظه لنفسه: [بحر الوافر]

أسيلى الدمع يا عينى و لكن دما، و يقلّ ذلك لى، أسلى

فكم فى الترب من طرف كحيل لترب لى و من خدّ أسيل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۷

و قال: [بحر البسيط]

ما ذا جنيت على نفسى بما كتبت كفّى، فياويح نفسى من أذى كفّى

و لو يشاء الذى أجرى علىّ بذا قضاءه الكف عنه كنت ذا كف

و قال: [بحر البسيط]

وا حسرتا لأمور ليس يبلغها مالى و هنّ منى نفسى و آمالى

أصبحت كالآل لا جدوى لدىّ و ما ألوت جهدا و لكن جدّى الآلى

و قال العلامة فتح الدين بن سيد الناس: إنه أنشده لنفسه بالحرم الشريف النبوى سنة ثلاث و سبعمائة: [بحر الطويل]

رجوتك يا رحمن إنك خير من رجاه لغفران الجرائم مرتجى

فرحمتك العظمى التى ليس بابها و حاشاك فى وجه المسيء بمرتج

و قد أنشد له أبو حيان كثيرا من نظمه، رحمه اللّه تعالى!.

۲۲۱- و منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبى الخليل، الأموى، الإشبيلى، النباتى، المعروف بابن الرومية.

كان عارفا بالعشب و النبات، صنف كتابا حسنا كثير الفائدة فى الحشائش، و رتب فيه أسماءها على حروف المعجم، و رحل إلى البلاد، و دخل حلب، و سمع الحديث بالأندلس و غيرها.

و قال البرزالى فى حقه: إنه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة، و سمع الحديث بدمشق من ابن الحرستانى، و ابن ملاعب، و ابن العطار، و غيرهم، و قال بعضهم: اجتمعت به، و تفاوضت معه فى ذكر الحشائش، فقلت له: قصب الذريرة قد ذكر فى كتب الطب، و ذكروا أنه يستعمل منه شيء كثير، و هذا يدل على أنه كان موجودا كثيرا، و أما الآن فلا يوجد، و لا يخبر عنه بخبر، فقال: هو موجود، و إنما لا يعلمون أين يطلبونه، فقلت له: و أين هو؟

فقال: بالأهواز منه شيء كثير، انتهى.

و أجاز البحر بعد سنة ۵۸۰ للقاء ابن عبيد اللّه بسبتة فلم يتهيأ له ذلك، و حج- رحمه اللّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۸

تعالى!- فى رحلته الأولى، و لقى كثيرا، و روى عن عدد من الرجال و النساء ضمنهم التذكرة له، و له مختصر كتاب «الكامل» لأحمد بن عدى فى رجال الحديث، و له كتاب «المعلم، بما زاده البخارى على كتاب مسلم» و يعرف بالنباتى لمعرفته بالنبات، و مولده فى نحو سنة ۵۶۱، و توفى رحمه الله تعالى بإشبيلية منسلخ ربيع الثانى سنة ۶۳۷، و قد رثاه أناس من تلامذته، و ألف بعضهم فى التعريف به، و سمع من ابن زرقون و ابن الجد و ابن عفير و غير واحد كأبى ذر الحبشى، و سمع ببغداد من جماعة، و حدث بمصر أحاديث من حفظه، و يقال له «الحزمى» بفتح الحاء- نسبة إلى مذهب ابن حزم لأنه كان ظاهرى المذهب، و كان زاهدا صالحا، و حكى بعضهم عنه أنه كان جالسا فى دكانه بإشبيلية يبيع الحشائش و ينسخ، فاجتاز به الأمير أبو عبداللّه بن هود سلطان الأندلس، فسلم عليه، فرد عليه السلام، و اشتغل بنسخه، و لم يرفع إليه رأسه، فبقى واقفا منتظرا أن يرفع إليه رأسه ساعة طويلة، فلما لم يحفل به ساق فرسه و مضى، و له كتابان حسنان فى علم الحديث: أحدهما يقال له «الحافل، فى تكملة الكامل لابن عدى و هو كتاب كبير. قال ابن الأبار: سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب يثنى عليه و يستحسنه، و الثانى اختصر فيه الكامل لأبى أحمد بن عدى كما سبق فى مجلدين، و سمع بدمشق و الموصل و غيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبى الوقت السجزى و أبى الفتح بن البطى و أبى عبد اللّه الغراوى و غيرهم من الأئمة، و له فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق، و كان متعصبا لابن حزم بعد أن تفقه فى المذهب المالكى على ابن زرقون أبى الحسين، و طالت صحبته له، و كان بصيرا بالحديث و رجاله، كثير العناية به، و اختصر كتاب الدارقطنى فى غريب حديث مالك، و غيره أضبط منه، وفاق أهل زمانه فى معرفة النبات، و فعد فى دكان لبيعه، قال ابن الأبار: و هنالك رأيته و لقيته غير مرة، و لم آخذ عنه، و لم أستجزه، و سمع منه جلّ أصحابنا، و مولده فى شهر المحرم سنة ۵۶۷، و توفى بإشبيلية ليلة الاثنين مستهلّ ربيع الآخر سنة ۶۳۷، و قال ابن زرقون: منسلخ شهر ربيع الأول، و حكى ذلك عن ولده أبى النور محمد بن أحمد، انتهى.

۲۲۲- و منهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام، الغافقى، الإشبيلى، الشهير بالمسيلى.

رحل حاجّا، و قفل إلى بلده، و حدث عنه أبو بكر بن خير بوفاة القاضى ابن أبى حبيب، و روى عن أبى محمد بن أبى السعادات المروروذى الخراسانى، و أنه أنشده بثغر الاسكندرية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۱۹۹

عند وداعه إياه، قال: أنشدنى أبو تراب جندل عند الوداع لبعضهم: [مخلع البسيط]

السم من ألسن الأفاعى أعذب من قبلة الوداع

ودّعتهم و الدموع تجرى لما دعا للوداع داعى

۲۲۳- و منهم أبو العباس- و يقال: أبو جعفر- أحمد بن معدّ بن عيسى بن وكيل، التجيبى، الزاهد، و يعرف بابن الأقليشى.

صاحب كتاب «النجم، من كلام سيد العرب و العجم» صلى اللّه عليه و سلم عارض به كتاب القضاعى، و أصل أبيه من أقليش، و ضبطها بعضهم بضم الهمزة، و سكن دانية، و بها ولد و نشأ، سمع أباه أبا بكر و أبا العباس بن عيسى، و تلمذ له، و رحل إلى بلنسية فأخذ العربية و الآداب عن أبى محمد البطليوسى، و سمع الحديث من صهره أبى الحسن طارق بن يعيش و الحافظ أبى بكر بن العربى و أبى الوليد بن خيرة و ابن الدباغ، و لقى بالمريّة أبا القاسم بن ورد و أبا محمد عبد الحق بن عطية و ولى اللّه سيدى أبا العباس بن العريف، و رحل إلى المشرق سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة، و جاور بمكة سنين، و سمع بها من أبى الفتح الكروخى جامع الترمذى برباط أم الخليفة العباسى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، ثم كر راجعا إلى الغرب، فقبض فى طريقه، و حدث بالأندلس و المشرق، و كان عالما، عاملا، متصوّفا، شاعرا مجوّدا، مع التقدم فى الصلاح و الزهد و العزوف عن الدنيا و أهلها، و الإقبال على العلم و العبادة، و له تصانيف: منها كتاب «الغرر، من كلام سيد البشر» و كتاب «ضياء الأولياء» و هو أسفار عدة، و حمل الناس عنه معشّراته فى الزهد، و كتبها الناس، و كان يضع يده على وجهه إذا قرأ القارئ فيبكى حتى يعجب الناس من بكائه، و كان الناس يدخلون عليه بيته و الكتب عن يمينه و شماله، و قد وصف غير واحد إمامته و علمه و ورعه و زهده، و روى عنه أبو الحسن بن كوثر و ابن بيبش و غيرهما.

و من شعره قوله: [بحر الطويل]

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف

قديما عصى عمدا و جهلا و غرّة و لم ينهه قلب من اللّه خائف

تزيد سنوه و هو يزداد ضلة فها هو فى ليل الضلالة عاكف

تطلّع صبح الشيب و القلب مظلم فما طاف منه من سنا الحق طائف

ثلاثون عاما قد تولت كأنها حلوم تقضّت أو بروق خواطف

و جاء المشيب المنذر المرء أنه إذا رحلت عنه الشبيبة تالف

فيا أحمد الخوّان قد أدبر الصبا و ناداك من سن الكهولة هاتف

فهل أزق الطرف الزمان الذى مضى و أبكاه ذنب قد تقدم سالف

فجد بالدموع الحمر حزنا و حسرة فدمعك ينبى أن قلبك آسف

و قد وافق فى أول هذه القطعة قول أبى الوليد بن الفرضى، أو أخذه منه نقلا، و توفى فى صدوره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر فى عشر الخمسين و خمسمائة، و دفن عند الجميزة التى فى المقبرة التالية لسوق العرب، و قال ابن عباد: إنه توفى سنة خمسين أو إحدى و خمسين بعدها- رحمه اللّه تعالى!- و قد نيف عن الستين.

۲۲۴- و منهم أبو العباس أحمد بن عمر، المعافرى، المرسى.

و أصله من طلبيرة، و يعرف بابن إفرند، روى عن أبى الحسين الصفدى و غيره كالقاضى الحافظ أبى بكر بن العربى و أبى محمد الرشاطى و أبى إسحاق بن حبيش و غيرهم، و له رحلة حج فيها، و لقى أبا الفتح بن الزندانقانى ببلد بين سرخس و مرو من أصحاب

أبى حامد الغزالى، و أنشد عنه مما قاله فى وداع إخوانه بالبيت المقدس: [بحر الطويل]

لئن كان لى من بعد عود إليكم قضيت لبانات الفؤاد لديكم

و إن تكن الأخرى و لم تك أوبة و حان حمامى فالسلام عليكم

و قد روى هذين البيتين أبو عمر بن عباد و ابنه محمد عن ابن إفرند هذا، و كان صالحا زاهدا متصوفا، رحمه اللّه تعالى!.

۲۲۵- و منهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى، الضبى.

من أهل لورقة، رحل حاجّا، و كان منقبضا زاهدا صواما قواما، و أقرأ القرآن، و أسمع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۱

الحديث، و ممن حدث عنه الحافظان أبو سليمان و أبو محمد بن حوط اللّه، و لقيه أبو سليمان بلورقة سنة ۵۷۵، و توفى رحمه اللّه تعالى سنة ۵۷۷، و قد قارب المائة.

۲۲۶- و منهم أبو عمر بن عات، و هو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزى.

من أهل شاطبة، سمع أباه و أبا الحسن بن هذيل، و أبا عبد اللّه بن سعادة و ابن حبيش و غير واحد و طائفة كثيرة، و رحل إلى المشرق فأدى الفريضة، و سمع أبا الطاهر السّلفى و أبا الطاهر بن عوف و غيرهما ممن يطول ذكره، و أجاز له أبو الفرج بن الجوزى و غيره ممن أخذ عنه و سمع منه، و قد ضمن ذكر أشياخه و جملة صالحة من مروياته عنهم برنامجيه اللذين سمى أحدهما «بالنزهة، فى التعريف بشيوخ الوجهة» و هو كتاب حافل جامع، و الآخر «بريحانة النفس، و راحة الأنفس، فى ذكر شيوخ الأندلس» قال ابن عبد الملك المراكشى فى الصلة:

حدثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن على بن القطان، و كان من أكابر المحدثين، و جلة الحفاظ المسندين للحديث و الآداب بلا مدافعة، يسرد الأسانيد و المتون ظاهرا فلا يخل بحفظ شىء منها، متوسط الطبقة فى حفظ فروع الفقه و معرفة المسائل، إذ لم يعن بذلك عنايته بغيره، فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوى عمر بن عبد البر و ابن عات، و كان على سنن السلف الصالح فى الانقباض، و نزارة الكلام، و متانة الدين، و أكل الحشف، و لزوم التقشف، و التقلل من الدنيا، و الزهد فيها، و المثابرة على كثير من أفعال البر كالأذان و الإمامة و بذل المعروف و التوسع بالصدقات على الضعفاء و المساكين.

و حكى أنه حضر فى جماعة من طلبة العلم لسماع السير على بعض شيوخهم، فغاب الكتاب أو القارئ بكتابه، فقال أبو عمر: أنا أقرأ لكم، فقرأ لهم من حفظه، و قال أبو عمر عامر بن نذير: لازمته مدة ستة أشهر، فلم أر أحفظ منه، و حضرت إسماع الموطأ و صحيح البخارى منه، فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضا بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح، لا يتوقف فى شىء من ذلك، انتهى.

و قال بعض المؤرخين: إنه كان آخر الحفاظ للحديث، يسرد المتون و الأسانيد ظاهرا لا يخل بحفظ شىء منها، موصوفا بالدراية و الرواية، غالبا عليه الورع و الزهد، على منهاج السلف، يلبس الخشن، و يأكل الحشف، و ربما أذن فى المساجد، و له تآليف دالة على سعة حفظه، مع حظ من النظم و النثر، و شهد وقعة العقاب التى أفضت إلى خراب الأندلس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۲

بالدائرة على المسلمين فيها، و كانت السبب الأقوى فى تحيّف الروم بلادها حتى استولت عليها، ففقد حينئذ و لم يوجد حيا و لا ميتا، و ذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع و ستمائة، و مولده سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة، قاله ابن الأبار: و هو ممن أجاز له المذكور فيها رواه أو ألفه، رحمه اللّه تعالى!.

۲۲۷- و منهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حنون، البهرانى.

من ساكنى إشبيليـة، و أصـله من لبلـة، روى عن أبيه و ابن الجـد و ابن زرقون و ابن جهور و غيرهم من أعلام الأنـدلس، ثم رحل إلى المشرق، فسمع ببغداد من أبى حفص عمر بن طبرزد، و بخراسان من المؤيد الطوسى، و بهراة من أبى روح عبد المعز، و بمرو من عبد الرحيم بن عبـد الكريم السـمعانى، و من جماعـة غير هؤلاـء و سـمع أيضـا بـدمشق من أبى الفضل الحرسـتانى و سواه، و بها توفى قبل العشرين و ستمائة، فيما نقل ابن الأبار عن ابن نقطة، و قال غيره: إنه مات سنة خمس و عشرين و ستمائة.

۲۲۸- و منهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد، المخزومى.

من أهل قرطبة، و يعرف أبوه بكوران، روى عن أبيه و غيره من مشـيخة بلده، و رحل حاجّا فلقى بالإسكندرية أبا الحسن بن المقدسى و سمع منه، و أنشد من لفظه بعض أصحاب ابن الأبار، قال: أنشدنى شرف الدين أبو الحسن على بن الفضل المقدسى، قال:

أنشدتنى تقية بنت غيث بن على الأرمنازى لنفسها: [بحر السريع]

لا خير فى الخمر، على أنها مذكورة فى صفة الجنّه

لأنها إن خامرت عاقلا خامره فى عقله جنّه

يخاف أن تقذفه من علا فلا تقى مهجته جنّه

۲۲۹- و منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش، الكنانى، المرسى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۳

سمع من ابن بشـكوال موطأ مالك روايـة يحيى بن يحيى و القعنبى و ابن بكير بقراءة محمـد بن حوط اللّه، و رحل إلى المشـرق سـنة تسع و سـبعين و خمسـمائة، فحج سنة ثمانين بعدها، و أقام بالحجاز و الشام مدة، و لقى أبا الطاهر الخشوعى بدمشق فسمع منه مقامات الحريرى و أخذها الناس عنه، و مما أفاد و زاد فى قول الحريرى:

إذا ما حويت جنى نخلة الأبيات- قوله: [بحر المتقارب]

و لا تأسفنّ على خارج إذا ما لمحت سنى الداخل

و لا تكثر الصمت فى معشر و إن زدت عيّا على باقل

و سـمع من أبى القـاسم ابن عسـاكر السـنن للبيهقى، و من أبى حفص الميانشـى جامع الترمـذى، و قفل إلى الأنـدلس فى سـنة سبع و تسـعين، و حدث بيسـير، و كان يحسن عبارة الرؤيا، و كفّ بصـره سـنة ثمان و عشـرين و سـتمائة أو نحوها، و توفى على إثر ذلك، و مولده سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۲۳۰- و منهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد اللّه بن حصن بن أحمد بن حزم، الغافقى.

و يقال فيه: إبراهيم بن حصن بن عبد اللّه بن حصن.

أندلسـى، سكن دمشق، و ولى الحسبة بها، و يكنى أبا إسحاق، سمع ببغداد من أبى بكر بن مالك القطيعى و طبقته، و بدمشق من عبد الوهـاب الكلاـبى و يوسف بن القـاسم الميـانجى، و بمصـر من أبى طاهر الـذّهلى و أبى أحمـد الغطريفى، و له أيضا سـماع بالرملـة و أطرابلس و الدينور و غيرها من البلدان، و حدث بيسـير، روى عنه أبو نصـر عبد الوهاب بن عبد اللّه الجيانى من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكنانى، و كان مالكيا، و قيل:

إنه يذهب إلى الاعتزال، و كان صارما فى الحسبة، و وليها سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة فى أيام الحاكم العبيدى، و توفى بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع و أربعمائة، قيل: ثانى عيد الأضحى، و قيل غير ذلك، ذكره ابن عساكر، رحمه اللّه تعالى!.

قلت: ما سمعت بمالكىّ معتزلىّ غير هذا، و لعله كان مالكيا بالمغرب، فلما دخل فى خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته لمذهب الاعتزال، فاللّه تعالى أعلم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۴

۲۳۱- و منهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد، الغافقى.

من أهل المرية، و نزل مرسية، سمع ببلده من ابن شفيع، و أخذ عنه القراءات، و من الحافظ ابن سكرة و ابن رغيبة و عبد القادر بن الحناط، و بقرطبة من ابن عتاب و ابن طريف و أبى بحر الأسدى و ابن مغيث و غيرهم، و رحل حاجا، فسمع بمكة من أبى على بن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور و غيرها فى شعبان سنة ست و عشرين، و سمع أيضا من أبى الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسى، و قفل إلى بلده، و انتقل بعد الحادثة عليه إلى مرسية، و ولى القضاء و الخطبة هنالك، و حدّث، و أخذ عنه، و كان فقيها مشاورا، و قيل: إن ابن حبيش سمع منه الأحاديث النسطورية، و أسمع صحيح البخارى آخر الحجة سنة خمس و خمسين و خمسمائة، و كان يحدّث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية، و حكى رحمه اللّه تعالى عن أبى ذرّ الهروى أنه قال عند موته: عليكم بكريمة فإنها تحمل كتاب البخارى من طريق أبى الهيثم، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۲۳۲- ۲۳۳- و منهم أبو القاسم بن فورتش، و هو إسماعيل بن يحيى بن عبد الرحمن، السّرقسطى، و أخوه القاضى محمد بن يحيى

، و كانا جميعا زاهدين، لهما رحلة سمعا فيها من أبى ذر الهروى بمكة، و عادا إلى بلدهما، و ولى محمد منهما القضاء، و قد لقيهما القاضى الحافظ أبو على بن سكّرة و لم يسمع منهما، و يرويان عن أبى عمر الطلمنكى و أبى الحزم بن أبى درهم، و توفى أبو القاسم فى نحو الخمسمائة.

۲۳۴- و منهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر، القرشى، العلوى، الإشبيلى.

رحل حاجا، و دخل العراق و الموصل، و قيد الكثير و رواه، و سمع من أبى حفص الميانشى بمكة سنة ۵۷۰، و حدث بالموطإ عن أبى الحسن على بن هابيل الأنصارى عن أبى الوليد الباجى، و حدث أيضا عن غيره بما دل على أنه كان يخلط و لا يضبط، و كذلك قال أبو الصبر: كان له فى الموطأ إسناد عال جدا، فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد، فاستربت فى الرواية عنه بعد تحسين الظن به، و لم يتنبه أبو الصبر لأن ابن هابيل و غيره من شيوخه مجهولون، و أبو الصبر ممن روى عن المذكور، و هو أبو الصبر السبتى، و اللّه تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۵

[۲۳۵ عيسى بن عبد اللّه النفزى الحميرى التاكرنى]

۲۳۵- و منهم أبو الروح عيسى بن عبد اللّه بن محمد بن موسى بن محمد بن عبد اللّه بن إبراهيم بن خليل، النفزى، الحميرى، التاكرنّى.

قال فى تاريخ إربل: كان شابا متأدبا فاضلا، قدم مصر، و له شعر حسن، و قال الحافظ عبد العظيم المنذرى: أنشدنا المذكور لنفسه: [بحر الكامل]

يا قلب مالك لا تفيق من الهوى أو ما يقرّ بك الزمان قرار؟

أ لكلّ ذى وجه جميل صبوة و لكل عهد سالف تذكار؟

و له: [بحر البسيط]

يا رب أضحية سوداء حالكة لم ترع فى البيد إلا الشمس و القمرا

تخال باطنها فى اللون ظاهرها فهى الغداة كزنجىّ إذا كفرا

ولد سنة ۵۹۰ بتاكرنّا من بلاد الأندلس، و هى من نظر قرطبة، و توفى بأرزن من ديار بكر سنة ۶۲۹، عائدا من آمد، رحمه اللّه تعالى!.

و من بديع شعره: [بحر البسيط]

إن أودع الطرس ما وشّاه خاطره أبدى لعينيك أزهارا و أشجارا

و إن تهدّد فيه أو يعد كرما بثّ البرية آجالا و أعمارا

و تاكرنا- بضم الكاف و الراء و تخفيفها، و شد النون- و ورد المذكور إربل سنة سبع و عشرين و ستمائة، و له أبيات أجاز فيها أبيات شرف الدين عمر بن الفارض فى غلام اسمه بركات، قال الأسدى الدمشقى، و من خطه نقلت: كنت حاضرا هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الأزهر، إذ قال ابن الفارض: [بحر الكامل]

بركات يحكى البدر عند تمامه حاشاه، بل شمس الضّحى تحكيه

فقال أبو الروح، و أنشدنى ذلك: [بحر الكامل]

هذا الكمال فقل لمن قد عابه حسدا و آية كل شىء فيه

لم تذو إحدى زهرتيه، و إنما كملت بذاك ملاحة التشبيه

و كأنه رام يغلّق جفنه ليصيب بالسهم الذى يرميه

و قال ابن المستوفى فى تاريخ إربل: أنشدنى أبو الروح لنفسه: [بحر الكامل]

أوصيت قلبى أن يفرّ عن الصّبا ظنا بأنّى قد دعوت سميعا

فأجابنى لا تخش منى بعد ما أفلتّ من شرك الغرام وقوعا

حتى إذا نادى الحبيب رأيته آوى إليه ملبيا و مطيعا

كذبالة أخمدتها فإذا دنا منها الضرام تعلقته سريعا

قال: و أنشدنى: [بحر البسيط]

و زائر زارنى و اللّيل معتكر و الطّيب يفضحه و الحلى يشهره

أمسكت قلبى عنه و هو مضطرب و الشوق يبعثه و الصّون يزجره

فبتّ أصدى إلى من لا يحللنى و الورد صاف و لا شىء يكدّره

تراه عينى و كفّى لا تلامسه حتى كأنى فى المرآة أنظره

قال: و أنشدنى [قال: أنشدنى] الإمام أبو عمرو بن غياث الشريشى لنفسه رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

صبوت و هل عار على الحر إن صبا و قيد ثغر الأربعين إلى الصبا

و قالوا مشيب قلت وا عجبا لكم أ ينكر صبح قد تخلل غيهبا

و ليس مشيبا ما ترون، و إنما كميت الصبا لما جرى عاد أشهبا

و توفى أبو عمرو سنة ۶۲۰، عن تسعين سنة.

قال ابن المستوفى: و أنشدنى أبو عمرو أيضا لنفسه: [بحر السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۷

أودع فؤادى حسرة أو دع نفسك تؤذى أنت فى أضلعى

أمسك سهام اللحظ أو فارمها أنت بما ترمى مصاب معى

موقعها القلب و أنت الذى مسكنه فى ذلك الموضع

قال: و أنشدنى قال: أنشدنى مطرف الغرناطى: [بحر الخفيف]

أنا صبّ كما تشاء و تهوى شاعر ماجد كريم جواد

سنّة سنّها قديما جميل و أتى المحدثون مثلى فزادوا

قال: و أنشدنى أيضا المطرف: [بحر السريع]

و فى فروع الأيك ورق إذا بلّ الندى أعطافها تسجع

أو هزّها نفح نسيم الصبا شاقك منها غرّد شرّع

كأنما ريطتها منبر و هى خطيب فوقه مصقع

إن شبّها فى طرف لوعة جرى لها فى طرف مدمع

أخذه من قول عبد الوهاب بن على المالقىّ الخطيب: [المتقارب]

كأنّ فؤادى و طرفى معا هما طرفا غصن أخضر

إذا اشتعل النار فى جانب جرى الماء فى الجانب الآخر

[۲۳۶- على بن أحمد بن محمد بن حمدون المالقى النحوى]

۲۳۶- و من المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الإمام النحوى اللغوى نور الدين أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن حمدون، الحميرى، الأندلسى، المالقى.

قال شرف الدين الصابونى: أنشدنا المذكور لنفسه سنة ۶۶۷: [بحر الطويل]

فؤادى بأيدى النائبات مصاب و جفن لفيض الدمع فيه مصاب

تناءت ديار قد ألفت و جيرة فهل لى إلى عهد الوصال إياب

و فارقت أوطانى و لم أبلغ المنى و دون مرادى أبحر و هضاب

مضى زمنى و الشيب حل بمفرقى و أبعد شىء أن يردّ شباب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۸

إذا مر عمر المرء ليس براجع و إن حل شيب لم يفده خضاب

فحل حمام الشيب فى فرق لمّتى و قد طار عنها للشباب غراب

و كم عظة لى فى الزمان و أهله و بين فؤادى و القبول حجاب

فدع شهوات النفس عنك بمعزل فعذب الليالى مقتضاه عذاب

و سلّ فؤادا عن رباب و زينب فما القصد منها زينب و رباب

و أنوى متابا ثم أنقض نيتى فربع صلاحى بالفساد خراب

أقر بتقصيرى و أطمع فى الرضا و ما القصد إلا مرجع و متاب

و يعتبنى فى العجز خلّ و صاحب و هل نافع فى الجامدات عتاب

أطهر أثوابى و قلبى مدنس و أزعم صدقا و المقال كذاب

و فارقت من غرب البلاد مواطنا فيسقى ربا غرب البلاد سحاب

فبالقلب من نار التشوق حرقة و بالعين من فيض الدموع عباب

و ما بلغ المملوك قصدا و لا منّى و لا حطّ عن وجه المراد نقاب

و أخشى سهام الموت تفجأ غفلة و ما سار بى نحو الرسول ركاب

و قلبى معمور بحب محمد فمالى فى غير الحجاز طلاب

يحنّ إلى أوطانه كل مسلم فقدس منها منزل و جناب

فأسعد أيامى إذا قيل هذه منازل من وادى الحمى و قباب

فجسمى بمصر و روحى بطيبة فللروح عن جسمى هناك مناب

على مثل هذا العجز و العمر منقض تشقّ قلوب لا تشق ثياب

و أرجو ثوابا بامتداحى محمدا و ما كل مثن فى الزمان يثاب

به أخمدت من قبل نيران فارس و حقق من ظبى الفلاة خطاب

و كم قد سقى من كفه الجيش فارتووا و كم قد شفى منه العيون رضاب

أجيب لما يختار فى حضرة العلا و ما كل خلق حيث قال يجاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۰۹

فلم تلهه دنياه عن خوف ربه و لا شغلته عن رضاه كعاب

محمد المختار أعلى الورى ندى و أكرم مبعوث أتاه كتاب

أ تحسب أن تحصى بعدّ صفاته و هيهات ما يحصى علاه حساب

ثناء رسول اللّه خير ذخيرة و قد ذل جبار و خيف عقاب

و قد نصب الميزان و اللّه حاكم و ذلت لأحكام الإله رقاب

فكل ثناء واجب لصفاته فما مدح مخلوق سواه صواب

إليك رسول اللّه أنهى مدائحى و إن رجائى راحة و ثواب

إذا قيل من تعنى بمدحك كله فأنت إذا خبرت عنه جواب

(فليتك تحلو و الحياة مريرة و ليتك ترضى و الأنام غضاب)

فأنت أجلّ العالمين مكانة و أكرم مدفون حواه تراب

و له يرثى العز بن عبد السلام: [بحر الكامل]

أمد الحياة كما علمت قصير و عليك نقّاد بها و بصير

عجبا لمغتر بدار فنائه و له إلى دار البقاء مصير

فسليمها للنائبات معرّض و عزيزها بيد الردى مقهور

أ يظن أن العمر ممدود له و العمر فيه على الردى مقصور

و هى طويلة، و لم يحضرنى سوى ما ذكرته.

۲۳۷- و منهم عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن، الغسّانى، الوادى آشى، أبو محمد.

و له أخبار كثيرة فى الحماسة و علوّ الهمة.

و من نظمه لما تعمم مخدومه ابن غانية بعمامة بيضاء و لبس غفارة حمراء على جبة خضراء: [بحر الطويل]

فديتك بالنفس التى قد ملكتها بما أنت موليها من الكرم الغضّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۰

تردّيت للحسن الحقيقى بهجة فصار لها الكلىّ فى ذاك كالبعض

و لما تلالا نور غرّتك التى تقسم فى طول البلاد و فى عرض

تلفعتها خضراء أحسن ناظر نبت عنك إجلالا و ذاك من الفرض

و أسدلت حمراء الملابس فوقها بمفرق تاج المجد و الشرف المحض

فأصبحت بدرا طالعا فى غمامة على شفق دان إلى خضرة الأرض

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

أجبنا و رمحى ناصرى و حسامى و عجزا و عزمى قائدى و إمامى

ولى منك بطّاش اليدين غضنفر يحارب عن أشباله و يحامى

و قال رحمه اللّه تعالى لما أسنّ يستأذن مخدومه فى الحج و الزيارة: [بحر الكامل]

أمنن بتسريح علىّ و فعله سبب الزيارة للحطيم و يثرب

و لئن تقوّل كاشح أن الهوى درست معالمه و أنكر مذهبى

فمقالتى ما إن مللت و إنما عمرى أبى حمل النّجاد و منكبى

و عجزت عن أن أستثير كمينها و أشق بالصمصام صدر الموكب

و قال رحمه اللّه تعالى، و لا خفاء ببراعته: [بحر الطويل]

ندى مخضلا ذاك الجناح المنمنما و سقيا و إن لم تشك يا ساجعا ظما

أعدهن ألحانا على سمع معرب يطارح مرتاحا على القضب معجما

وطر غير مقصوص الجناح مرفّها مسوّغ أشتات الحبوب منعما

مخلّى و أفراخا بوكرك نوّما ألا ليت أفراخى معى كنّ نوّما

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر الطويل]

كفى حزنا أن الرماح صقيلة و أن الشّبا رهن الصدى بدمائه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۱

و أن بياديق الجوانب فرزنت و لم يعد رخ الدست بيت بنائه

و كان- رحمه اللّه تعالى!- من جلة الأدباء، و فحول الشعراء، و برعة الكتاب كتب عن ابن غانية الأمير أبى زكريا يحيى بن إسحاق بن محمد بن على المسوفى الميرقى الثائر على منصور بنى عبد المؤمن، ثم على من بعده من ذريته إلى أيام الرشيد منهم، و كان منقطعا إليه، و ممن صحبه فى حركاته، و كان آية فى بعد الهمة، و الذهاب بنفسه، و الغناء فى مواقف الحرب، و الجنسية علة الضم، إذ ابن غانية كان غاية فى ذلك أيضا، و وجّهه الميرقى المذكور عشية يوم من أيام حروبه إلى المأزق، و قد طال العراك، و كاد الناس ينفصلون عن الحرب [إلى أن يباكروها من الغد، فلما بلغ الصدر اشتدّ على الناس] و ذمّر أرباب الحفيظة، و أنهى إليهم العزم من أميرهم فى الحملة، فانهزم عدوّهم شرّ هزيمة، و لم يعد أبو محمد إلا فى آخر الليل بالأسلاب و الغنيمة، فقال له الأمير: و ما حملك

على ما صنعت؟ فقال: الذى عملت هو شأنى، و إذا أردت من يصرف الناس عن الحرب و يذهب ريحهم فانظر غيرى.

و تشاجر له ولد صغير مع ترب له من أولاد أميره أبى زكريا فنال منه ولد الأمير، و قال:

و ما قدر أبيك؟ فلما بلغ أباه خرج مغضبا لحينه، و لقى ولد الأمير المخاطب لولده فقال:

حفظك اللّه تعالى! لست أشك فى أنى خديم أبيك، و لكنى أحب أن أعرفك بنفسى و مقدارى و مقدار أبيك، اعلم أن أباك وجّهنى رسولا إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب عن نفسه، فلما بلغت بغداد أنزلت فى دار اكتريت لى بسبعة دراهم فى الشهر، و أجرى على سبعة دراهم فى اليوم، و طولع بكتابى، و قيل: من الميرقى الذى وجّهه؟ فقال بعض الحاضرين: هو رجل مغربى ثائر على أستاذه، فأقمت شهرا، ثم استدعيت، فلما دخلت دار الخلافة و تكلمت مع من بها من الفضلاء و أرباب المعارف و الآداب اعتذروا إلى، و قالوا للخليفة: هذا رجل جهل مقداره، فأعدت إلى محل اكترى لى بسبعين درهما، و أجرى على مثلها فى اليوم، ثم استدعيت فودعت الخليفة، و اقتضيت ما تيسر من حوائجه و صدر لى شىء له حظ من صلته، و انصرفت إلى أبيك، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند من يعرف الأقدار، و الثانية كانت على قدرى، و ترجمته رحمه اللّه تعالى واسعة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۲

۲۳۸- و منهم عبد المنعم بن عمر الغسانى، الوادى آشى

المؤلف، الرحالة، المتجول ببلاد المشرق سائحا، صاحب المؤلفات الكثيرة التى منها «جامع أنماط السائل، فى العروض و الخطب و الرسائل».

و من نظمه قوله رحمه اللّه: [بحر الطويل]

ألا إنما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنبات

و أكثر من لاقيت يغرق إلفه و قلّ فتى ينجى من الغمرات

توفى سنة ۶۰۳، رحمه اللّه تعالى!.

۲۳۹- و منهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد، القرطبى، الخزرجى.

كان إماما فى التفسير و الفقه و الحساب و الفرائض و النحو و اللغة و العروض و الطب، و له تآليف حسان، و شعر رائق، فمنه قوله رحمه اللّه تعالى: [بحر الوافر]

و فى الوجنات ما فى الروض لكن لرونق زهرها معنى عجيب

و أعجب ما التعجّب عنه أنى أرى البستان يحمله قضيب

و توفى رحمه اللّه تعالى سنة ۶۰۱.

[۲۴۰- عبد المنعم الوادى آشى، و أحمد الخزرجى، و أحمد بن عمر]

۲۴۰- و منهم أبو العباس القرطبى، صاحب «المفهم، فى شرح مسلم» و هو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصارى، المالكى، الفقيه، المحدث، المدرس، الشاهد بالإسكندرية.

ولد بقرطبة سنة ۵۷۸، و سمع الكثير هنالك، ثم انتقل إلى المشرق، و اشتهر و طار صيته، و أخذ الناس عنه، و انتفعوا بكتبه، و قدم مصر، و حدث بها، و اختصر الصحيحين، و كان بارعا فى الفقه و العربية، عارفا بالحديث، و ممن أخذ عنه القرطبى صاحب التذكرة، و من تصانيفه رحمه اللّه تعالى «المفهم، فى شرح مسلم» و هو من أجلّ الكتب، و يكفيه شرفا اعتماد الإمام النووى رحمه اللّه تعالى عليه

فى كثير من المواضع، و فيه أشياء حسنة مفيدة، منها اختصاره للصحيحين كما مر، و له غير ذلك و توفى رحمه اللّه تعالى بالإسكندرية رابع ذى القعدة سنة ۶۵۶، و كان يعرف فى بلاده بابن المزين، و له كتاب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۳

«كشف الإقناع، عن الوجد و السماع» أجاد فيه و أحسن و كان يشتغل أولا بالمعقول، و له اقتدار على توجيه المعانى بالاحتمال.

قال الشيخ شرف الدين الدمياطى: أخذت عنه، و أجاز لى مصنفاته، رحمه اللّه تعالى! و حدث بالإسكندرية و غيرها، و صنف غير ما ذكرناه، و كان إماما عالما جامعا لمعرفة الحديث و الفقه و العربية و غيرها.

۲۴۱- و منهم العارف الكبير، الولى الصالح الشهير، أبو أحمد جعفر بن عبد اللّه بن محمد بن سيدبونة، الخزاعى، الأندلسى.

أحد الأعلام المنقطعين المقربين أولى الهداية، كان- رضى اللّه تعالى عنه و نفعنا به!- كثير الأتباع، بعيد الصيت، فذّا شهيرا.

قال الحافظ ابن الزبير: هو أحد الأعلام المشاهير فضلا و صلاحا، قرأ ببلنسية و تفقه، و حفظ نصف المدوّنة، و أقرأها، و كان يؤثر التفسير و الحديث و الفقه على غيرها، أخذ عن أبوى الحسن بن النعمة و ابن هذيل، و حج، و لقى فى رحلته من الأندلس جلّة أكبرهم الولى الكبير سيد أبو مدين شعيب، أفاض اللّه تعالى علينا من أنواره! و انتفع به، و رجع عنه بعجائب، فشهر بالعبادة، و تبرك الناس به، فظهرت عليه بركته، توفى رحمه اللّه تعالى فى شوال سنة ۶۲۴، و عاش نيفا و ثمانين سنة.

و له ترجمة فى الإحاطة ملخصها ما ذكرناه.

۲۴۲- و منهم محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب، الخزرجى، الأنصارى، الشاطبى، الفقيه، القاضى، الصّدر، المتفنن، المحصل، المجيد.

له علم محكم، و عقد صحيح مبرم، رحل إلى المشرق و حج، و كانت رحلته بعد تحصيله، فزاد فضلا إلى فضل، و نبلا إلى نبل، و كان متثبتا فى فقهه، لا يستحضر من النقل الكثير، و لكنه يستحضر ما يحتاج إليه، و كان له علم بالعربية و أصول الفقه، و مشاركة فى أصول الدين، له شرح على الجزولية، و كان أبوه قاضيا، و بيتهم بيت قضاء و علم و سؤدد متوارث و مجد مكسوب و منسوب، ثم ولى قضاء بجاية، فكان فى قضائه على سنن الفضلاء

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۴

و طريق الأولياء العقلاء بالحق مع الصدق، معارضا للولاة، و كان يرى أن لا يقدم الشهود إلا عند الحاجة، و أما إن حصل من تحصل به الكفاية فلا يقدم غيره، و يرى أن الكثرة مفسدة، و قد طلب منه الملك أن يقدم رجلا من أهل بجاية، فقال له مشافهة: إن شئتم قدمتموه و أخرتمونى و كان إذا جرى الأمر فى مجرى الشهادة و ما قاله القاضى ابن العربى أبو بكر و غيره من أنها «قبول قول الغير على الغير بغير دليل» يرى أن هذا من الأمر العظيم الذى لا يليق أن يمكن منه إلا الآحاد الذين تبيّن فضلهم فى الوجود، و كان يرى أن جنايات الشاهد إنما هى فى صحيفة من يقدمه من باب قوله عليه الصلاة و السلام: «من سنّ سنّة حسنة، و من سنّ سنّة سيّئة» و قد سئل: من أولياء اللّه؟ فقال: شهود القاضى، لأنهم لا يأتون كبيرة، و لا يواظبون على صغيرة، و إن كانت الشهادة على هذه الصفة فلا شىء أجل منها، و إن كانت خطة لا صفة فلا شىء أخس منها، و لما كانت واقعة ابن مرين بطنجة عرض عليه أهلها أن يتقدم و أن يبايعوه، فقال: و اللّه لا أفسد دينى، و لما توفى عجز القاضى الذى تولى بعده عن سلوك منحاه، و اقتفاء سننه الذى اقتفاه، قال هذا كله بمعناه و بعضه بحروفه الغبرينىّ فى «عنوان الدراية فى علماء بجاية».

[۲۴۳- محمد بن يحيى اللبسى قاضى القضاة]

۲۴۳- و منهم محمد بن يحيى الأندلسى، اللبسى- بلام فموحدة فسين- قاضى القضاة، أخذ عن الحافظ ابن حجر، و نوّه به عند

الأشراف، حتى ولاه قضاء المالكية بحماة، و سار سيرة السلف الصالح، ثم حنق على نائبها فى بعض الأمور، و سافر إلى حلب مظهرا إرادة السماع على حافظها البرهان.

و وصفه ابن حجر فى بعض مجاميعه بقوله: الشيخ، الإمام، العالم، العلامة فى الفنون، قاضى الجماعة. و قال: إنه إنسان حسن إمام فى علوم منها الفقه و النحو و أصول الدين، يستحضر علوما كأنها بين عينيه، و وصفه أيضا بعلامة دهره، و خلاصة عصره، و عين زمانه، و إنسان أوانه، جامع العلوم، و فريد كل منثور و منظوم، قاضى القضاة، لا زالت رايات الإسلام

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۵

به منصورة، و أعلام الإيمان به منشورة، و وجوه الأحكام الشرعية بحسن نظره محبورة، ولد سنة ۸۰۶، و توفى ببرسّا من بلاد الروم أواخر شعبان سنة ۸۸۴، قاله السخاوى «فى الضوء اللامع».

۲۴۴- و منهم الوزير الشهير أبو عبد اللّه بن الحكيم، الرندى، ذو الوزارتين.

رحل إلى مصر و الحجاز و الشام، و أخذ الحديث عن جماعة، و قد ترجمناه فى باب مشيخة لسان الدين عند تعرضنا لذكر ابنه الشيخ أبى بكر بن الحكيم، و لا بأس أن نزيد هنا ما ليس هنالك، فنقول: إن من مشايخه برندة الشيخ الأستاذ النحوى أبا الحسن على بن يوسف العبدرى السفاح، أخذ عنه العربية، و قرأ عليه القرآن بالروايات السبع، و أخذ عن الخطيب بها أبى القاسم بن الأيسر، و أخذ- رحمه اللّه تعالى!- عن جماعة من أعلام الأندلس، و أخذ فى رحلته عن الجلّة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر، فمن شيوخه الحافظ أبو اليمن بن عساكر، لقيه بالحرم الشريف، و انتفع به، و أكثر من الرواية عنه، و الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّانى المعروف بابن هبة اللّه، و الشيخ الشرف أبو العباس أحمد بن عبد اللّه بن عمر بن معطى ابن الإمام الجزائرى- جزائر المغرب - نزيل بغداد و الشيخ أبو الصفاء خليل بن أبى بكر المرادى الحنبلى، لقيه بالقاهرة، و الشيخ رضى الدين أبو بكر القسمطينى، و الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى إمام الديار المصرية فى الحديث و حافظها و مؤرخها،! و الشهاب ابن الخيمى، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التى أولها: [بحر البسيط]

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب إليك آل التقصّى و انتهى الطّلب

و فيها البيت المشهور الذى وقع النزاع فيه:

يا بارقا بأعالى الرقمتين بدا لقد حكيت و لكن فاتك الشّنب

و الشيخ جمال الدين أبو صادق محمد بن يحيى القرشى، و من تخريجه «الأربعون المروية بالأسانيد المصرية» و سمع الحلبيات من ابن عماد الحرانى و الشيخ أبى الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، و مولده سنة ۵۹۸، و زينب بنت الإمام أبى محمد عبد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۶

اللطيف بن يوسف البغدادى، و تكنى أم الفضل، و سمعت من أبيها، و من أشياخ ذى الوزارتين ابن الحكيم المذكور الملك الأوحد يعقوب ابن الملك الناظر صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و الشيخ عبد الرحمن بن سليمان بن طرخان و أخوه محمد بن سليمان، فى طائفة كبيرة من مشايخ مصر و الشام و العراق و غيرها من البلاد يطول تعدادهم، و أخذ ببجاية عن خطيبها أبى عبد اللّه بن رحيمة الكنانى، و بتونس عن قاضيها أبى العباس بن الغماز البلنسى و أخذ العربية عن قدوة النحاة أبى الحسين عبد اللّه بن أحمد بن عبيد اللّه بن أبى الربيع القرشى.

و من شعر ذى الوزارتين ابن الحكيم المذكور قوله: [بحر الرمل]

هل إلى ردّ عشيات الوصال سبب أم ذاك من ضرب المحال

حالة يسرى بها الوهم إلى أنها تثبت برأ باعتلال

و ليال ما تبقى بعدها غير أشواقى إلى تلك الليال

إذ مجال الوصل فيها مسرحى و نعيمى آمر فيها و وال

و لحالات التراضى جولة مرحت بين قبول و اقتبال

فبوادى الخيف خوفى مسعد و بأكناف منّى أسنى موال

لست أنسى الأنس فيها أبدا لا و لا بالعذل فى ذاك أبال

و غزال قد بدا لى وجهه فرأيت البدر فى حال الكمال

ما أمال التيه من أعطافه لم يكن إلا على خصل اعتدال

خصّ بالحسن فما أنت ترى بعده للناس حظا فى الجمال

من تسلّى عن هواه فأنا بسواه عن هواه غير سال

فلئن أتعبنى حبى له فلكم نلت به أنعم حال

إذ لآلى جيده من قبلى و وشاحاه يمينى و شمال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۷

خلف النوم لى السهد به و ترامى الشخص لا طيف الخيال

فتداوى بلماه ظمئى مزجك الصهباء بالماء الزلال

أو إشادات بناء الملك الأو حد الأسمى الهمام المتعال

ملك إن قلت فيه ملكا لم تكن إلا محقا فى المقال

أيد الإسلام بالعدل فما إن ترى رسما لأصحاب الضلال

ذو أياد شملت كل الورى و معال يا لها خير معال

همة هامت بأحوال التقى و صفات بالجلالات حوال

وقف النّفس على إجهادها بين صوم و صلاة و نوال

و هى طويلة، و منها:

أيها المولى الذى نعماؤه أعجزت عن شكرها كنه المقال

ها أنا أنشدكم مهنئا من بديع النظم بالسحر الحلال

فأنا العبد الذى حبّكم لم يزل و اللّه فى قلبى وبال

أورقت روضة آمالى بكم مذ تولّاها الرّباب المتوال

[و اقتنيت الجاه من خدمتكم فهى ما أذخره من كنز مال]

و منها:

يا أمير المسلمين هذه خدمة تنبىء عن أصدق حال

هى بنت ساعة أو ليلة سهلت بالحب فى ذاك الجلال

ما عليها إذ أجادت مدحها من بعيد الفهم يلغيها و قال

فهى فى تأدية الشكر لكم أبدا بين احتفاء و احتفال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۸

و كتب رحمه اللّه تعالى يخاطب أهله من مدينة تونس: [بحر الخفيف]

حى حيّى بالله يا ريح نجد و تحمّل عظيم شوقى و وجدى

و إذا ما بثثت حالى فبلّغ من سلامى لهم على قدر ودّى

ما تناسيتهم و هل فى مغيبى قد نسونى على تطاول بعدى

بى شوق إليهم ليس يعزى لجميل و لا لسكان نجد

يا نسيم الصّبا إذا جئت قوما ملئت أرضهم بشيح ورند

فتلطف عند المرور عليهم و حقوقا لهم علىّ فأدّ

قل لهم قد غدوت من وجدهم فى حال شوق لكل رند و زند

و إن استفسروا حديثى فإنى باعتناء الإله بلّغت قصدى

فله الحسد إذ حبانى بلطف عنده قلّ كلّ شكر و حمد

و افتتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبى إسحاق إبراهيم بقصيدة أولها: [بحر الكامل]

ذكر اللّوى شوقا إلى أقماره فقضى أسى أو كاد من تذكاره

و علا زفير حريق نار ضلوعه فرمى على و جناته بشراره

لو كنت تبصر خطه فى خده لقرأت سر الوجد من أسطاره

يا عاذليه أقصروا فلشدّ ما أفضى عتابكم إلى إضراره

إن لم تعينوه على برحائه لا تنكروا بالله خلع عذاره

ما كان أكتمه لأسرار الهوى لو أن جند الصبر من أنصاره

ما ذنبه و البين قطّع قلبه أسفا و أذكى النار فى أعشاره

بخل اللوى بالساكنيه و طيفهم و حديثه و نسيمه و مزاره

يا برق خذ دمعى و عرج باللوى فاسفحه فى باناته و عراره

و إذا لقيت بها الذى بإخائه ألقى خطوب الدهر أو بجواره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۱۹

فاقر السلام عليه قدر محبتى فيه و ترفيعى إلى مقداره

و المم بسائر إخوتى و قرابتى من لم أكن لجوارهم بالكاره

ما منهم إلا أخ أو سيد أبدا أرى دأبى على إكباره

فابثث لذاك الحى أنّ أخاهم فى حفظ عهدهم على استبصاره

و قال رحمه اللّه تعالى فى غرض كلفه سلطانه القول فيه: [بحر الوافر]

ألا واصل مواصلة العقار ودع عنك التخلق بالوقار

و قم و اخلع عذارك فى غزال يحق لمثله خلع العذار

قضيب مائس من فوق دعص تعمم بالدجى فوق النهار

و لاح بخده ألف و لام فصار معرّفا بين الدرارى

رمانى قاسم و السين صاد بأشفار تنوب عن الشّفار

و قد قسمت محاسن و جنتيه على ضدين من ماء و نار

فذاك الماء من دمعى عليه و تلك النار من فرط استعارى

عجبت له أقام بربع قلبى على ما شبّ فيه من الأوار

ألفت الحب حتى صار طبعا فما أحتاج فيه إلى ادكار

فما لى عن مذاهبه ذهاب و هذا فيه أشعارى شعارى

و قال العلامة ابن رشيد فى «ملء العيبة»: لما قدمنا المدينة سنة ۶۸۴ كان معى رفيقى الوزير أبو عبد اللّه بن أبى القاسم بن الحكيم، و كان أرمد، فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها نزلنا عن الأكوار، و قوى الشوق لقرب المزار، فنزل و بادر إلى المشى على قدميه احتسابا لتلك الآثار، و إعظاما لمن حل تلك الديار، فأحس بالشفاء، فأنشد لنفسه فى وصف الحال قوله:

[بحر الطويل]

و لما رأينا من ربوع حبيبنا بيثرب أعلاما أثرن لنا الحبّا

و بالترب منها إذ كحلنا جفوننا شفينا فلا بأسا نخاف و لا كربا

و حين تبدّى للعيون جمالها و من بعدها عنا أديلت لنا قربا

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة لمن حلّ فيها أن نلم به ركبا

نسح سجال الدمع فى عرصاتها و نلثم من حبّ لواطئه التربا

و إن بقائى دونه لخسارة و لو أن كفى تملأ الشرق و الغربا

فيا عجبا ممن يحب بزعمه يقيم مع الدعوى و يستعمل الكتبا

و زلّات مثلى لا تعدد كثرة و بعدى عن المختار أعظمها ذنبا

و خط الوزير ابن الحكيم فى غاية الحسن، و قد رأيته مرارا، و ملكت بعض كتبه، و نثره- رحمه اللّه تعالى!- أعلى من شعره كما نبه عليه لسان الدين فى الإحاطة.

و من نثره فى رسالة طويلة كتبها عن سلطانه، ما صورته: و قد تقرر عند الخاص و العام، من أهل الإسلام. و اشتهر فى آفاق الأقطار، اشتهار الصباح فى سواد الظلام. أنا لم نزل نبذل جهدنا فى أن تكون كلمة اللّه هى العليا، و نسمح فى ذلك بالنفوس و الأموال رجاء ثواب اللّه لا لعرض الدنيا. و أنا ما قصرنا فى الاستنفار و الاستنصار، و لا أقصرنا عن الاعتضاد بكل من أملنا معاملته و الاستظهار. و لا اكتفينا بمطوّلات الرسائل و بنات الأفكار حتى اقتحمنا بنفسنا لجج البحار، فسمحنا بالطارف من أموالنا و التّلاد، و أعطينا رجاء نصرة الإسلام موفور الأموال و البلاد، و اشترينا بما أنعم اللّه به علينا ما فرض اللّه على كافة أهل الإسلام من الجهاد، فلم يكن بين تلبية المدعوّ و زهده، و لا بين قبوله ورده، إلا كما يحسو الطائر ماء الثماد، و يأبى اللّه أن يكل نصرة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه، و لا يجعل فيها شيئا إلا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته و نجواه، و لما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغريبة إلى مناويه، و بقى المسلمون يتوقعون حادثا ساءت ظنونهم لمباديه، ألقينا إلى الثقة باللّه تعالى يد الاستسلام، و شمرنا عن ساعد الجد فى جهاد عبدة الأصنام، و أخذنا بمقتضى قوله تعالى: وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [البقرة: ۱۹۵] أخذ الاعتزام، فأمدّنا اللّه تعالى فى ذلك بتوالى البشائر، و نصرنا بألطاف أغنى فيها

خلوص الضمائر عن قود العساكر، و نفّلنا على أيدى قوّادنا و رجالنا من السّبايا و الغنائم ما غدا ذكره فى الآفاق كالمثل السائر وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴) [إبراهيم: ۳۴] و كيف يحصيها المحصى أو يحصرها الحاصر، و حين أبدت لنا العناية الربانية وجوه الفتح سافرة المحيّا، و انتشقنا نسائم النصر الممنوح عبقة الرّيّا، استخرنا اللّه تعالى فى الغزو بنفسنا و نعم المستخار، و كتبنا بما قد علمتم إلى ما قرب من أعمالنا بالحضّ على الجهاد و الاستنفار، و حين وافى من

خفّ للجهاد من الأجناد و المطوعين، و غدوا بحكم رغبتهم فى الثواب على طاعة اللّه مجتمعين، خرجنا بهم و نصر اللّه تعالى أهدى دليل، و عناية اللّه تعالى بهذه الفئة المفردة من المسلمين تقضى بتقريب البعيد من آمالنا و تكثير القليل، و نحن نسأل اللّه تعالى أن يحملنا على جادّة الرضا و القبول، و أن يرشدنا إلى طريق تقضى إلى بلوغ الأمنية و المأمول.

و هذه رسالة طويلة سقنا بعضها كالعنوان لسائرها.

و نال ابن الحكيم- رحمه اللّه تعالى!- من الرياسة و التحكم فى الدولة ما صار كالمثل السائر، و خدمته العلماء الأكابر، كابن خميس و غيره، و أفاض عليهم سجال خيره، ثم ردت الأيام منه ما وهبت، و انقضت أيامه كأن لم تكن و ذهبت، و قتل يوم خلع سلطانه، و مثّل به سنة ۷۰۸، رحمه اللّه تعالى! و انتهب من أمواله و كتبه و تحفه ما لا يعلم قدره إلا اللّه تعالى، أثابه اللّه تعالى بهذه الشهادة بجاه نبينا محمد صلى اللّه عليه و سلم و شرف و كرم و مجد و عظم.

[۲۴۵ نجيب الدين عبد العزيز اللخمى]

۲۴۵- و من المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز بن الأمير القائد أبى على الحسن بن عبد العزيز بن هلال، اللخمى، الأندلسى.

ولد سنة ۵۷۷ تقريبا، و رحل فسمع بمكة من زاهر بن رستم، و ببغداد من أبى بكر أحمد بن سكينة و ابن طبرزد و طائفة، و بواسط من أبى الفتح بن المندانى و بأصبهان من عين الشمس الثقفية و جماعة، و بخراسان من المؤيد الطوسى و أبى روح و أصحاب الفراوى و هذه الطبقة، و خطه مليح مغربى فى غاية الدقة. و كان كثير الأسفار، دينا متصوّفا كبير القدر، قال الضياء فى حقه: رفيقنا و صديقنا، توفى بالبصرة عاشر رمضان سنة ۶۱۷، و دفن إلى جانب قبر سهل التّسترى رضى اللّه تعالى عنه! و ما رأينا من أهل المغرب مثله، و قال ابن نقطة: كان ثقة فاضلا، صاحب حديث و سنة، كريم الأخلاق، و قال مفضل القرشى: كان كثير المروءة غزير

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۲

الإنسانية، و قال ابن الحاجب: كان كيّس الأخلاق، محبوب الصورة، لين الكلام، كريم النفس، حلو الشمائل، محسنا إلى أهل العلم بماله و جاهه، و قيل: إنه أوصى بكتبه للشرف المرسى، رحمه اللّه تعالى!.

۲۴۶- و منهم محمد بن عبد اللّه بن أحمد بن محمد، أبو بكر بن العربى الإشبيلى، حفيد القاضى الحافظ الكبير أبو بكر بن العربى.

قرأ لنافع على قاسم بن محمد الزقاق صاحب شريح، و حج فسمع من السّلفى و غيره، ثم رحل بعد نيف و عشرين سنة إلى الشام و العراق، و أخذ عن عبد الوهاب بن سكينة و طبقته، و رجع فأخذوا عنه بقرطبة و إشبيلية، ثم سافر سنة ۶۱۲ و تصوف و تعبد، و توفى بالإسكندرية سنة ۶۱۷. قاله الذهبى فى تاريخه الكبير.

۲۴۷- و من المرتحلين من الأندلس يحيى بن عبد العزيز، المعروف بابن الخرّاز أبو زكريا، القرطبى.

سمع من العتبى و عبد اللّه بن خالد و نظائرهما من رجال الأندلس، و رحل فسمع بمصر من المزنى و الربيع بن سليمان المؤذن و محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم و يونس بن عبد الأعلى و محمد بن عبد اللّه بن ميمون و عبد الغنى بن أبى عقيل و غيرهم، و سمع بمكة من على بن عبد العزيز، و كانت رحلته و رحلة سعيد بن عثمان الأعناقى و سعيد بن حميد و ابن أبى تمام واحدة، و سمع الناس من يحيى المذكور مختصر المزنى و رسالة الشافعى و غير ذلك من علم محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم، و كان يميل فى فقهه إلى مذهب الشافعى، و كان مشاورا مع عبيد اللّه بن يحيى و أضرابه، و حدث عنه من أهل الأندلس محمد بن قاسم و ابن بشر و ابن عبادة و غير واحد، و لم يسمع منه ابنه محمد لصغره، و توفى سنة ۲۹۵، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه!.

[۲۴۸ محمد بن أحمد الشريشى]

۲۴۸- و منهم الشيخ الإمام العالم العامل الكامل الزاهد الورع، العلامة جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه، البكرى، الشريشى، المالكى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۳

كان من أكابر الصالحين المتورعين، و مولده سنة ۶۰۱ بشريش، و توفى برباط الملك الناصر بسفح قاسيون سنة ۶۸۵ فى ۲۴ رجب، و دفن قبالة الرباط، و له المصنفات المفيدة، تولى مشيخة الصخرة بحرم القدس الشريف، و قدم دمشق، و تولى مشيخة الرباط الناصرى، فلما توفى قاضى القضاة جمال الدين المالكى و لوه مشيخة المالكية بدمشق، و عرضوا عليه القضاء فلم يقبل، و بقى فى المشيخة إلى أن توفى، رحمه اللّه تعالى و نفعنا به و بأمثاله! آمين.

۲۴۹- و من الراحلين من الأندلس الفقيه الصالح أبو بكر بن محمد بن على بن ياسر، الجيّانى، المحدث الشهير.

ذكره ابن السمعانى و غيره، سافر الكثير، و ورد العراق، و طاف فى بلاد خراسان، و سكن بلخ، و أكثر من الحديث، و حصّل الأصول، و نسخ بخطه ما لا يدخل تحت حصر، قال ابن السمعانى: و له أنس و معرفة بالحديث، لقيته بسمرقند، و كان قدمها سنة ۵۴۹ مع جماعة من أهل الحجاز لدين له عليهم، و سمعت منه جزءا خرّجه من حديث يزيد بن هارون مما وقع له عاليا، و جزءا صغيرا من حديث أبى بكر بن أبى الدنيا، و أحاديث أبى بكر الشافعى فى أحد عشر جزءا المعروف بالغيلانيات بروايته عن ابن الحصين عن ابن غيلان عنه، و كان مولده بجيّان سنة ۴۹۳ [أو فى التى بعدها، الشك منه، ثم لقيته بنسف فى أواخر سنة خمسين] و لم أسمع منه شيئا، ثم قدم علينا فى بخارى فى أوائل سنة إحدى و خمسين و سمعت من لفظه جميع كتاب الزهد لهنّاد بن السّرى الكوفى بروايته عن أبى القاسم سهل بن إبراهيم المسجدى عن الحاكم أبى عبد الرحمن محمد بن أحمد الشاذياخى عن الحاكم أبى الفضل محمد بن الحسين الحدّادى عن حماد بن أحمد السلمى عن مصنفه، و أخبرنا الجيّانى بسمرقند أنبأنا أبو القاسم هبة اللّه بن محمد بن الحصين الكاتب ببغداد، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد اللّه الشافعى، أخبرنا محمد بن مسلمة أنبأنا يزيد بن هارون، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب عن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة و أهل النّار النّار ناداهم مناد: يا أهل الجنّة، إنّ لكم عند اللّه موعدا لم تروه، قالوا: و ما هو؟ أ لم يثقّل موازيننا و يبيّض وجوهنا و يدخلنا الجنّة و ينجنا من النّار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فو اللّه ما أعطاهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۴

شيئا أحبّ إليهم من النّظر إليه» ثم تلا هذه الآية لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ [يونس: ۲۶].

و قال ابن السمعانى أيضا: و أخبرنا الجيّانى المذكور بسمرقند، أنبأنا هبة اللّه بن محمد بن عبد الواحد ببغداد، أنبأنا أبو طالب بن غيلان، أنبأنا أبو بكر الشافعى، أنبأنا أبو بكر عبد اللّه بن محمد بن أبى الدنيا القرشى، أنبأ محمد بن حسان، أنبأنا مبارك بن سعيد، قال: أردت سفرا، فقال لى الأعمش: سل ربك أن يرزقك صحابة صالحين، فإن مجاهدا حدثنى قال:

خرجت من واسط فسألت ربى أن يرزقنى صحابة، و لم أشترط فى دعائى، فاستويت أنا و هم فى السفينة فإذا هم أصحاب طنابير.

و قال ابن السمعانى أيضا: أخبرنا أبو بكر الجيانى المغربى بسمرقند، سمعت الإمام أبا طالب إبراهيم بن هبة اللّه ببلخ يقول: قرأت على أبى يعلى محمد بن أحمد العبدى بالبصرة قال: قرأت على شيخنا أبى الحسين بن يحيى فى كتاب «العين» بإسناده إلى الخليل بن أحمد أنه أنشد قول الشاعر: [بحر الخفيف]

إن فى بيتنا ثلاث حبالى فوددنا أن قد وضعن جميعا

زوجتى ثم هرتى ثم شاتى فإذا ما وضعن كنّ ربيعا

زوجتى للخبيص، و الهر للفا ر، و شاتى إذا اشتهينا مجيعا

قال أبو يعلى: قال شيخنا ابن يحيى: و ذكر عن الخليل بن أحمد فى العين أن المجيع أكل التمر باللبن، انتهى.

۲۵۰- و منهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم، الأندلسى، المرى.

ذكره الحميدى فى تاريخه و أثنى عليه، و قال: كان من أهل العلم و الأدب و الذكاء و الهمة العالية [فى طلب العلم]، كتب بالأندلس فأكثر، و رحل إلى المشرق فاحتفل فى العلم و الرواية و الجمع.

و ذكره الحافظ الخطيب أبو بكر [أحمد بن على] بن ثابت البغدادى، و قال: هو من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۵

بيت جلالة و علم و رياسة، و أخرج عنه فى غير موضع من مصنفاته، و قدم بغداد و دمشق و حدّث فيهما، ثم عاد إلى المغرب فتوفى ببلده المريّة سنة ۴۵۴، و حدّث عن أبى القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهرى، و يعرف بابن الإفليلى، الأندلسى النحوى و غيره، و كان صدوقا ثقة، رحمه اللّه تعالى!.

۲۵۱- و منهم العالم الحسيب أبو حفص عمر بن الحسن الهوزنى.

ذكره ابن بسّام فى «الذخيرة» و الحجارى فى «المسهب» و لما تولى المعتضد بن عباد والد المعتمد خاف منه فاستأذنه فى الحج سنة ۴۴۴، و رحل إلى مصر و إلى مكة، و سمع فى طريقه كتاب صحيح البخارى، و عنه أخذه أهل الأندلس، و رجع فسكن إشبيلية، و خدم المعتضد، فقتله، و من خاف من شيء سلط عليه، و كان قتله يوم الجمعة لليلة خلت من ربيع الأوّل سنة ۴۶۰، رحمه اللّه تعالى!.

و من شعره يحرضه على الجهاد قوله: [بحر الطويل]

أعبّاد جلّ الرزء و القوم هجّع على حالة من مثلها يتوقع

فلقّ كتابى من فراغك ساعة و إن طال فالموصوف للطول موضع

إذا لم أبثّ الداء رب شكاية أضعت و أهل للملام المضيّع

و وصله بنثر، و هو: و ما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها، و لا أرجأ الدليل من ناط الأمور بأربابها، و لربّ أمل بين أثناء المحاذير مدبج، و محبوب فى طى المكاره مدرج، فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجز، و طبّق مفاصلها فكأن قد أمكنك الحز، و لا غرو أن يستمطر الغمام فى الجدب، و يستصحب الحسام فى الحرب.

و له: [بحر الرمل]

صرّح الشر فلا يستقل إن نهلتم جاءكم بعد علّ

بدء صعق الأرض رشّ و طلّ و رياح ثم غيم أبل

خفضوا فالداء رزء أجلّ و اغمدوا سيفا عليكم يسل

و بسبب قتل بنى عباد لأبى حفص الهوزنى المذكور تسبب ابنه أبو القاسم فى فساد دولة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۶

المعتمد بن عباد، و حرض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتى أزال ملكه، و نثر سلكه، و سبب هلكه، كما ذكرناه فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب غير مرة، فليراجعه من أراده فى محاله، و بيت بنى الهوزنى المذكور بالأندلس بيت كبير مشهور، و منهم عدة علماء و كبراء، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۲۵۲- و منهم أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال، القرطبى، الفقيه المالكى.

أحد الأئمة الزهاد، كان يصوم حتى يعجز، توفى سنة ۲۷۲، و قيل: سنة ۲۷۸، و رحل إلى المشرق، و سمع من عبد اللّه بن نافع صاحب مالك بن أنس، و من سحنون بن سعيد، و غيرهما، و كان فاضلا فقيها عابدا عالما بالمسائل، و روى عنه أحمد بن خالد، و كان يفضله و يصفه بالفضل و العلم، و هو صاحب الشجرة، قال عباس بن أصبغ: كانت فى داره شجرة تسجد لسجوده إذا سجد، قال ابن الفرضى رحمه اللّه تعالى، و رضى عنه، و نفعنا به!.

۲۵۳- و منهم أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانة، الفزارى، الإلبيرى، الزاهد.

سكن قرطبة، قال ابن الفرضى: كان منقطع القرين فى العبادة، بعيد الاسم فى الزهد، حج، و عنى بعلم القرآن و القراءات و التفسير، و سمع بمصر من الأسيوطى و ابن الورد و ابن شعبان و غيرهم، و كان له حظ من الفقه و الرواية إلا أن العبادة غلبت عليه، و كان العمل أملك به، و لا أعلمه حدّث، توفى رحمه اللّه تعالى سنة ست و ستين و ثلاثمائة، و دفن فى مقبرة الرّبض، و صلى عليه القاضى محمد بن إسحاق بن السليم، ثم صلى عليه حيّان مرة ثانية، رحمه اللّه تعالى! و أفاض علينا من أنوار عنايته! آمين.

۲۵۴- و منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم، الصدفى، الإشبيلى، الأديب البارع.

له نظم حسن، و موشحات رائقة، قرأ على الأستاذ الشلوبين و غيره، و مدح الملوك، و رحل من الأندلس فقدم ديار مصر، و مدح بها بعض من كان يوصف بالكرم، فوصله بنزر يسير، فكر راجعا إلى المغرب، فتوفى ببرقة، رحمه اللّه تعالى! و كان من النجباء فى النحو و غيره.

و من نظمه من قصيدة: [بحر البسيط]

ما بى موارد أمر بل مصادره اللحظ أوّله و اللحد آخره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۷

أرسلت طرفى مرتادا فطلّ دمى روض من الحسن مطلول أزاهره

رعيت فى خصبه لحظى فأعقبنى جدبا بجسمى ما يرويه هامره

و بى و إن لم أكن بالذكر أشهره فالوصف فيه لفقد المثل شاهره

و هى طويلة، و أثنى عليه أثير الدين أبو حيّان، و أورد جملة من محاسن كلامه و بدائع نظامه، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۲۵۵- و منهم أبو يحيى زكريا بن خطاب، الكلبى، التّطيلى.

رحل سنة ۲۹۳، فسمع بمكة كتاب «النسب» للزبير بن بكار من الجرجانى الذى حدث به عن على بن عبد العزيز بن الجمحى عن الزبير، و روى موطأ مالك بن أنس رواية أبى مصعب أحمد بن عبد الملك الزهرى عن إبراهيم بن سعيد الحذاء، و سمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيبانى و القزاز فى آخرين، و قدم الأندلس فكان الناس يرحلون إليه إلى تطيلة للسماع منه، و استقدمه المستنصر الحكم و هو ولى عهد فسمع منه أكثر مروياته، و سمع منه جماعة من أهل قرطبة، و كان ثقة مأمونا، ولى قضاء بلدة تطيلة إحدى مدائن الأندلس بعد عمر بن يوسف بن الإمام.

۲۵۶- و منهم سعد الخير بن محمد بن سعد، أبو الحسن، الأنصارى، البلنسى، المحدّث.

رحل إلى أن دخل الصين، و لذا كان يكتب البلنسي الصيني، و ركب البحار، و قاسى المشاق، و تفقه ببغداد على أبى حامد الغزالى، و سمع بها أبا عبد اللّه النعال و طرادا و غيرهما، و بأصبهان أبا سعد المطرز، و سكنها و تزوّج بها و ولدت له فاطمة بها، ثم سكن بغداد، و روى عنه ابن عساكر و ابن السمعانى و أبو موسى المدينى و أبو اليمن الكندى و أبو الفرج بن الجوزى و ابنته فاطمة بنت سعد الخير فى آخرين، و تأدب على أبى زكريا التبريزى، و توفى فى المحرم سنة ۵۴۱، رحمه اللّه تعالى! ببغداد، و صلى عليه الغزنوى و الشيخ الواعظ بجامع القصر، و كان وصيه، و حضر جنازته قاضى القضاة الزينبى و الأعيان، و دفن إلى جانب عبد اللّه بن الإمام أحمد بن حنبل رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين بوصية منه.

۲۵۷- و منهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون، الإستجى.

سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ و ابن أبى دليم و غيرهما، و رحل فسمع بمكة من ابن الأعرابى، و ببغداد من أبى على الصفار و جماعة، و بها مات.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۸

۲۵۸- و منهم أبو عثمان سعيد الأعناقى، و يقال: العناقى، القرطبى.

كان ورعا زاهدا عالما بالحديث بصيرا بعلله، سمع من محمد بن وضاح و صحبه و من يحيى بن إبراهيم بن مزين و محمد بن عبد السلام الخشنى و غيرهم، و رحل فلقى جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق كتب عنه مسند أسد بن موسى و غير ذلك من كتبه، و يونس بن عبد الأعلى و محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم و الحارث بن مسكين فى آخرين، و حدث عنه أحمد بن خالد و ابن أيمن و محمد بن قاسم و ابن أبى زيد فى عدد كثير، و مولده سنة ۲۳۳، و توفى سنة ۳۰۵ بصفر.

و الأعناقى: نسبة إلى موضع يقال له أعناق و عناق.

۲۵۹- و منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف، التجيبى، الإقليشى.

روى عن أبى عثمان سعيد بن سالم المجريطى و أبى ميمونة دارس بن إسماعيل فقيه فاس، و رحل حاجا سنة ۳۴۹، فسمع بمكة من أبى بكر الآجرى و أبى حفص الجمحى، و بمصر من أبى إسحاق بن شعبان، و روى عنه كتاب «الزاهى» جميعه و قد قرىء عليه جميعه، و حمل عنه، و مولده سنة ۳۰۳ رحمه اللّه تعالى!

۲۶۰- و منهم أبو الأصبع عبد العزيز بن على، المعروف بابن الطحان، الإشبيلى، المقرى.

ولد بإشبيلية سنة ۴۹۸، و رحل فدخل مصر و الشام و حلبا، و توفى بحلب بعد سنة ۵۵۹، و له كتاب «نظام الأداء، فى الوقف و الابتداء» و مقدمة فى مخارج الحروف، و مقدمة فى أصول القراءات، و كتاب «الدعاء» و كان من القراء المجوّدين الموصوفين بالإتقان، و معرفة وجوه القراءات، و سمع الحديث على شريح بن محمد بن أحمد بن شريح الرعينى خطيب إشبيلية و أبى بكر يحيى بن سعادة القرطبى.

و له شعر حسن منه قوله: [بحر الهزج]

دع الدنيا لعاشقها سيصبح من رشائقها

و عاد النفس مصطبرا و نكّب عن خلائقها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۲۹

هلاك المرء أن يضحى مجدّا فى علائقها

و ذو التقوى يذللها فيسلم من بوائقها

و أخذ القراءات ببلده عن أبى العباس بن عيشون و شريح بن محمد، و روى عنهما و عن أبى عبد اللّه بن عبد الرزاق الكلبى، و روى مصنف النسائى عن أبى مروان بن مسرة، و تصدى للإقراء، ثم انتقل إلى فاس، و حج و دخل العراق، و قرأ بواسط القراءات و أقرأها أيضا، و دخل الشام و اشتهر ذكره، و جل قدره، و روى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلى الحافظ، و على بن يونس، قال بعضهم: سمعت غير واحد يقول: ليس بالغرب أعلم بالقراءات من ابن الطحان، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبى العلاء و أبو طالب بن عبد السميع و غيرهما، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۲۶۱- و منهم أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف، المعافرى.

قدم مصر سنة ۵۰۲، و ولد سنة ۴۴۸، و حدث بالموطإ عن سليمان بن أبى القاسم، أنبأنا أبو عمر بن عبد البر، أنبأنا سعيد بن نصر، عن قاسم بن أصبغ عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة، رضى اللّه تعالى عنه!.

۲۶۲- و منهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد اللّه بن ثعلبة، السعدى، الشاطبى.

قدم مصر و دمشق طالب علم، و سمع أبا الحسن بن أبى الحديد و أبا منصور العكبرى و غيرهما، و صنف غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم، و سمعه عليه أبو محمد الأكفانى، و توفى بأرض حوران من أعمال دمشق فى رمضان سنة ۴۶۵، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه!.

۲۶۳- و منهم الحكيم الطبيب أبو الفضل محمد بن عبد المنعم، الغسانى، الجليانى.

و هو عبد المنعم بن عمر بن عبد اللّه بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسان، ولد بقرية جليانة من أعمال غرناطة سابع المحرم سنة ۵۳۱، و قدم إلى القاهرة، و سار إلى دمشق فسكنها مدّة، ثم سافر إلى بغداد فدخلها سنة ۶۰۱، و نزل بالمدرسة النظامية، و كتب الناس عنه كثيرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۰

من نظمه، و كان أديبا فاضلا، له شعر مليح المعانى أكثره فى الحكم و الإلهيات و آداب النفوس و الرياضات، و كان طبيبا حاذقا، و له رياضات و معرفة بعلم الباطن، و له كلام مليح على طريق القوم، و كان مليح السّمت، حسن الأخلاق، لطيفا، حاضر الجواب، و مات بدمشق سنة ۶۰۲، و كان يقال له: حكيم الزمان، و أراد القاضى الفاضل أن يغضّ منه فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب: كم بين جليانة و غرناطة؟ فقال: مثل ما بين بيسان و بيت المقدس.

و من شعره قوله: [بحر الطويل]

خبرت بنى عصرى على البسط و القبض و كاشفتهم كشف الطبائع بالنبض

فأنتج لى فيهم قياسى تخلّيا عن الكل إذ هم آفة الوقت و العرض

ألازم كسر البيت خلوا، و إن يكن خروج ففردا ملصق الطّرف بالأرض

أرى الشخص من بعد فأغضى تغافلا كمشدوه بال فى مهمته يمضى

و يحسبنى فى غفلة و فراستى على الفور من لمحى بما قد نوى تقضى

أجانبهم سلما ليسلم جانبى و ليس لحقد فى النفوس و لا بغض

تخليت عن قومى و لو كان ممكنى تخليت عن بعضى ليسلم لى بعضى

و قال: [بحر الكامل]

قالوا نراك عن الأكابر تعرض و سواك زوّار لهم متعرّض

قلت الزيارة للزمان إضاعة و إذا مضى زمن فما يتعوض

إن كان لى يوما إليهم حاجة فبقدر ما ضمن القضاء نقيّض

و قال: [بحر الكامل]

حاول مفازك قبل أن يتحولا فالحال آخرها كحالك أولا

إن المنى من المنية لفظه لتدل فى أصل البناء على البلا

و سماه بعضهم عبد المنعم، و ذكره العماد فى «الخريدة» و قال: هو صاحب البديع البعيد، و التوشيح و الترشيح، و الترصيع و التصريع، و التجنيس و التطبيق، و التوفيق و التلفيق،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۱

و التقريب و التقرير، و التعريف و التعريب، و هو مقيم بدمشق، و قد أتى العسكر المنصور الناصرى سنة ۵۸۶ بظاهر ثغر عكا، و كتب إلى السلطان صلاح الدين و قد جرح فرسه: [بحر الطويل]

أيا ملكا أفنى العداة حسامه و منتجعا أقنى العفاة ابتسامه

لقاؤك يوما فى الزمان سعادة فكيف بثاو فى حماك حمامه

و عبدك شاك دينه و هو شاكر نداك الذى يغنى الغمام غمامه

ولى فرس أصماه سهم فردّه أثافىّ ربع بالثلاث قيامه

تعمر فيه بالجراحة ساحة و عطل منه سرجه و لجامه

أتينا لما عودتنا من مكارم يلوذ بها الراجى فيشفى غرامه

فرحماك غوث لا يغيب نصيره و نعماك غيث لا يغبّ انسجامه

و له رحمه اللّه تعالى غير هذا، و ترجمته واسعة.

[۲۶۴ عبد الوهاب بن محمد القرطبى،]

۲۶۴- و منهم الأستاذ أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس القرطبى، مؤلف «المفتاح» فى القراءات، و مقرئ أهل قرطبة رحل و قرأ القراءات على أبى على الأهوازى، و بحرّان على أبى القاسم الرّيدى، و بمصر على أبى العباس بن نفيس، و بمكة على أبى العباس الكازرينى، و سمع بدمشق من أبى الحسن بن السمسار، و كان عجبا فى تحرير القراءات و معرفة فنونها، و كانت الرحلة إليه فى وقته، ولد سنة ۴۰۳، و مات فى ذى القعدة سنة ۴۶۱، قرأ عليه أبو القاسم خلف بن النحاس و جماعة، رحمه اللّه تعالى!.

[۲۶۵- عبيد اللّه بن المظفر الباهلى]

۲۶۵- و منهم عبيد اللّه، و قيل: عبد اللّه، بغير تصغير، ابن المظفر بن عبد اللّه بن محمد، أبو الحكم، الباهلى، الأندلسى.

ولد بالمرية سنة ۴۸۶، و حج سنة ۵۱۶ و حج أيضا سنة ۵۱۸، و دخل دمشق و قرأ بصعيد مصر و بالإسكندرية، ثم مضى إلى العراق، و أقام ببغداد يعلم الصبيان و خدم السلطان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۲

محمود بن ملك شاه سنة ۵۲۱، و أنشأ له فى معسكره مارستانا ينقل على أربعين جملا، فكان طبيبه، ثم عاد إلى دمشق و مات بها سنة ۵۴۹، و دفن بباب الفراديس، و كان ذا معرفة بالأدب و الطب و الهندسة، و له ديوان شعر سماه «نهج الوضاعة، لأولى الخلاعة» ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصورى و نصر الهيتى و غيرهما كعرقلة، و فيه نزهات أدبية، و مفاكهات غريبة، ممزوج جدها بسخفها، و هزلها بظرفها، ورثى فيه أنواعا من الدواب و أنواعا من الأثاث و خلقا من المغنين و الأطراف، و شرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبى الحكم الملقب بأفضل الدولة، و كان كثير الهزل و المداعبة، دائم اللهو و المطايبة، و كان إذا أتاه الغلام و ما به شىء فيجس نبضه ثم يقول له: تصلح لك الهريسة، و كان أعور فقال فيه عرقلة: [بحر السريع]

لنا طبيب شاعر أعور أراحنا من طبّه اللّه

ما عاد فى صبحة يوم فتى إلا وفى باقيه رثّاه

و له أيضا يرثيه: [بحر البسيط]

يا عين سحّى بدمع ساكب و دم على الحكيم الذى يكنى أبا الحكم

قد كان لا رحم الرحمن شيبته و لا سقى قبره من صيّب الدّيم

شيخا يرى الصلوات الخمس نافلة و يستحلّ دم الحجاج فى الحرم

و من كنايات أبى الحكم المستحسنة قوله: [بحر الوافر]

أ لم ترنى أكابد فيك وجدى و أحمل منك ما لا يستطاع

إذا ما أنجم الجوّ استقلت و مال الدلو و ارتفع الذراع

و من شعره قوله: [بحر السريع]

محاسن العالم قد جمعت فى حسنه المستكمل البارع

(و ليس للّه بمستنكر أن يجمع العالم فى الجامع)

۲۶۶- و منهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافى، الغرناطى، القيسانى.

و قيسانة من عمل غرناطة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۳

الفقيه المالكى ولد سنة ۵۶۴، و قدم القاهرة و ناب فى الحسبة، و له شعر حسن توفى بالقاهرة سنة ۶۳۴، رحمه اللّه تعالى!.

۲۶۷- و منهم طالوت بن عبد الجبار، المعافرى، الأندلسى.

دخل مصر، و حج و لقى إمامنا مالك بن أنس رضى اللّه تعالى عنه، و عاد إلى قرطبة، و كان ممن خرج على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن من أهل ربض شقندة يريد خلعه و إقامة أخيه المنذر، و زحفوا إلى قصره بقرطبة، فحاربهم، و قتلهم، و فر من بقى منهم، فاستتر الفقيه طالوت عاما عند يهودى، ثم ترامى على صديقه أبى البسّام الكاتب ليأخذ له أمانا من الحكم، فوشى به إلى الحكم، و أحضره إليه فعنفه و وبخه، فقال له: كيف يحل لى أن أخرج إليك و قد سمعت مالك بن أنس يقول: سلطان جائر مدة خير من فتنة ساعة؟ فقال: اللّه تعالى لقد سمعت هذا من مالك؟ فقال طالوت: اللهم إنى قد سمعته، فقال: انصرف إلى منزلك و أنت آمن، ثم سأله: أين أستتر؟ فقال: عند يهودى مدة عام، ثم إنى قصدت هذا الوزير فغدر بى، فغضب الحكم على أبى البسّام و عزله عن وزارته، و كتب عهدا أن لا يخدمه أبدا، فرئى أبو البسام بعد ذلك فى فاقة و ذل، فقيل: استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت، رحمه اللّه تعالى!.

[۲۶۸ ابن خروف علی بن محمد (ابن خروف) القیسی]

۲۶۸- و منهم أبو الحسن علی بن محمد بن علی بن محمد، ضیاء الدین و نظامه، ابن خروف الأدیب، القیسی، القرطبی، القیذافی، الشاعر قدم إلی مصر، ثم سار إلی حلب و مات بها متردیا فی جب حنطة سنة ۶۰۳ و قیل: فی التی بعدها، و قیل: سنة خمس و ستمائة، و له شرح کتاب سیبویه، و حمله إلی صاحب المغرب فأعطاه ألف دینار، و له شرح جمل الزجاجی، و کتب فی الفرائض و ردّ علی أبی زید السهیلی، و غیر ذلک، و مدح الأفضل ابن السلطان صلاح الدین و مدح الظاهر بن الناصر أیضا.

و شعره جید، فمنه قوله فی کأس: [بحر مجزوء الرمل]

أنا جسم للحمیّا و الحمیّا لی روح

بین أهل الظرف أغدو کل یوم و أروح

و قال فی صبیّ حبس: [بحر الوافر]

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۳، ص: ۲۳۴

أقاضی المسلمین حکمت حکما غدا وجه الزمان به عبوسا

حبست علی الدراهم ذا جمال و لم تسجنه إذ سلب النفوسا

و قال: [بحر البسیط]

ما أعجب النیل ما أحلی شمائله فی ضفّتیه من الأشجار أدواح

من جنة الخلد فیاض علی ترع تهب فیها هبوب الریح أرواح

لیست زیادته ماء کما زعموا و إنما هی أرزاق و أرباح

و القیذافی: بقاف، ثم یاء آخر الحروف، بعدها ذال معجمة، ثم ألف، وفاء.

و له رسالة کتب بها إلی بهاء الدین بن شداد بحلب یطلب منه فروة، و هی: [بحر الهزج]

بهاء الدین و الدنیا و نور المجد و الحسب

طلبت مخافة الأنوا ء من جدواک جلد أبی

و فضلک عالم أنی خروف بارع الأدب

حلبت الدهر أشطره و فی حلب صفا حلبی

ذو الحسب الباهر، و النسب الزاهر، یسحب ذیول سیر السیراء، و یحبّ النحاة من أجل القرّاء، و یمن علی الخروف النبیه، بجلد أبیه، قانی الصباغ، قریب عهد بالدباغ، ما ضل طالب قرظه و لا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه و ضاع، إذا طهر إهابه، یخافه البرد و یهابه، أثیث خمائل الصوف، یهزأ بکل هوجاء عصوف، ما فی اللباس له ضریب، إذا نزل الجلید و الضریب، و لا فی الثیاب له نظیر، إذا عری من ورقه الغصن النّضیر، و المولی یبعثه فرجی النوع، أرجی الضوع، یکون تارة لحافا و تارة بردا، و هو فی الحالین یحیی حرّا و یمیت بردا، لا کطیلسان ابن حرب، و لا کجلد عمرو الممزق بالضرب، إن عزاه السواد إلی حام فحام، أو نماه البیاض إلی سام فسام، کأنه من جلد جمل الحرباء، الذی یرعی القمر و النجم، لا من جلد السّیخلة الجرباء، التی ترعی الشجر و النجم، لا زال مهدیه سعیدا، ینجز للأخیار وعدا و للأشرار وعیدا، بالمنة و الطول، و القوة و الحول.

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۳، ص: ۲۳۵

[۲۶۹- مالک بن مالک الجیانی]

۲۶۹- و منهم مالك بن مالك، من أهل جيان، رحل حاجا فأدى الفريضة، و سكن حلبا، و لقى عبد الكريم بن عمران، و أنشد له قوله: [بحر البسيط]

يا رب خذ بيدى مما دفعت له فلست منه على ورد و لا صدر

الأمر ما أنت رائيه و عالمه و قد عتبت و لا عتب على القدر

من يكشف السوء إلا أنت بارئنا و من يزيل بصفو حالة الكدر

۲۷۰- و منهم أبو على بن خميس، و هو منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم، اللخمى من أهل المرية.

سمع من أبى عبد اللّه البونى و ابن صالح، و أخذ عنهما القراءات، و روى أيضا عن الحافظ القاضى أبى بكر بن العربى، و أبوى القاسم ابن رضا و ابن ورد و أبى محمد الرشاطى و أبى الحجاج القضاعى و أبى محمد عبد الحق بن عطية و أبى عمرو الخضر بن عبد الرحمن و أبى القاسم عبد الحق بن محمد الخزرجى و غيرهم، و رحل حاجا فنزل الإسكندرية، و سمع منه أبو عبد اللّه بن عطية الدانى سنة ۵۹۶، و حدث عنه بالإجازة أبو العباس العزفى و غيره.

۲۷۱- و منهم منصور بن لبّ بن عيسى، الأنصارى.

من أهل المرية، يكنى أبا على، أخذ القراءات ببلده عن ابن خميس المذكور قبله، و رحل بعده، فنزل الإسكندرية، و أجازه أبو الطاهر السّلفى فى صغره، و قد أخذ عنه فيما ذكر بعضهم، و مولده سنة ۵۷۱ رحمه اللّه تعالى!.

۲۷۲- و منهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج، المعافرى.

من أهل قرطبة، و هو جد ابن مفرج صاحب كتاب «الاحتفال، بعلم الرجال» صحب المذكور محمد بن وضاح فى رحلته الثانية، و شاركه فى كثير من رجاله، و صدر عن المشرق معه، فاجتهد فى العبادة، و انتبذ عن الناس، ثم كر راجعا إلى مكة عند موت ابن وضاح، فنزلها و استوطنها إلى أن مات، فقبره هنالك.

و قال فى حقه أبو عمر عفيف: إنه كان من الصالحين، رحل فحج و جاور بمكة نحو عشرين سنه إلى أن مات بها، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۶

۲۷۳- و منهم محب بن الحسين، من أهل الثغر الشرقى

، كانت له رحلة حج فيها، و سمع بالقيروان من أبى عبد اللّه بن سفيان الكنانى «الهادى فى القراءات» من تأليفه و كان رجلا صالحا، حدث عنه أبو عبد اللّه محمد بن عبد الملك التجيبى من شيوخ أبى مروان بن الصيقل.

۲۷۴- و منهم مساعد بن أحمد بن مساعد، الأصبحى.

من أهل أوريولة، يكنى أبا عبد الرحمن، و يعرف بابن زعوقة، روى عن ابن أبى تليد و ابن جحدر، و الحافظين أبى على الصدفى و أبى بكر بن العربى، و كتب إليه أبو بكر بن غالب بن عطية، و رحل حاجا فى سنة أربع و تسعين و أربعمائة، فأدى الفريضة سنة خمس بعدها، و لقى بمكة أبا عبد اللّه الطبرى، فسمع منه صحيح مسلم، مشتركا فى السماع مع أبى محمد بن جعفر الفقيه، و لقى أبا محمد بن العرجاء و أبا بكر بن الوليد الطرطوشى و أصحاب الإمام أبى حامد الغزالى و أبا عبد اللّه المازرى و جماعة سواهم ساوى بلقائهم مشيختهم، و انصرف إلى بلده فسمع منه الناس، و أخذوا عنه لعلو روايته، و كان من أهل المعرفة و الصلاح و الورع، و ممن حدث

عنه من الجلة أبو القاسم بن بشكوال و أبو الحجاج الثغرى الغرناطى، و أبو محمد عبد المنعم بن الفرس و غيرهم، و أغفله ابن بشكوال فلم يذكره فى الصلة مع كونه روى عنه، و قال تلميذه أبو الحجاج الثغرى الغرناطى: أخبرنى أبو سليمان بن حوط اللّه و غيره عنه، قال: أخبرنى الحاج أبو عبد الرحمن بن مساعد رضى اللّه تعالى عنه: أنه لقى بالمشرق امرأة تعرف بصباح عند باب الصفا، و كان يقرأ عليها بعض التفاسير، فجاء بيت شعر شاهد، فسألت: هل له صاحب، فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء، فقال الشيخ: لا أذكر له صاحبا، فأنشدت: [بحر الخفيف]

طلعت شمس من أحبّك ليلا و استضاءت فما لها من مغيب

إن شمس النهار تغرب باللى ل و شمس القلوب دون غروب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۷

ولد فى صفر سنة ۴۶۸، و توفى بأوريولة سنة ۵۴۵، قاله ابن شعبان.

۲۷۵- و منهم أبو حبيب نصر بن القاسم.

قال ابن الأبار: أظنه من أهل غرناطة، له رحلة حج فيها، و سمع من أبى الطاهر السّلفى، و حدث عنه عن ابن فتح بمسند الجوهرى، انتهى.

۲۷۶- و منهم النعمان بن النعمان، المعافرى.

من أهل ميورقة منسوب إلى جده، رحل حاجا فأدى الفريضة و جاور بمكة ثم قفل إلى بلده، و اعتزل الناس، و كان يشار إليه بإجابة الدعوة، و توفى سنة ۶۱۶ رحمه اللّه تعالى! و نفعنا به!.

۲۷۷- و منهم نعم الخلف بن عبد اللّه بن أبى ثور، الحضرمى.

من أهل طرطوشة أو ناحيتها، رحل إلى المشرق، و أدى الفريضة، و لقى بمكة أبا عبد اللّه الأصبهانى، فسمع منه سنة ۴۲۲، حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف بيسير.

۲۷۸- و منهم نابت- بالنون- ابن المفرج بن يوسف، الخثعمى.

أصله من بلنسية، و سكن مصر، يكنى أبا الزهر، قال السّلفى: قدم مصر بعد خروجى منها، و تفقه على مذهب الشافعى، و تأدب، و قال الشعر الفائق، و كتب إلى بشىء من شعره، و مات فى رجب سنة ۵۴۵ بمصر.

۲۷۹- و منهم ضمام بن عبد اللّه، الأندلسى.

رجل إلى المشرق، و دخل بغداد، و هو ممن يروى عن عبد السلام بن مسلم الأندلسى، و ممن روى عن ضمام أبو الفرج أحمد بن القاسم الخشاب البغدادى من شيوخ الدارقطنى، قال ابن الأبار: هكذا وقع فى نسخة عتيقة من تأليف الدارقطنى فى الرواة عن مالك فى باب مسلمة منه ضمام- بالضاد المعجمة- و هكذا ثبت فى رواية أبى زكريا بن مالك بن عائذ عن الدارقطنى، و قال فيه غيره: همّام بن عبد اللّه- بالهاء و تشديد الميم- و فى حرف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۸

الهاء أثبته أبو الوليد بن الفرضى من تاريخه، و الأول عندى أصح، و اللّه تعالى أعلم، انتهى.

[۲۸۰- ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبى فريعة]

۲۸۰- و منهم ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبى فريعة، و اسمه زيد، مولى عبد الرحمن بن معاوية و الداخل معه إلى الأندلس، من أهل لبلة، له رحلة إلى المشرق، و كان فقيها، ذكره الرازى.

۲۸۱- و منهم عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن عامر بن أبى عامر، المعافرى.

من أهل قرطبة، و أصله من الجزيرة الخضراء، و هو والد المنصور بن أبى عامر و يكنى أبا حفص، سمع الحديث، و كتبه عن محمد بن عمر بن لبابة و أحمد بن خالد و محمد بن فطيس و غيرهم، و رحل إلى المشرق فأدى الفريضة، و كان من أهل الخير و الدين و الصلاح و الزهد و القعود عن السلطان، أثنى عليه الراوية أبو محمد الباجى و قال: كان لى خير صديق أنتفع به و ينتفع بى، و أقابل معه كتبه و كتبى، و مات منصرفه من حجه، و دفن بمدينة طرابلس المغرب، و قيل: بموضع يقال له رقّادة، و كان رجلا عالما صالحا، و قال بعضهم: إنه توفى فى آخر خلافة عبد الرحمن الناصر.

۲۸۲- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن حمود، الزبيدى، الإشبيلى، ابن عم أبى بكر محمد بن الحسن، الزبيدى، اللغوى.

كان من مشاهير أصحاب أبى على البغدادى، و رحل إلى المشرق فلم يعد إلى الأندلس، و لازم السيرافى فى بغداد إلى أن توفى، فلازم بعده صاحبه أبا على الفارسى ببغداد و العراق، و حيثما جال، و اتبعه إلى فارس، و حكى أبو الفتوح الجرجانى أن أبا على البغدادى غلّس لصلاة الصبح فى المسجد، فقام إليه أبو محمد الزبيدى من مذود كان لدابته خارج الدار قد بات فيه أو أدلج إليه ليكون أول وارد عليه، فارتاع منه، و قال: و يحك! من تكون؟ قال: أنا عبد اللّه الأندلسى، فقال له: إلى كم تتبعنى؟ و اللّه إنه ليس على وجه الأرض أنحى منك، و كان من كبار النحاة و أهل المعرفة التامة و الشعر، و جمع شرحا لكتاب سيبويه، و يقال: إنه توفى ببغداد سنة ۳۷۳.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۳۹

۲۸۳- و منهم عبد اللّه بن رشيق، القرطبى.

رحل من الأندلس، فأوطن القيروان، و اختص بأبى عمران الفاسى، و تفقه به، و كان أديبا شاعرا عفيفا خيرا، و فى شيخه أبى عمران أكثر شعره، و رحل حاجا فأدى الفريضة، و توفى فى انصرافه بمصر سنة ۴۱۹، و أنشد له ابن رشيق فى «الأنموذج» قوله رحمه اللّه تعالى: [بحر مجزوء الخفيف]

خير أعمالك الرضا بالمقادير و القضا

بينما المرء ناضر قيل: قد مات و انقضى

و قوله: [بحر الطويل]

سأقطع حبلى من حبالك جاهدا و أهجر هجرا لا يجر لنا عرضا

و قد يعرض الإنسان عمن يوده و يلقى ببشر من يسرّ له البغضا

قال فى «الأنموذج»: و أراد الحج فناله وجع فمات بمصر بعد اشتهاره فيها بالعلم و الجلالة، و قد بلغ عمره نحو الأربعين سنة، رحمه اللّه تعالى! و هو مخالف لما قدمناه من أنه أدى الفريضة، و قد ذكر ابن الأبار العبارتين، و اللّه تعالى أعلم.

۲۸۴- و منهم أبو بكر اليابرى، و يكنى أيضا أبا محمد، و هو عبد اللّه بن طلحة بن محمد بن عبد اللّه.

أصله من يابرة، و نزل هو إشبيلية، و روى عن أبى الوليد الباجى و عن جماعة بغرب الأندلس منهم أبو بكر بن أيوب و أبو الحزم بن عليم و أبو عبد اللّه بن مزاحم البطليوسيّون و غيرهم، و كان ذا معرفة بالنحو و الأصول و الفقه و حفظ التفسير و القيام عليه، و حلّق به مدّة بإشبيلية و غيرها، و هو كان الغالب عليه مع القصص فيسرد منه جملا على العامّة، و كان متكلما، و له رد على أبى محمد بن حزم، و كان أحد الأئمة بجامع العديس، و رحل إلى المشرق، فروى عن أبى بكر محمد بن زيدون بن على كتابه المؤلف فى الحديث المعروف بالزيدونى، و ألف كتابا فى شرح صدر رسالة ابن أبى زيد، و بين ما فيها من العقائد، و له

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۰

مجموعة فى الأصول و الفقه منها كتاب سماه «المدخل» إلى كتاب آخر سماه «سيف الإسلام، على مذهب مالك الإمام» ألفه للأمير على بن تميم بن المعز الصّنهاجى صاحب المهدية، و ذكر فى فصل الحج منه أنه رحل إلى المهدية سنة ۵۱۵، و استوطن مصر مدة، ثم رحل إلى مكة، و بها توفى رحمه اللّه تعالى! و روى عنه أبو المظفر الشيبانى و أبو محمد العثمانى و أبو الحجاج يوسف بن محمد القيروانى و أبو عمرو عثمان بن فرج العبدرى و أبو محمد بن صدقة للمنكبى و أبو عبد بن يعيش البلنسى و غيرهم، و كان سماع أبى الحجاج منه موطأ مالك سنة ۵۱۶، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۲۸۵- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن مرزوق، اليحصبى، الأندلسى.

رحل حاجا فسمع منه بالإسكندرية أبو الطاهر السّلفى كتاب «طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد بن أحمد الطليطلى، و حدّث به عنه عن ابن برأل عن صاعد.

۲۸۶- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد، الصريحى، المرسى، و يعرف بابن مطحنة

روى عن أبى بكر بن الفرضى النحوى، و تأدب به، و رحل إلى المشرق، و لقى أبا محمد العثمانى و غيره، و حج، و قعد لتعليم الآداب، و ممن أخذ عنه أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام و أبو عبد اللّه المكناسى و غيرهما، و أنشد رحمه اللّه تعالى قال: أنشدنى أبو محمد عبد اللّه بن البيّاسى بالإسكندرية لنفسه: [بحر الوافر]

يمدّ الدهر من أجلى و عمرى كما أنى أمد من المداد

لنا خطان مختلفان جدا كما اختلف الموالى و المعادى

فأكتب بالسواد على بياض و يكتب بالبياض على السواد

و هذا نظير قول الآخر: [بحر الوافر]

ولى خط و للأيام خط و بينهما مخالفة المداد

فأكتبه سوادا فى بياض و تكتبه بياضا فى سواد

و بعضهم ينسب الأبيات الثلاثة السابقة للسّلفى الحافظ، فاللّه تعالى أعلم.

۲۸۷- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن عيسى، الشّلبى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۱

سمع من الصدفى و غيره، و كان من أهل الحفظ للحديث و رجاله و العلم بالأصول و الفروع و مسائل الخلاف و علم العربية و الهيئة

مع الخير و الدين و الزهد، و امتحن بالأمراء فى قضاء بلده بعد أن تقلده نحو تسعة أعوام لإقامته الحق و إظهاره العدل حتى أدى ذلك إلى اعتقاله بقصر إشبيلية، ثم سرح فرحل حاجا إلى المشرق، و دخل المهدية فلقى بها المازرى، و أقام فى صحبته نحو ثلاث سنين، ثم انتقل إلى مصر، و حج سنة ۵۲۷، و أقام بمكة مجاورا، و حج ثانية سنة ۵۲۸، و لقى بمكة أبا بكر عتيق بن عبد الرحمن الأوريولى فى هذه السنة، فحمل عنه، و دخل العراق و خراسان، و أقام بها أعواما، و طار ذكره فى هذه البلاد، و عظم شأنه فى العلم و الدين، و كان من بيت شرف و جاه فى بلده عريض مع سعة الحال و المال، و توفى بهراة سنة ۵۵۱، و قيل: إن وفاته سنة ۵۴۸، و ذكره العماد فى «الخريدة» و السمعانى فى الذيل، و أنشد له: [بحر الطويل]

تلوّنت الأيام لى بصروفها فكنت على لون من الصبر واحد

فإن أقبلت أدبرت عنها و إن نأت فأهون بمفقود لأكرم فاقد

و ولد سنة ۴۸۴ بشلب، رحمه اللّه تعالى!.

۲۸۸- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن موسى، الأزدى، المرسى، و يعرف بابن برطلة.

سمع من صهره القاضى الشهيد أبى على الصدفى، و رحل حاجا سنة ۵۱۰، فأدى الفريضة و سمع من الطرطوشى و الأنماطى و السّلفى و غيرهم، و انصرف إلى مرسية بلده، و كان حسن السّمت خاشعا مخبتا خيرا متواضعا نبيها نزها سالم الباطن، و حكى عن شيخه أبى عبد اللّه الرازى عن أبيه أنه أخبره أن قاضى البرلس، و كان رجلا صالحا، خرج ذات ليلة إلى النّيل فتوضأ و أسبغ وضوءه، ثم قام فقرن قدميه و صلى ما شاء اللّه تعالى أن يصلى، فسمع قائلا يقول: [بحر البسيط]

لولا أناس لهم سرد يصومونا و آخرون لهم ورد يقومونا

لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال: فتجوّزت فى صلاتى، و أدرت طرفى فما رأيت شخصا و لا سمعت حسا، فعلمت أن ذلك زاجر من اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۲

و قال ابن برطلة رحمه اللّه تعالى: أنشدنى أبو عامر قال: دخلت بعض مراسى الثغر، فوجدت فى حجر منقوش هذه الأبيات: [بحر المتقارب]

نزلت ولى أمل عودة و لكننى لست أدرى متى

و دافعنى قدر لم أطق دفاعا لمكروهه إذ أتى

و من أمره فى يدى غيره سيغلب إن لان أو إن عتا

فيا نازلا بعدنا ههنا نحييك إن كنت نعم الفتى

فسألت عن منشدها، فقيل لى: هو أبو بكر بن أبى درهم الوشقى، و كان قد حج و أراد العودة، فقال هذه الأبيات، و رواها بعضهم «رحلت» مكان نزلت، و هو أصوب، و أبدل قوله:

«يا نازلا» بيا ساكنا، و الخطب سهل فيه، و بعض يقول: إن الأبيات وجدت بجامع مصر، و اللّه تعالى أعلم.

۲۸۹- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن خلف بن سعادة، الدانى، الأصبحى.

لازم ابن سعد الخير، و احتذى أول أمره مثال خطه فقاربه، و سمع منه، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبى الطاهر بن عوف و السّلفى و غير واحد. قال التجيبى: كان معنا بالإسكندرية بالعادلية منها، و بقراءته سمعنا صحيح البخارى على السلفى سنة ۵۷۳، قال: و أنشدنا لشيخه الأستاذ أبى الحسن على بن إبراهيم بن سعد الخير البلنسى: [بحر الكامل]

يا لاحظا تمثال نعل نبيه قبّل مثال النعل لا متكبرا

و الثم له فلطالما عكفت به قدم النبى مروّحا و مبكرا

أولا ترى أن المحب مقبل طللا و إن لم يلف فيه مخبرا

و قد سبق ابن سعادة أبو عبد اللّه و هو غير هذا، و اللّه تعالى أعلم!.

۲۹۰- و منهم أبو محمد عبد اللّه بن يوسف، القضاعى، المرى.

سمع من أبى جعفر بن غزلون صاحب الباجى و غير واحد، و رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من السّلفى و الرازى، و تجول هنالك، و أخذ عنه أبو الحسن بن المفضل المقدسى و غير واحد، و قال ابن المفضل: أنشدنى المذكور، قال: أنشدنى أبو محمد بن صارة: [بحر البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۳

و كوكب أبصر العفريت مسترقا للسمع فانقضّ يدنى خلفه لهبه

كفارس حلّ إعصار عمامته فجرها كلها من خلفه عذبه

۲۹۱- و منهم شهاب الدين أحمد بن عبد اللّه بن مهاجر، الوادى آشى، الحنفى.

سكن طرابلس الشام، ثم انتقل إلى حلب، و أقام بها، و صار من العدول المبرزين فى العدالة بحلب، يعرف النحو و العروض، و يشتغل فيهما، و له انتماء إلى قاضى القضاة الناصر بن العديم، قال الصفدى: رأيته بحلب أيام مقامى بها سنة ۷۲۳ فرأيته حسن التودد، و أنشدنى لنفسه من لفظه: [بحر الكامل]

ما لاح فى درع يصول بسيفه و الوجه منه يضىء تحت المغفر

إلا حسبت البحر مدّ بجدول و الشمس تحت سحائب من عنبر

قال الصفدى: جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد: [بحر المتقارب]

و لما اقتحمت الوغى دارعا و قنّعت وجهك بالمغفر

حسبنا محيّاك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر

و بين قول أبى بكر الرصافى: [بحر الكامل]

لو كنت شاهده و قد غشى الوغى يختال فى درع الحديد المسبل

لرأيت منه و القضيب بكفه بحرا يريق دم الكماة بجدول

و قال يمدح الشيخ كمال الدين محمد بن الزملكانى و قد توجه إلى حلب قاضى القضاة:

[بحر البسيط]

يمن ترنّم فوق الأيك طائره و طائر عمت الدنيا بشائره

و سؤدد أصبح الإقبال ممتثلا فى أمره ما أخوه العز آمره

و منها: [بحر البسيط]

من مخبر عنى الشهباء أن كما ل الدين قد شيّدت فيه مقاصره

و أن تقليده الزاهى و خلعته الت ى تطرّز عطفيها مآثره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۴

بالنفس أفديك من تقليد مجتهد سواه يوجد فى الدنيا مناظره

أنشدت حين أدار البشر كأس طلى حكت أوائله صفوا أواخره

و قد بدت فى بياض الطّرس أسطره سودا لتبدى ما أهدت محابره

ساق تكوّن من صبح و من غسق فابيض خداه و اسودت غدائره

و خلعة قلت إذ لاحت لتزرينا بالروض تطفو على نهر أزاهره

و قد رآها عدو كان يضمر لى من قبل سوءا فخانته ضمائره

ورام صبرا فأعيته مطالبه و غيّض الدمع فانهلّت بوادره

بعودة الدولة الغراء ثالثة أمنت منك و نام الليل ساهره

و قال أيضا: [بحر الوافر]

تسعر فى الوغى نيران حرب بأيديهم مهنّدة ذكور

و من عجب لظى قد سعرتها جداول قد أقلتها بدور

و قال ملغزا فى قالب لبن: [بحر المجتث]

ما آكل فى فمين يغوط من مخرجين

مغرى بقبض و بسط و ما له من يدين

و يقطع الأرض سعيا من غير ما قدمين

و خمس لامية العجم مدحا فى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، قال الصفدى: و لما كنت فى حلب كتب إلى أبياتا، انتهى.

۲۹۲- و منهم أبو جعفر أحمد بن صابر، القيسى.

قال أبو حيان: كان المذكور رفيقا للأستاذ أبى جعفر بن الزبير شيخنا، و كان كاتبا مترسلا شاعرا، حسن الخط، على مذهب أهل الظاهر، و كان كاتبا للأمير أبى سعيد فرج بن السلطان الغالب بالله بن الأحمر ملك الأندلس، و سبب خروجه من الأندلس أنه كان يرفع يديه فى الصلاة على ما صح فى الحديث، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد اللّه، فتوعده بقطع يديه، فضج من ذلك و قال: إن إقليما تمات فيه سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حتى يتوعد بقطع اليد من يقيمها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۵

لجدير أن يرحل منه، فخرج و قدم ديار مصر، و سمع بها الحديث، و كان فاضلا نبيلا، و من شعره: [بحر الطويل]

أتنكر أن يبيضّ رأسى لحادث من الدهر لا يقوى له الجبل الراسى

و كان شعارا فى الهوى قد لبسته فرأسى أميّ و قلبى عباسى

قلت: لو قال «شيبى» لكان الغاية.

و أنشد له بعضهم: [بحر الطويل]

فلا تعجبا ممن عوى خلف ذى علا لكل علىّ فى الأنام معاويه

قلت: لا يخفى ما فيه من عدم سلوك الأدب مع الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين و يرحم اللّه بعض الأندلسيين حيث قال فى رجز كبير: [بحر الرجز]

و من يكن يقدح فى معاويه فذاك كلب من كلاب عاويه

و أنشد أبو حيان للمذكور: [بحر المتقارب]

أرى الدهر ساد به الأرذلو ن كالسّيل يطفو عليه الغثا

و مات الكرام وفات المديح فلم يبق للقول إلا الرثا

و أنشد له أيضا: [بحر الخفيف]

لولا ثلاث هن و اللّه من أكبر آمالى فى الدنيا

حج لبيت اللّه أرجو به أن يقبل النيۀ و السعيا

و العلم تحصيلا و نشرا إذا رويت أوسعت الورى ريا

و أهل ود أسأل اللّه أن يمتع بالبقيا إلى اللقيا

ما كنت أخشى الموت أنّى أتى بل لم أكن ألتذ بالمحيا

و قال أبو حيان فى هذه المادۀ: [بحر الطويل]

أما إنه لولا ثلاث أحبها تمنيت أنى لا أعدّ من الأحيا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۶

فمنها رجائى أن أفوز بتوبۀ تكفر لى ذنبا و تنجح لى سعيا

و منهن صونى النفس عن كل جاهل لئيم فلا أمشى إلى بابه مشيا

و منهن أخذى بالحديث إذا الورى نسوا سنۀ المختار و اتبعوا الرأيا

أتترك نصا للرسول و تقتدى بشخص؟ لقد بدّلت بالرشد الغيا

۲۹۳- و منهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضى أبى الوليد الباجى.

سكن سرقسطۀ و غيرها، و روى عن أبيه معظم علمه، و خلفه بعد وفاته فى حلقته و غلب عليه علم الأصول و النظر، و له تآليف تدل على حذقه: منها «العقيدۀ، فى المذاهب السديدۀ» و رسالۀ «الاستعداد، للخلاص من المعاد» و كان غايۀ فى الورع، توفى بجدۀ بعد منصرفه من الحج سنۀ ۴۹۳، رحمه اللّه تعالى!.

۲۹۴- و منهم الإمام الفاضل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلى، الغرناطى.

قال العز بن جماعۀ: قدم علينا من المغرب سنۀ ۷۲۴، ثم رجع إلى المغرب فى هذه السنۀ، و بلغنا أنه توفى بمراكش سنۀ نيف و أربعين و سبعمائۀ، و أنشد والدى قصيدۀ من نظمه امتدحه بها، و أنا أسمع، و من خطه نقلت، و هى: [بحر الطويل]

قفا موردا عينا جرت بعدكم دما أناضى أسفار طوين على ظما

غدون أهلّات تناقل أنجما و رحن حنيات تفوّق أسهما

يجشمها الحادى الأمرين حسّرا و يوطئها الحادى الأحرّين هيّما

على منسميها للشقائق منبت و فى فمويها للشقاشق مرتمى

إلى أن قال: [بحر الطويل]

و تعسا لآمال جهام سحابها تزجّى ركاما ما استهلّ و لا همى

تجاذبها نفس تجيش نفيسۀ و من لم يجد إلا صعيدا تيمما

فهل ذمم يرعاه ليل طويته طوانى سرا بين جنبيه منهما

أقبل منه للبروق مباسما و أرشف من بهماء ظلمائه لمى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۷

إلى أن تجلّى من كنانة بدرها فعرس ركبى فى حماه و خيما

ثمال اليتامى حيث ليس مظلل و كهف الأيامى أيما عزّ مرتمى

و منها:

فيا كفه أ أنت أم غيث ديمة أسالت عبابا فى ثرى الجود عيلما

و يا سعيه يهنيك أجر ثنى به على معطفى علياه بردا مسهّما

قضى بمنى أوطار نفس كريمة و روّى صداها حين حل بزمزما

و ناداه داعى الحق حىّ على الهدى فأسرج طوعا فى رضاه و ألجما

فلله ما أهدى و أرشد و اهتدى و للّه ما أعطى و أوفى و أنعما

و منها:

أمتّ بآداب و علم كليهما أقاما لديك الدعى فرضا و ألزما

و هى طويلة.

۲۹۵- و من الراحلين من الأندلس الوليد بن هشام، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل فيما حكى بعض المؤرخين.

خرج من الأندلس على طريقة الفقر و التجرد، و وصل برقة برکوة لا يملك سواها فعرف بأبى ركوة، و أظهر الزهد و العبادة، و اشتغل بتعليم الصبيان و تلقينهم القرآن، و تغيير المنكر، حتى خدع البربر بقوله و فعله، و زعم أن مسلمة بن عبد الملك بشر بخلافته بما كان عنده من علم الحدثان، و كان يقال عن مسلمة: إنه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية، و أخرج لهم أرجوزة أسندها إلى مسلمة، و منها فى وصفه: [بحر الرجز]

و ابن هشام قائم فى برقه به ينال عبد شمس حقه

يكون فى بربرها قيامه و قرة العرب لها إكرامه

و اتفق أن قرة انحرفوا عن الحاكم فمالوا إليه، و حصروا معه مدينة برقة حتى فتحوها، و خطبوا له فيها بالخلافة، و كان قيامه فى رجب سنة ۳۹۷، فهزم عسكر باديس الصّنهاجى صاحب إفريقية و عسكر الحاكم بمصر، و أحيا أمره، و خاطبه بطانة الحاكم لكثرة خوفهم من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۴۸

سفك الحاكم الدماء، و رغبوه فى الوصول إلى أوسيم، و هو مكان بالجيزة قبالة القاهرة، فلما وصل إليها قام بمحاربته الفضل بن صالح القيام المشهور إلى أن هزم أبا ركوة، ثم جاء به إلى القاهرة، فأمر الحاكم أن يطاف به على جمل، ثم قتل صبرا فى ۱۳ رجب سنة ۳۹۹، و لما حصل فى يد الحاكم كتب إليه: [بحر الطويل]

فررت و لم يغن الفرار، و من يكن مع اللّه لم يعجزه فى الأرض هارب

و و اللّه ما كان الفرار لحاجة سوى فزعى الموت الذى أنا شارب

و قد قادنى جرمى إليك برمت ى كما اجتر ميتا فى رحى الحرب سالب

و أجمع كل الناس أنك قاتلى فيا ربّ ظنّ ربّه فيه كاذب

و ما هو إلا الانتقام و ينتهى و أخذك منه واجبا و هو واجب

و لأبى ركوة المذكور أشعار كثيرة، منها قوله: [بحر الكامل]

بالسيف يقرب كل أمر ينزح فاطلب به إن كنت ممن يفلح

و له: [بحر الطويل]

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه و ليس عليه أن يساعده الدهر

و قوله: [بحر السريع]

إن لم أجلها فى ديار العدا تملأ و عر الأرض و السهلا

فلا سمعت الحمد من قاصد يوما و لا قلت له أهلا

و له غير ذلك مما يطول، و خبره مشهور.

۲۹۶- و منهم أبو زكريا الطليطلى، يحيى بن سليمان.

قدم إلى الإسكندرية، ثم رحل إلى الشام و استوطن حلب، و له ديوان شعر أكثر فيه من المديح و الهجاء، قال بعض من طالعه: ما رأيته مدح أحدا إلا و هجاه، و له مصنفات فى الأدب، و من نظمه قوله: [بحر الكامل]

أرض سقت غيطانها أعطانها و زهت على كثبانها قضبانها

و منها:

فتكت بألباب الكماة فسيفها من طرفها و سنانها و سنانها

لم يبق شخص بالبسيطة سالما إلا سبى إنسانه إنسانها

و منها:

و تصاحبت و تجاوبت أطيارها و تداولت و تناولت ألحانها

و تنسمت و تبسمت أيامها و تهللت و تكللت أزمانها

بمديرها و منيرها و نميرها و معيرها حسنا جلاه عيانها

۲۹۷- و منهم أبو بكر يحيى بن عبد اللّه بن محمد، القرطبى، المعروف بالمغيلى.

سمع من محمد بن عبد الملك بن أيمن و قاسم بن أصبغ و غيرهما، و رحل فسمع من أبى سعيد بن الأعرابى، و كان بصيرا بالعربية و الشعر، و مؤلفا جيد النظر حسن الاستنباط، حدث، و توفى فجأة فى شهر ربيع الأول سنة ۳۶۲، قاله ابن الفرضى.

۲۹۸- و منهم الإمام المحدث أبو عبد اللّه محمد بن على بن محمد بن يحيى بن سلمة، الأنصارى، الغرناطى.

قدم المشرق و توفى بمصر سنة ۷۰۳ عن نحو خمسين سنة، بالبيمارستان المنصورى، قال قاضى القضاة عبد العزيز بن جماعة الكنانى فى كتابه «نزهة الألباب»: أنشدنا المذكور لنفسه بالقاهرة، بعد قدومه من مكة و المدينة، و قد رام أن يعود إليهما فلم يتيسر له: [بحر الطويل]

لئن بعدت عنى ديار الذى أهوى فقلبى على طول التباعد لا يقوى

فحدث رعاك اللّه عن عرب رامة فإنى لهم عبد على السّر و النجوى

فإن مت شوقا فى الهوى و صبابة فيا شرفى إن مت فى حب من أهوى

فيا أيها العذّال كفوا ملامكم فما عندكم بعض الذى بى من الشكوى

و يا جيرة الحى الذى ولهى بهم أما ترحموا صبا يحن إلى حزوى

و يا أهل ذيّاك الحمى و حياتكم يمين وفيّ صادق القول و الدّعوى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۰

ملكتم قيادى فارحموا و ترفّقوا فأنتم مرادى لا سعاد و لا علوى

فما لى سواكم سادتى لا عدمتكم فجودوا بوصل أنتم الغاية القصوى

انتهى.

۲۹۹- و منهم الفاضل الأديب أبو عبد اللّه محمد بن على بن يحيى بن على، الغرناطى.

قال ابن جماعة فى الكتاب المسمى قريبا: أنشدنى المذكور لنفسه، على قبر سيدنا حمزة رضى اللّه تعالى عنه: [بحر الكامل]

يا سيد الشهداء بعد محمد و رضيع ذى المجد المرفع أحمد

يا ابن الأعزة من خلاصة هاشم سرج المعالى و الكرام المجد

يا أيها البطل الشجاع المحتمى دين الإله ببأسه المستأسد

يا نبعة الشرف الأصيل المعتلى يا ذروة الحسب الأثيل الأتلد

يا نجدة الملهوف فى قحم الوغى عند التهاب جحيمها المتوقد

يا غيث ذى الأمل البعيد مرامه يا غيث موتور الزمان الأنكد

يا من لعظم مصابه خص الأسى قلب الرسول و عمّ كلّ موحّد

يا حمزة الخير المؤمّل نفعه يوم الهياج و عند فقد المنجد

و افاك يا أسد الإله و سيفه وفد ألمّوا من حماك بمعهد

جئناك يا عمّ الرسول و صنوه قصد الزيارة فاحتفل بالقصد

و اسأل إلهك فى اغتفار ذنوبنا شيم المزور قيامه بالعوّد

لذنا بجانبك الكريم توسلا و كذا العبيد ملاذهم بالسيد

فاشفع لضيفك فالكريم مشفّع عند الكريم و من يشفّع يقصد

يا ابن الكرام المكرمين نزيلهم أهل المكارم و العلا و السؤدد

نزل الضيوف جناب ساحتك التى منها يؤمّل كل عطف مسعد

فاجعل أبا يعلى قرانا عطفة و ارغب لربك فى هدانا و اقصد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۱

فعسى يمنّ على الجميع بتوبة يهدى بها نهج الطريق الأرشد

فقد اعتمدنا منك خير وسيلة نرجو بها حسن التجاوز فى غد

لم لا تؤم و أنت عم محمد و لدينه قد صلت صولة أيّد

و صحبته و نصرته و عضدته و ذببت عنه باللسان و باليد

و بذلت نفسك فى رضاه بصولة فقتلت فى ذات الإله الأوحد

فجزاك عنا اللّه خير جزائه و سقا ثراك حيا الغمام المرعد

و على رسول اللّه منه سلامة و عليك متّصل الرضا المتجدد

ولد ببعض أعمال غرناطة قبل التسعين و ستمائة، و توفى بالمدينة الشريفة طابة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام سنة ۷۱۵، و دفن بالبقيع، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

۳۰۰- و منهم الشيخ نور الدين أبو الحسن، المايرقى.

من أقارب بعض ملوك المغرب، و كان من الفضلاء العلماء الأدباء، و له مشاركة جيدة فى العلوم و نظم حسن، و منه قوله: [بحر البسيط]

القضب راقصة، و الطير صادحة و النشر مرتفع، و الماء منحدر

و قد تجلّت من اللذات أوجهها لكنها بظلال الدوح تستتر

فكل واد به موسى يفجّره و كل روض على حافاته الخضر

و قوله: [بحر الطويل]

و ذى هيف راق العيون انثناؤه بقدّ كريّان من البان مورق

كتبت إليه هل تجود بزورة فوقع «لا» خوف الرقيب المصدق

فأيقنت من «لا» بالعناق تفاؤلا كما اعتنقت «لا» ثم لم تتفرق

و هذا أحسن من قول ذى القرنين بن حمدان: [بحر البسيط]

إنى لأحسد «لا» فى أحرف الصحف إذا رأيت اعتناق اللام للألف

و ما أظنهما طال اعتناقهما إلا لما لقيا من لوعة الأسف

و أحسن من هذا قول القيسرانى: [بحر البسيط]

أستشعر اليأس من «لا» ثم يطمعنى إشارة فى اعتناق اللام للألف

و كانت وفاة أبى الحسن المذكور فى ربيع الأول سنة ۶۵۵، و دفن بقاسيون رحمه اللّه تعالى! و الأبيات التى أولها «القضب راقصة» نسبها له اليونينى و غير واحد، و الصواب أنها ليست له، و إنما هى لنور الدين سعيد ابن صاحب المغرب، و قد تقدم ذكره، و لعل السهو سرى من تشارك الاسم و اللقب و القطر، و مثل هذا كثيرا ما يقع، و اللّه تعالى أعلم.

۳۰۱- و من الراحلين من أهل الأندلس إلى المشرق ابن عتبة الإشبيلى

، و كان فارق إشبيلية حين تولاها ابن هود، و اضطرمت بفتنته الأندلس نارا، و لما قدم مصر هاربا من تلك الأهوال تغيرت عليه البلاد، و تبدّدت به الأحوال، فلما سئل عن حاله، بعد بعده عن أرضه و ترحاله، بادر و أنشد: [بحر مخلع البسيط]

أصبحت فى مصر مستضاما أرقص فى دولة القرود

وا ضيعة العمر فى أخير مع النصارى أو اليهود

بالجدّ رزق الأنام فيهم لا بذوات و لا جدود

لا تبصر الدهر من يراعى معنى قصيد و لا قصود

أودّ من لؤمهم رجوعا للغرب فى دولة ابن هود

و تذكرت بقوله: «أرقص فى دولة القرود» ما وقع لأبى القاسم بن القطان، و هو مما يستطرف و يستظرف، و ذلك أنه لما ولى الوزارة الزينبىّ دخل عليه أبو القاسم المذكور و المجلس حافل بالرؤساء و الأعيان، فوقف بين يديه و دعا له، و أظهر الفرح و السرور، و

رقص، فقال الوزير لبعض من يفضى إليه بسره: قبح اللّه هذا الشيخ! فإنه يشير برقصه إلى قول الشاعر:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۲۵۲

و أرقص للقرد فى دولته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۳

۳۰۲- و من المرتحلين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن على، الهراوى.

من أهل المرية، و يعرف بشمس الدين بن جابر الضرير، و له ترجمة فى الإحاطة ذكرناها مع زيادة عليها عند تعرضنا لأولاد لسان الدين بن الخطيب، رحمه اللّه تعالى! و رحل إلى المشرق و دخل مصر و الشام و استوطن حلب، و هو صاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان، و له أمداح نبوية كثيرة و تآليف منها: «شرح ألفية ابن مالك» و غير ذلك، و له ديوان شعر و أمداح نبوية فى غاية الإجادة، و من نظمه رحمه اللّه تعالى مورّيا بأسماء الكتب: [بحر الطويل]

عرائس مدحى كم أبين لغيره فلما رأته قلن هذا من الأكفا

نوادر آدابى ذخيرة ماجد شمائل كم فيهن من نكت تلفى

مطالعها هن المشارق للعلا قلائد قد راقت جواهرها رصفا

رسالة مدحى فيك واضحة، ولى مسالك تهذيب لتنبيه من أغفى

فيا منتهى سؤلى و محصول غايتى لأنت امرؤ من حاصل المجد مستصفى

و قد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتابا، و هى: العرائس للثعالبى، و النوادر للقالى و غيره، و الذخيرة لابن بسام و غيره، و الشمائل للترمذى، و النكت لعبد الحق الصقلى و غيره، و المطالع لابن قرقول و غيره، و المشارق للقاضى عياض و غيره، و القلائد لابن خاقان و غيره، و «رصف المبانى، فى حروف المعانى» للأستاذ ابن عبد النور، و هو كتاب لم يصنف فى فنه مثله، و الرسالة لابن أبى زيد و غيره، و الواضحة لابن حبيب، و المسالك للبكرى و غيره، و الجواهر لابن شاس و غيره، و «التهذيب فى اختصار المدونة» و غيره، و «التنبيه» لأبى إسحاق و غيره، و «منتهى السؤل» لابن الحاجب، و «المحصول» للإمام الرازى، و «الغاية» للنووى و غيره و «الحاصل» مختصر المحصول و «المستصفى» للغزالى، و ما أحسن قول الحكيم موفق الدين: [بحر البسيط]

للّه أيامنا و الشّمل منتظم نظما به خاطر التفريق ما شعرا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۴

و الهف نفسى على عيش ظفرت به قطعت مجموعه المختار مختصرا

و هذه ثلاث كتب مشهورة: المختار، و المجموع، و المختصر، و أحسن منه قول الآخر:

[بحر الكامل]

عن حالتى يا نور عينى لا تسل ترك الجواب جواب تلك المسأله

حالى إذا حدّثت لا لمعا و لا جملا لإيضاحى بها من تكمله

عندى جوى يذر الفصيح مبلدا فاترك مفصّله و دونك مجمله

القلب ليس من الصحاح فيرتجى إصلاحه، و العين سحب مثقله

و قد أوردنا فى ترجمة أبى عبد اللّه بن جزى الكاتب الأندلسى جملة مستكثرة فى التورية بأسماء الكتب فلتراجع ثمة.

رجع إلى الشمس بن جابر- فنقول: و من نظمه رحمه اللّه تعالى تثمينه للأبيات المشهورة:

لم يبق فىّ اصطبار مذ خلّفونى و ساروا

و للحبيب أشاروا جار الكرام فجاروا

للّه ذاك الأوار

بانوا فما الدار دار

يا بدر أهلك جاروا و علموك التّجرّى

كانوا من الود أهلى ما عاملونى بعدل

أصموا فؤادى بنبل يا بين بينت ثكلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۵

يا روح قلبى قل لى أهم دعوك لقتلى

و حرموا لك وصلى و حللوا لك هجرى

حسبى و ما ذا عناد هم المنى و المراد

و إن عن الحق حادوا أو جاملونى و جادوا

يا من به الكلّ سادوا و الكل عندى سداد

فليفعلوا ما أرادوا فإنهم أهل بدر

و تذكرت بهذا قول أبى البركات أيمن بن محمد السعدى رحمه اللّه تعالى:

للعاشقين انكسار و ذلّة و افتقار

و للملاح افتخار و عزة و اقتدار

و أهل بدرى أثاروا و ودعونى و ساروا

يا بدر- إلخ.

كتبت و الوجد يملى جدّ الهوى بعد هزل

و حار ذهنى و عقلى ما بين بدرى و أهلى

يا بدر فاحكم بعدل إذا أتوك بعذل

و حرّموا- إلخ.

لولا هواك المراد ما كنت ممن يصاد

و لا شجانى البعاد يا بدر أهلك جادوا

غلطت جاروا و زادوا لكنهم بك سادوا

انتهى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۶

فليفعلوا- إلخ.

رجع إلى ابن جابر، فنقول:

توفى رحمه اللّه تعالى فى إلبيرة فى جمادى الآخرة سنة ۷۸۰، و من نظمه قوله: [بحر البسيط]

يا أهل طيبة فى مغناكم قمر يهدى إلى كل محمود من الطّرق

كالغيث فى كرم، و الليث فى حرم و البدر فى أفق، و الزهر فى خلق

و قوله: [بحر البسيط]

أما معانى المعانى فهى قد جمعت فى ذاته فبدت نارا على علم

كالبدر فى شيم، و البحر فى ديم و الزهر فى نعم، و الدهر فى نقم

و قال: [بحر الطويل]

و لما وقفنا كى نودّع من نأى و لم يبق إلا أن تحثّ الركائب

بكينا و حقّ للمحبّ إذا بكى عشيهٔ سارت عن حماه الحبائب

و قال: [بحر الكامل]

ضحكت فقلت كأن جيدك قد غدا يهدى لثغرك من جواهر عقده

و كأن ورد الخدّ منك بمائه قد شاب عذب لماك حالهٔ ورده

و قال: [بحر الخفيف]

منعتنا قرى الجمال و قالت: ليس فى غير زادنا من مجال

فأقمنا على الرحال و قلنا مالنا حاجهٔ بحط الرحال

و قال: [بحر السريع]

عذّب قلبى رشأ ناعم أسهر طرفى طرفه الناعس

يحرس باللحظ جنى خدّه يا ليته لو غفل الحارس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۷

و قال: [بحر الكامل]

وافيت ربعهم و قد بعد المدى و نأى الفريق من الديار و سارا

ما كدت أعرف بعد طول تأمل دارا بها طاف السرور و دارا

و له: [بحر الوافر]

و لست أرى الرجال سوى أناس همومهم موافاهٔ الرجال

أطالوا فى النّدى إهلاك مال فعاشوا فى الأنام ذوى كمال

و قال: [بحر الخفيف]

أيها المتهمون نفسى فداكم أنجدونى على الوصول لنجد

وقفوا بى على منازل ليلى فوجودى هناك يذهب وجدى

و ما كتبه على كتاب «نسيم الصّبا» لابن حبيب، و صورته: لما وقفت على الفصول الموسومهٔ بنسيم الصبا، المرسومهٔ فى صفحات الحسن فإذا أبصرها اللبيب صبا، انتعش بها الخاطر انتعاش النبت بالغمام، و هملت سحائب بيانها فأثمرت حدائق الكلام، و أخرجت أرض القرائح ما فيها من النبات، و سمعت الآذان ضمخهٔ الأذهان بهذه الأبيات: [بحر المنسرح]

هذى فصول الربيع فى الزمن كم حسن أسندت إلى حسن

رقّت و راقت فمن شمائلها بمثل صرف الشمول تتحفنى

كم ملح قد حوت و كم لمح يعجبنى لفظها و يعجزنى

كم فيه من نفث و من نكت أشهدنى حسنها فأدهشنى

جمع عدمنا له النظير فلا يصرف عن خاطر و لا أذن

يا خير أهل العلا و بحرهم أىّ بديع الكلام لم ترنى

بدرك فى مطلع الفضائل لا يكون مثل له و لم يكن

هذى الفصول التى أتيت بها قد أفحمت كل ناطق لسن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۸

كم فن معنى بها يذكرنى شجوى لشدو الحمام فى فنن

فمن نسيب مع النسيم جرى لطفا فأزرى بالجوهر الثمن

و حسن سجع كالزهر فى أفق و الزهر فى ناعم من الغصن

له معان أعيت مداركها كل معان بنيلهن عنى

لا زال راق للمجد راقمها ذا سنن حاز أحسن السنن

فصول، هى للحسن أصول، و شمول، لها على كل القلوب شمول، ليس لقدامة على التقدم إليها حصول، و لا لسحبان لأن يسحب ذيلها وصول، و لا انتهى قسّ الإيادى، إلى هذه الأيادى، و لا ظفر بديع الزمان، بهذه البدائع الحسان، لقد قصر فيها حبيب عن ابنه، و حار بين لطافة فضله و فضل ذهنه، نزهت فى طرف خمائلها، و نبهت بلطف شمائلها، تاللّه إنها لسحر حلال، و خلال ما مثلها خلال، كلام كله كمال، و مجال لا- يرى فيه إلا- جمال، راقم بردها، و ناظم عقدها، فى كل فصل، جاء بكمال فضل، و فى كل معنى، عمر بالبراعة مغنى، أعرب فأغرب، و أوجز فأعجز، و أطال فأطاب، و أجاد حين أجاب، فما أنفس فرائده، و أنفع فوائده، و أفصح مقاله، و أفسح مجاله، و أطوع للنظم طباعه، و أطول فى النثر باعه، أزاهر نبتت فى كتاب، و جواهر تكوّنت من ألفاظ عذاب، و مواهب لا تدرك بيد اكتساب، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب، فصول أحلى فى الأفواه من السهد، و أشهى إلى النواظر من النوم بعد السّهد، سبك أدبها فى قالب النكت الحسان، و ذهب بمحامد عبد الحميد و محاسن حسّان، فما أحقها أن تسمى فصول الربيع، و أصول البديع، لا زال حسنها يملأ الأوراق بما راق، و يزين الآفاق بما فاق، و لا برحت حدائق براعته نزهة للأحداق، و حقائق بلاغته فى جيد الإجادة بمنزلة الأطواق، بمن اللّه تعالى و كرمه، انتهى.

و حيث جرى ذكر كتاب «نسيم الصبا» فلا بأس أن نذكر تقاريظ العلماء له، فمن ذلك قول القاضى شرف الدين بن ريان: وقفت على هذا الكتاب الذى أبدع فيه مؤلفه، و نظم فيه الجواهر النفيسة مصنفه، و أينعت حدائق أدبه فدنا ثمرها لمن يقطفه، و عرفت مقدار ما فيه من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۵۹

الإنشاء و أين من يعرفه، فوجدته ألطف من اسمه، و أحسن من الدرر فى نظمه، و أطيب من الورد عند شمه، هبّت على رياض فصوله نسيم صباها، ففاقت الأزهار فى رباها، و تشوفت قلوب الأدباء إلى انتشاق شذاها و طيب ريّاها، و فاضت عليه أنوار البدر فأغنى سناها، عن الشمس و ضحاها، و تحلّت نحور البلغاء من كلامه بالدر اليتيم، و من معانيه بالعقد النظيم، و ترنّحت أفنان فنون الفصاحة لما هب عليها ذلك النسيم، كل فصل له فى الفضل أسلوب على بابه، و طريق انفرد به منشئه محاسن لا توجد إلا فى كتابه، صدر هذا الكتاب عن علم سابق، و فكر ثاقب و ذهن رائق و نفس صادق، و روية ملأت تصانيفها المغارب و المشارق، و قريحة إذا ذقت جناها، و شمت سناها، تذكرت ما بين العذيب و بارق فاللّه تعالى يبقى مصنفه قبلة لأهل الأدب و يديمه، و يبلغه من سعادة الدنيا و الآخرة ما يرومه، بمنه و كرمه، انتهى.

و قرظ عليه بعضهم بقوله: وقف المملوك سليمان بن داود المصرى على فصول الحكم من هذه الفصول، و وجد من نسيم الصبا أمارات القبول، و نزه طرفه فى رياض هذا الكتاب، و خاطب فكره العقيم فى وصفه فعجز عن رد الجواب: [بحر الكامل]

ما ذا أقول و كلّ وصف دونه أين الحضيض من السّماك الأعزل

يا لها كلمات نقصت قدر الأفاضل، و فضحت فصحاء الأوائل، و سحبت ذيل الفصاحة على سحبان وائل، و زادت فى البلاغة على

فريد، و غيرت حال القدماء فما عبد الرحيم الفاضل و ما عبد الحميد، و ذلت لها تشبيهات ابن المعتز طوعا، و ملكت زمام البيان فما تركت للبديع منه نوعا: [بحر الكامل]

قطف الرجال القول حين نباته و قطفت أنت القول لما نوّرا

و خطاب أعجز الخطباء وصفه، و جواب ألغى البلغاء رصفه، و غرائب تعرّفت بمبديها، و شوارد تألفت بمهديها، و جنان بلاغة لم يطمث أبكارها إنس قبلك و لا جان، و لم يقطف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۰

أزهارها عين ناظر و لا يد جان، معان تطرب السمع لها حكم و أحكام، و ألفاظ هى الأرواح لا أرواح أجسام، فلما ألقى فهمه عروة المتماسك، و ضاقت عليه فى وصفه المسالك، و عجز عن وصف بلوغ بلاغته، عطف على حسن كتابته، فرأى خطا يسبى الطرف، و يستغرق الظرف، نسج قلمه الكريم من وشى البلاغة ديباجا، و اتخذ من محاسن الحسان طريقا و منهاجا، فألفى ألفات كاعتدال القدود، و نونات كأهلّة السعود، و سينات كالطرر، و نقطا كالدرر، جعل للأقلام حجة قاطعة على السيوف، و حلّى الأسماع بحلية زائدة على الشنوف، فعطف ساعة يطنب فى دعائه و شكره، و آونة يميل من طربه بألفاظه و سكره، فللّه در ألفاظك و درر فضلك، و أحسن بوابلك الهاطل بالبيان و طلّك: [بحر الطويل]

لسانك غواص، و لفظك جوهر و صدرك بحر بالفضائل زاخر

و اللّه المسؤول أن يرفع قدر مقالك و مقام قدرك، و يوضح منهاج الأدب بنور بدرك بمنه و كرمه، إنه على كل شىء قدير.

و كتب قاضى القضاة تاج الدين السبكى، رحمه اللّه تعالى! فى تقريظ الكتاب المذكور ما نصه: الحمد للّه وحده، و صلى اللّه على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم، حدقت نحو الحدائق، و فوّقت سهمى تلقاء الغرض الشائق، و طرقت إلى ما يضىء أخا الحجى أسهل الطرائق، فما علّل صداى كنسيم الصبا، و لا كمثله سهما صائبا صبابه من لا صبا، و لا نظرت نظيره حديقة تنبت فضة و ذهبا: [بحر مجزوء الكامل]

و تجىء من ملح الكلا م بطارف أو تالده

كلم نوابغ نحو آ فاق المطالع صاعده

لو رامها قسّ لما ألفى أباه ساعده

أبدى نتائج عيّه فى ذى المعانى الشارد

فعين اللّه تعالى عليها كلمات عليها منه رقيب، و محاسن تسلى عندها بالحسن حبيب، و فوائد حسان يذكرنا بها حسان البعيد حسن القريب، كتبه عبد الوهاب [بن] السبكى، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۱

و كتب ناصر الدين صاحب دواوين الإنشاء ما صورته: وقفت على هذا الكتاب الذى أشبه الدر فى انتظامه، و الثغر فى ابتسامه، و قطر الندى فى انسجامه، و زهر الروض فى البكر إذا غنت على غصونه مطربات حمامه، فوجدت بين اسمه و مسماه مناسبة اقتضاها طبع مؤلفه السليم، و اتصالا قريبا كاتصال الصديق الحميم، فتحققت أن مؤلفه- أبقاه اللّه تعالى و حرسه!- أبدع فى تأليفه، و أصاب فى تمييزه بهذا الاسم و تعريفه، فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه، و كالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه، و كالسلك إذا انتقى جوهره و أجيد فى انتقائه، قد أينعت ثمرات فضائله فأصبحت دانية القطوف، و تجلت عرائس بلاغته فظهر بدرها بلا كسوف، و انجابت ظلمات الهموم بسماع موصول مقاطعه التى هى فى الحقيقة لآذان الجوزاء شنوف، فأكرم به من كتاب ما الروض بأبهى من وسيمه، و لا الرّيحان بأعطر من شميمه، و لا المدامة بأرق من هبوب نسيمه، و لا الدر بأسنى زهرا بل زهوا من رسومه، إذا تدبره الأديب أغنته تلك الأفانين، عن نغمات القوانين، و إذا تأمله الأريب نزه طرفه فى رياض البساتين، قد سوّر على كل نوع من البديع

باب، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللّباب، و اللّه تعالى يؤتيه الحكمة و فصل الخطاب، و يمتع بفضائله التى شهدها أهل العلم و ذوو الألباب، بمنه و كرمه، و كتبه محمد بن يعقوب الشافعى.

و كتب الصفدى شارح لامية العجم بما نصه: وقفت على هذا المصنف الموسوم بنسيم الصبا، و التأليف الذى لو مرّ بالمجنون لما ألف ليلاه و لا مال إليها و لا صبا، و الإنشاد الذى إن شاء قائله جعل الكلام غيره فى هبّات الهواء هبا، و النثر الذى أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز و سبا، و الكلام الذى نبا عنه الجاحظ جاحدا و ما له ذكر و لا نبا، فسبّحت جواهر حروفه لمن أوجده فى هذا العصر، و علمت أن ألفاظه ترمى قلوب حساده بشرر كالقصر، و تحققت أن قعقعة طروسه أصوات أعلامه التى تخفق له بالنصر، و تيقنت أن سطوره غصون لا تصل إليها كف جناية بجنّى و لا هصر: [بحر الطويل]

و قلت لأهل النظم و النثر قابلوا (ترائبها مصقولة كالسجنجل)

و ميلوا بأعطاف التعجب إنها (نسيم الصبا جاءت بريّا القرنفل)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۲

و لما ملت بعد ما ثملت، و غزلت بعد ما هزلت، جردت من نفسى شخصا أخاطبه و أجاريه، فى أوصاف محاسنها التى أناهبه منها و أناهيه، فقال لى: هذا الفن الفذ، و النثر الذى قهر أقران هذه الصناعة و بذ، و الأدب الذى سد الطرق على أوابده فما فاته شىء و لا شذ، و هذا الإنشاء الذى ما له عديل فى هذا العديد و لا ضريب، و هذا الكلام الذى فاق فى الآفاق فما لحبيب بن أوس حسن بن حبيب، فعين اللّه تعالى على هذه الكلم الساحرة، و الفوائد التى أيقظت جفن الأدب بعد ما كان بالساهرة، و متع اللّه تعالى الزمان و أهله بهذا النوع الغض، و النقد النض، و البز البض، و البديع الذى رمّ ما تشعّث من ربع هذا الفن و رض، و اقتض المعانى أبكاره و افتض، و أرسل جارح بلاغته على الجوارح فصادها و انقص و انقض، و أنبط ماء الفصاحة لما تحدر و ارفضّ، و استمال القلب الفظ لما فك ختم ذهوله و فض، إنه على كل شىء قدير، و بالإجابة جدير، بمنه و كرمه، و كتبه خليل الصفدى، انتهى.

۳۰۳- و منهم الأديب أبو جعفر الإلبيرى.

رفيق ابن جابر السابق الذكر، و هو البصير و ابن جابر الأعمى، و له نظم بديع منه قوله:

[بحر السريع]

أبدت لى الصدغ على خدها فأطلع الليل لنا صبحه

فخدها مع قدها قائل (هذا شقيق عارض رمحه)

و قوله و قد دخل حمص: [بحر السريع]

حمص لمن أضحى بها جنة يدنو لديها الأمل القاصى

حل بها العاصى ألا فاعجبوا من جنة حل بها العاصى

و قوله: [بحر الخفيف]

إن بين الحبيب عندى موت و به قد حييت منذ زمان

ليت شعرى متى تشاهده العى ن و تقضى من اللقاء الأمانى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۳

قال: و فيه استخدام، لأن البين يطلق على البعد و القرب، انتهى.

و من نظمه أيضا رحمه اللّه تعالى: [بحر الكامل]

و مورد الوجنات دبّ عذاره فكأنه خط على قرطاس

لما رأيت عذاره مستعجلا قد رام يخفى الورد منه بآس

ناديته قف لى أودع ورده (ما فى وقوفك ساعة من باس)

و هذا المعنى قد تبارى فيه الشعراء و تسابقوا فى مضماره، فمنهم من جلى و برز، و حاز خصل السبق و أحرز، و منهم من كان مصليا، و منهم من غدا لجيد الإحسان محليا، و منهم من عاد قبل الغاية موليا.

رجع- و من تأليفه رحمه اللّه تعالى شرحه لبديعية رفيقه ابن جابر المذكور، و قال فى خطبته: و لما كانت القصيدة المنظومة فى علم البديع المسماة «بالحلة السيرا فى مدح خير الورى» التى أنشأها صاحبنا العلامة شمس الدين أبو عبد اللّه بن جابر الأندلسى، نادرة فى فنها، فريدة فى حسنها، تجنى ثمر البلاغة من غصنها، و تنهل سواكب الإجادة من مزنها، لم ينسج على منوالها، و لا سمحت قريحة بمثالها، رأيت أن أضع لها شرحا يجلو عرائس معانيها لمعانيها، و يبدى غرائب ما فيها لموافيها، لا أملّ الناظر فيه بالتطويل، و لا أعوقه بكثرة الاختصار عن مداركك التحصيل، فخير الأمور أوسطها، و الغرض ما يقرب المقاصد و يضبطها، فأعرب من ألفاظها كل خفى، و أسكت من لغاتها عن كل جلى، و اللّه أسأل أن يبلغنا ما قصدناه، و يوردنا أحسن الموارد فيما أردناه، انتهى، و سمى الشرح المذكور «طراز الحلة، و شفاء الغلة» و مما أورده رحمه اللّه تعالى فى ذلك الشرح من نظم نفسه قوله: [بحر السريع]

طيبة ما أطيبها منزلا سقى ثراها المطر الصيب

طابت بمن حل بأرجائها فالترب منها عنبر طيب

يا طيب عيشى عند ذكرى لها و العيش فى ذاك الحمى أطيب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۴

و قال رحمه اللّه تعالى فى هذا الشرح بعد كلام ما نصه: و إذا أردت أن تنظر إلى تفاوت درجات الكلام فى هذا المقام فانظر إلى إسحاق الموصلى: كيف جاء إلى قصر مشيد، و محل سرور جديد، فخاطبه بما يخاطب به الطلول البالية، و المنازل الدارسة الخالية، فقال:

يا دار غيّرك البلى و محاك

فأحزن فى موضع السرور، و أجرى كلامه على عكس الأمور، و انظر إلى قول القطامى:

[بحر البسيط]

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل و إن بليت و إن طالت بك الطّيل

فانظر كيف جاء إلى طلل بال، و رسم خال، فأحسن حين حياه، و دعا له بالسلامة، كالمبتهج برؤية محيّاه، فلم يذكر دروس الطلل و بلاه، حتى آنس المسامع بأوفى التحية و أزكى السلامة، و الذى فتح هذا الباب، و أطنب فيه غاية الإطناب، صاحب اللواء، و مقدم الشعراء، حيث قال: [بحر الطويل]

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى و هل يعمن من كان فى العصر الخالى

و هل يعمن إلا سعيد مخلد قليل هموم ما يبيت بأوجال

قيل: و هذا البيت الأخير يحسن أن يكون من أوصاف الجنة، لأن السعادة و الخلود و قلة الهموم و الأوجال لا توجد إلا فى الجنة، انتهى.

و قال رحمه اللّه تعالى عند رحيله من غرناطة و أعلام نجد تلوح، و حمائمه تشدو على الأيك و تنوح: [بحر الطويل]

و لما وقفنا للوداع و قد بدت قباب بنجد قد علت ذلك الوادى

نظرت فألفيت السبيكة فضة لحسن بياض الزهر فى ذلك النادى

فلما كستها الشمس عاد لجينها لها ذهبا فاعجب لإكسيرها البادى

و السبيكة: موضع خارج غرناطة.

و قال رحمه اللّه: [بحر الخفيف]

هذه عشرة تقضّت و عندى من أليم البعاد شوق شديد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۵

و إذا ما رأيت إطفاء شوقى بالتلاقى فذاك رأى سديد

و قال رحمه اللّه تعالى و قد أهدى طاقية: [بحر مجزوء الكامل]

خذها إليك هدية ممن يعز على أناسك

اخترتها لك عندما أضحت هدية كل ناسك

أرسلتها طاقية لتنوب فى تقبيل راسك

و له من رسالة: وافى كتابك فوجدناه أزهى من الأزهار، و أبهى من حسن الحباب على الأنهار. يشرق إشراق نجوم السماء، و يسمو إلى الأسماع سمو حباب الماء.

و قال رحمه اللّه تعالى فى العروض على مذهب الخليل: [بحر الكامل]

خلّ الأنام و لا تخالط منهم أحدا و لو أصفى إليك ضمائره

إن الموفّق من يكون كأنه متقارب فهو الوحيد بدائره

و قال على مذهب الأخفش: [بحر الكامل]

إن الخلاص من الأنام لراحة لكنه ما نال ذلك سالك

أضحى بدائرة له متقارب يرجو الخلاص فعاقه متدارك

و له: [بحر مخلع البسيط]

دائرة الحب قد تناهت فما لها فى الهوى مزيد

فبحر شوقى بها طويل و بحر دمعى بها مديد

و إنّ وجدى بها بسيط فليفعل الحسن ما يريد

و هذا المعنى استعمله الشعراء كثيرا، و منهم الشيخ شهاب الدين بن صارو البعلى قال أبو جعفر المترجم له: أنشدنا شهاب الدين المذكور لنفسه بحماة: [بحر السريع]

و بى عروضىّ سريع الجفا يغار غصن البان من عطفه

الورد من و جنته وافر لكنه يمنع من قطفه

قال: و أنشدنا أيضا لنفسه: [بحر السريع]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۶

و بى عروضى سريع الجفا وجدى به مثل جفاه طويل

قلت له قطّعت قلبى أسّى فقال لى التقطيع دأب الخليل

و أنشد رحمه اللّه تعالى لرفيقه ابن جابر الضرير السابق الترجمة فى ذلك: [بحر البسيط]

إن صدّ عنى فإنى لا أعاتبه فما التنافر فى الغزلان تنقيص

شوقى مديد و حبى كامل أبدا لأجل ذلك قلبى فيه موقوص

و أنشدنا فى ذلك أيضا: [بحر الخفيف]

عالم بالعروض يخبن قلبى فى مديد الهوى بلحظ سريع

عنده وافر من الرّدف يبدو و خفيف من خصره المقطوع

و له: [بحر الكامل]

سبب خفيف خصرها، و وراءه من ردفها سبب ثقيل ظاهر

لم يجمع النوعان فى تركيبها إلا لأن الحسن فيها وافر

و له: [بحر المجتث]

صدوده لى مديد و أمر حبى طويل

و فيه أسباب حسن و تلك عندى الأصول

فخصره لى خفيف و ردفه لى ثقيل

و قد ذكر أبو جعفر- رحمه اللّه تعالى!- لرفيقه ابن جابر السابق الذكر مقطوعات كثيرة، منها قوله: [بحر الكامل]

يا أيها الحادى اسقنى كأس السّرى نحو الحبيب و مهجتى للساقى

حى العراق على النوى و احمل إلى أهل الحجاز رسائل العشاق

يا حسن ألحان الحداة إذا جرت نغماتها بمسامع المشتاق

و أورده له أيضا: [بحر الكامل]

يا حسن ليلتنا التى قد زارنى فيها فأنجز ما مضى من وعده

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۷

قوّمت شمس جماله فوجدتها فى عقرب الصّدع الذى فى خدّه

رجع إلى أبى جعفر- رحمه اللّه تعالى!- و من فوائده أنه لما ذكر فذلكة الحساب فقال:

هى التى يضعها أهل الحساب آخر جملهم المتقدمة فيقولون: فذلك كذا كذا، انتهى.

و لما أنشد رحمه اللّه تعالى قول بعضهم: [مجزوء الوافر]

غزال قد غزا قلبى بألحاظ و أحداق

له الثلثان من قلبى و ثلثا ثلثه الباقى

و ثلثا ثلث ما يبقى و باقى الثلث للساقى

و تبقى أسهم ست تقسم بين عشاق

قال ما نصه: هذا الشاعر قسم قلبه إلى ۸۱ سهما، فجعل لمحبوبه منها الثلثين ۵۴، و بقى الثلث ۲۷، فزاده ثلثيه ۱۸، فصار له ۷۲. يبقى ثلث الثلث و هو ۹، زاده منها ثلثى ثلثها، و هو اثنان، و بقى من الثلث واحد أعطاه للساقى، فبقى من التسعة ستة، قسمها بين العشاق، فاجتمع لمحبوبه ۷۴، و للساقى سهم واحد، و للعشاق ستة، و الجملة ۸۱، انتهى.

و أنشد رحمه اللّه تعالى فى علم الحساب لرفيقه ابن جابر السابق الذكر: [بحر الخفيف]

قسم القلب فى الغرام بلحظ يضرب القلب حين يرسل سهمه

هذه فى هواه يا قوم حالى ضاع قلبى ما بين ضرب و قسمه

و أنشد له فى الهندسة: [بحر الطويل]

محيط بأشكال الملاحة وجهه كأن به أقليدسا يتحدّث

فعارضه خط استواء، و خاله به نقطة، و الشكل شكل مثلث

و أنشد له فى خط الرمل: [بحر الخفيف]

فوق خديه للعذار طريق قد بدا تحته بياض و حمره

قيل ما ذا فقلت أشكال حسن تقتضى أن أبيع قلبى بنظره

و أنشد له فى علم الخط: [بحر المنسرح]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۸

قد حقق الحسن نور حاجبه و خطّ فى الصّدغ واو ريحان

و مدّ من حسن قدّه ألفا أوقف عينى وقوف حيران

و أنشد له أيضا: [بحر الكامل]

ألف ابن مقلة فى الكتاب كقدّه و النون مثل الصدغ فى التحسين

و العين مثل العين لكن هذه شكلت بحسن وقاحة و مجون

و على الجبين لشعره سين بدت حار ابن مقلة عند تلك السين

قل للذى قد خط تحت الصدغ من خيلانه نقطا لجلب فنون

يا للرجال و يا لها من فتنة فى وضع ذاك النقط تحت النون

و أورد له فى ذكر الأقلام السبعة و غيرها: [بحر البسيط]

تعليق ردفك بالخصر الخفيف له ثلث الجمال و قد وفّته أجفان

خد عليه رقاع الروض قد جعلت و فى حواشيه للصدغين ريحان

خطّ الشباب بطومار العذار به سطرا ففضّاحه للناس فتان

محقق نسخ صبرى عن هواه و من توقيع مدمعى المنثور برهان

يا حسن ما قلم الأشعار خطّ على ذاك الجبين فلا يسلوه إنسان

أقسمت بالمصحف الشامى و أحرفه ما مر بالبال يوما عنك سلوان

و لا غبار على حبى فعندك لى حساب شوق له فى القلب ديوان

و أنشد له: [بحر السريع]

يا صاحب المال أ لم تستمع لقوله ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ

فاعمل به خيرا فو اللّه ما يبقى و لا أنت به مخلد

و له: [بحر الكامل]

إن شئت أن تجد العدوّ و قد غدا لك صاحبا يولى الجميل و يحسن

فاعمل كما قال الخبير بخلقه فى قوله ادْفَعْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۶۹

و له: [بحر المتقارب]

إذا شئت رزقا بلا حسبة فلذ بالتقى و اتبع سبله

و تصديق ذلك فى قوله وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

و أورد له أيضا: [بحر الرمل]

عمل إن لم يوافق نية فهو غرس لا يرى منه ثمر

«إنما الأعمال بالنيات» قد نصّه عن سيد الخلق عمر

و قوله: [بحر الكامل]

الخير فى أشياء عن خير الورى وردت فأبدت كل نهج بيّن

دع ما يريبك، و اعملنّ بنيهٔ، و ازهد و لا تغضب، و خلقك حسّن

و قوله: [بحر الوافر]

حياء المرء يزجره فيخشى فخف من لا يكون له حياء

فقد قال الرسول بأن مما به نطق الكرام الأنبياء

إذا ما أنت لم تستحى فاصنع كما تختار و افعل ما تشاء

و قوله: [مخلع البسيط]]

قال الرسول «الحياء خير» فاصحب من الناس ذا حياء

و عن قليل الحياء فابعد فخيره ليس ذا رجاء

و قوله: [بحر المنسرح]

من سلم المسلمون كلهم و آمنوا من لسانه و يده

فذلك المسلم الحقيق، بذا جاء حديث لا شك فى سنده

و لابن جابر مما كتب به إلى الصلاح الصّفدى: [بحر البسيط]

إن البراعهٔ لفظ أنت مغناه و كل شىء بديع أنت معناه

إنشاد نظمك أشهى عند سامعه من نظم غيرك لو إسحاق غنّاه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۰

و هو طويلهٔ، فأجابه الصفدى بقوله: [بحر البسيط]

يا فاضلا كرمت فينا سجاياه و خصّنا بالآلى فى هداياه

خصصتنى بقريض شفّ جوهره لما تألق منه نور معناه

من كل بيت مبانيه مشيدهٔ كم من خبايا معان فى زواياه

و هى طويلهٔ.

رجع إلى نظم أبى جعفر- فمن ذلك قوله: [بحر الطويل]

تريك قدا على ردف تجاذبه كخوطهٔ فى كثيب الرمل قد نبتت

ريّا القرنفل فى ريح الصبا سحرا يضوع منها إذا نحوى قد التفتت

عقد بهما ألفاظ قول امرئ القيس: [بحر البسيط]

إذا التفتت نحوى تضوّع ريحها نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

و أورد له قوله: [بحر الطويل]

و لو لا نجاء العيس حول ديارها غداهٔ منّى لم يبق فى الركب محرم

ففوق ذرى المتنين برد مهلل و تحت رداء الخز وجه معلم

عقد فى الأول قول قيس بن الخطيم: [بحر الطويل]

ديار التى كنا و نحن على منّى تحوط بنا لو لا نجاء الركائب

و عقد فى الثانى قول ابن أخى ربيعة: [بحر الطويل]

أماطت رداء الخز عن حرّ وجهها و أرخت على المتنين بردا مهللا

و أورد له قوله: [بحر البسيط]

إن ادعى لك مروان الجلال فقل لا يجهل المرء بين الناس رتبته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۱

إن الجلالة حقا للمقول له «هذا الذى تعرف البطحاء وطأته»

و قوله: [بحر السريع]

من منصفى يا قوم من ظبية تسرف فى هجرى و تأبى الوصال

و كلما أسأل عن عذرها تقول لى: ما كل عذر يقال

و قوله: [بحر الوافر]

هم حسدوا الرسول فلم يجيبوا و كم حسدوا فصار لهم فرار

و هاجر عند ما هجروا فأضحى لخيمة أم معبد الفخار

و قوله: [بحر الوافر]

بحسبك أن تبيت على رجاء و لو حطّتك لليأس الخطوب

و مهما أقربتك صروف دهر فقل ما قاله الرجل الأريب

(عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب)

و قوله: [بحر الطويل]

خليلىّ هذا قبر أشرف مرسل (قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل)

رويدكما نبكى الذنوب التى خلت (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

منازل كانت للتصابى فأقفرت (لما نسجتها من جنوب و شمأل)

قال: ثم جرى على هذا النمط، و استخرج الدرر النفيسة من ذلك السّفط، و قال قبله: إنه أخذ أعجاز هذه القصيدة من أولها إلى آخرها على التوالى، و صنع لها صدورا، و صرفها إلى مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم، فجاء فى ذلك بما لم يسبق إليه، و لم يقف أحد فى تلك المعانى على ما وقف عليه، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۲

و قوله: [بحر الخفيف]

كم ليال خلت بكم كاللآلى نظمتها لنا يد الأزمان

أيها النازحون عن رأى عينى و هم فى جوانحى و جنانى

ما ألذّ الوصال بعد التنائى و أمر الفراق بعد التدانى

قد وكلنا كم لرب كريم غير و ان عن عبده فى أوان

ما رحلنا عن اختيار و لكن رحلتنا تلوّنات الزمان

و قوله: [بحر الخفيف]

تشتكى الصفر من يديه و ترضى السم ر عن راحتيه عند الحروب

أحمر السيف أخضر السيب حيث الأر ض غبراء من سواد الخطوب

و قوله مما التزم فى أوله الدال: [بحر الطويل]

دفاع لمكروه، أمان لخائف سحاب لمستجد، هلاك لمستعدى

دروب على الحسنى، عفوّ لمن جنى مثيب لمن أثنى، مجيب لذى قصد

دع الغيث إن أعطى، دع الليث إن سطا دع الروض إذ يهدى، دع البدر إذ يهدى

و قوله: [بحر الوافر]

غزال ما توسّد ظلّ بان بهاجرة و لا عرف الظلالا

تبسم لؤلؤا، و اهتز غصنا و أعرض شادنا، و بدا هلالا

و قوله: [بحر الخفيف]

رفع الخصر فوق منصوب ردف و لجزم القلوب فرعيه جرّا

مال غصنا، دنا رشا، فاح مسكا تاه درا، أرخى دجى، لاح بدرا

و قوله حين زار قبر قسّ بن ساعدة بجبل سمعان: [بحر مجزوء الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۳

هذى منازل ذى العلا قسّ بن ساعدة الإيادى

كم عاش فى الدنيا و كم أسدى إلينا من أيادى

قد زانها بحلى البلا غة مفصحا فى كل نادى

قد قرّ فى بطن الثرى متفرّدا بين العباد

قال أبو جعفر: زرنا قبره فرأينا موضعا ترتاح إليه النفس، و يلوح عليه الأنس، و عند قبره عين ماء يقال: إنه ليس بجبل سمعان عين تجرى غيرها هنالك، و أورد له قوله: [بحر الطويل]

كرام فخام من ذؤابة هاشم يقولون للأضياف أهلا و مرحبا

فيفعل فى فقر المقلّين جودهم كفعل علىّ يوم حارب مرحبا

رجع إلى أبى جعفر رحمه اللّه تعالى- فنقول: إنه كان بمدينة النبى صلى اللّه عليه و سلم سنة ۷۵۵، و لما ذكر الروضة قال: قيل: و لا تكون الروضة إلا بما سقتها، أزال جنبها، و لا يقال فى موضع الشجر روضة، انتهى، و قال: [بحر مجزوء الكامل]

لقوامه الألف التى جاءت بحسن ما ألف

عانقته فكأننى لام معانقة الألف

و قال رحمه اللّه تعالى معتذرا عمن لم يسلم: [بحر البسيط]

لا تعتبن على ترك السلام فقد جاءتك أحرفه كتبا بلا قلم

فالسين من طرّتى و اللام مع ألف من عارضىّ و هذا الميم ميم فمى

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر المجتث]

لا يقنطنّك ذنب قد كان منك عظيم

فاللّه قد قال قولا و هو الجواد الكريم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۴

نبّىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم

و قال: [بحر المتقارب]

إذا ظلم المرء فاصبر له فبالقرب يقطع منه الوتين

فقد قال ربك و هو القوى وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

و من نثره لما ذكر قصيدة كعب بن زهير رضى اللّه تعالى عنه ما نصه: و هذه القصيدة لها الشرف الراسخ، و الحكم الذى لم يوجد له ناسخ، أنشدها كعب فى مسجد المصطفى بحضرته و حضرة أصحابه، و توسّل بها فوصل إلى العفو عن عقابه، فسدّ صلى اللّه عليه و سلم خلّته، و خلع عليه حلّته، و كف عنه كفّ من أراده، و أبلغه فى نفسه و أهله مراده، و ذلك بعد إهدار دمه، و ما سبق من هذر كلمه، فمحت حسناتها تلك الذنوب، و سترت محاسنها وجه تلك العيوب، و لولاها لمنع المدح و الغزل، و قطع من أخذ الجوائز على الشعر الأمل، فهى حجة الشعراء فيما سلكوه، و ملاك أمرهم فيما ملكوه، حدثنى بعض شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب، فقيل له فى ذلك، فقال: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فقلت: يا رسول اللّه، قصيدة كعب أنشدها بين يديك؟ فقال: نعم، و أنا أحبها و أحب من يحبها، قال: فعاهدت اللّه أنى لا أخلو من قراءتها كل يوم.

قلت: و لم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها، و يقتدون بأقوالها، تبركا بمن أنشدت بين يديه، و نسب مدحها إليه، و لما صنع القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر قصيدة فى مدح النبى صلى اللّه عليه و سلم على وزن «بانت سعاد» قال: [بحر الطويل]

لقد قال كعب فى النبىّ قصيدة و قلنا عسى فى مدحه نتشارك

فإن شملتنا بالجوائز رحمة كرحمة كعب فهو كعب مبارك

انتهى.

و قال رحمه اللّه تعالى: [بحر الوافر]

لقد كر العذار بوجنتيه كما كر الظلام على النهار

فغابت شمس و جنته و جاءت على مهل عشيّات العذار

فقلت لناظرى لما رآها و قد خلط السواد بالاحمرار

(تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار)

و قال: [بحر الكامل]

قالوا عشقت و قد أضرّ بك الهوى فأجبتهم يا ليتنى لم أعشق

قالوا سبقت إلى محبة حسنه فأجبتهم ما فاز من لم يسبق

و لما أنشد رحمه اللّه تعالى قول ابن الخشاب فى المستضىء باللّه: [بحر الكامل]

ورد الورى سلسال جودك فارتووا و وقفت دون الورد وقفة حائم

ظمآن أطلب خفة من زحمة و الورد لا يزداد غير تزاحم

قال ما نصه: فانظر حسن هذين البيتين كيف جريا كالماء فى سلاسته، و وقعا من القلوب كالشهد فى حلاوته، مع أن ناظمهما ما خرج عن وصف الماء كلامه، و لا تعدى ذلك المعنى نظامه، حتى قيل: إن فيهما عشرة مواضع من مراعاة النظير، فهما فى الحسن ما لهما من نظير، لكنه ما سلم مليح من عيب، و لا خلا من وقوع ريب، فمع هذه المحاسن الوافية، ما سلما من عيب القافية، انتهى.

و لنختم ترجمته بقوله عند شرح بيت رفيقه: [بحر البسيط]

خير الليالى ليالى الخير فى إضم و القوم قد بلغوا أقصى مرادهم

ما نصه: يقول: إن خير الليالى التى تنشرح لها الصدور، و يحمد فيها الورود و الصدور، ليالى الخير فى إضم، حيث النزيل لم يضم، و

القوم قد وردوا موارد الكرم، و بلغوا أقصى مرادهم فى ذلك الحرم.

۳۰۴- و من الراحلين الولىّ الصالح أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر، القيسى.

و هو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسى، نسبة إلى بجانس قرية من قرى وادى آش، و كان- رحمه اللّه تعالى!- فى أواسط المائة السابعة، و قد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدى الفشتالى فى تأليفه الذى سماه «تحفة المغرب، ببلاد المغرب» و قال فيه: راضوا نفوسهم لتنقاد للمولى سرا و علنا، و زهدوا فى الدنيا فلم يقولوا معنا و لا لنا، و انتدبوا لقول اللّه تعالى: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹) [العنكبوت: ۶۹].

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۶

و قال صاحب التأليف المذكور: سألت الشيخ أبا مروان يوما فى مسيرى معه من وادى آش إلى بلده بجانس سنة تسع و أربعين و ستمائة، فقلت له: أنت يا سيدى لم تكن قرأت و لا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق، و لا سافرت مع عالم تقتدى ببركته فى هذا الطريق، فقال لى: أقام اللّه تعالى لى من باطنى شيخا، قلت له: كيف؟ قال: كنت إذا عرض لى أمر نظرت فى خاطرى فيخطر لى خاطران فى ذلك، أحدهما محمود و الآخر مذموم، فكنت أجتنب المذموم و أرتكب المحمود، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمن فيه من المشايخ و العلماء، فأسأله عن ذلك، فكان يذكر لى المحمود محمودا و المذموم مذموما، فأحمد اللّه تعالى أن وفقنى، و مع تتابع ذلك و اتصاله دون مخالفة لم أعتمد على ما يقع بخاطرى من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء، انتهى.

و من كلام صاحب التأليف المذكور قوله فى حق الصوفية، نفعنا اللّه تعالى بهم: حموا طريق الحق فحاماهم، و نوّر بصائرهم فأصمهم عن الباطل و أعماهم، و أهانوا فى رضاه نفوسهم، و رفضوا نعماهم، فأعلى قدرهم عنده و عند الناس و أسماهم، انتهى.

و ما أحسن قوله فى التأليف المذكور: يا هذا، من حافظ حوفظ عليه، و من طلب الخير بصدق وصل إليه، و من أخلص العبودية لربه قام الأحرار خدمة بين يديه، انتهى.

۳۰۵- و منهم الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن البيطار، المالقى، نزيل القاهرة.

و هو الذى عناه ابن سعيد فى كتابه «المغرب» بقوله: و قد جمع أبو محمد المالقى الساكن الآن بقاهرة مصر كتابا فى هذا الشأن حشر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقى و كتاب الزهراوى و كتاب الشريف الإدريسى الصقلى و غيرها، و ضبطه على حروف المعجم، و هو النهاية فى مقصده.

و قد ذكرت كلام ابن سعيد هذا بجملته فى غير هذا الموضع، فليراجع.

و كان ابن البيطار أوحد زمانه فى معرفة النباتات، سافر إلى بلاد الأغارقة و أقصى بلاد الروم و المغرب، و اجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن، و عاين منابته و تحققها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۷

و عاد بعد أسفاره، و خدم الكامل بن العادل، و كان يعتمد عليه فى الأدوية و الحشائش، و جعله فى الديار المصرية رئيسا على سائر العشّابين و أصحاب البسطات، و من بعده خدم ولده الصالح، و كان حظيا عنده، إلى أن توفى بشعبان سنة ۶۴۶ التى توفى بها ابن الحاجب، و له من المصنفات كتاب «الجامع فى الأدوية المفردة» و كتاب «المغنى» أيضا فى الأدوية، و كتاب «الإبانة و الإعلام، بما فى المنهاج من الخلل و الأوهام» و كتاب «الأفعال العجيبة، و الخواص الغريبة» و شرح كتاب ديسقوريدوس، قال الذهبى: انتهت إليه معرفة تحقيق النبات و صفاته، و أماكنه و منافعه، و توفى بدمشق، انتهى.

۳۰۶- و منهم الشيخ أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن على، القرشى، البسطى، الشهير بالقلصادى

- بفتحات- كما قال السخاوى الصالح، الرحلة، المؤلف، الفرضى، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس، و أكثر تصانيفه فى الحساب و الفرائض، كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء و الحوفى، و كفاه فخرا أن الإمام السنوسى صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض و الحساب، و أجازه جميع مروياته، و أصله من بسطة، ثم انتقل إلى غرناطة، فاستوطنها، و أخذ بها عن جماعة كابن فتوح و السرقسطى و غيرهما، ثم ارتحل إلى المشرق و مر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا ابن مرزوق و القاضى أبى الفضل قاسم العقبانى و أبى العباس بن زاغ و غيرهم، ثم ارتحل فلقى بتونس تلامذة ابن عرفة كابن عقاب و القلشانى و حلول و غيرهم، ثم حج و لقى أعلاما، و عاد فاستوطن غرناطة إلى أن حل بوطنه ما حل، فتحيل فى خلاصه من الشرك و ارتحل، و مر بتلمسان فنزل بها على الكفيف ابن مرزوق ابن شيخه، ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية منتصف ذى الحجة سنة ۸۹۱، و كان كثير المواظبة على الدرس و الكتابة و التأليف، و من تآليفه «أشرف المسالك، إلى مذهب مالك» و شرح مختصر خليل، و شرح الرسالة، و شرح التلقين و «هداية الأنام، فى شرح مختصر قواعد الإسلام» و هو شرح مفيد، و شرح رجز القرطبى، و «تنبيه الإنسان، إلى علم الميزان» و «المدخل الضرورى» و شرح إيساغوجى فى المنطق، و له شرح الأنوار السنية لابن جزى، و شرح رجز الشراز فى الفرائض الذى أوله: [بحر الرجز]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۸

بحمد خير الوارثين أبتدى و بالسراج النبوىّ أهتدى

و شرح حكم ابن عطاء اللّه، و رجز أبى عمرو بن منظور فى أسماء النبى صلى اللّه عليه و سلم، و شرح البردة، و رجز ابن برى، و رجز شيخه أبى إسحاق بن فتوح فى النجوم الذى أوله: [بحر الرجز]

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى

و شرح رجز أبى مقرعة، و له «النصيحة، فى السياسة العامة و الخاصة» و «هداية النظّار، فى تحفة الأحكام و الأسرار» و «كشف الجلباب، عن علم الحساب» و «كشف الأسرار، عن علم الغبار» و «التبصرة» و «قانون الحساب» فى قدر التلخيص، و شرحه، و شرحان على التلخيص كبير و صغير، و شرح ابن الياسمين فى الجبر و المقابلة، و مختصره، و كليات الفرائض، و شرحها، و شرحان للتلمسانية كبير و صغير، و شرح فرائض صالح بن شريف و ابن الشاط و فرائض مختصر خليل و التلقين و ابن الحاجب، و له كتاب «الغنية، فى الفرائض» و «غنية النحاة»، و شرحاها الكبير و الصغير، و «تقريب المواريث» و «منتهى العقول البواحث» و شرح مختصر العقبانى، و لم يتم، و «مدخل الطالبين» و مختصر مفيد فى النحو، شرح رجز ابن مالك، و الجرومية، و جمل الزجاجى، و ملحة الحريرى، و الخزرجية، و مختصر فى العروض، و غير ذلك، و أخذ بمصر عن الحافظ ابن حجر و الزين طاهر النويرى و أبى القاسم النويرى و العلامة الجلال المحلّى و التقى الشمنى و أبى الفتح المراغى و غيرهم، حسبما ذكر ذلك فى رحلته الشهيرة، و هى حاوية لشيوخه بالمغرب و المشرق و جملة من أحوالهم، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۳۰۷- و منهم أبو عبد اللّه الراعى، و هو شمس الدين محمد بن إسماعيل، الأندلسى، الغرناطى.

ولد بها سنة ۷۸۲ تقريبا، و نشأ بها، و أخذ الفقه و الأصول و العربية عن جماعة منهم أبو جعفر أحمد بن إدريس بن سعيد الأندلسى، و سمع على أبى بكر عبد اللّه بن محمد بن محمد المعافرى بن الدب، و يعرف بابن أبى عامر، و الخطيب أبى عبد اللّه محمد بن على بن الحفار و محمد بن عبد الملك بن على القيسى المنتورى، صاحب الفهرسة الكبيرة الشهيرة، و مما أخذ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۷۹

عنه الجرومية بأخذه لها عن الخطيب أبى جعفر أحمد بن محمد بن سالم الجذامى عن القاضى أبى عبد اللّه محمد بن إبراهيم الحضرمى عن مؤلفها أبى عبد اللّه محمد بن محمد بن داود الصنهاجى عرف بابن آجروم، و جميع «خلاصة الباحثين، فى حصر حال الوارثين» للقاضى أبى بكر عبد اللّه بن يحيى بن زكريا الأنصارى بأخذه لها عن مؤلفها، و أجاز له أبو الحسن على بن عبد اللّه بن الحسن الجذامى، و القاضى أبو الفضل قاسم بن سعيد العقبانى، و العلامة أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام، و عالم الدنيا أبو عبد اللّه محمد بن مرزوق التلمسانى، و غيرهم من المغاربة، و من أشياخه من أهل المشرق الكمال بن خير السكندرى، و الزين أبو بكر المراغى، و الزين محمد الطبرى، و أبو إسحاق إبراهيم بن العفيف النابلسى، فى آخرين، و دخل القاهرة سنة ۸۲۵ فحج و استوطنها، و سمع بها من الشهاب المتبولى و ابن الجزرى و الحافظ ابن حجر و طائفة، و أمّ بالمؤيدية وقتا، و تصدى للاشتغال، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى، لا سيما فى العربية، بل هى كانت فنه الذى اشتهر به و بجودة الإرشاد لها، و شرح كلا من الجرومية و الألفية و القواعد و غيرها مما حمله عنه الفضلاء، و له نظم وسط، قال السخاوى: كتبت عنه منه الكثير، و مما لم أسمعه منه ما أودعه فى مقدمة كتاب صنفه فى نصرة مذهبه و أثبته دفعا لشىء نسب إليه، فقال: [بحر الطويل]

عليك بتقوى اللّه ما شئت و اتّبع أئمة دين الحق تهدى و تسعد

فمالكهم و الشافعى و أحمد و نعمانهم كل إلى الخير يرشد

فتابع لمن أحببت منهم و لا تمل لذى الجهل و التعصيب إن شئت تحمد

فكل سواء فى وجيبة الاقتدا متابعهم جنات عدن يخلد

و حبهم دين يزين و بغضهم خروج عن الإسلام و الحق يبعد

فلعنة رب العرش و الخلق كلهم على من قلاهم و التعصب يقصد

و كان حادّ اللسان و الخلق، شديد النفرة من الشيخ يحيى العجيسى، أضر بأخرة، و مات بسكنه بالصالحية يوم الثلاثاء ۲۷ ذى الحجة سنة ۸۵۳، بعد أن أنشد قبيل موته بشهر فى حال صحته الشيخ جمال الدين بن الأمانة من نظمه قوله: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۰

أفكر فى موتى و بعد فضيحتى فيحزن قلبى من عظيم خطيئتى

و تبكى دما عينى و حقّ لها البكا على سوء أفعالى و قلة حيلتى

و قد ذابت اكبادى عناء و حسرة على بعد أوطانى و فقد أحبتى

فما لى إلا اللّه أرجوه دائما و لا سيما عند اقتراب منيّتى

فنسأل ربى فى وفاتى مؤمنا بجاه رسول اللّه خير البرية

قال السخاوى: و مما كتبته عنه: [بحر الكامل]

ألفيته حول المعلم باكيا و دموعه قد صاغها من كوثر

نثر الدموع على الخدود فخلتها درا تناثر فى عقيق أحمر

و قوله: [بحر المتقارب]

عليك بنعمة رب العلا وراع الملوك لرعى الذمم

و ذو العلم فارع له حقّه و إلا تفارق و تلق الندم

فهذا مقالى فلتسمعوا نصيحة حبر من اهل الحكم

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم

و قال: [بحر الكامل]

للغرب فضل شائع لا يجهل و لأهله شرف و دين يكمل

ظهرت به أعلام حقّ حقّقت ما قاله خير الأنام المرسل

من أنهم حتى القيامة لن يزا لوا ظاهرين على الهدى لن يخذلوا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص ۲۸۰

ممن حدث عن الراعى الحافظ ابن فهد و البرهان البقاعى، و من تأليفه «شرح القواعد» و كتاب «انتصار الفقير السالك، لمذهب الإمام الكبير مالك» فى كراريس أربعة حسن فى موضوعة، و له «النوازل النحوية» فى عشرة كراريس أو أكثر و فيها فوائد حسنة و أبحاث رائقة، تكلم معه فى بعضها أبو عبد اللّه بن العباس التلمسانى.

و ذكر بعضهم أنه اختصر شرح شيخه ابن مرزوق على مختصر الشيخ خليل من باب القضاء إلى آخر الكتاب، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۱

و جرت له فى صغره حكاية دلت على نبله، و هى أنه دخل على الطلبة رجل و هم بجامع غرناطة فسألهم عمن كان وراء إمام، فحدث للإمام عذر ذهب لأجله، مثل الرعاف مثلا، فصلوا بعض الصلاة لأنفسهم، ثم اقتدوا بإمام منهم قدموه فيما بقى، فهل تصح صلاتهم أم لا؟ فلم يكن عند أحد من الحاضرين فيها علم، فقال هو: إن الصلاة باطلة، لأن النحاة يقولون: الإتباع بعد القطع لا يجوز.

و قد حكى ذلك فى شرحه للجروميّة الذى سماه بعنوان الإفادة فى باب النعت إذ قال ما نصه: كنت جالسا بمسجد قيسارية غرناطة أنتظر سيدنا و شيخنا أبا الحسن على بن سمعة رحمه اللّه تعالى مع جماعة من كبار طلبته، و كنت إذ ذاك أصغرهم سنا و أقلهم علما، فدخل سائل سأل عن مسألة فقهية نصها: إن إماما صلى بجماعة جزءا من صلاة، ثم غلب عليه الحدث، فخرج و لم يستخلف عليهم، فقام كل واحد من الجماعة و صلى وحده جزءا من الصلاة، ثم بعد ذلك استخلفوا من أتم بهم الصلاة، فهل تصح تلك الصلاة أم لا؟ فلم يكن فيها عند الحاضرين جواب، فقلت: أنا أجاوب فيها بجواب نحوى، فقال: هات الجواب، فقلت: هذا إتباع بعد القطع، و هو ممتنع عند النحويين، فصلاة هؤلاء باطلة، فاستظرفها منى من حضر لصغر سنى، ثم طلبنا النص فيها فلم نلقه فى ذلك التاريخ، و لو لقيناه لكان حسنا، انتهى.

و من ألغازه قوله: [بحر الرجز]

حاجيتكم نحاتنا المصرية أولى الذكا و العلم و الطعميه

ما كلمات أربع نحويه جمعن فى حرفين للأحجيه

يعنى فعل الأمر للواحد من «وأى يئى» إذا أضمر، فإنك تقول فيه: إيا زيد على حرف واحد، و هو الهمزة المقطوعة، فإذا قلت «قل إ» و نقلت حركته على لغة النقل إلى الساكن صار هكذا «قل» فذهب فعل الأمر و فاعله، فهى كلمات أربع فعلا أمر و فاعلاهما جمعن فى حرفين القاف و اللام، فافهم.

و أحسن من هذا قوله ملغزا فى ذلك أيضا: [بحر الرجز]

فى أى لفظ يا نحاة الملة حركة قامت مقام الجملة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۲

و بالجملة فمحاسنه كثيرة، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه!.

و من فوائده قوله: حكى لى بعض علماء المالكية قال: كنا نقرأ المدوّنة على الشيخ سراج الدين البلقينى الشافعى، فوقعت مسألة خلافية بين مالك و الشافعى فقال الشيخ فى مسألة «مذهبنا كذا» فى مسألة لم يقل فيها الشافعى بما قال، و إنما نسبها البلقينى لنفسه، ثم فطن و خاف أن ينتقد عليه المالكية و يقولون له: أنت شافعى و هذا ليس مذهب الشافعى، فقال: فإن قلتم يا مالكية لسنا بمالكية، و إنما أنتم شافعية، قلنا: كذلك أنتم قاسمية، و قد اجتمعنا الكل فى مالك، قال: و هذا الكلام حلو حسن فى غاية الإنصاف من الشيخ.

قال: و لما قرىء عليه كتاب «الشفاء» مدحه و أثنى عليه إلى الغاية، و كان يحضره جماعة من المالكية فقال القاضى جمال الدين ابنه: ما لكم يا مالكية لا تكونون مثل القاضى عياض؟

فقال له أبوه الشيخ سراج الدين المذكور: و ما لك لا تقول للشافعية ما لكم يا شافعية لا تكونون مثل القاضى عياض؟.

و من فوائد الراعى فى باب العلم من شرحه على الألفية: فى الكلب عشر خصال محمودة ينبغى أن تكون فى كل فقير، لا يزال جائعا، و هو من دأب الصالحين، و لا يكون له موضع يعرف به، و ذلك من علامة المتوكلين، و لا ينام من الليل إلا القليل، و ذلك من صفات المحبين، و إذا مات لا يكون له ميراث، و ذلك من أخلاق الزاهدين، و لا يهجر صاحبه و إن جفاه و طرده، و ذلك من شيم المريدين، و يرضى من الدنيا بأدنى يسير، و ذلك من إشارة القانعين، و إذا غلب عن مكانه تركه و انصرف إلى غيره، و ذلك من علامة المتواضعين، و إذا ضرب و طرد ثم دعى أجاب، و ذلك من أخلاق الخاشعين، و إذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد، و ذلك من أخلاق المساكين، و إذا رحل لم يرحل معه بشيء، و ذلك من علامة المتجردين، انتهى بمعناه.

و قد نسبه للحسن البصرى رحمه اللّه تعالى و رضى عنه بمنه.

و من تصانيفه رحمه اللّه تعالى كتاب «الفتح المنير، فى بعض ما يحتاج إليه الفقير» فى غاية الإفادة، ملكته بالمغرب و لم أره بهذه البلاد المشرقية، و حفظت منه فوائد ممتعة.

[۳۰۸ أبو عبد اللّه محمد بن على بن محمد بن الأزرق]

و من الراحلين من الأندلس إلى المشرق بعد أخذ جميع بلاد الأندلس- أعادها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۳

اللّه تعالى!- قاضى الجماعة بغرناطة أبو عبد اللّه محمد بن على بن محمد بن الأزرق.

قال السخاوى: إنه لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد بن فتوح مفتى غرناطة فى النحو و الأصلين و المنطق، بحيث كان جل انتفاعه به، و حضر مجالس أبى عبد اللّه محمد بن محمد السّرقسطى العالم الزاهد مفتيها أيضا فى الفقه، و مجالس الخطيب أبى الفرج عبد اللّه بن أحمد البقنى، و الشهاب قاضى الجماعة بغرناطة أبى العباس أحمد بن أبى يحيى بن شرف التلمسانى، انتهى.

و له رحمه اللّه تعالى تآليف: منها «بدائع السلك، فى طبائع الملك» كتاب حسن مفيد فى موضوعه، لخص فيه كلام ابن خلدون فى مقدمة تاريخه و غيره مع زوائد كثيرة، و منها «روضة الأعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام» مجلد ضخم فيه فوائد و حكايات لم يؤلف فى فنه مثله، وقفت عليه بتلمسان و حفظت منه ما أنشده لبعض أهل عصره مما يكتب فى سيف: [بحر البسيط]

إن عمت الأفق من نقع الوغى سحب فشم بها بارقا من لمع إيماضى

و إن نوت حركات النصر أرض عدى فليس للفتح إلا فعلى الماضى

و من إنشائه فى التأليف المذكور ما صورته: قلت: و لقد كان شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فتوح قدّس اللّه تعالى روحه يفسح لصاحب البحث مجالا- رحبا، و يوسع المراجع له قبولا و رحبا، بل يطالب بذلك و يقتضيه، و يختار طريق التعليم به و يرتضيه، و توقيفا على ما خلص له تحقيقه، و وضح له فى معيار الاختيار تدقيقه، و إلا فقد كان ما يلقيه غاية ما يتحصل، و يتمهد به مختار ما يحفظ و يتأصّل، انتهى.

و هو يدل على ملكته فى الإنشاء، و يحقق ما يحصله، إلا- أن ذلك إذا طال حتى وقع الملل و الضجر أو كاد فينبغى الإمساك عن البحث، لئلا يفضى الحال إلى ما ينهى عنه.

قال: و مخالفة التلميذ الشيخ فى بعض المسائل إذا كان لها وجه و عليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ، و لكن مع ملازمة التوقير الدائم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۴

و الإجلال الملائم، فقد خالف ابن عباس عمر و عليا و زيد بن ثابت رضى اللّه تعالى عنهم، و كان قد أخذ عنهم، و خالف كثير من التابعين بعض الصحابة، و إنما أخذوا العلم عنهم، و خالف مالك كثيرا من أشياخه، و خالف الشافعى و ابن القاسم و أشهب مالكا فى كثير من المسائل، و كان مالك أكبر أساتيذ الشافعى، و قال: لا أحد أمنّ علىّ من مالك، و كاد كل من أخذ العلم أن يخالفه بعض تلامذته فى عدة مسائل، و لم يزل ذلك دأب التلاميذ مع الأساتيذ إلى زماننا هذا، و قال: و شاهدنا ذلك فى أشياخنا مع أشياخهم رحمهم اللّه تعالى! قال: و لا ينبغى للشيخ أن يتبرّم من هذه المخالفة إذا كانت على الوجه الذى وصفناه، و اللّه تعالى أعلم، انتهى.

و لما أنشد ابن الأزرق المذكور فى كتابه «روضة الأعلام» قول القائل فى مدح ابن عصفور: [الرمل]

نقل النحو إلينا الدّؤلى عن أمير المؤمنين البطل

بدأ النحو علىّ و كذا ختم النحو ابن عصفور على

قال بعده ما نصه: على أن صاحبنا الكاتب الأديب الأبرع أبا عبد اللّه محمد بن الأزرق الوادى آشى رحمه اللّه تعالى قد قال فيما يدافع ابن عصفور عما اقتضاه هذا المدح له بتفضيل الأستاذ المحقق أبى الحسن بن الضائع عليه، و لقد أبدع فى ذلك ما شاء لما تضمن من التورية: [بحر الطويل]

بضائعك ابن الضائع النّدب قد أتت بحظ من التحقيق و العلم موفور

فطرت عقابا كاسرا أو ما ترى مطارك قد أعيا جناح ابن عصفور

انتهى.

و قد نقل عن ابن الأزرق صاحب المعيار فى جامعه، و أثنى عليه غير واحد، و من أعظم تآليفه شرحه الحافل على مختصر خليل المسمى «بشفاء الغليل، فى شرح مختصر خليل» و قد توارد معه الشيخ ابن غازى على هذه التسمية، و كان مولانا العم الإمام شيخ الإسلام سيدى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۵

سعيد بن أحمد المقرى رضى اللّه تعالى عنه قال لى حين سألته عن هذا التوارد: لعل تسمية ابن الأزرق «شفاء العليل» بالعين، قلت: يبعد ذلك أن جماعة من تلامذته الأكابر كالوادى آشى و غيره كتبوه بخطوطهم بالغين المعجمة، فبان أنه من توارد الخواطر، و أن كلا منهما لم يقف على تسمية الآخر، و اللّه تعالى أعلم، و قد رأيت جملة من هذا الشرح بتلمسان و ذلك نحو ثلاث مجلدات، و لا أدرى هل أكمله أم لا- لأن تقديره بحسب ما رأيت يكون عشرين مجلدا، إذ المجلد الأول ما أتم مسائل الصلاة، و رأيت الخطبة وحدها فى أكثر من كراسة أبان فيها عن علوم، و لم أر فى شروح خليل مع كثرتها مثله، و دخل تلمسان لما استولى العدو على بلاد الأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق، فدخل مصر، و استنهض عزائم السلطان قايتباى لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بيض الأنوق، أو الأبيض العقوق، ثم حج و رجع إلى مصر فجدّد الكلام فى غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة فى بيت المقدس، فتولاه بنزاهة و صيانة و طهارة، و لم تطل مدته هنالك حتى توفى به بعد سنة خمس و تسعين و ثمانمائة، حسبما ذكره صاحب «الأنس الجليل، فى تاريخ القدس و الخليل» فليراجع فإنه طال عهدى به.

و من بارع نظمه رحمه اللّه تعالى قوله فى المجنّبات: [بحر مخلع البسيط]

و رب محبوبة تبدت كأنها الشمس فى حلاها

فأعجب لحال الأنام من قد أحبها منهم قلاها

و منه قوله رحمه اللّه تعالى: [بحر السريع]

عذرى فى هذا الدخان الذى جاور دارى واضح فى البيان

قد قلتم إن بها زخرفا و لا يلى الزخرف إلا الدخان

و قوله: [بحر الطويل]

تأملت من حسن الربيع نضارة و قد غرّدت فوق الغصون البلابل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۶

حكت فى غصون الدّوح قسّا فصاحة لتعلم أن النبت فى الروض باقل

و قوله: [بحر الطويل]

و قائلة صف للربيع محاسنا فقلت و عندى للكلام بدار

همى ببطاح الأرض صوب من الحيا فللنبت فى وجه الزمان عذار

و قوله: [بحر المتقارب]

تعجّبت من يانع الورد فى سنى و جنة نبتها بارض

و لم لا يرى وردها يانعا و قد سال من فوقها العارض

و قوله رحمه اللّه تعالى عند وفاة والدته: [بحر البسيط]

تقول لى و دموع العين و اكفة ما أفظع البيت و التّرحال يا ولدى

فقلت أين السّرى قالت لرحمة من قد عزّ فى الملك لم يولد و لم يلد

قال تلميذه الحافظ ابن داود: مما ألفيته بخط قاضى الجماعة أبى عبد اللّه بن الأزرق عن على رضى اللّه تعالى عنه: من أراد أن يطوّل اللّه عمره، و يظفر بعدوّه، و يصان من فتن الدنيا، و يوسّع عليه باب رزقه، فليقل هذا التسبيح إذا أصبح ثلاثا، و إذا أمسى ثلاثا: سبحان اللّه ملء الميزان، و منتهى العلم، و مبلغ الرضا، و عدد النعم، وزنة العرش، و الحمد للّه ملء الميزان، و منتهى العلم، و مبلغ الرضا، و عدد النعم، وزنة العرش، و لا إله إلا اللّه ملء الميزان و منتهى العلم و مبلغ الرضا و عدد النعم وزنة العرش، و اللّه أكبر ملء الميزان و منتهى العلم و بلغ الرضا و عدد النعم وزنة العرش، و لا حول و لا قوّة إلا باللّه العلى العظيم مثل ذلك، و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله مثل ذلك.

قال: و بخطه أيضا لنيل الرزق و ما يراد: يا باسط، يا جواد، يا على فى عرشك، بحق حقك على جميع خلقك، ابسط لى رزقك، و سخر لى خلقك.

و بخطه أيضا: بسم اللّه الرحمن الرحيم الدافع المانع الحافظ الحى القيوم القوى القادر

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۷

الولى الناصر الغالب الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض و لا فى السماء و هو السميع العليم.

و بخطه أيضا: يا فتاح، يا عليم، يا نور، يا هادى، يا حق، يا مبين، افتح لى فتحا تنّور به قلبى، و تشرح به صدرى، و اهدنى إلى طريق ترضاه، و بين لى أمرى، و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا، انتهى.

و قال رحمه اللّه تعالى مورّيا: [بحر الرمل]

من تكن صنعته الإنشاء لا ينكر الرزق لأقصى العمر

و لو استعلى على السبع الدرا رى بما فى فمه من درر

فأنا الكاتب لكن لو يبا ع لى العتق لكنت المشترى

هكذا رأيت نسبتها إليه.

و لنختم ترجمته- بل و الباب جميعا- بقوله رحمه اللّه تعالى!- عند نزول طاغية النصارى بمرج غرناطة أعادها اللّه تعالى للإسلام بجاه

النبى عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام: [بحر الطويل]

مشوق بخيمات الأحبة مولع تذكّره نجد و تغريه لعلع

مواضعكم يا لائمين على الهوى فلم يبق للسّلوان فى القلب موضع

و من لى بقلب تلتظى فيه زفرة و من لى بجفن تنهمى منه أدمع

رويدك فارقب للطّائف موضعا و خلّ الذى من شره يتوقّع

و صبرا فإن الصبر خير غنيمة و يا فوز من قد كان للصبر يرجع

وبت واثقا باللطف من خير راحم فألطافه من لمحة العين أسرع

و إن جاء خطب فانتظر فرجا له فسوف تراه فى غد عنك يرفع

و كن راجعا للّه فى كل حالة فليس لنا، إلا إلى اللّه، مرجع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۸

الباب السادس الباب [فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من الشرق]

اشارة

فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، المهتدين فى قصدهم إليها بنور الهداية المضىء المشرق، و الأكابر الذين حلوا بحلولهم فيها الجيد منها و المفرق و المفتخرين برؤية قطرها المونق، على المشئم و المعرق.

اعلم أنّ الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا- تحصر الأعيان منهم، فضلا عن غيرهم، و منهم من اتّخذها وطنا، و صيّرها سكنا، إلى أن وافته منيّته، و منهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيّته.

۱- فمن الداخلين إلى الأندلس المنيذر الذى يقال إنه صحابى رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم.

قال ابن الأبار فى التكملة: المنيذر الإفريقى، له صحبة، و سكن إفريقية، و دخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب، قاله أبو محمد الرشاطى، و لم يذكره أحد غيره، و روى عنه عبد الرحمن الحبلىّ، انتهى.

و أنكر غير واحد دخول أحد من الصحابة الأندلس.

و ذكر بعض الحفّاظ المنيذر المذكور، و قال: إنه المنيذر اليمانى، و ذكر الحجارى أنه من الصحابة رضوان اللّه تعالى عليهم، و أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير غازيا، و قال ابن بشكوال: يقال فيه المنيذر لكونه من أحداث الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم، و قد حكى ذلك الرازى، و ذكره ابن عبد البرّ فى كتاب «الاستيعاب فى الصحابة» و سمّاه بالمنيذر الإفريقى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۸۹

و قال ابن بشكوال: إن ابن عبد البرّ روى عنه حديثا سمعه من رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و ذكره أبو على بن السكن فى كتاب الصحابة و قال: روى عنه حديث واحد، و أرجو أن يكون صحيحا، و ذكره ابن قانع فى معجم الصحابة له، و ذكره البخارى فى تاريخه الكبير إذ قال: أبو المنيذر صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كان قد حدّث بإفريقية عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، قال: «من قال رضيت بالله ربّا، و بالإسلام دينا، و بمحمّد صلى اللّه عليه و سلم نبيّا، فأنا الزعيم لآخذنّ بيده فأدخله الجنّة» كذا ذكره البخارى بالكنية، و هذا الحديث هو الذى رووه عنه لا يعرف له غيره، و ذكره أبو جعفر أحمد بن رشد فى كتاب «مسند الصحابة» له، فقال: المنيذر اليمانى إمّا من مذحج أو غيرها، و ذكر الحديث سواء، و قد أشرنا فيما سبق إلى المنيذر هذا.

[۲- ۳ و من التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نصير و حنش الصنعانى]

۲- و من التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نصير، و قد سبق من الكلام عليه ما فيه كفاية.

۳- و من التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعانى.

و فى كتاب ابن بشكوال قال ابن وضاح: حنش لقب له، و اسمه حسين بن عبد اللّه، و كنيته أبو على، و يقال: أبو رشدين، قال ابن بشكوال: و هو من صنعاء الشام. و ذكره أبو سعيد بن يونس فى تاريخ أهل مصر و إفريقية و الأندلس، فقال: إنه كان مع على بن أبى طالب، رضى اللّه تعالى عنه، و غزا المغرب مع رفيقه رويفع بن ثابت، و غزا الأندلس مع موسى بن نصير، و كان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان، فأتى به عبد الملك فى وثاق فعفا عنه، و كان أوّل من ولى عشور إفريقية فى الإسلام، و توفى بإفريقية سنة مائة.

و ذكر ابن يونس عن حنش أنه كان إذا فرغ من عشائه و حوائجه و أراد الصلاة من الليل أوقد المصباح، و قرّب المصحف و إناء فيه ماء، فإذا وجد النّعاس استنشق الماء، و إذا تعايا فى آية نظر فى المصحف، و إذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله «أطعموا السائل» حتى يطعم.

قال ابن حبيب: دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد اللّه الصنعانى، و هو الذى أشرف على قرطبة من الفجّ المسمّى بفج المائدة، و أذّن، و ذلك فى غير وقت الأذان، فقال

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۰

له أصحابه فى ذلك، فقال: إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلّا أن تقوم الساعة، هكذا ذكره غير واحد، و قد كشف الغيب خلاف ذلك، فلعلّ الرواية موضوعة أو مؤولة، و اللّه تعالى أعلم.

و ذكره ابن عساكر فى تاريخه، و طوّل ترجمته، و قال: إنّ صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام، و ليست صنعاء اليمن، و قد قيل: إنه لم يرو عن حنش الشاميون، و إنما روى عنه المصريون، و حدّث حنش عن عبد اللّه بن عباس أنه قال له: إن استطعت أن تلقى اللّه تعالى و سيفك حليته حديد فافعل. و كان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين، فحفظ له ذلك، فعفا عنه حين أتى به فى وثاق حين ثار مع ابن الزبير، و سئل أبو زرعة عن حنش فقال: ثقة، و لم يذكر ابن عساكر أن حنشا لقب له، و أن اسمه حسين، بل اقتصر على اسمه حنش، و لعلّه الصواب، لا ما قاله ابن وضاح، و اللّه تعالى أعلم.

و فى تاريخ ابن الفرضى أبى الوليد أنّ حنشا كان بسرقسطة، و أنه الذى أسّس جامعها، و بها مات، و قبره بها معروف عند باب اليهود بغربى المدينة.

و فى تاريخ ابن بشكوال أنه أخذ أيضا قبلة جامع إلبيرة، و عدّل وزن قبلة جامع قرطبة الذى هو فخر الأندلس.

۴- و من التابعين الداخلين للأندلس أبو عبد اللّه على بن رباح، اللخمى.

ذكر ابن يونس فى تاريخ مصر أنه ولد سنة خمس عشرة عام اليرموك، و كان أعور ذهبت عينه يوم ذات السّوارى فى البحر مع عبد اللّه بن سعد سنة أربع و ثلاثين، و كان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان، و كانت له من عبد العزيز بن مروان منزلة، و هو الذى زفّ أمّ البنين بنت عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك، ثم عنت عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية، فلم يزل بإفريقية إلى أن توفى بها، و يقال: كانت وفاته سنة أربع عشرة و مائة. قال ابن بشكوال: أهل مصر يقولون: على بن رباح، بفتح العين، و أما أهل العراق فعلىّ، بضم العين، و قد سبق هذا الكلام عن ابن معين فى الباب الثانى. و قال: و قال ابنه موسى بن على: من قال لى موسى بن علىّ بالتصغير لم أجعله فى حلّ.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۱

۵- و من التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن يزيد المعافرى الحبلىّ.

قال ابن بشكوال: إنه يروى عن أبى أيوب الأنصارى و عبد اللّه بن عمر، رضى اللّه تعالى عنهم و غيرهم، و روى عنه جماعة. و ذكر البخارى فى تاريخه الكبير أنه يعدّ فى المصريين، و ذكر ابن يونس فى تاريخ المغرب أنه توفى بإفريقية سنة مائة، و كان رجلا صالحا فاضلا، رحمه اللّه تعالى! و يذكر أهل قرطبة أنه توفى بقرطبة، و أنه دفن بقبليّها، و قبره مشهور يتبرّك له، و اللّه تعالى أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك.

۶- و من الداخلين من التابعين حبّان بن أبى جبلة.

ذكر ابن بشكوال أنه مولى قريش، و يكنى أبا النضر، و ذكره أبو العرب محمد بن تميم فى تاريخ إفريقية، و قال: حدّثنى فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقّهون أهل إفريقية منهم حبّان بن أبى جبلة، روى عن عمرو بن العاص و عبد اللّه بن عباس و ابن عمر، رضى اللّه تعالى عنهم! و يقال: توفى بإفريقية سنة اثنتين و عشرين و مائة، و قيل: سنة خمس و عشرين و مائة. و ذكر ابن الفرضى أنه غزا مع موسى بن نصير حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قرقشونة فتوفى به. قال:

و قال لنا أبو محمد الثغرى: بين قرقشونة و برشلونة مسافة خمسة و عشرين ميلا، و فيها الكنيسة المعظّمة عندهم المسمّاة شنت مريه، ذكر أنّ فيها سبع سوار فضّة خالصة لم ير الراءون مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط، هكذا نقله ابن سعيد عمّن ذكر، و اللّه تعالى أعلم.

۷- و من الداخلين من التابعين فيما ذكر: المغيرة بن أبى بردة نشيط بن كنانة العذرى.

روى عن أبى هريرة، رضى اللّه تعالى عنه، و يروى عنه مالك فى موطّئه، و ذكره البخارى فى تاريخه الكبير، و فى كتاب الحافظ ابن بشكوال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير فكان موسى بن نصير يخرجه على العساكر.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۲

۸- و من التابعين حيوة بن رجاء التميمى.

ذكر ابن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير و أصحابه، و أنه من جملة التابعين، رضى اللّه تعالى عنهم! قاله ابن بشكوال فى مجموعه المترجم ب «التنبيه و التعيين، لمن دخل الأندلس من التابعين».

قال ابن الأبار: و قد سمعته من أبى الخطاب بن واجب، و سمعه هو منه، انتهى.

و قال ابن الأبار فى موضع آخر ما صورته: رجاء بن حيوة مذكور فى الذين دخلوا الأندلس من التابعين، و فى ذلك عندى نظر، و ما أراه يصح، و اللّه تعالى أعلم، انتهى.

فانظر هذا فإنه سمّاه رجاء بن حيوة، و ذلك السابق حيوة بن رجاء، فاللّه سبحانه أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك.

۹- و منهم عياض بن عقبة الفهرى.

من خيار التابعين، ذكره ابن حبيب فى الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس، و لم يغلّوا.

۱۰- و منهم عبد اللّه بن شماسة الفهرى.

ذكر ابن بشكوال أنه مضرى، و أن البخارى ذكره فى تاريخه.

۱۱- و منهم عبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى.

جدّه عبد الرحمن أحد العشرة رضى اللّه تعالى عنهم، و هو ممّن ذكره ابن بشكوال فى الأربعة من التابعين الذين لم يغلّوا.

۱۲- و منهم منصور بن خزامة فيما يذكر.

قال ابن بشكوال: قرأت فى كتاب روايات الشيخ أبى عبد اللّه بن عائذ الراوية رحمه اللّه تعالى قال: و ممّن دخل الأندلس من المعمّرين ما وجدت بخطّ المستنصر باللّه الحكم بن عبد الرحمن الناصر، رضى اللّه تعالى عنه فى بعض كتبه المختزنة أنه قال: طرأ علينا رجل أسود من ناحية السودان فى سنة تسع و عشرين و ثلاثمائة، فذكر أنه منصور بن خزامة مولى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۳

رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كان يزعم أنه أدرك أيام عثمان بن عفان، رضى اللّه تعالى عنه، و أنه كان مراهقا، و كان مع عائشة، رضى اللّه تعالى عنها، يوم الجمل، و أنه شهد صفّين، و أن خزامة أعتقه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و خرج عن الأندلس فى سنة ثلاثين و ثلاثمائة إلى المغرب، انتهى.

قلت: هذا كلّه لا أصل له، و يرحم اللّه تعالى حافظ الإسلام ابن حجر حيث كتب على هذا الكلام ما صورته: هذا هذيان لا أصل له، و لا يغترّ به، و كذلك ترجمة أشج العرب اتّفق الحفّاظ على كذبه، انتهى.

قلت: و ما هو إلّا من نمط عكراش، و اللّه تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل بمنّه.

و من هذه الأكاذيب ما يذكرون عن أبى الحسن على بن عثمان بن خطاب، و أنه يعرف بأبى الدنيا، و أنه كان معمّرا مشهورا بصحبة على بن أبى طالب، كرّم اللّه وجهه، و أنه رأى جماعة من كبار الصحابة، رضى اللّه تعالى عنهم، و وصفهم بصفاتهم، و أنه رأى عائشة، رضى اللّه تعالى عنها، فيما زعم، و قدم قرطبة على المستنصر الحكم بن الناصر و هو ولى عهد، و سأله أبو بكر بن القوطية عن مغازى على و كتبها عنه، و قد ذكره ابن بشكوال و غيره فى كتبهم و تواريخهم، فقد ذكر الثقات العارفون بالفنّ أنه كذّاب دجّال مائن جاهل، فإيّاك و الاغترار بمثل ذلك ممّا يوجد فى كتب كثير من المؤرّخين بالمشرق و الأندلس، و لا يلتفت إلى قول تميم بن محمد التميمى: إنه كان إذ لقيه ابن ثلاثمائة سنة و خمس سنين، قال تميم: و اتّصلت بنا وفاته ببلده فى نحو سنة عشرين و ثلاثمائة، و بالجملة فلا أصل له، و إنما ذكرناه للتنبيه عليه.

و قد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس، على أن التحقيق أنهم لم يبلغوا ذلك العدد، و إنما هم نحو خمسة أو أربعة كما ألمعنا به فى غير هذا الموضع، و اللّه تعالى أعلم.

۱۳- و من الداخلين إلى الأندلس مغيث فاتح قرطبة.

و قد تقدّم بعض الكلام عليه، و ذكر ابن حيان و الحجارى أنه رومى، زاد الحجارى:

و ليس برومى على الحقيقة، و تصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى، سبى من الروم بالمشرق و هو صغير، فأدّبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد، و أنجب فى الولادة، و صار منه بنو مغيث الذين نجبوا فى قرطبة، و سادوا و عظم بيتهم،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۴

و تفرّعت دوحتهم، و كان منهم عبد الرحمن بن مغيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس و غيره. و نشأ مغيث بدمشق، و دخل الأندلس مع طارق فاتحها، و جاز على ما فى طريقها من البلاد إلى الشام، و قدّمه طارق لفتح قرطبة ففتحها و وقع بينه و بين طارق ثم وقع بينه و بين موسى بن نصير سيّد طارق فرحل معهما إلى دمشق ثم عاد ظافرا عليهما إلى الأندلس، و أنسل بقرطبة البيت المذكور، و فى «المسهب» أنه فتح قرطبة فى شوال سنة ۹۲، ثم فتح الكنيسة التى تحصّن بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر فى محرم سنة ۹۳، و لم يذكر له مولدا و لا وفاة.

و ذكر الحجارى أنه تأدّب بدمشق مع بنى عبد الملك فأفصح بالعربية، و صار يقول من الشعر و النثر ما يجوز كتبه، و تدرّب على الركوب، و أخذ نفسه بالإقدام فى مضايق الحروب، حتى تخرّج فى ذلك تخرّجا أهّله للتقدّم على الجيش الذى فتح قرطبة، و كان مشهورا بحسن الرأى و الكيد، و قد قدّمنا كيفية فتحه قرطبة و أسره ملكها الذى لم يؤسر من ملوك الأندلس غيره؛ لأن منهم من عقد على نفسه أمانا، و منهم من فرّ إلى جليقية.

و ذكر الحجارى أنه لمّا حصل بيده ملك قرطبة و حريمه رأى فيهنّ جارية كأنها بينهنّ بدر بين نجوم، و هى تكثر التعرّض له بجمالها، فوكّل بها من عرض عليها العذاب إن لم تقرّ بما عزمت عليه فى شأن مغيث، و أنه قد فطن من كثرة تعرّضها له بحسنها لما أضمرته من المكر فى شأنه، فأقرّت أنها أكثرت التعرّض لتقع بقلبه، إذ حسنها فتّان، و قد أعدّت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذكره عند وقاعها، فحمد اللّه تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها، و قال: لو كانت نفس هذه الجارية فى صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة. و ذكر أن سليمان بن عبد الملك، لمّا أصغى إلى طارق فى شأن سيّده موسى بن نصير فعذّبه و استصفى أمواله، أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق، و كان مغيث قد تغيّر عليه، فاستشار سليمان مغيثا فى تولية طارق، و قال له: كيف أمره بالأندلس؟ فقال: لو أمر أهلها بالصلاة إلى أى قبلة شاءها لتبعوه و لم يروا أنهم كفروا، فعملت هذه المكيدة فى نفس سليمان، و بدا له فى ولايته، فلقيه بعد ذلك طارق، فقال له: ليتك وصفت أهل الأندلس بعصيانى، و لم تضمر فى الطاعة ما أضمرت، فقال مغيث: ليتك تركت لى العلج فتركت لك الأندلس، و كان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۵

قرطبة الذى حصل فى يده، فلم يمكنه منه، فأغرى به سيّده موسى بن نصير، و قال له: يرجع إلى دمشق و فى يده عظيم من عظماء الأندلس، و ليس فى أيدينا مثله، فأى فضل يكون لنا عليه؟ فطلبه منه، فامتنع من تسليمه. قال ابن حيان: فهجم موسى على العلج و انتزعه من مغيث، فقيل له: إن سرت به معك حيّا ادعاه مغيث و العلج لا ينكر، و لكن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث، و بالغ فى أذيّته عند سليمان.

و ذكر الحجارى فى «المسهب» أنّ لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير و مولاه طارقا و يكفى منه هنا قوله: [بحر الوافر]

أعنتكم و لكن ما وفيتم فسوف أعيث فى غرب و شرق

و عنوان طبقته فى النثر أنّ موسى بن نصير قال له و قد عارضه بكلام فى محفل من الناس: كفّ لسانك، فقال: لسانى كالمفصل، ما أكفّه إلّا حيث يقتل. و أضافه ابن حيّان و الحجارى إلى ولاء الوليد بن عبد الملك، و هو الذى وجّهه إلى الأندلس غازيا ففتح قرطبة، ثم عاد إلى المشرق، فأعاده الوليد رسولا عنه إلى موسى بن نصير يستحثّه على القدوم عليه، فوفد معه، فوجدوا الوليد قد مات، فخدم بعده سليمان بن عبد الملك.

۱۴- ۱۵- و من الداخلين أيوب بن حبيب اللخمى.

ذكر ابن حيان أنه ابن أخت موسى بن نصير، و أنّ أهل إشبيلية قدّموه على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى، و اتّفقوا فى أيامه على تحويل السلطان من إشبيلية إلى قرطبة، فدخل إليها بهم، و كان قيامه بأمرهم ستة أشهر، و قيل: إن الذى نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى. قال الرازى: قدم الحرّ واليا على الأندلس فى ذى الحجّة سنة سبع و تسعين و معه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية، فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين، و قال ابن بشكوال: كانت مدة الحرّ سنتين و ثمانية أشهر، و كانت ولايته بعد قيام أيوب بن حبيب اللخمى.

۱۶- ۲۶- و من الداخلين السّمح بن مالك الخولانى.

ولى الأندلس بعد الحرّ بن عبد الرحمن السابق. قال ابن حيان: ولّاه عمر بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۶

عبد العزيز، و أوصاه أن يخمّس من أرض الأندلس ما كان عنوة، و يكتب إليه بصفتها و أنهارها و بحارها، قال: و كان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم و بعدهم عن أهل كلمتهم، قالوا: و ليت اللّه تعالى أبقاه حتى يفعل، فإنّ مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلّا أن يستنقذهم اللّه تعالى برحمته.

و ذكر ابن حيان أن قدوم السّمح كان فى رمضان سنة مائة، و أنه الذى بنى قنطرة قرطبة بعد ما استأذن عمر بن عبد العزيز، رحمه اللّه تعالى! و كانت دار سلطانه قرطبة.

قال ابن بشكوال: استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين و مائة.

قال ابن حيان: كانت ولايته سنتين و ثمانية أشهر، و ذكر أنه قتل فى الوقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، و كانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين، فلم ينج من المسلمين أحد.

قال ابن حيان: فيقال: إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن.

و قدّم أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد اللّه الغافقى.

و ذكر ابن بشكوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس، و أنه يروى عن عبد اللّه بن عمر، رضى اللّه تعالى عنهما! قال: و كانت ولايته للأندلس فى حدود العشر و مائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى صاحب إفريقية، و استشهد فى قتال العدوّ بالأندلس سنة خمس عشرة، انتهى.

و فيه مخالفة لما سبق أنه ولى بعد السمح، و أن السمح قتل سنة ۱۰۲، و هذا يقول تولّى سنة ۱۱۰، فأين ذا من ذاك؟ و اللّه تعالى أعلم.

و وصفه الحميدى بحسن السيرة و العدل فى قسمة الغنائم. و ذكر الحجارى أنه ولى الأندلس مرتين، و ربما يجاب بهذا عن الإشكال الذى قدّمناه قريبا، و يضعفه أن ابن حيان قال:

دخل الأندلس حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة و مائة، و غزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمّة إلى أن استشهد، و أصيب عسكره فى شهر رمضان سنة ۱۱۴، فى موضع يعرف ببلاط الشهداء.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۲۹۷

قال ابن بشكوال: و تعرف غزوته هذه بغزوة البلاط، و قد تقدّم مثل هذا فى غزوة السّمح، فكانت ولايته سنة و ثمانية أشهر، و فى رواية سنتين و ثمانية أشهر، و قيل غير ذلك، و كان سرير سلطانه حضرة قرطبة.

و ولى الأندلس بعده عنبسة بن سحيم الكلبى، و ذكر ابن حيان أنه قدم على الأندلس واليا من قبل يزيد بن أبى مسلم، كاتب الحجاج، حين كان صاحب إفريقية، و كان قدومه الأندلس فى صفر سنة ۱۰۳، فتأخّر بقدومه عبد الرحمن المتقدّم الذكر. قال ابن بشكوال:

فاستقامت به الأندلس، و ضبط أمرها، و غزا بنفسه إلى أرض الإفرنجة و توفى فى شعبان سنة ۱۰۷، فكانت ولايته أربعة أعوام و أربعة أشهر، و قيل: ثمانية أشهر. و ذكر ابن حيان أنه فى أيامه قام بجليقية علج خبيث يدعى بلاى، فعاب على العلوج طول الفرار، و أذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر، و دافع عن أرضه، و من وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عمّا بقى بأيديهم من أرضهم و الحماية عن حريمهم، و قد كانوا لا يطمعون فى ذلك، و قيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلّا الصخرة التى لاذ بها هذا العلج و مات أصحابه جوعا إلى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلا و نحو عشر نسوة، و ما لهم عيش إلّا من عسل النحل فى جباح معهم فى خروق الصخرة، و ما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، و احتقروهم، و قالوا: ثلاثون علجا ما عسى أن يجىء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوّة و الكثرة و الاستيلاء ما لا خفاء به.

و ملك بعده أذفونش جدّ عظماء الملوك المشهورين بهذه السّمة.

قال ابن سعيد: فآل احتقار تلك الصخرة و من احتوت عليه إلى أن ملك عقب من كان فيها المدن العظيمة، حتى إنّ حضرة قرطبة فى يدهم الآن، جبرها اللّه تعالى! و هى كانت سرير السلطنة لعنبسة. ا ه.

قال ابن حيان و الحجارى: إنه لمّا استشهد عنبسة قدّم أهل الأندلس عليهم عذرة بن عبد اللّه الفهرى. و لم يعدّه ابن بشكوال فى سلاطين الأندلس، بل قال: ثم تتابعت ولاة الأندلس مرسلين من قبل صاحب إفريقية: أولهم يحيى بن سلمة، و ذكر الحجارى أن عذرة

كان من صلحائهم و فرسانهم، و صار لعقبه نباهة، و ولده هشام بن عذرة هو الذى استولى على طليطلة قصبة الأندلس، و فى عقبه بوادى آش من مملكة غرناطة نباهة و أدب، قال ابن سعيد:

و هم إلى الآن ذوو بيت مؤصّل، و مجد مؤثّل، و كان سرير سلطنة عذرة قرطبة.

و ولى بعده يحيى بن سلمة الكلبى؛ قال ابن بشكوال: أنفذه إلى الأندلس بشر بن صفوان الكلبى و الى إفريقية إذ استدعى منه أهلها واليا بعد مقتل أميرهم عنبسة، فقدمها فى شوال سنة سبع و مائة، و أقام عليها سنة و ستة أشهر لم يغز فيها بنفسه غزوة، و نحوه لابن حيان، و كان سريره قرطبة.

و تولّى بعده عثمان بن أبى نسعة الخثعمى، و ذكر ابن بشكوال: أنه قدم عليها واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى، صاحب إفريقية، فى شعبان سنة عشر و مائة، ثم عزل سريعا بعد خمسة أشهر، و كان سرير سلطانه بقرطبة.

و ولى بعده حذيفة بن الأحوص القيسى، قال ابن بشكوال: و أتى إليها واليا من قبل عبيدة المذكور، على اختلاف فيه و فى ابن أبى نسعة أيهما تولّى قبل صاحبه، و كان قدوم حذيفة فى ربيع الأول سنة عشر و مائة، و عزل عنها سريعا أيضا، و قيل: إنّ ولايته استتمّت سنة، و كان بقرطبة.

و ولى بعده الأندلس الهيثم بن عبيد الكلابى؛ قال ابن بشكوال: ولّاه عبيدة المذكور فوافى الأندلس فى المحرم سنة إحدى عشرة و مائة، و قيل: إنه ولى سنتين و أياما، و قد قيل:

أربعة أشهر، و كان بقرطبة.

و ولى بعده محمد بن عبداللّه الأشجعى؛ قال ابن بشكوال: قدّمه الناس عليهم، و كان فاضلا فصلّى بهم شهرين.

قال: ثم قدم عليهم واليا عبدالرحمن بن عبد اللّه الغافقى الذى تقدّمت ترجمته، و ذكرت ولايته الأولى للأندلس، وليها من قبل عبيد اللّه بن الحبحاب، صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدّم.

و ولى الأندلس بعده عبدالملك بن قطن الفهرى، و ذكر الحجارى أنّ من نسله بنى القاسم أصحاب البونت و بنى الجدّ أعيان إشبيلية.

قال ابن بشكوال: قدم الأندلس فى شهر رمضان سنة أربع عشرة و مائة فكانت مدّة ولايته عامين، و قيل: أربع سنين، ثم عزل عنها ذميما

فی شهر رمضان سنهٔ ست عشرهٔ و مائهٔ، قال: و کان ظلوما فی سیرته، جائرا فی حکومته، و غزا أرض البشکنس فأوقع بهم. و ذکر ابن بشکوال أنه لمّا عزل و ولی عقبهٔ بن الحجاج وثب ابن قطن علیه فخلعه، لا أدری أقتله أم أخرجه، و ملک الأندلس بقیهٔ إحدی و عشرین و مائهٔ إلی أن رحل بلج بن بشر بأهل الشام إلی الأندلس، فغلبه علیها، و قتل عبدالملک بن قطن، و صلب فی ذی القعدهٔ سنهٔ ثلاث و عشرین و مائهٔ بعد ولایهٔ بلج بعشرهٔ أشهر، و صلب بصحراء ربض قرطبهٔ بعدوهٔ النهر حیال رأس القنطرهٔ، و صلبوا عن یمینه خنزیرا و عن یساره کلبا، و أقام شلوه علی جذعه إلی أن سرقه مواله باللیل و غیبوه، فکان المکان بعد ذلک یعرف بمصلب ابن قطن. فلمّا ولی ابن عمّه یوسف بن عبد الرحمن الفهری استأذنه ابنه أمیهٔ بن عبد الملک، و بنی فیه مسجدا نسب إلیه، فقیل: مسجد أمیهٔ، و انقطع عنه اسم المصلب، و کان سنّ عبدالملک عند مقتله نحو التسعین، و ذکر ابن بشکوال أن عقبهٔ بن الحجاج السلولی ولّاه عبید اللّه بن الحبحاب صاحب إفریقیهٔ الأندلس و دخلها سنهٔ سبع عشرهٔ و مائهٔ، و قیل: فی السنهٔ التی قبلها، فأقام بها سنین محمود السیرهٔ، مثابرا علی الجهاد، مفتتحا للبلاد، حتی بلغ سکنی المسلمین أربونهٔ، و صار رباطهم علی نهر ردونهٔ، فأقام عقبهٔ بالأندلس سنهٔ إحدی و عشرین و مائهٔ، و کان قد اتّخذ بأقصی ثغر الأندلس الأعلی مدینهٔ یقال لها أربونهٔ کان ینزلها للجهاد، و کان إذا أسر الأسیر لم یقتله حتی یعرض علیه الإسلام و یبیّن له عیوب دینه، فأسلم علی یده ألفا رجل، و کانت ولایته خمس سنین و شهرین. قال الرازی: فثار أهل الأندلس بعقبهٔ، فخلعوه فی صفر سنهٔ ثلاث و عشرین فی خلافهٔ هشام بن عبدالملک، و ولّوا علی أنفسهم عبدالملک بن قطن، و هی ولایته الثانیهٔ، فکانت ولایهٔ عقبهٔ الأندلس ستهٔ أعوام و أربعهٔ أشهر، و توفی فی صفر سنهٔ ۱۲۳، و سریره قرطبهٔ.

۲۷- ۳۱- و من الداخلین إلی الأندلس بلج بن بشر بن عیاض القشیری.

قال ابن حیان: لمّا انتهی إلی الخلیفهٔ هشام بن عبد الملک ما کان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصی و الأندلس و خلعهم لطاعته و عیثهم فی الأرض شقّ علیه فعزل عبید اللّه بن الحبحاب عن إفریقیهٔ، و ولّی علیها کلثوم بن عیاض القشیری، و وجّه معه جیشا کثیفا لقتالهم، کان فیه مع ما انضاف إلیه من جیوش البلاد التی صار علیها سبعون ألفا، و مع ذلک فإنه لمّا تلاقی مع میسرهٔ البربری المدّعی للخلافهٔ هزمه میسرهٔ و جرح کلثوم و لاذ بسبتهٔ، و کان بلج ابن

نفح الطیب من غصن الأندلس الرطیب، ج۳، ص: ۳۰۰

أخیه معه، فقامت قیامهٔ هشام لمّا سمع بما جری علیه، فوجّه لهم حنظلهٔ بن صفوان فأوقع بالبربر و فتح اللّه تعالی علی یدیه. و لمّا اشتدّ حصار بلج و عمّه کلثوم و من معهما من فلّ أهل الشام بسبتهٔ و انقطعت عنهم الأقوات و بلغوا من الجهد إلی الغایهٔ استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملک بن قطن لخوفه علی سلطانه منهم، فلمّا شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا علیهم، فأغاثهم زیاد بن عمرو اللخمی بمرکبین مشحونین میرهٔ أمسکا من أرماقهم، فلمّا بلغ ذلک عبد الملک بن قطن ضربه سبعمائهٔ سوط، ثم اتّهمه بعد ذلک بتغریب الجند علیه، فسمل عینیه، ثم ضرب و صلب عن یساره کلبا، و اتفق فی هذا الوقت أنّ برابر الأندلس لمّا بلغهم ما کان من ظهور برابر العدوهٔ علی العرب انتقضوا علی عرب الأندلس، و اقتدوا بما فعله إخوانهم، و نصبوا علیهم إماما، فکثر إیقاعهم بجیوش ابن قطن، و استفحل أمرهم، فخاف ابن قطن أن یلقی منهم ما لقی العرب ببرّ العدوهٔ من إخوانهم، و بلغه أنهم قد عزموا علی قصده، فلم یر أجدی من الاستعداد بصعالیک عرب الشام أصحاب بلج الموتورین، فکتب لبلج و قد مات عمّه کلثوم فی ذلک الوقت، فأسرعوا إلی إجابته، و کانت أمنیتهم، فأحسن إلیهم، و أسبغ النعم علیهم، و شرط علیهم أن یأخذ منهم رهائن، فإذا فرغوا له من البربر هزمهم إلی إفریقیهٔ، و خرجوا له عن أندلسه، فرضوا بذلک، و عاهدوه علیه، فقدّم علیهم و علی جنده ابنیه قطنا و أمیهٔ، و البربر فی جموع لا یحصیها غیر رازقها، فاقتتلوا قتالا صعب فیه المقام، إلی أن کانت الدائرهٔ علی البربر، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتی ألحقوا فلّهم بالثغور، و خفوا عن العیون، فکرّ الشامیون و قد امتلأت أیدیهم من الغنائم، فاشتدّت شوکتهم، و ثابت همتهم، و بطروا، و نسوا العهود، و طالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس إلی إفریقیهٔ، فتعلّلوا علیه، و ذکروا صنیعه

بهم أيام انحصارهم فى سبتة، و قتله الرجل الذى أغاثهم بالميرة، فخلعوه، و قدّموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر، و تبعه جند ابن قطن، و حملوا عليه فى قتل ابن قطن، فأبى فثارت اليمانية و قالوا: قد حميت لمضرك، و اللّه لا نطيعك، فلما خاف تفرّق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج إليهم و هو شيخ كبير كفرخ نعامة قد حضر وقعة الحرّة مع أهل اليمامة، فجعلوا يسبّونه، و يقولون له: أفلتّ من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۱

سيوفنا يوم الحرّة، ثم طالبتنا بتلك التّرة فعرضتنا لأكل الكلاب و الجلود و حبستنا بسبتة محبس الضّنك حتى أمتنا جوعا، فقتلوه و صلبوه كما تقدّم، و كان أمية و قطن ابناه عندما خلع قد هربا، و حشدا لطلب الثأر، و اجتمع عليهما العرب الأقدمون و البربر، و صار معهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى كبير الجند، و كان فى أصحاب بلج، فلمّا صنع بابن عمّه عبدالملك ما صنع فارقه، فانحاز فيمن يطلب ثأره، و انضمّ إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمى صاحب أربونة، و كان فارس الأندلس فى وقته، فأقبلوا نحو بلج فى مائة ألف أو يزيدون، و بلج قد استعدّ لهم فى مقدار اثنى عشر ألفا سوى عبيد له كثيرة و أتباع من البلديين، فاقتتلوا، و صبر أهل الشام صبرا لم يصبر مثله أحد قط، و قال عبد الرحمن بن علقمة اللخمى: أرونى بلجا، فو اللّه لأقتلنّه أو لأموتنّ دونه، فأشاروا إليه نحوه، فحمل بأهل الثغر حملة انفرج لها الشاميون، و الراية فى يده، فضربه عبد الرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل. ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة، و اتبعهم الشاميون يقتلون و يأسرون، فكان عسكرا منصورا مقتولا أميره، و كان هلاك بلج فى شوال سنة أربع و عشرين و مائة، و كانت مدّته أحد عشر شهرا، و سريره قرطبة، و العرب الشاميون الداخلون معه الأندلس يعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين، و الذين كانوا فى الأندلس قبل دخوله يشهرون بالبلديين.

و لمّا هلك بلج قدّم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملى، و قد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك، فسار فيهم بأحسن سيرة، ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب و البربر همّوا بعد الوقعة لطلب الثأر، فآل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردة، و هم لا يشكّون فى الظّفر، إلى أن حضر عيد تشاغلوا به، فأبصر ثعلبة منهم غرّة و انتشارا و أشرا بكثرة العدد و الاستيلاء، فخرج عليهم فى صبيحة عيدهم و هم ذاهلون، فهزمهم هزيمة قبيحة، و أفشى فيهم القتل، و أسر منهم ألف رجل، و سبى ذرّيّتهم و عيالهم، و أقبل إلى قرطبة من سبيهم بعشرة آلاف أو يزيدون، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس و هو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۲

و أصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب، فنظروا فإذا أبو الخطار قد أقبل واليا على الأندلس، و هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى. و ذكر ابن حيان أنه قدم واليا من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية، و الخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، و ذلك فى رجب سنة خمس و عشرين و مائة، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة، قال: و كان مع فروسيته شاعرا محسنا، و كان فى أوّل ولايته قد أظهر العدل فدانت له الأندلس، إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المضرية، فهاج الفتنة العمياء، و كان سبب هذه الفتنة أن أبا الخطّار بلغ به التعصّب لليمانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج حجّة من ابن عم أبى الخطار، فمال أبو الخطار مع ابن عمّه، فأقبل الكنانى إلى الصّميل بن حاتم الكلابى أحد سادات مضر، فشكا له حيف أبى الخطار، و كان أبيّا للضيم، حاميا للعشيرة، فدخل على أبى الخطار، و أمضّ عتابه، فنجهه أبو الخطار، و أغلظ له، فردّ الصميل عليه، فأمر به أبو الخطار، فأقيم ودعّ قفاه حتى مالت عمامته، فلمّا خرج قال له بعض من على الباب: أبا جوشن، ما بال عمامتك مائلة؟ فقال: إن كان لى قوم فسيقيمونها. و أقبل إلى داره، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين، فباتوا عنده، فلمّا أظلم الليل قال: ما رأيكم فيما حدث علىّ فإنه منوط بكم؟ فقالوا: أخبرنا بما تريد، فإنّ رأينا تبع رأيك، فقال: أريد و اللّه إخراج هذا الأعرابى من هذا السلطان على ما خيّلت، و أنا خارج لذلك عن قرطبة، فإنه ما يمكننى ما أريد إلّا بالخروج، فإلى أين ترون أقصد؟ فقالوا: اذهب حيث شئت، و لا تأت أبا عطاء القيسى، فإنه لا يواليك على أمر ينفعك، و كان أبو عطاء هذا سيّدا مطاعا يسكن بأستجة،

و كان مشاحنا للصّميل، مساميا له فى القدر، فسكت عند ذكره أبو بكر بن الطفيل العبدى، و كان من أشرافهم، إلّا أنه كان حدث السنّ، فقال له الصميل: ألا تتكلم؟ قال: أتكلّم بواحدة ما عندى غيرها، قال: و ما هى؟ قال: إن عدوت إتيان أبى عطاء و شتّت أمرك به لم يتمّ أمرنا و هلكنا، و إن أنت قصدته لم ينظر فى شىء ممّا سلف بينكما، و حركته الحمية لك، فأجابك إلى ما تريد، فقال له الصميل: أصبت الرأى، و خرج من ليلته، و قام أبو عطاء فى نصرته على ما قدّره العبدى، و عمد إلى ثوابة بن يزيد الجذامى أحد أشراف اليمن و ساداتهم، و كان ساكنا بمورور و قد استفسد إليه أبو الخطار،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۳

فأجابهما فى القيام و التقدّم على المضرية، فاجتمعوا فى شذونة، و آل الأمر إلى أن هزموا أبا الخطار على وادى لكّة و حصل أسيرا فى أيديهم، فأرادوا قتله، ثم أرجئوه، و أوثقوه و أقبلوا به إلى قرطبة، و ذلك فى رجب سنة ۱۲۷ بعد ولاية أبى الخطار بسنتين. و لمّا سجن أبو الخطار فى قرطبة امتعض له عبد الرحمن بن حسان الكلبى، فأقبل إلى قرطبة ليلا فى ثلاثين فارسا معهم طائفة من الرّجّالة، فهجموا على الحبس و أخرجوه منه، و مضوا به إلى غرب الأندلس، فعاد فى طلب سلطانه، و دبّ فى يمانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة، فخرج إليه ثوابة و معه الصّميل، فقام رجل من المضرية ليلا- فصاح بأعلى صوته: يا معشر اليمن، ما لكم تتعرّضون إلى الحرب و تردون المنايا عن أبى الخطار؟ أليس قد قدرنا عليه لو أردنا قتله لفعلنا، لكنّنا منّا و عفونا و جعلنا الأمير منكم، أفلا تفكرون فى أمركم، فلو أن الأمير من غيركم عذرتم، و لا و اللّه لا نقول هذا رهبة منكم و لا خوفا لحربكم، و لكن تحرّجا من الدماء و رغبة فى عاقبة العامّة، فتسامع الناس به، و قالوا: صدق، فتداعوا للرحيل ليلا، فما أصبحوا إلّا على أميال. قال الرازى: ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس فى المحرم سنة ۱۲۵، و فى كتاب أبى الوليد بن الفرضى: كان أبو الخطار أعرابيّا عصبيّا، أفرط فى التعصّب لليمانيين، و تحامل على مضر، و أسخط قيسا، فثار به زعيمهم الصّميل، فخلعه، و نصب مكانه ثوابة، و هاج بين الفريقين الحروب المشهورة، و خلع أبو الخطار بعد أربع سنين و تسعة أشهر، و ذلك سنة ۱۲۸، و آل أمره إلى أن قتله الصّميل.

و ولى الأندلس ثوابة بن سلامة الجذامى؛ قال ابن بشكوال: لمّا اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب، صاحب القيروان، فكتب إليه بعهد الأندلس، و ذلك سلخ رجب سنة ۱۲۷، فضبط البلد، و قام بأمره كلّه الصّميل و اجتمع عليه أهل الأندلس، و أقام واليا سنة أو نحوها، ثم هلك، و فى كتاب ابن الفرضى أنه ولى سنتين.

ثم ولى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى، و جدّه عقبة بن نافع صاحب إفريقية و بانى القيروان المجاب الدعوة صاحب الغزوات و الآثار الحميدة، و لهذا البيت فى السلطنة بإفريقية و الأندلس نباهة. و ذكر الرازى أنّ مولده بالقيروان، و دخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبى عبيدة الفهرى عند افتتاحهم، ثم عاد إلى إفريقية، و هرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مغاضبا له، فهوى الأندلس، و استوطنها فساد بها. قال الرازى: كان يوسف يوم ولى الأندلس ابن سبع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۴

و خمسين سنة، و أقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوابة، و قد مكثوا بغير وال أربعة أشهر، فاجتمعوا عليه بإشارة الصّميل من أجل أنه قرشى رضى به الحيان، فرفعوا الحرب، و مالوا إلى الطاعة، فدانت له الأندلس تسع سنين و تسعة أشهر، و قال ابن حيان: قدّمه أهل الأندلس فى ربيع الآخر سنة ۱۲۹، و استبدّ بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس، و حكى ابن حيان أنه أنشد قول حرقة بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه و دخوله عسكر عبد الرحمن الداخل المروانى: [بحر الطويل]

فبينا نسوس الناس و الأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصّف

قال ابن حيان: لمّا سمع أبو الخطار بتقديمه حرّك يمانيته، فأجابوا دعوته، فأدّى ذلك إلى وقعة شقندة بين اليمانية و المضرية فيقال: إنه لم يك بالمشرق و لا- بالمغرب حرب أصدق منها جلادا و لا أصبر رجالا، طال صبر بعضهم على بعض، إلى أن فنى السلاح، و

تجاذبوا بالشعور، و تلاطموا بالأيدى، و كلّ بعضهم عن بعض، و ثابت للصميل غرّة فى اليمانية فى بعض الأيام، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة، فخرجوا فى نحو أربعمائة رجل من أنجادهم بما حضرهم من السكاكين و العصىّ ليس فيهم حامل رمح و لا سيف إلّا قليلا، فرماهم على اليمانية و هم على غفلة، و ما فيهم من يبسط يد القتال، و لا ينهض لدفاع، فانهزمت اليمانية و وضعت المضرية السيف فيهم، فأبادوا منهم خلقا، و اختفى أبو الخطار تحت سرير رحى، فقبض عليه وجىء به إلى الصميل، فضرب عنقه، و قد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه فى ترجمة عبد الرحمن الداخل، و هو آخر سلاطين الأندلس الذين ولوها من غير موارثة، حتى جاءت الدولة المروانية.

و ذكر ابن حيان أنّ القائم بدولة يوسف و المستولى عليها الصّميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن الكلابى، و جدّه شمر هو قاتل الحسين، رضى اللّه تعالى عنه! و كان شمر قد فرّ من المختار بولده من الكوفة إلى الشام، فلمّا خرج كلثوم بن عياض للمغرب كان الصّميل فيمن خرج معه، و دخل الأندلس فى طالعة بلج، و كان شجاعا جوادا جسورا على قلب الدول،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۵

فبلغ ما بلغ، و آل أمره إلى أن قتله عبد الرحمن الداخل المروانى فى سجن قرطبة مخنوقا.

و ذكر ابن حيان أنه كان ممّن ثار على يوسف الفهرى عبد الرحمن بن علقمة اللخمى فارس الأندلس، و والى ثغر أربونة، و كان ذا بأس شديد و وجاهة عظيمة، فبينما هو فى تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه و أقبلوا برأسه إليه.

ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد فى أهل الذمّة و غيرهم، فملك إشبيلية، و كثر جمعه، إلى أن خرج له يوسف فقتله، و ثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدرى، فخرج له، و أنزله على أمان فى سكنى قرطبة، ثم ضرب عنقه بعد ذلك.

و قيل: إنّ أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق فى إشبيلية فظفر به فقتله، و ثار عليه فى كورة سرقسطة الحباب الزهرى إلى أن ظفر به يوسف فقتله، ثم جاءته الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس و سعيه فى إفساد سلطانه، فتمّ له ما أراده، و اللّه تعالى أعلم.

[۳۲- عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل]

۳۲- و من الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف بالداخل.

و ذلك أنه لمّا أصاب دولتهم ما أصاب، و استولى بنو العباس على ما كان بأيديهم، و استقرّ قدمهم فى الخلافة، فرّ عبد الرحمن إلى الأندلس، فنال بها ملكا أورثه عقبه حقبة من الدهر.

قال ابن حيان فى «المقتبس»: إنه لمّا وقع الاختلال فى دولة بنى أمية و الطلب عليهم، فرّ عبد الرحمن، و لم يزل فى فراره منتقلا بأهله و ولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجر و غياض، يريد المغرب، لما حصل فى خاطره من بشرى مسلمة، فممّا حكى عنه أنه قال:

إنى لجالس يوما فى تلك القرية فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى، و ابنى سليمان بكر ولدى يلعب قدّامى، و هو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبىّ من باب البيت فازعا باكيا فأهوى إلى حجرى، فجعلت أدفعه لما كان بى و يأبى إلّا التعلق، و هو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالرّوع قد نزل بالقرية، و نظرت فإذا بالرايات

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۶

السود عليها منحطة، و أخ لى حدث السنّ كان معى يشتدّ هاربا و يقول لى: النجاء يا أخى، فهذه رايات المسوّدة، فضربت بيدى على دنانير تناولتها، و نجوت بنفسى و الصبى أخى معى، و أعلمت أخواتى بمتوجّهى و مكان مقصدى، و أمرتهنّ أن يلحقننى و مولاى

بدر معهنّ، و خرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية، فما كان إلّا ساعة حتى أقبلت الخيل، فأحاطت بالدار، فلم تجد أثرا، و مضيت، و لحقنى بدر، فأتيت رجلا من معارفى بشطّ الفرات، فأمرته أن يبتاع لى دوابّ و ما يصلح لسفرى، فدلّ علىّ عبد سوء له العامل، فما راعنا إلّا جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا فى الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، و الخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثّا لنفسى و كنت أحسن السبح، و سبح الغلام أخى، فلمّا قطعنا نصف الفرات قصّر أخى و دهش، فالتفتّ إليه لأقوّى من قلبه، و إذا هو قد أصغى إليهم و هم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخى، إلىّ، إلىّ، فلم يسمعنى، و إذا هو قد اغتر بأمانهم، و خشى الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، و قطعت أنا الفرات، و بعضهم قد همّ بالتجرّد للسباحة فى أثرى، فاستكفّه أصحابه عن ذلك، فتركونى، ثم قدّموا الصبىّ أخى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، و مضوا برأسه و أنا أنظر إليه و هو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة، و مضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر و أنا ساع على قدمىّ، فلجأت إلى غيضة آشبة، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت أؤمّ المغرب حتى وصلت إلى إفريقية.

قال ابن حيان: و سار حتى إفريقية و قد ألحقت به أخته شقيقته أمّ الأصبغ مولاه بدرا، و مولاه سالما، و معهما دنانير للنفقة، و قطعة من جوهر، فنزل بإفريقية و قد سبقه إليها جماعة من فلّ بنى أمية، و كان عند و اليها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى يهودى حدثانى صحب مسلمة بن عبد الملك، و كان يتكهّن له و يخبره بتغلّب القرشى المروانى الذى هو من أبناء ملوك القوم، و اسمه عبد الرحمن، و هو ذو ضفيرتين يملك الأندلس و يورثها عقبه، فاتّخذ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۷

الفهرى عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلمّا جىء بعبد الرحمن و نظر إلى ضفيرتيه قال لليهودى: ويحك! هذا هو، و أنا قاتله، فقال له اليهودى: إنك إن قتلته فما هو به، و إن غلبت على تركه إنه لهو و ثقل فلّ بنى أمية على ابن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيرا منهم مخافة، و تجنّى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به، فقتلهما، و أخذ مالا كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، و غلبه على أخته فتزوّجها بكرهه، و طلب عبد الرحمن فاستخفى، انتهى.

و ذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفيا خمس سنين، و آل أمره فى سفره إلى أن استجار ببنى رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، و تقلّب فى قبائل البربر إلى أن استقرّ على البحر عند قوم من زنانة، و أخذ فى تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالى بنى أمية و شيعتهم بها، و كانت الموالى المروانية المدوّنة بالأندلس فى ذلك الأوان ما بين الأربعمائة و الخمسمائة، و لهم جمرة، و كانت رياستهم إلى شخصين: أبى عثمان عبيد اللّه بن عثمان، و عبد اللّه بن خالد، و هما من موالى عثمان، رضى اللّه تعالى عنه! و كانا يتوليان لواء بنى أمية يعتقبان حمله و رياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبى عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكّره فيه أيادى سلفه من بنى أمية و سببه بهم و يعرفه مكانه من السلطان و سعيه لنيله، إذ كان الأمر لجدّه هشام فهو حقيق بوراثته، و يسأله القيام بشأنه و ملاقاة من يثق به من الموالى الأموية و غيرهم، و يتلطّف فى إدخاله إلى الأندلس ليبلى عذرا فى الظهور عليها، و يعده بإعلاء الدرجة، و لطف المنزلة، و يأمره أن يستعين فى ذلك بمن يأمنه، و يرجو قيامه معه، و يأخذ فيه مع اليمانية ذوى الحنق على المضرية لما بين الحيين من التّرات، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، و بانت له فيه طماعية، و كان عند ورود بدر قد تجهّز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصّميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن، صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد اللّه بن خالد المذكور: لو كنّا ذاكرنا الصّميل خبر بدر و ما جاء به لنختبر ما عنده فى موافقتنا، و كانا على ثقة فى أنه لا يظهر على سرّهما أحدا لمروءته و أنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر و جلالة المنزلة فيتوقّع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فنمسح إذا على أمره، و نذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء و الأمان و طلب أخماس جدّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۸

هشام لـدينا ليتعيّش بها، لا يريد غير ذلك، فاتّفقا على هذا، فلمّا ودّعا الصّـميل خلوا به فى ذلك، و قد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف فى إبطـائه عن إمـداده لمـا حـاربه الحبـاب الزهرى بكورة سرقسـطة، فقـال لهما: أنا معكما فيما تحبّان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضـر سألنـا يوسف أن ينزله فى جواره و أن يحسن له، و يزوّجه بـابنته، فإن فعل و إلّا ضـربنا صـلعته بأسـيافنا، و صـرفنا الأمر عنه إليه، فشـكراه، و قبّلا يده، ثم ودّعاه، و أقام بطليطلة و قد ولّاه يوسف عليها و عزله عن الثغر، و انصـرفا إلى وطنهما بإلبيرة، و قد كانا لقيا من كـان معهمـا فى العسـكر من وجوه الناس و ثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاويـة، ثم دسّا فى الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فـدبّ أمره فيهم دبيب النار فى الجمر، و كانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التى دامت بالناس.

و فى روايـة أنّ الصّـميل لان لهما فى أن يطلب الأمر عبـد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبّر ذلك لما انصـرفا، فتراجع فيه، فردّهما، و قال: إنى روّيت فى الأمر الـذى أردته معكما فوجـدت الفتى الذى دعوتمانى إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن و أنتم فى بوله، و هـذا رجل نتحكّم عليه، و نميل على جوانبه، و لا يسـعنا بدل منه، و و اللّه لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لى فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصّـر حتى ألقاكما لئلّا أغركما من نفسـى، فإنى أعلمكما أنّ أوّل سيف يسلّ عليه سيفى، فبارك اللّه لكما فى رأيكما، فقالا له: مـا لنـا رأى إلّا رأيك، و لا مـذهب لنا عنك. ثم انصـرفا عنه على أن يعينهما فى أمره إن طلب غير السـلطان، و انفصـلا عنه إلى إلبيرة عازمين على التصـميم فى أمره، و يئسا من مضر و ربيعة، و رجعا إلى اليمانية، و أخذا فى تهييج أحقاد أهل اليمن على مضر، فوجداهم قوما قـد وغرت صدورهم عليهم، يتمنّون شـيئا يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، و اغتنما بعد يوسف صاحب الأندلس فى الثغر، و غيبـة الصّـميل، فابتاعا مركبا و وجّها فيه أحـد عشـر رجلا منهم مع بـدر الرسول، و فيهم تمام بن علقمة و غيره، و كان عبد الرحمن قد وجّه خـاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه فى طلب الأمر، فبثّوا من ذلك فى الجهات ما دبّ به أمرهم، و لمّا وجّه أبو عثمان المركب المذكور مع شـيعته ألفوه بشطّ مغيلة من بلاد البربر، و هو يصلّى، و كان قد اشتدّ قلقه و انتظاره لبدر رسوله، فبشّره بدر بتمكّن الأمر، و خرج إليه تمام مكثرا لتبشيره، فقال له

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۰۹

عبدالرحمن: ما اسـمك؟ قال: تمام، قال: و ما كنيتك؟ قال: أبو غالب، فقال: اللّه أكبر! الآن تمّ أمرنا و غلبنا بحول اللّه تعالى و قوته، و أدنى منزلـة أبى غالب لما ملك، و لم يزل حاجبه حتى مات عبـد الرحمن. و بادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، فلمّا همّ بذلك أقبـل البربر فتعرّضوا دونه، ففرقت فيهم من مـال كـان مع تمـام صـلات على أقـدارهم، حتى لم يبق أحـد حتى أرضـاه، فلمّـا صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عات منهم لم يكن أخذ شـيئا فتعلّق بحبل الهودج يعقل المركب، فحوّل رجل اسـمه شاكر يده بالسيف، فقطع يـد البربرى، و أعانتهم الريح على التوجّه بمركبهم، حتى حلّوا بساحل إلبيرة فى جهة المنكّب، و ذلك فى ربيع الآخر سـنة ۱۳۸، فأقبل إليه نقباء أبو عثمان و صـهره أبو خالد، فنقلاه إلى قرية طرش منزل أبى عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، و انثالت عليه الأموية، و جاءه جـدران بن عمرو المـذحجى من أهل مالقـة، فكان بعـد ذلك قاضـيه فى العساكر، و جاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبى من إشبيلية فاسـتوزره، و انثال عليه الناس انثيالا، فقوى أمره مع الساعات فضـلا عن الأيام، و أمدّه اللّه تعالى بقوّة عالية، فكان دخوله قرطبة بعـد ذلك بسـبعة أشـهر. و كان خبر دخوله للأنـدلس قد صادف صاحبها يوسف الفهرى بالثغر، و قد قبض على الحباب الزهرى الثائر بسرقسـطة، و على عامر العبـدرى الثائر معه، فبينما هو بوادى الرمل بمقربـة من طليطلة و قد ضـرب عنق عامر العبدرى و ابن عامر برأى الصّـميل إذ جاءه قبل أن يـدخل رواقه رسول يركض من عنـد ولـده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن و نزوله بساحل جند دمشق، و اجتماع الموالى المروانية إليه، و تشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر فى العسكر لوقته، و شمت الناس بيوسف لقتله القرشيين عامرا و ابنه، و ختره بعهدهما، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، و تنادوا بشعارهم، و قوّضوا عن عسكره.

و اتّفق أن جـادت السـماء بوابـل لا عهـد بمثله لما شاء اللّه تعالى من التضـييق على يوسف، فأصـبح و ليس فى عسـكره سوى غلمانه و خاصّته و قوم الصّميل قيس و أتباعه، فأقبل إلى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۰

طليطلة و قال للصّميل: ما الرأى؟ فقال: بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره، فإنّى لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا، فقال له يوسف: أ تقول ذلك؟ و مع من نسير إليه و أنت ترى الناس قد ذهبوا عنا؟ و قد أنفضنا من المال، و أنضينا الظهر، و نهكتنا المجاعة فى سفرتنا هذه، و لكن نسير إلى قرطبة، فنستأنف الاستعداد له، بعد أن ننظر فى أمره و يتبيّن لنا خبره، فلعلّه دون ما كتب إلينا. فقال الصميل: الرأى ما أشرت به عليك، و ليس غيره، و سوف تتبيّن غلطك فيما تنكبه، و مضوا إلى قرطبة. و سار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية، و تلقّاه رئيس عربها أبو الصباح بن يحيى اليحصبى، و اجتمع الرأى على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة، فلمّا نزلوا بطشانة قالوا: كيف نسير بأمير لا لواء له و لا علم نهتدى إليه؟ فجاؤوا بقناة و عمامة ليعقدوها عليه، فكرهوا أن يميلوا القناة لتعقد تطيّرا فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين، فصعد رجل فرع إحداهما فعقد اللواء و القناة قائمة، كما سيأتى، و حكى أنّ فرقدا العالم صاحب الحدثان مرّ بذلك الموضع، فنظر إلى الزيتونتين، فقال: سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء إلّا كسره، فكان ذلك اللواء يسعد به هو و ولده من بعده، و لمّا أقبل إلى قرطبة خرج له يوسف، و كانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفا، و لم يكن عيش عامّة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من إشبيلية إلّا الفول الأخضر الذى يجدونه فى طريقهم، و كان الزمان زمان ربيع، فسمّى ذلك العام عام الخلف، و كان نهر قرطبة حائلا، فسار يوسف من قرطبة و أقبل ابن معاوية على برّ إشبيلية و النهر بينهما، فلمّا رأى يوسف تصميم عبد الرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر محاذيا له، فتسايرا و النهر حاجز بينهما، إلى أن حلّ يوسف بصحراء الصارة غربى قرطبة، و عبد الرحمن فى مقابلته، و تراسلا فى الصلح، و قد أمر يوسف بذبح الجزر، و تقدم بعمل الأطعمة، و ابن معاوية آخذ فى خلاف ذلك قد أعدّ للحرب عدّتها، و استكمل أهبتها، و سهر الليل كلّه على نظام أمره، كما سنذكره، ثم انهزم أهل قرطبة، و ظفر عبد الرحمن الداخل، و نصر نصرا لا كفاء له، و انهزم الصّميل، و فرّ إلى شوزر من كورة جيّان، و فرّ يوسف إلى جهة ماردة.

و ذكر أن أبا الصّبّاح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف: يا معشر يمن، هل لكم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۱

إلى فتحين فى يوم؟ قد فرغنا من يوسف و صميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية، فيصير الأمر لنا، نقدم رجلا منّا، و نحل عنه المضرية، فلم يجبه أحد لذلك، و بلغ الخبر عبد الرحمن فأسرّها فى نفسه إلى أن اغتاله بعد عام، فقتله.

و لمّا انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام، حتى أخرج عيال يوسف من القصر، و عفّ، و أحسن السيرة، و لمّا حصل بدار الإمارة، و حلّ محلّ يوسف، لم يستقرّ به قرار من إفلات يوسف و الصّميل، فخرج فى إثر عدوه و استخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان، و استكتب كاتب يوسف أمية بن زياد، و استنام إليه إذ كان من موالى بنى أمية، و نهض فى طلب يوسف، فوقع يوسف على خبره، فخالفه إلى قرطبة، و دخل القصر، و تحصّن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان، و لم يزل عنده إلى أن عقد الصلح بينه و بين ابن معاوية، و كان عقد الصلح المشتمل عليه و على وزيره الصّميل فى صفر سنة ۱۳۹، و شارطه على أن يخلّى بينه و بين أمواله حيثما كانت، و أن يسكن بلاط الحر منزلة بشرقى قرطبة- على أن يختلف كلّ يوم إلى ابن معاوية و يريه وجهه، و أعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود محمد بن يوسف، زيادة على ابنه عبد الرحمن الذى أسره ابن معاوية يوم الوقعة، و رجع العسكران و قد اختلطا إلى قرطبة.

و ذكر ابن حيان أن يوسف بن عبدالرحمن نكث سنة ۱۴۱، فهرب من قرطبة، و سعى بالفساد فى الأرض، و قد كانت الحال اضطربت به فى قرطبة، و دسّ له قوم قاموا عليه فى أملاكه، زعموا أنه غصبهم إياها، فدفع معهم إلى الحكام، فأعنتوه، و حمل عنه فى التألم بذلك كلام رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به و التخويف منه، فاشتدّ توحّشه، فخرج إلى جهة ماردة، و اجتمع إليه عشرون ألفا من أهل الشتات، فغلظ أمره، و حدّثته نفسه بلقاء ابن معاوية، فخرج نحوه من ماردة، و خرج ابن معاوية من

قرطبة، فبينما ابن معاوية فى حصن المدوّر مستعدّا، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب إشبيلية، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزما، و استحرّ القتل فى أصحابه، فهلك منهم خلق كثير، و سار يوسف لناحية طليطلة، فلقيه فى قرية من قراها عبد اللّه بن عمرو الأنصارى، فلمّا عرفه قال لمن معه: هذا الفهرى يفرّ، قد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۲

ضاقت عليه الأرض، و قتله الراحة له، و الراحة منه. فقتله، و احتزّ رأسه، و قدم به إلى عبد الرحمن، فلمّا قرب و أوذن عبد الرحمن به أمره أن يتوقّف به دون جسر قرطبة، و أمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده، و ضمّ إلى رأسه رأسه، و وضعا على قناتين مشهّرين إلى باب القصر. و كان عبد الرحمن لمّا فرّ يوسف قد سجن وزيره الصّميل لأنه قال له: أين توجه؟ فقال: لا أعلم، فقال: ما كان ليخرج حتى يعلمك، و مع ذلك فإنّ ولدك معه، و أكّد عليه فى أن يحضره، فقال: لو أنه تحت قدمى هذه ما رفعتها لك عنه، فاصنع ما شئت، فحينئذ أمر به للحبس و سجن معه ولدى يوسف أبا الأسود محمدا المعروف بعد بالأعمى و عبد الرحمن، فتهيّأ لهما الهرب من نقب، فأمّا أبو الأسود فنجا سالما، و اضطرب فى الأرض يبغى الفساد إلى أن هلك حتف أنفه، و أمّا عبدالرحمن فأثقله اللحم فانبهر، فردّ إلى الحبس، حتى قتل كما تقدّم، و أنف الصميل من الهرب، فأقام بمكانه، فلمّا قتل يوسف أدخل ابن معاوية على الصّميل من خنقه، فأصبح ميتا، فدخل عليه مشيخة المضرية فى السجن، فوجدوه ميتا، و بين يديه كأس و نقل، كأنه بغت على شرابه، فقالوا: و اللّه إنّا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها و لكن سقيتها.

و ممّا ظهر من بطش الأمير عبد الرحمن بن معاوية و صرامته فتكه بأحد دعائم دولته رئيس اليمانية أبى الصباح بن يحيى، و كان قد ولّاه إشبيلية و فى نفسه منه ما أوجب فتكه به.

و من ذلك النوع حكايته مع العلاء بن مغيث اليحصبى، إذ ثار بباجة، و كان قد وصل من إفريقية على أن يظهر الرايات السود بالأندلس، فدخل فى ناس قليلين، فأرسى بناحية باجة، و دعا أهلها و من حولهم، فاستجاب له خلق كثير، إلى أن لقيه عبد الرحمن بجهة إشبيلية فهزمه، و جىء به و بأعلام أصحابه، فقطع يديه و رجليه، ثم ضرب عنقه و أعناقهم، و أمر فقرّطت الصّكاك فى آذانهم بأسمائهم، و أودعت جوالقا محصنا، و معها اللواء الأسود، و أنفذ بالجوالق تاجرا من ثقاته، و أمره أن يضعه بمكّة أيام الموسم، ففعل، و وافق أبا جعفر المنصور قد حجّ، فوضعه على باب سرادقه، فلمّا كشفه و نظر إليه سقط فى يده، و استدعى عبد الرحمن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۳

و قال: عرضنا هذا البائس- يعنى العلاء- للحتف، ما فى هذا الشيطان مطمع، فالحمد للّه الذى صيّر هذا البحر بيننا و بينه.

و لمّا أوقع عبد الرحمن باليمانية الذين خرجوا فى طلب ثأر رئيسهم أبى الصباح اليحصبى و أكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، و علم أنهم على دغل و حقد، فانحرف عنهم إلى اتّخاذ المماليك، فوضع يده فى الابتياع، فابتاع موالى الناس بكل ناحية، و اعتضد أيضا بالبرابر، و وجّه عنهم إلى برّ العدوة فأحسن لمن وفد عليه إحسانا رغّب من خلفه فى المتابعة.

قال ابن حيان: و استكثر منهم و من العبيد، فاتّخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالبا على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته و توطّدت.

و قال ابن حيان: كان عبدالرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئا من العجز، سريع النهضة، متّصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، و لا يسكن إلى دعة، و لا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعا، مقداما، بعيد الغور، شديد الحدّة، قليل الطمأنينة، بليغا، مفوّها، شاعرا، محسنا، سمحا، سخيّا، طلق اللسان، و كان يلبس البياض و يعتمّ به و يؤثره، و كان قد أعطى هيبة من وليّه و عدوّه، و كان يحضر الجنائز، و يصلّى عليها، و يصلّى بالناس إذا كان حاضرا الجمع و الأعياد، و يخطب على المنبر، و يعود المرضى، و يكثر مباشرة الناس و المشى بينهم، إلى أن حضر فى يوم جنازة فتصدّى له فى منصرفه عنها رجل متظلّم عامى وقاح ذو عارضة فقال له: أصلح اللّه الأمير! إنّ قاضيك ظلمنى، و أنا أستجيرك من الظلم، فقال له: تنصف إن صدقت، فمدّ

الرجل يده إلى عنانه و قال: أيها الأمير، أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك، فوجم الأمير و التفت إلى من حوله من حشمه، فرآهم قليلا و دعا بالقاضي، و أمر بإنصافه، فلمّا عاد إلى قصره كلّمه بعض رجاله ممّن كان يكره خروجه و ابتذاله فيما جرى، فقال له: إنّ هذا الخروج الكثير- أبقى اللّه تعالى الأمير!- لا يجمل بالسلطان العزيز، و إنّ عيون العامّة تخلق تجلته، و لا تؤمن بوادرهم عليه، فليس الناس كما عهدوا، فترك من يومئذ شهود الجنائز و حضور المحافل، و وكّل بذلك ولده هشاما.

و من نظم عبد الرحمن الداخل ما كتب به إلى أخته بالشام: [بحر الخفيف]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۴

أيها الراكب الميمّم أرضي اقر منّي بعض السلام لبعضي

إنّ جسمي كما تراه بأرض و فؤادي و مالكيه بأرض

قدّر البين بيننا فافترقنا و طوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الدهر بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

و كتب إلى بعض من وفد عليه من قومه لما سأله الزيادة في رزقه، و استقلّ ما قابله به و ذكّره بحقّه بهذه الأبيات: [بحر مخلع البسيط]

شتّان من قام ذا امتعاض منتضي الشّفرتين نصلا

فجاب قفرا و شقّ بحرا مساميا لجّة و محلا

دبّر ملكا و شاد عزّا و منبرا للخطاب فصلا

و جنّد الجند حين أودى و مصّر المصر حين أجلى

ثم دعا أهله إليه حيث انتؤوا أن هلمّ أهلا

فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا

فنال أمنا و نال شبعا و نال مالا و نال أهلا

أ لم يكن حقّ ذا على ذا أعظم من منعم و مولى

و حكى ابن حيان أن عبد الرحمن لمّا أذعن له يوسف صاحب الأندلس و استقرّ ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة، فانثالوا عليه، و والى القعود لهم في قصره عدّة أيام في مجالس يكلّم فيها رؤساءهم و وجوههم بكلام سرّهم و طيّب نفوسهم، مع أنه كساهم و أطعمهم و وصلهم، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين، يتدارسون كلامه، و يتهافتون بشكره، و يتهانون بنعمة اللّه تعالى عليهم فيه. و في بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال له: يا ابن الخلائف الراشدين، و السادة الأكرمين، إليك فررت، و بك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۵

عذت، من زمن ظلوم، و دهر غشوم، قلّل المال، و كثر العيال، و شعث الحال، فصيّر إلى نداك المآل، و أنت ولي الحمد و المجد، و المرجوّ للرّفد، فقال له عبد الرحمن مسرعا: قد سمعنا مقالتك، و قضينا حاجتك، و أمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعوذنّ و لا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة و الإلحاف في الطّلبة، و إذا ألمّ بك خطب أو حزبك أمر فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نستر عليك خلّتك، و نكفّ شمات العدوّ عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك و مالكنا عزّ وجهه بإخلاف الدعاء و صدق النيّة، و أمر له بجائزة حسنة، و خرج الناس يتعجّبون منه من حسن منطقه و براعة أدبه، و كفّ فيما بعد ذوي الحاجات عن مقابلته بها شفاها في مجلسه.

قال ابن حيان: و وقّع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخداع: أما بعد، فدعني من معاريض المعاذير، و

التعسّف عن جادة الطريق، لتمدّنّ يدا إلى الطاعة، و الاعتصام بحبل الجماعة، أو لأزوينّ بنانها عن رصف المعصية، نكالا بما قدمت يداك، و ما اللّه بظلّام للعبيد.

و فى «المسهب» أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالى، الذى يرتدّ عنه أكثر بنى مروان حسيرا.

و قد جرى بينه و بين مولاه بدر ما لا يجب إهماله، و ذلك أنه لمّا سعى بدر فى تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عجب و امتنان كادا يردان به حياض المنيّة، فأوّل ما بدأ به أن قال: بعنا أنفسنا و خاطرنا بها فى شأن من هانت عليه لمّا بلغ أقصى أمله. و قال و قد أمره بالخروج إلى غزاة: إنما تعبنا أوّلا لنستريح آخرا، و ما أرانا إلّا فى أشدّ ممّا كنّا، و أطال أمثال هذه الأقوال، و أكثر الاستراحة فى جانبه، فهجره و أعرض عنه، فزاد كلامه، و كتب له رقعة منها: أما كان جزائى فى قطع البحر، وجوب القفر، و الإقدام على تشتيت نظام مملكة و إقامة أخرى غير الهجر، الذى أهاننى فى عيون أكفائى، و أشمت بى أعدائى، و أضعف أمرى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۶

و نهيى عند من يلوذ بى، و بتر مطامع من كان يكرمنى و يحفدنى على الطمع و الرجاء، و أظن أعداءنا بنى العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا، فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

فلمّا وقف عبد الرحمن على رقعته اشتدّ غيظه عليه، فوقّع عليها: «وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، و سوء خطابك، و دناءة أدبك، و لئيم معتقدك، و العجب أنك متى أردت أن تبنى لنفسك عندنا متاتا أتيت بما يهدم كل متات مشيّد ممّا تمن به، ممّا قد أضجر الأسماع تكراره، و قدحت فى النفوس إعادته، ممّا استخرنا اللّه تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا فى هجرك و إبعادك، و هضنا جناح إدلالك، فلعلّ ذلك يقمع منك و يردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء اللّه تعالى، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرّك مكتوب فى مثالبنا، و خيرك معدود فى مناقبنا». فلمّا ورد هذا الجواب على بدر سقط فى يده، و سلم للقضاء، و علم أنه لا ينفع فيه قول، و وجّه عبد الرحمن من استأصل ماله، و ألزمه داره، و هتك حرمته، و قصّ جناح جاهه، و صيّره أهون من قعيس على عمّته، و مع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه، تارة يستلينه، و تارة يذكره، و تارة ينفث مصدورا بخطّ قلمه ما يلقيه عليه بلسانه، غير مفكر فيما يؤول إليه، إلى أن كتب له: قد طال هجرى، و تضاعف همّى و فكرى، و أشدّ ما علىّ كونى سليبا من مالى، فعسى أن تأمر لى بإطلاق مالى و أتّحد به فى معزل لا أشتغل بسلطان، و لا أدخل فى شىء من أموره ما عشت، فوقّع له: إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته، و لا سبيل إلى ردّ مالك، فإنّ تركك بمعزل فى بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد و التخلّى من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك، فإن اليأس مريح. فسكت لمّا وقف على هذه الإجابة مدّة إلى أن أتى عيد فاشتدّ به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به و همهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه فى ذلك رقعة منها: «و قد أتى هذا العيد الذى خالفت فيه أكثر من أساء إليك و سعى فى خراب دولتك، ممّن عفوت عنه، فتبنّك النعمة فى ذراك، و اقتعد ذروة العزّ، و أنا على ضدّ من هذا سليبا من النعمة، مطّرحا حضيض الهوان، أيأس ممّا يكون، و أقرع السنّ على ما كان». فلمّا وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر، و كتب له على ظهر رقعته: «لتعلم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۷

أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، و قد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فباللّه إلّا ما أقصرت، و لا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق معى الدنيا، و رأيتك تشكو لفلان و تتألّم من فلان، و ما تقوّلوه عليك، و ما لك عدوّ أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك».

و لمّا فتح الداخل سرقسطة، و حصل فى يده ثائرها الحسين الأنصارى، و شدخت رؤوس وجوهها بالعمد، و انتهى نصره فيها إلى غاية أمله، أقبل خواصّه يهنّئونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند، فهنّأه بصوت عال، فقال: و اللّه لو لا أن هذا اليوم يوم أسبغ علىّ فيه النعمة من هو فوقى فأوجب علىّ ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال، من تكون حتى

تقبل مهنّئا رافعا صوتك غير متلجلج و لا- متهيّب لمكان الإمارة و لا- عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟ و إنّ جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة، فقال: و لعلّ فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتّصال جهلى و ذنوبى، فتشفع لى متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه اللّه تعالى، فتهلّل وجه الأمير، و قال: ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال: نبّهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبّهنا عليها، و رفع مرتبته، و زاد فى عطائه.

و لمّا أنحى أصحابه على أصحاب الفهرى بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال: لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم، و استبقوهم لأشدّ عداوة منهم، يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين.

و لمّا اشتدّ الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهرى، و رأى شدّة مقاساة أصحابه، قال: هذا اليوم هو أسّ ما يبنى عليه، إمّا ذلّ الدهر و إمّا عزّ الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقيّة أعماركم فيما تشتهون.

و لمّا خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر، فقال: إنى محتاج لما يزيد

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۸

فى عقلى، لا لما ينقصه، فعرفوا بذلك قدره، ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها و قال: إن هذه من القلب و العين بمكان، و إن أنا اشتغلت عنها بهمّتى فيما أطلبه ظلمتها، و إن اشتغلت بها عمّا أطلبه ظلمت همتى، و لا حاجة لى بها الآن، و ردّها على صاحبها.

و لمّا استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنه قال: لولا أنا ما توصّل لهذا الملك، و لكان منه أبعد من العيّوق، و أن آخر قال: سعده أعانه، لا عقله و تدبيره، فحركه ذلك إلى أن قال: [بحر الكامل]

لا يلف ممتنّ علينا قائل لولاى ما ملك الأنام الداخل

سعدى و حزمى و المهنّد و القنا و مقادر بلغت و حال حائل

إنّ الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا و نجم آفل

و الحزم كلّ الحزم أن لا يغفلوا أ يروم تدبير البريّة غافل؟

و يقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

أبنى أميّة قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما و السعود قبائل

ما دام من نسلى إمام قائم فالملك فيكم ثابت متواصل

و حكى ابن حيان أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام حدّثوه يوما فى بعض مجالسهم عنده ما كان من الغمر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم، و كلامه لعبد اللّه بن على بن عبد اللّه بن عباس الساطى بهم، و قد حضروا رواقه و فيه وجوه المسوّدة من دعاة القوم و شيعتهم رادّا على عبد اللّه فيما أراقه من دماء بنى أمية، و سلبهم و البراءة منهم، فلم تردعه هيبته و عصف ريحه و احتفال جمعه عن معارضته و الردّ عليه بتفضيله لأهل بيته و الذبّ عنهم، و أنه جاء فى ذلك بكلام غاظ عبد اللّه و أغصّه بريقه، و عاجل الغمر بالحتف، فمضى و خلف فى الناس ما خلف من تلك المعارضة فى ذلك المقام، و كثر القوم فى تعظيم ذلك، فكأنّ الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذى كان من الغمر فى جنب ما كان منه فى الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوّهم، و الأنف من طاعتهم، و السعى فى اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه، و قام عن مجلسه، فصاغ هذه الأبيات بديهة: [بحر مخلع البسيط]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۱۹

شتّان من قام ذا امتعاض فمرّ ما قال و اضمحلا

و من غدا مصلتا لعزم مجرّدا للعداة نصلا

فجاب قفرا و شقّ بحرا و لم يكن فى الأنام كلّا

فشاد ملكا و شاد عزّا و منبرا للخطاب فصلا

و جنّد الجند حين أودى و مصّر المصر حين أجلى

ثم دعا أهله جميعا حيث انتؤوا أن هلمّ أهلا

و له غير ذلك من الشعر، و سيأتى بعضه ممّا يقارب هذه الطبقة.

و أول ناصر لعبد الرحمن سائر معه فى الخمول و الاستخفاء مولاه المتقدّم الذكر، سعى فى سلطانه شرقا و غربا و برّا و بحرا، فلمّا كمل له الأمر سلبه من كل نعمة، و سجنه، ثم أقصاه إلى أقصى الثغر، حتى مات و حاله أسوأ حال، و اللّه تعالى أعلم بالسرائر، فلعلّ له عذرا و يلومه من يسمع مبدأه و مآله.

و رأس الجماعة الذين توجّه إليهم بدر فى القيام بسلطانه أبو عثمان، و لمّا توطّدت دولة الداخل استغنى عنه و عن أمثاله، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره، و ينظر فى شىء يحتاج به إليه، فجعل ابن أخيه يثور عليه فى حصن من حصون إلبيرة، فوجّه عبد الرحمن من قبض عليه و ضرب عنقه، ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخى الداخل، و زيّن له القيام عليه، فسعى لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتمّ أمره، فرب عنقه و أعناق الذين دبّروا معه، و قيل له: إن أبا عثمان كان معه، و هو الذى ضمن له تمام الأمر، فقال: هو أبو سلمة هذه الدولة، فلا يتحدّث الناس عنه بما تحدّثوا عن بنى العباس فى شأن أبى سلمة، لكن سأعتبه عتبا أشدّ من القتل،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۰

و جعل يوعده، و رجع له إلى ما كان عليه فى الظاهر.

و كان صاحبه الثانى فى المؤازرة و القيام بالدولة صهره عبد اللّه بن خالد، و كان قد ضمن لأبى الصباح رئيس اليمانية عن الداخل أشياء لم يف بها الداخل، و قتل أبا الصباح، فانعزل عبد اللّه و أقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته، فمات منفردا عن السلطان.

و كان ثالثهما فى النصرة و الاختصاص تمّام بن علقمة، و هو الذى عبر البحر إليه و بشّره باستحكام أمره، فقتل هشام بن عبد الرحمن ولد تمام المذكور، و كذلك فعل بولد أبى عثمان المتقدّم الذكر. قال ابن حيان: فذاقا من ثكل ولديهما على يدى أعزّ الناس عليهما ما أراهما أنّ أحدا لا يقدر أن ينظر فى تحسين عاقبته.

و إذا تتبّع الأمر فى الذين يقومون فى قيام دولة كان مآلهم مع من يظهرونه هذا المآل و أصعب.

و ذكر أن أول حجّاب الداخل تمام بن علقمة مولاه ذو العمر الطويل، ثم يوسف بن بخت الفارسى، مولى عبد الملك بن مروان، و له بقرطبة عقب نابه، ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبى شمر الغسانى، ثم عبد الرحمن بن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى، و أبوه مغيث فاتح قرطبة، الذى تقدمت ترجمته، ثم منصور الخصىّ، و كان أول خصىّ استحجبه بنو مروان بالأندلس، و لم يزل حاجبه إلى أن توفى الداخل.

و لم يكن للداخل من يطلق عليه سمة وزير، لكنه عيّن أشياخا للمشاورة و المؤازرة، أولهم أبو عثمان المتقدّم الذكر، و عبد اللّه بن خالد السابق الذكر، و أبو عبدة صاحب إشبيلية، و شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان بن الحكم، و كان من سبى البرابر، و قيل:

إنه رومى، و بنو شهيد الفضلاء من نسله، و عبد السلام بن بسيل الرومى مولى عبد اللّه بن معاوية، و لولده نباهة عظيمة فى الوزارة و غيرها، و ثعلبة بن عبيد بن النظام الجذمى صاحب سرقسطة لعبد الرحمن، و عاصم بن مسلم الثقفى من كبار شيعته و أول من خاض النهر و هو عريان يوم الوقعة بقرطبة، و لعقبه فى الدولة نباهة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۱

و أول من كتب له عند خلوص الأمر له و احتلاله بقرطبة كبير نقبائه أبو عثمان و صاحبه عبد اللّه بن خالد المتقدّما الذكر، ثم لزم كتابته أميّة بن يزيد مولى معاوية بن مروان، و كان فى عديد من يشاوره أيضا و يفضل أمره و آراءه، و كان يكتب قبله ليوسف الفهرى، و قيل: إنه ممّن اتّهم فى ممالأة اليزيدى فى إفساد دولة عبد الرحمن، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدى و اطلاع عبد الرحمن

على الأمر.

و ذكر ابن زيدون أن الداخل ألفى على قضاء الجماعة بقرطبة يحيى بن يزيد اليحصبى، فأقرّه حينًا، ثم ولّى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصى، ثم عمر بن شراحيل، ثم عبد الرحمن بن طريف، و كان جدار بن عمرو يقضى فى العساكر.

و كان الداخل يرتاح، لمّا استقرّ سلطانه بالأندلس، إلى أن يفد عليه فلّ بيته بنى مروان، حتى يشاهدوا ما أنعم اللّه تعالى عليه، و تظهر يده عليهم، فوفد عليه من بنى هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية و ابن عمّه عبد السلام بن يزيد بن هشام. قال ابن حيان:

و فى سنة ۱۶۳ قتل الداخل عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى، و قتل معه من الوافدين عليه عبيد اللّه بن أبان بن معاوية بن هشام المعروف باليزيدى، و هو ابن أخى الداخل، و كانا تحت تدبير يبرمانه فى طلب الأمر، فوشى بهما مولى لعبيد اللّه بن أبان، و كان قد ساعدهما على ما همّا به من الخلاف أبو عثمان كبير الدولة، فلم ينله ما نالهما.

و ذكر الحجارى أن الداخل كان يقول: أعظم ما أنعم اللّه تعالى به علىّ بعد تمكّنى من هذا الأمر القدرة على إيواء من يصل إلىّ من أقاربى، و التوسّع فى الإحسان إليهم، و كبرى فى أعينهم و أسماعهم و نفوسهم بما منحنى اللّه تعالى من هذا السلطان الذى لا منّة على فيه لأحد غيره.

و ذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، فسعى فى طلب الأمر لنفسه، فقتله سنة ۱۶۷، و قتل معه من أصحابه هذيل بن الصّميل بن حاتم، و نفى أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العدوة بماله و ولده و أهله.

و فى «المسهب» حدّث بعض موالى عبد الرحمن الخاصّيين به أنه دخل على الداخل إثر قتله ابن أخيه المغيرة المذكور، و هو مطرق شديد الغمّ، فرفع رأسه إلىّ و قال: ما عجبى إلّا من هؤلاء القوم، سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن و النعمة، و خاطرنا فيه بحياتنا، حتى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۲

إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، و يسّر اللّه تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، و لمّا أويناهم و شاركناهم فيما أفردنا اللّه تعالى به حتى أمنوا و درّت عليهم أخلاف النعم هزّوا أعطافهم، و شمخوا بآنافهم، و سموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحنا اللّه تعالى، فخذلهم اللّه بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، و أدّى ذلك إلى أن ساء ظنّنا فى البرىء منهم، و ساء أيضا ظنّه فينا، و صار يتوقّع من تغيرنا عليه ما نتوقّع نحن منه، و إن أشدّ ما علىّ فى ذلك أخى والد هذا المخذول، فكيف تطيب لى نفس بمجاورته بعد قتل ولده و قطع رحمه؟! أم كيف يجتمع بصرى مع بصره؟ اخرج له الساعة فاعتذر إليه، و هذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه، و اعزم عليه فى الخروج عنى من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من برّ العدوة.

قال: فلمّا وصلت إلى أخيه فوجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء، فآنسته و عرفته، و دفعت له المال، و أبلغته الكلام، فتأوّه و قال: إن المشؤوم لا يكون بليغا فى الشؤم حتى يكون على نفسه و على سواه، و هذا الولد العاق الذى سعى فى حتفه قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العافية، و قنع بكسر بيت فى كنف من يحمل عنه معرّة الزمان و كلّه، و لا حول و لا قوة إلّا بالله، لا مردّ لما حكم به و قضاه، ثم ذكر أنه أخذ فى الحركة إلى برّ العدوة.

قال: و رجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله، فقال: إنه نطق بالحق، و لكن لا يخدعنى بهذا القول عمّا فى نفسه، و اللّه لو قدر أن يشرب من دمى ما عفّ عنه لحظة، فالحمد للّه الذى أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم، و أذلّهم بما نووه فينا.

و اعلم أنه دخل الأندلس أيام الداخل من بنى مروان و غيرهم من بنى أمية جماعة كثيرون سرد أسماءهم غير واحد من المؤرخين، و ذكر أعقابهم بالأندلس، و منهم جزىّ بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز، و سيأتى قريبا.

و قد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب و غيرهم جماعة كثيرون ظفّره اللّه تعالى بهم، و قد سبق ذكر بعضهم، و منهم الدعى الفاطمى البربرى بشنت مرية فأعيا الداخل أمره، و طال شرّه سنين متوالية، إلى أن فتك به بعض أصحابه فقتله.

و منهم حيوة بن ملاعب الحضرمى رئيس إشبيلية، و عبد الغفار بن حميد اليحصبى رئيس لبلة، و عمرو بن طالوت رئيس باجة، اجتمعوا و توجّهوا نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية أبى الصباح، فقتلوا فى هزيمة عظيمة، و قيل: نجوا بالفرار، فأمّنهم الداخل.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۳

و فى سنة ۱۵۷ ثار بسرقسطة الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الخزرجى، و شايعه سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى رأس الفتن، و آل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان، و قتل الداخل الحسين كما مرّ.

و فى سنة ۱۶۳ ثار الرحامس بن عبد العزيز الكنانى بالجزيرة الخضراء، فتوجّه له عبد الرحمن الداخل، ففرّ فى البحر إلى المشرق.

قال ابن حيان: كان مولد، عبد الرحمن الداخل سنة ۱۱۳، و قيل: فى التى قبلها، بالعلياء من تدمر، و قيل: بدير حنا من دمشق، و بها توفى أبوه معاوية فى حياة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، و كان قد رشّحه للخلافة- و بقبر معاوية المذكور استجار الكميت الشاعر حين أهدر هشام دمه- و توفى الداخل لست بقين من ربيع الآخر سنة ۱۷۱، و هو ابن سبع و خمسين سنة و أربعة أشهر، و قيل: اثنتان و ستون سنة، و دفن بالقصر من قرطبة، و صلّى عليه ابنه عبد اللّه.

و كان منصورا مؤيّدا مظفّرا على أعدائه، و قد سردنا من ذلك جملة، حتى قال بعضهم:

إنّ الراية التى عقدت له بالأندلس حين دخلها لم تهزم قط، و إنّ الوهن ما ظهر فى ملك بنى أمية إلّا بعد ذهاب تلك الراية، قال أكثر هذا مؤرخ الأندلس الثّبت الثقة أبو مروان بن حيّان، رحمه اللّه تعالى! و لا بأس أن نورد زيادة على ما سلف و إن تكرّر بعض ذلك، فنقول: قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذى قدّمنا ذكره، ما نصّه: كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، كثير الحزم، نافذ العزم، لم ترفع له قط راية على عدوّ إلّا هزمه، و لا بلد إلّا فتحه، شجاعا، مقداما، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، لا يخلد إلى راحة، و لا يسكن إلى دعة، و لا يكل الأمر إلى غيره، كثير الكرم، عظيم السياسة، يلبس البياض، و يعتمّ به، و يعود المرضى، و يشهد الجنائز، و يصلّى بالناس فى الجمع و الأعياد، و يخطب بنفسه، جنّد الأجناد، و عقد الرايات، و اتّخذ الحجّاب و الكتّاب، و بلغت جنوده مائة ألف فارس.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۴

و ملخّص دخوله الأندلس أنه لمّا اشتدّ الطلب على فلّ بنى أمية بالمشرق من وارثى ملكهم بنى العباس خرج مستترا إلى مصر، فاشتدّ الطلب على مثله، فاحتال حتى وصل برقة، ثم لم يزل متوغّلا فى سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى، و نزل بنفزة و هم أخواله، فأقام عندهم أياما ثم ارتحل إلى مغيلة بالساحل، فأرسل مولاه بدرا بكتابه إلى مواليهم بالأندلس عبيد اللّه بن عثمان و عبد اللّه بن خالد و تمام بن علقمة و غيرهم، فأجابوه و اشتروا مركبا و جهّزوه بما يحتاج إليه، و كان الذى اشتراه عبيد اللّه بن عثمان، و أركب فيه بدرا، و أعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة، و ركب معه علقمة بن تمام بن علقمة، و بينما هو يتوضّأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب فى لجّة البحر مقبلا- حتى أرسى أمامه، فخرج إليه بدر سابحا، فبشّره بما تمّ له بالأندلس، و بما اجتمع عليه الأمويون و الموالى، ثم خرج إليه تمام و من معه فى المركب فقال له: ما اسمك و ما كنيتك؟ فقال: اسمى تمام، و كنيتى أبو غالب، فقال: تم أمرنا و غلبنا عدوّنا إن شاء اللّه تعالى، ثم ركبوا المركب معه فنزل بالمنكّب، و ذلك غرة ربيع الأول سنة ۱۳۸.

فلمّا اتّصل خبر جوازه بالأموية أتاه عبيد اللّه بن عثمان و جماعة فتلقّوه بالإعظام و الإكرام، و كان وقت العصر، فصلّى بهم العصر، و ركبوا معه إلى قرية طرّش من كور إلبيرة فنزل بها، و أتاه بها جماعة من وجود الموالى و بعض العرب، فبايعوه و كان من أمره ما يذكر، و قيل: إنه أقام بإلبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالى بنى أمية و وجوه العرب، فخرج من إلبيرة إلى كورة ريّة فدخلت فى جماعته ثم بايعته أهلها و أجنادها، ثم ارتحل إلى شذونة ثم إلى مدور، ثم سار إلى إشبيلية.

و قال بعضهم: لمّا أراد عبد الرحمن قصد قرطبة عند دخوله الأندلس من المشرق نزل بطشّانة، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء، فجاؤوا بعمامة و قناة، فكرهوا أن يميلوا القناة تطيرا، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين، و صعد رجل على فرع إحداهما فعقد اللواء

و القناة قائمة، و تبرّك هو و ولده بهذا اللواء، فكان بعد أن بلى لا تحلّ منه العقدة التى عقدت أوّلا، بل تعقد فوقها الألوية الجدد، و هى مستكنة تحتها، و لم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، و قيل: إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، فاجتمع الوزراء على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۵

تجديد اللّواء، فلمّا رأوا تحت اللواء أسمالا خلقة ملفوفة معقدة جهلوها فاسترذلوها، و أمروا بحلّها و نبذها، و جدّدوا غيرها، و كان جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائبا، فحضر فى اليوم الثانى، و طولع بالقصّة، فأنكرها أشدّ إنكار، و ساءه ما فعلوه، و قال: إن جهلتم شأن تلك الأخلاق فكان ينبغى أن تتوقّفوا عن نبذها حتى تسألوا المشايخ و تتفكّروا فى أمرها، و خبرهم خبرها، فتطلّبوا تلك الأخلاق فلم توجد، و يقال كما قال ابن حيان: إنه لم يزل يعرف الوهن فى ملك بنى أمية بالأندلس من ذلك اليوم، و قد كان الذى عقده أوّلا عبد اللّه بن خالد من موالى بنى أمية، و كان والده خالد عقد لواء مروان بن الحكم جدّ عبد الرحمن الأعلى لمّا اجتمع عليه بنو أمية و بنو كلب بعد انقراض دولة بنى حرب على قتال الضحاك بن قيس الفهرى يوم مرج راهط، فانتصر على الضحاك و قتله، و لمّا عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشدّ حزن، و انفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام، و كانوا يرون أنها جرت بسبب اللواء لأنه لم ينهزم قطّ جيش كان تحته، على ما اقتضته حكمة اللّه التى لا تتوصّل إليها الأفكار، و تولّى حمل هذا اللواء لعبد الرحمن الداخل أبو سليمان داود الأنصارى، و لم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد الرحمن.

و لمّا تلاقى عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهرى بالقرب من قرطبة و تراسلا، فخادعه يومين آخرهما يوم عرفة من سنة ثمان و ثلاثين و مائة، أظهر عبد الرحمن قبول الصلح، فبات الناس على ذلك ليلة العيد، و كان قد أسرّ خلاف ما أظهر، و استعدّ للحرب، و لمّا أصبح يوم الأضحى لم ينشب أن غشيت الخيل، و وكّل عبد الرحمن بخالد بن زيد، الكاتب رسول يوسف جماعة، و أمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه، و إلّا فلا، فكان خالد يقول: ما كان شىء فى ذلك الوقت أحبّ إلىّ من غلبة عبد الرحمن الداخل عدوّ صاحبى، و ركب عبد الرحمن جوادا، فقالت اليمانية الذين أعانوه:

هذا فتّى حديث السنّ تحته جواد و ما نأمن أول ردعة يردعها أن يطير منهزما على جواده و يدعنا، فأتى عبد الرحمن أحد مواليه فأخبره بمقالتهم، فدعا أبا الصباح، و كان له بغل أشهب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۶

يسمّيه الكوكب، فقال له: إنّ فرسى هذا قلق تحتى، لا يمكننى من الرمى، فقدّم إلى بغلك المحمود أركبه، فقدّمه، فلمّا ركب اطمأنّ أصحابه، و قال عبد الرحمن لأصحابه: أى يوم هذا؟ قالوا: الخميس يوم عرفة، فقال: فالأضحى غدا يوم الجمعة، و المتزاحفان أموى و فهرى، و الجندان قيس و يمن، قد تقابل الأشكال جدا، و أرجو أنه أخو يوم مرج راهط، فأبشروا و جدّوا، فذكرهم يوم مرج راهط الذى كانت فيه الوقعة بين جدّه مروان بن الحكم و بين الضحاك بن قيس الفهرى، و كانت يوم جمعة و يوم أضحى، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك، فقتل الضحاك، و قتل معه سبعون ألفا من قبائل قيس و أحلافهم، و قيل: إنه لم يحضر مرج راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر: عبد الرحمن بن مسعدة الفزارى، و ابن هبيرة المحاربى، و صالح الغنوى، و كذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم الصّارة غربى قرطبة من قيس غير ثلاثة: جابر بن العلاء بن شهاب، و الحصين بن الدجن، العقيليان، و هلال بن الطفيل العبدى، و كان الظفر لعبد الرحمن، و انهزم يوسف، و صبر الصّميل بن حاتم بعده معذرا و عشيرته يحفونه، فلمّا خاف انهزامهم عنه تحوّل على بغله الأشهب معارضة لعبد الرحمن الداخل، فمرّ به أبو عطاء فقال له: يا أبا جوشن، احتسب نفسك، فإنّ للأشباه أشباها: أموى بأموى، و فهرى بفهرى، و كلبى بكلبى، و يوم أضحى بيوم أضحى، و يمنى بقيسى، و اللّه إنّى لأحسب هذا اليوم بمثل مرج راهط سواء، فقال له الصّميل، كبرت و كبر علمك، الآن تنجلى الغمّاء، و سحرك منتفخ، فانثنى أبو عطاء لوجهه منقلبا، و انهزم الصّميل، و ملك عبد الرحمن قرطبة.

و يوسف الفهرى هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى، بانى القيروان، و أمير معاوية على إفريقية و المغرب، و هو مشهور.

و أما الصّميل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن، و قيل: الصميل بن حاتم بن عمرو بن جندع بن شمر بن ذى الجوشن، كان جدّه شمر من أشراف الكوفة و هو أحد قتلة الحسين، رضى اللّه تعالى عنه! و دخل الصّميل الأندلس حين دخل كلثوم بن عياض المغرب غازيا، و ساد بها، و كان شاعرا كثير السكر أمّيا لا يكتب، و مع ذلك فانتهت إليه فى زمانه رياسة العرب بالأندلس، و كان أميرها يوسف الفهرى كالمغلوب معه، و كانت ولاية الفهرى الأندلس

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۷

سنة تسع و عشرين و مائة، فدانت له تسع سنين و تسعة أشهر، و عنه كما مرّ انتقل سلطانها إلى بنى أمية، و استفحل ملكهم بها إلى بعد الأربعمائة، ثم انتثر سلكهم، و باد ملكهم، كما وقع لغيرهم من الدول فى القرون السالفة، سنّة اللّه التى قد خلت فى عباده.

و كانت مدة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهرى و الصميل ستا و أربعين سنة و شهرين و خمسة أيام؛ لأن الفتح كان حسبما تقدّم لخمس خلون من شوّال سنة اثنتين و تسعين، و هزيمة يوسف يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان و ثلاثين و مائة، و اللّه غالب على أمره.

و حكى أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوما على جدّه هشام، و عنده أخوه مسلمة بن عبد الملك، و كان عبد الرحمن إذ ذاك صبيّا، فأمر هشام أن ينحّى عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين، و ضمّه إليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذا صاحب بنى أمية، و وزرهم عند زوال ملكهم، فاستوص به خيرا، قال: فلم أزل أعرف مزية من جدى من ذلك الوقت.

و كان الداخل يقاس بأبى جعفر المنصور فى عزمه و شدّته و ضبط المملكة، و وافقه فى أن أمّ كلّ منهما بربرية، و أنّ كلّا منهما قتل ابن أخيه، إذ قتل المنصور ابن السفاح، و قتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية.

و من شعر عبد الرحمن و قد رأى نخلة برصافته: [بحر الطويل]

تبدّت لنا وسط الرّصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى فى التغرّب و النّوى و طول اكتئابى عن بنىّ و عن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء و المنتأى مثلى

سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى يصحّ و يستمرى السّماكين بالوبل

و كان نقش خاتمه «باللّه يثق عبد الرحمن، و به يعتصم». و أشاع سنة ۱۶۳ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بنى العباس، و كاتب جماعة من أهل بيته و مواليه و شيعته، و عمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس فى طائفة، و يذهب بعامة من أطاعه، ثم أعرض عن ذلك بسبب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۸

أمر الحسين الأنصارى الذى انتزى عليه بسرقسطة، فبطل ذلك العزم.

و من شعر عبد الرحمن أيضا قوله يتشوّق إلى معاهد الشام: [بحر الخفيف]

أيها الراكب الميمّم أرضى اقر منّى بعض السلام لبعضى

إنّ جسمى كما علمت بأرض و فؤادى و مالكيه بأرض

قدّر البين بيننا فافترقنا و طوى البين عن جفونى غمضى

قد قضى اللّه بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

و ترجمة الداخل طويلة، و قد ذكر منها ما فيه مقنع، انتهى. و اللّه تعالى الموفق للصواب.

و فى بنائه جامع قرطبة يقول بعضهم: [بحر الطويل]

و أبرز فى ذات الإله و وجهه ثمانين ألفا من لجين و عسجد

و أنفقها فى مسجد زانه التّقى و قرّ به دين النبىّ محمد

ترى الذهب الوهّاج بين سموكه يلوح كلمح البارق المتوقّد

۳۳- و من الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبى.

دخل الأندلس، و كان شيخا مسنّا يروى عن أمّه عن عائشة، رضى اللّه تعالى عنها! إلّا أنه كان مندرا صاحب دعابة، و كان مختصّا بعبد الرحمن بن معاوية، و له منه مكانة لطيفة يدلّ بها عليه، و لمّا توفى حبيب بن عبدالملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، و كانت له من عبد الرحمن خاصّة لم تكن لأحد من أهل بيته، جعل عبد الرحمن يبكى و يجتهد فى الدعاء و الاستغفار لحبيب، و كان إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائما، و كانت له دالّة عليه و دعابة يحتملها منه، فأقبل عند استقباره كالمخاطب للمتوفّى علانية يقول: يا أبا سليمان، لقد نزلت بحفرة قلّما يغنى عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بعده، فأعرض عنه عبد الرحمن، و قد كاد التبسّم يغلبه، هكذا ذكره ابن حيّان، رحمه اللّه تعالى فى «المقتبس»، و نقله عنه الحافظ ابن الأبار.

۳۴- و من الداخلين إلى الأندلس جزى بن عبدالعزيز، أخو عمر بن عبد العزيز، رضى اللّه تعالى عنه!

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۳۲۸

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۲۹

دخل الأندلس، و مات فى مدّة الداخل، و كان من أولياء اللّه تعالى مقتفيا سبيل أخيه عمر بن عبد العزيز، رحمهما اللّه تعالى!.

۳۵- و منهم بكر بن سوادة بن ثمامة، الجذامى.

و يكنى أبا ثمامة، و جدّه صحابى، و كان بكر هذا فقيها كبيرا من التابعين، روى عن جماعة من الصحابة كعبد اللّه بن عمرو بن العاص و قيس بن سعد بن عبادة و سهل بن سعد السّاعدى و سفيان بن وهب الخولانى و حبّان بن سمح الصّدائى، و قيد اسمه الدارقطنى، رحمه اللّه تعالى، حبّان. بكسر الحاء المهملة، و بباء معجمة بواحدة- و نقله الأمير كذلك، و هو ممّن وفد على رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و شهد فتح مصر. قال ابن يونس: و يقال فيه حبان بالكسر، و حبّان بالفتح أصحّ، انتهى، و ضبطه بعضهم بالياء المثناة تحت.

رجع- و ممّن روى عنه بكر من الصحابة أبو ثور الفهمى، و أبو عميرة المزنى، و روى عن جماعة من التابعين أيضا كسعيد بن المسيّب و أبى سلمة بن عبد الرحمن و عروة بن الزبير و جماعة سواهم يكثر عددهم و يطول سردهم، منهم ربيعة بن قيس الحملى و أبو عبد الرحمن الحبلى و زياد بن نعيم الحضرمى و سفيان بن هانىء الجيشانى و سعيد بن شمر السبائى و عبد اللّه بن المستورد بن شداد الفهرى و عبد الرحمن بن أوس المزنى و زيادة بن ثعلبة البلوى و شيبان بن أمية القتبانى و عامر بن ذريح الحميرى و عمير بن الفيض اللخمى و أبو حمزة الخولانى و عياض بن فروخ المعافرى و مسلم بن مخشى المدبجى و هانىء بن معاوية الصدفى و غيرهم ممّن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم و ابن يونس.

و ممّن روى عن بكر المذكور عبد اللّه بن لهيعة و عمرو بن الحارث و جعفر بن ربيعة و أبو زرعة بن عبد الحكم الإفريقى و غيرهم.

قال ابن يونس: توفى بإفريقية فى خلافة هشام بن عبدالملك، و قيل: بل غرق فى مجاز الأندلس، سنة ثمان و عشرين و مائة، قال: و جدّه ثمامة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و له بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث.

و قال أبو بكر عبد اللّه بن محمد القيروانى المالكى فى تاريخه المسمّى ب «رياض النفوس» و قد ذكر بكرا هذا: إنه كان أحد العشرة التابعين، يعنى الموجّهين إلى إفريقية من قبل

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۰

عمر بن عبدالعزيز فى خلافته ليفقّهوا أهل إفريقية و يعلّموهم أمر دينهم، قال: و أغرب بحديث عن عقبة بن عامر، لم يروه غيره فيما علمت، حدّث عبد اللّه بن لهيعة عنه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف، و لا تنه عن منكر، و عليك بخاصّة نفسك». و حكى المالكى أيضا عن أبى سعيد بن يونس قال: كان فقيها مفتيا، سكن القيروان، و كانت وفاته كما تقدّم، و ذكره الحميدى فى الداخلين إلى الأندلس، و لم يذكره ابن الفرضى.

۳۶- و منهم زريق بن حكيم، أحد المعدودين فى الداخلين إلى الأندلس

، ذكره أبو الحسن بن النعمة عن أبى المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء القرطبى، و حكى أنه كتب ذلك من خطّه، و سمّاه مع جماعة منهم حبّان بن أبى جبلة و على بن أبى رباح و أبو عبد الرحمن الحبلى و حنش بن عبد اللّه الصنعانى و معاوية بن صالح و زيد بن الحباب العكلى، و انتهى عددهم بزريق هذا سبعة، و لم يذكره ابن الفرضى و لا غيره، قاله الحافظ أبو عبد اللّه القضاعى.

۳۷- و منهم زيد بن قاصد السّكسكى.

قال ابن الأبار: و هو تابعى، دخل الأندلس و حضر فتحها، و أصله من مصر، يروى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، رضى اللّه تعالى عنه! و روى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى، ذكره يعقوب بن سفيان، و أورد له حديثا؛ من كتاب الحميدى، انتهى.

۳۸- و منهم زرعة بن روح الشامى.

دخل الأندلس، و حدّث عنه ابنه مسلمة بن زرعة بحكاية عن القاضى مهاجر بن نوفل.

۳۹- و منهم محمد بن أوس بن ثابت، الأنصارى.

قال ابن الأبار: تابعى، دخل الأندلس، يروى عن أبى هريرة، قرأته بخطّ ابن حبيش، و قال أبو سعيد بن يونس مؤرّخ مصر: إنه يروى عنه الحارث بن يزيد و محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، و كان غزا المغرب و الأندلس مع موسى بن نصير، و يروى عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه! و قال الحميدى: إنه كان من أهل الدين و الفضل معروفا بالفقه، ولى بحر إفريقية سنة ثلاث و تسعين، و غزا المغرب و الأندلس مع موسى بن نصير، فيما حكاه ابن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۱

يونس صاحب تاريخ مصر، و كان على بحر تونس سنة ثنتين و مائة على ما حكاه عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم. و لمّا قتل يزيد بن أبى مسلم والى إفريقية اجتمع رأى أهلها عليه، فولّوه أمرهم، و ذلك فى خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان، إلى أن ولى بشر بن صفوان الكلبى إفريقية، و كان على مصر فخرج إليها و استخلف أخاه حنظلة، انتهى.

۴۰- و منهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم، الأموى.

فرّ من الشام خوفا من المسوّدة، فمرّ بمصر و مضى إلى الأندلس، و قد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فأكرمه و نوّه به، و ولّاه إشبيلية لأنه كان قعدد بنى أمية، ثم إنه لمّا وجد الداخل يدعو لأبى جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة، و ذكّره

بسوء صنيع بنى العباس ببنى أميـة، فتوقّف عبد الرحمن فى ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له، و ذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك: إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر. و لمّا زحف أهل غرب الأنـدلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبـد الرحمن أنهض إليهم عبـد الملك هذا، فنهض فى معظم الجيش، و قدّم ابنه أميـة أمامه فى أكثر العساكر، فخالطهم أميـة، فوجـد فيهم قوّة، فخاف الفضيحة معهم، فانحاز منهزما إلى أبيه، فلما جاءه سـقط فى يـده، و قـال له: مـا حملـك على أن استخففت بى و جرّأت الناس على و العـدوّ؟ إن كنت قـد فررت من الموت فقـد جئت إليه، فأمر بضـرب عنقه، و جمع أهل بيته و خاصّـته و قال لهم: طردنا من الشـرق إلى أقصـى هذا الصقع، و نحسد على لقمة تبقى الرمق، اكسروا جفون السـيوف، فالموت أولى أو الظفر، ففعلوا و حملوا، و تقـدّمهم، فهزم اليمانية و أهل إشبيلية، و لم تقم بعدها لليمانية قائمة، و قتل بين الفريقين ثلاثون ألفا، و جرح عبـد الملك، فأتاه عبد الرحمن و جرحه يجرى دما و سـيفه يقطر دما، و قد لصـقت يده بقائم سـيفه، فقبّل بيـن عينيـه، و جزّاه خيرا، و قـال له: يـا ابن عمّ، قـد أنكحت ابنى و ولى عهـدى هشامـا ابنتـك فلانـة، و أعطيتهـا كـذا و كـذا، و أعطيتك كذا، و لأولادك كذا، و أقطعتك و إياهم كذا، و ولّيتكم الوزارة.

و من شعره لمّا نظر نخلة منفردة بإشبيلية فتذّكر وطنه بالشام، و قال: [بحر الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۲

يا نخل، أنت فريدة مثلى فى الأرض نائية عن الأهل

تبكى و هل تبكى مكمّمة عجماء لم تجبل على جبل

و لو أنها عقلت إذا لبكت ماء الفرات و منبت النخل

لكنها حرمت و أخرجنى بغضى بنى العباس عن أهلى

[۴۱- و من الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم]

۴۱- و من الـداخلين من المشـرق إلى الأندلس هاشم بن الحسـين بن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن على بن الحسـين بن على بن أبى طالب، رضـى اللّه تعالى عنهم أجمعين! و نزل حين دخوله بلبلـة، و تعرف منازلهم فيها بمنازل الهاشـمى، و ذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر فى كتابه «أنساب الطالبيين و العلويين القادمين إلى المغرب».

۴۲- و من الداخلين إلى الأندلس عبد اللّه بن المغيرة، الكنانى، حليف بنى عبد الدار.

سمّاه أبو محمـد الأصـيلى الفقيه فى الداخلين الأندلس من التابعين، حكى ذلك عنه أبو القاسم بن بشـكوال فى مجموعه المسـمّى ب «التنبيه و التعيين»، قال ابن الأبار: و ما أراه يتابع عليه، و ذكره أبو سـعيد بن يونس من أهل إفريقية، انتهى، و ذكر أنه يروى عن سـفيان بن وهب الخولانى.

۴۳- و منهم عبد اللّه المعمر الذى طرأ على الأندلس فى آخر الزمان

، و كان يزعم أنه لقى بعض التابعين.

قال ابن الأبار: روى عنه أبو محمد أسد الجهنى، ذكر ذلك القيسىّ، و فيه عندى نظر، انتهى.

۴۴- و منهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب، المهرى

روى عن أبى ذر، و قيل: عن أبى نضـرة عن أبى ذر، و عائشة و عمرو بن العاص و ابنه عبد اللّه و زيد بن ثابت و أبى نضـرة الغفارى و

عقبة بن عامر الجهنى و عوف بن مالك الأشجعى، و معاوية بن حديج و مسلمة بن مخلد و أبى رهم، ذكره ابن يونس فى تاريخ مصر،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۳

و سمّاه ابن بشكوال فى الداخلين الأندلس من التابعين، و روى ذلك عن الحميدى، قاله ابن الأبار، و قال ابن يونس: و آخر من حدّث عنه بمصر حرملة بن عمران.

۴۵- و من الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد اللّه بن سعيد بن عمّار بن ياسر

، رضى اللّه تعالى عنه!.

و قد ذكره ابن حيان فى مقتبسه، و أخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كتب له أن يدافع عبد الرحمن المروانى الداخل للأندلس، و كان المذكور إذ ذاك أميرا على اليمانية من جند دمشق، و إنما ركن إليه فى محاربة عبد الرحمن لما بين بنى عمّار و بنى أمية من الثأر بسبب قتل عمّار بصفّين، و كان عمّار، رضى اللّه تعالى عنه، من شيعة على، كرّم اللّه وجهه.

و هذا عبد اللّه بن سعيد هو جدّ بنى سعيد أصحاب القلعة الذين منهم عدّة رؤساء و أمراء و كتّاب و شعراء، و منهم صاحب «المغرب» و غير واحد ممّن عرّفنا به فى هذا الكتاب، و من مشاهيرهم أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد، صاحب أعمال غرناطة فى مدة الملثّمين، قال: هو القائل يفتخر: [بحر مخلع البسيط]

إن لم أكن للعلاء أهلا بما تراه فمن يكون

فكلّ ما أبتغيه دونى ولى على همّتى ديون

و من يرم ما يقلّ عنه فذاك من فعله جنون

فرع بأفق السماء سام و أصله راسخ مكين

و قوله: [بحر المجتث]

اللّه يعلم أنّى أحبّ كسب المعالى

و إنّما أتوانى عنها لسوء المآل

تحتاج للكدّ و البذ ل و اصطناع الرجال

دع كلّ من شاء يسمو لها بكلّ احتيال

فحالهم فى انعكاس بها و حالى حالى

و تراجمهم واسعة، و قد بسطت فى «المسهب» و «المغرب» و غيرهما، و قد قدّمنا فى الباب قبل هذا من أخبار بنى سعيد هؤلاء ما يثلج الصّدر فليراجع.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۴

[۴۶- أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد البخارى الحافظ]

۴۶- و من الوافدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث، التميمى، البخارى، الحافظ، نزيل مصر.

سمع ببخارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد و أخيه أحمد، و كانا يرويان معا عن عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى و عن أبى الفضل السليمانى ببيكند، و أبى عبد اللّه محمد بن أحمد المعروف بغنجار، و أبى يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبى و أقرانه باليمن، و

أبى القاسم تمام بن محمد الرازى بدمشق، و ابن أبى كامل بأطرابلس الشام، و أبى محمد عبدالغنى بن سعيد الحافظ بمصر، و له رواية عن أبى نصر الكلاباذى، و أبى عبد اللّه الحاكم، و أبى بكر بن فورك المتكلّم، و أبى العباس بن الحاج الإشبيلى، و أبى القاسم على بن أحمد الخزاعى، صاحب الهيثم بن كليب، و أبى الفضل العباس بن محمد الحدّاد التنيسى، و أبى الفتح محمد بن إبراهيم بن الجحدرى، و أبى بكر محمد بن داود العسقلانى، و هلال الحفار و صدقة بن محمد بن مروان الدمشقى، و لقى بإفريقية العابد وليّ اللّه سيدى محرز بن خلف التميمى مولاهم و صحبه، و قال: لقد هبته يوم لقيته لا هيبة لم أجدها لأحد فى نفسى من الناس، و دخل الأندلس و بلاد المغرب، و كتب بها عن شيوخها، و لم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عمّن دونه، و له «رسالة الرحلة و أسبابها و قول لا إله إلّا اللّه و ثوابها»، فسمع منه أبو عبد اللّه الرازى و ذكره فى مشيخته، قال الحافظ ابن الأبار: و منها نقلت اسمه و تعرّفت دخوله الأندلس، و حدّث عنه هو و جماعة منهم أبو مروان الطبنى. و قال: هو من الرحالين فى الآفاق، أخبرنى أنه يحدّث عن مئين من أهل الحديث. و أبو عبد اللّه الحميدى، و أبو بكر الطّليطلى، و أبو عبد اللّه بن منصور الحضرمى، و أبو سعيد الرهاوى، و أبو محمد جعفر بن محمد السراج، و أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقى، و أبو الحسن بن مشرف الأنماطى، و أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى، و أبو محمد شعيب بن سبعون الطرطوشى، و أبو بكر بن نعمة العابد، و أبو الحسن على بن الحسين الموصلى الغراف، و أبو عثمان سعد بن عبد اللّه الحيدرى من شيوخ السلفى، و أبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمى، و أبو إسحاق الكلاعى من شيوخ أبى بحر الأسدى، و أبو محمد بن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۵

و لم يعرف ذلك فى حياته. و سمّاه أبو الوليد بن الدباغ فى الطبقة العاشرة من طبقات أئمّة المحدّثين من تأليفه، مع أبى عمر بن عبد البرّ، و أبى محمد بن حزم، و أبى بكر بن ثابت الخطيب، و ذكره أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه، و قال: سمع بما وراء النهر و العراق و مصر و اليمن و القيروان، ثم سكن مصر، و قدم دمشق قديما و حدّث بها، و سمّى جماعة كثيرة من الرواة عنه، و حكى أنه قال: لى ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضى و أجيء بها، قال: و سئل عن مولده، فقال: فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين و ثمانين و ثلاثمائة، قال:

و توفى بالحوراء سنة إحدى و سبعين و أربعمائة، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه! انتهى.

قلت: و الذى أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث، و هو ثقة عدل ليس له مجازفة، و الحقّ أبلج.

۴۷- و ممّن دخل الأندلس من المشرق عبد الجبار بن أبى سلمة الفقيه عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عوف، القرشى، الزهرى.

دخل الأندلس مع موسى بن نصير، و كان على ميسرة معسكره، و نزل باجة ثم بطليوس، و من نسله الزّهريون الأشراف الذين كانوا بإشبيلية انتقلوا إلى سكناها قديما، هكذا فى خبر القاضى أبى الحسين الزهرى منهم عن أبى بكر بن خير و غيره، قال ابن بشكوال فى مجموعه المسمّى ب «التنبيه و التعيين، لمن دخل الأندلس من التابعين»: عبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف من التابعين، وقع ذكره فى كتاب شيخنا أبى الحسن بن مغيث، انتهى.

قال ابن الأبار: و لم يزد على هذا، انتهى.

۴۸- و من الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد اللّه بن عبد الوهاب.

من أهل مصر، و سكن بغداد، و يعرف بالطندتائى، قرية بمصر نسب إليها، روى عن أبى محمد الشارمساحى، و تفقّه به، و قدم الأندلس رسولا بزعمه من عند الخليفة العباسى، فسكن مرسية، و درس بها، و خرج منها سنة اثنتين و أربعين و ستمائة بعد أن تملّكها النصارى صلحا، و أسر بناحية صقلية، قال ابن الأبار: ثم بلغنى أنه تخلّص و لحق ببلده، رحمه اللّه تعالى!.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۶

۴۹- و منهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب، يكنى أبا القاسم.

قال ابن الأبار: لا أعرف موضعه من بلاد المشرق، و كان أديبا قوىّ العارضة، مطبوع الشعر، مديد النفس، و من شعره من قصيدة صنعها فى وقت رحلته إلى الأندلس قوله: [بحر الطويل]

على الذلّ أو فاحلل عقال الركائب و للضّيم أو فاحلل صدور الكتائب

فإمّا حياة بعد إدراك منية و إمّا ممات تحت عزّ القواضب

فما العيش فى ظلّ الهوان بطيّب و ما الموت فى سبل العلاء بعائب

۵۰- و منهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبى الطاهر أحمد بن محمد بن هبة اللّه، الهاشمى، الصدفى.

من أهل بغداد، يعرف بالنّرسى، دخل الأندلس، و كان يزعم أنه روى عن أبى الوقت السّجزى و أبى الفرج بن الجوزى و غيرهما، و له تأليف سمّاه بالدّليل فى الطريق، من أقاويل أهل التحقيق» ذكره أبو عبد اللّه محمد بن سعيد الطراز و ضعّفه بعد ما سمع منه، أخذ عنه و سمع منه هو و أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلى و غيرهما، و قال: ورد علينا غرناطة قريبا من سنة ثلاث عشرة و ستمائة، و توفى- عفا اللّه تعالى عنه-! بإشبيلية قريبا من هذا التاريخ، و قال فيه أبو القاسم بن فرقد: عبد اللطيف بن عبد اللّه الهاشمى البغدادى النرسى، منسوب إلى قرية من قرى بغداد، سمع صحيح البخارى من أبى الوقت السّجزى، و روى عن غيره، و له تآليف. قال ابن الأبار: فى التصوّف، منها تأليف فى إباحة السماع، قرأت عليه أكثره، و قرأت عليه عوالى النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر و ستمائة.

۵۱- و منهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد، الخراسانى، الباخرزى، المالينى.

يكنى أبا بكر، سمع من أبى الخير أحمد بن إسماعيل الطالقانى القزوينى، و أبى يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدى الزنجانى، و قدم الأندلس، و حدّث بصحيفتى الأشجّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۷

و جعفر بن نسطور الرومى، و سمع منه بغرناطة و مرسية و غيرهما من بلاد الأندلس، و حدّث عنه أبو القاسم الملاحى، و سمع منه بمالقه أبو جعفر بن عبد الجبار و أبو على بن هاشم فى صفر سنة ۶۰۰، و مولده فى ربيع الأوّل سنة ۵۶۰، انتهى من تكملة ابن الأبّار.

قلت: و لا يخفى على من له بصر بعلم الحديث أن الأشج و ابن نسطور لا يلتفت إليهما، و يرحم اللّه تعالى السّلفى الحافظ إذ قال: [بحر الطويل]

حديث ابن نسطور و قيس و يعنم و بعد أشجّ الغرب ثم خراش

و نسخة دينار و نسخة تربه أبى هدبة القيسىّ شبه فراش

قال ابن عات: كان الحافظ السّلفى إذا فرغ من إنشاد هذين البيتين ينفخ فى يديه إشارة إلى أن هذه الأشياء كالريح، انتهى.

۵۲- و من الوافدين على الأندلس من أهل المشرق على بن بندار بن إسماعيل بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، البرمكى، من أهل بغداد.

قدم الأندلس، تاجرا سنة سبع و ثلاثين و ثلاثمائة، و كان قد أخذ عن أبى الحسن عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه

الداودى، و تلمذ له، و سمع منه «الموضح» و «المنجح» من تآليفه فى الفقه، و ما تمّ له من أحكام القرآن، هكذا نقله الحافظ ابن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعتنى بهذا الشأن، رحمه اللّه تعالى!

۵۳- و منهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد، أبو العلاء، النيسابورى.

لقيه الحافظ أبو على الصدفى ببغداد و أخذ عنه إذ قدمها حاجّا، و هو يحدّث عن أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصروى، قال أبو على: و أراه دخل الأندلس، و يغلب على ظنّى أنى لقيته بسرقسطة، ذكر ذلك القاضى عياض فى «المعجم» من تآليفه، و اللّه تعالى أعلم.

۵۴- و منهم سهل بن على بن عثمان، التاجر، النيسابورى، يكنى أبا نصر.

سمع جماعة من الخراسانيين و غيرهم، منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى و أبو الفتح السمرقندى، و أدرك الإمام أبا المعالى الجوينى، و حضر مجلسه و درسه، و لقى بعده أصحابه القشيرى و الطوسى و غيرهما، و كان شافعىّ المذهب، ذكره عياض و قال: حدّثنى بحكايات و فوائد، و أنشدنى لأبى طاهر السّلفى، و أجازنى جميع رواياته و حدّثنى أنّ وفاة أبى المعالى كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع و سبعين و أربعمائة، و قال أبو محمد العثمانى:

أنشدنى أبو نصر سهل بن على النيسابورى الحقوانى قال: أنشدنا أبو الفتح نصر بن الحسن، أنشدنا أبو العباس العذرى، قال: أنشدنا أبو محمد بن حزم الحافظ لنفسه: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۸

و لمّا رأيت الشّيب حلّ مفارقى نذيرا بترحال الشباب المفارق

رجعت إلى نفسى فقلت لها انظرى إلى ما أتى، هذا ابتداء الحقائق

دعى دعوات اللّهو قد فات وقتها كما قد أفات الليل نور المشارق

دعى منزل اللّذّات ينزل أهله وجدّى لما ندعى إليه و سابقى

قال عياض: توفى سهل هذا غريقا فى البحر متصرفا إلى بلده من المريّة، رحمه اللّه تعالى!.

۵۵- و منهم أبو المكارم هبة اللّه بن الحسين، المصرى.

كان من أهل العلم، عارفا بالأصول، حافظا للحديث، متيقّظا، حسن الصورة و الشّارة، دخل الأندلس، و ولى قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع و سبعين و خمسمائة.

قال ابن الأبار: و به صرف أبو القاسم الخولانى، و أقام بها سنة، و حضر غزوة شنترين، و كان قدوم أبى المكارم هذا الأندلس خوفا من صلاح الدين يوسف بن أيوب فى قوم من شيعة العبيدى ملك مصر، و وفد أيضا معه أبو الوفاء المصرى، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه فى غزوة قفصة الثانية، و ولّاه حينئذ قضاء تونس، و كان قد ولى قضاء فاس، و ولى أيضا أبو الوفا صاحبه القضاء، و توفى و هو متولى قضاء تونس سنة ست و ثمانين و خمسمائة، رحمه اللّه تعالى!.

۵۶- و منهم يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد اللّه، القيسى، الدمشقى.

أصله من دمشق، و بها ولد، و يعرف بالأصبهانى فى مجلس أبى طاهر السّلفى لدخوله إيّاها و إقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافيات، و يكنى أبا زكريا، و سمع بالمشرق أبا بكر بن ماشاذة السكرى، و أبا الرشيد بن خالد البيع، و أبا الطاهر السلفى و غيرهم،

و قصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقى ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلى، و أجازه و حضّه على الوعظ و التذكير، فامتثل ذلك، و دخل الأندلس، و تجوّل ببلادها، و استوطن غرناطة منها،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۳۹

و كان فقيها على مذهب الشافعى، عارفا بالأصول و التصوّف، زاهدا، ورعا، كثير المعروف و الصدقة، يعظ الناس، و يسمع الحديث، و لم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار، قال:

وله كتاب «الروضة الأنيقة» من تأليفه، حدّث عنه جماعة من الجلّة، منهم أبو جعفر بن عميرة الضبى ابنا حوط اللّه أبو محمد و أبو سليمان، و أبو القاسم الملاحى، و أبو العباس بن الجيار، و أبو الربيع بن سالم، و قال: أنشدنى عند توديعى إيّاه بغرناطة قال: سمعت بعض المذكورين ينشد: [بحر السريع]

يا زائرا زار و ما زارا كأنه مقتبس نارا

مرّ بباب الدار مستعجلا ما ضرّه لو دخل الدارا

نفسى فداء لك من زائر ما زار حتى قيل قد سارا

و سمع منه أبو جعفر بن الدلال كتاب «المعالم» للخطّابى فى شرح «سنن أبى داود» بقراءة جميعه عليه.

و مولده فى شوال سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، و توفى بغرناطة بعد أن سكنها يوم الاثنين سادس شوّال سنة ثمان و ستمائة، قال ابن الأبار: و فى هذا اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبى عبد اللّه بن نوح ببلنسية، رحمهما اللّه تعالى!.

۵۷- و من الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن على، القرشى.

من ذرّيّة عبد بن زمعة أخى سودة أم المؤمنين، رضى اللّه تعالى عنها!.

رحل من مصر إلى الأندلس فى زمن السلطان الحكم المستنصر باللّه أعوام الستين و ثلاثمائة حين ملك بنو عبيد مصر و أظهروا فيها معتقدهم الخبيث، فحلّ يومئذ من الحكم المستنصر محلّ الرحب و السعة، و لمّا ثارت الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية، و أوطنها دارا، و اتّخذها قرارا، و بها لقيه أبو عمر بن عبدالبر علّامة الأندلس فدرس عليه، و اقتبس ممّا لديه، و قد ذكره فى تاريخ شيوخه، و لم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم بن محمد بن سالم، و هو من رجال «الذخيرة» و له نثر، كما تفتّح الزّهر، و تدفّق البحر، و نظم كما اتّسق الدّرّ، و سفرت عن محاسنها الأنجم الغرّ، فمن نظمه قوله: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۰

خليلىّ، هل ليلى و نجد كعهدنا فيا حبّذا ليلى و يا حبّذا نجد

عسى الدّهر أن يقضى لنا بالتفاتة فيا ربّ عهد قد يجدّده بعد

و له أثناء رسالة قوس: [بحر البسيط]

قوس العلا وضعت فى كفّ باريها و أسهم الخطب عادت نحو راميها

و إنما الشمس لاحت فى مطالعها بلى و أجرى جياد الخيل مجريها

و نشأ هذا النجم الثاقب، و الصّيّب الساكب، و قد أخذ من العلوم فى غير ما فنّ، و حقّق فيه كلّ ما ظنّ، و ذكره فى «المسهب» و «سمط الجمان» و فضله أشهر، رحمه اللّه تعالى!.

۵۸- و منهم أبو على القالى، صاحب الأمالى و النوادر.

وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، فأمر ابنه الحكم- و كان يتصرّف عن أمر أبيه كالوزير- عاملهم ابن رماحس

أن يجيء مع أبى على إلى قرطبة، و يتلقّاه فى وفد من وجوه رعيّته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمة لأبى على، ففعل، و سار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم، و يتناشدون الأشعار، إلى أن تحاوروا يوما، و هم سائرون، أدب عبد الملك بن مروان و مساءلته جلساءه عن أفضل المناديل و إنشاده بيت عبدة بن الطبيب: [بحر البسيط]

ثمّت قمنا إلى جرد مسوّمة أعرافهنّ لأيدينا مناديل

و كان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على، فأنشد الكلمة فى البيت «أعرافها لأيدينا مناديل» فأنكرها ابن رفاعة الألبيرى، و كان من أهل الأدب و المعرفة، و فى خلقه حرج و زعارة، فاستعاد أبا على البيت متثبتا مرتين فى كلتيهما أنشده «أعرافها» فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفا و قال: مع هذا يوفد على أمير المؤمنين و تتجشّم الرحلة لتعظيمه، و هو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه؟! و اللّه لا تبعته خطوة، و انصرف عن الجماعة، و ندبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل، فلم يجد فيه حيلة، و كتب إلى الحكم يعرفه و يصف له ما جرى لابن رفاعة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۱

و يشكوه، فأجابه على ظهر كتابه: الحمد للّه الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطئ وافد أهل العراق إلينا، و ابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط، فدعه لشأنه، و أقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته، فسوف يعليه الاختبار إن شاء اللّه تعالى أو يحطّه.

و بعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبى على القالى إنما كانت فى خلافة الحكم المستنصر بالأندلس، لا- فى خلافة أبيه الناصر، و الصواب أن وفادته فى أيام الناصر؛ لما ذكره غير واحد من حصره و عيّه عن الخطبة يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما ألمعنا به فى غير هذا الموضع.

و فى القالى يقول شاعر الأندلس الرمادى: [بحر الكامل]

من حاكم بينى و بين عذولى؟ الشجو شجوى و العويل عويلى

فى أى جارحة أصون معذّبى سلمت من التعذيب و التنكيل

إن قلت فى بصرى فثم مدامعى أو قلت فى قلبى فثمّ غليلى

لكن جعلت له المسامع موضعا و حجبتها عن عذل كلّ عذول

و لمّا سمع المتنبى البيت الثانى قال: يصونه فى استه.

و كان الرمادى لمّا سمع قول المتنبى: [بحر البسيط]

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إيّاك لم ترنى

قال: أظنّه ضرطة، و الجزاء من جنس العمل.

و باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر باللّه طرّز الشيخ أبو على القالى كتاب «الأمالى».

و كان الحكم كريما، معنيّا بالعلم، و هو الذى وجّه إلى الحافظ أبى الفرج الأصبهانى ألف دينار على أن يوجّه له نسخة من كتاب الأغانى، و ألّف أبو محمد الفهرى كتابا فى نسب أبى على البغدادى و رواياته و دخوله الأندلس. و حكى ابن الطيلسان عن ابن جابر أنه قرأ هذين البيتين فى لوح رخام كان سقط من القبّة المبنيّة على قبر أبى على البغدادى عند تهدّمها، و هما:

[بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۲

صلوا لحد قبرى بالطريق و ودّعوا فليس لمن وارى التراب حبيب

و لا تدفنونى بالعراء فربما بكى أن رأى قبر الغريب غريب

و اسم أبى على إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، و جدّه سليمان مولى عبد الملك بن مروان،

و كان أبو على أحفظ أهل زمانه باللغة و الشعر و نحو البصريين، و أخذ الأدب عن أبى بكر بن دريد الأزدى و أبى بكر بن الأنبارى و ابن درستويه و غيرهم، و أخذ عنه أبو بكر الزبيدى الأندلسى صاحب «مختصر العين». و لأبى على التصانيف الحسان ك «الأمالى» و «البارع»، و طاف البلاد، و سافر إلى بغداد سنة ۳۰۳، و أقام بالموصل لسماع الحديث من أبى يعلى الموصلى، و دخل بغداد سنة ۳۰۳. و أقام بها إلى سنة ۳۲۸، و كتب بها الحديث، ثم خرج من بغداد قاصدا الأندلس، و سمع من البغوى و غيره.

و قال ابن خلّكان: و دخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين و ثلاثمائة، انتهى.

و هو ممّا يعين أنه قدم فى زمن الناصر، لا فى زمن ابنه الحكم كما تقدّم، و قد صرّح بذلك الصفدى فى الوافى فقال: و لما دخل المغرب قصد صاحب الأندلس الناصر لدين اللّه عبد الرحمن، فأكرمه، و صنّف له و لولده الحكم تصانيف و بثّ علومه هناك، انتهى.

و قال ابن خلّكان إنه استوطن قرطبة إلى أن توفى بها فى شهر ربيع الآخر، و قيل:

جمادى الأولى سنة ۳۵۶، ليلة السبت لستّ خلون من الشهر المذكور، و دفن ظاهر قرطبة، و مولده بمنازجرد من ديار بكر سنة ۲۸۸، و قيل: سنة ۲۸۰.

و إنما قيل له «القالى» لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قاليقلا، و هى من أعمال ديار بكر.

و هو من محاسن الدنيا، رحمه اللّه تعالى!

و عيذون: بفتح العين، و سكون الياء المثناة التحتية، و ضمّ الذال المعجمة.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۳

و قال ابن خلّكان فى ترجمة ابن القوطية: إن أبا على القالى لمّا دخل الأندلس اجتمع به، و كان يبالغ فى تعظيمه، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر: من أنبل من رأيته ببلدنا هذا فى اللغة؟ فقال: محمد بن القوطية، و كان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العبّاد النّسّاك، و كان جيّد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع و المقاطع إلّا أنه تركه و رفضه، و قال الأديب أبو بكر بن هذيل: إنه توجّه يوما إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة، و هى من بقاع الأرض الطيبة المونقة، فصادف أبا بكر بن القوطية المذكور صادرا عنها، و كانت له أيضا هناك ضيعة، قال: فلما رآنى عرّج علىّ، و استبشر بلقائى، فقلت مداعبا له: [بحر البسيط]

من أين أقبلت يا من لا شبيه له و من هو الشمس و الدنيا له فلك

قال: فتبسّم و أجاب بسرعة: [بحر البسيط]

من منزل تعجب النّسّاك خلوته و فيه ستر على الفتّاك إن فتكوا

فما تمالكت أن قبّلت يده، إذ كان شيخى، و دعوت له، انتهى.

و هو صاحب كتاب «الأفعال» الذى فتح فيه هذا الباب، فتلاه ابن القطّاع و له كتاب «المقصور و الممدود» جمع فيه ما لا يحدّ و لا يعد، و أعجز من بعده به، وفاق من تقدّمه، رحمه اللّه تعالى و رضى عنه!.

و ممّن أخذ عن أبى على القالى بالأندلس أبو بكر محمد الزبيدى صاحب كتاب «مختصر العين» و غيره، و كان الزبيدى كثيرا ما ينشد: [بحر السريع]

الفقر فى أوطاننا غربة و المال فى الغربة أوطان

و الأرض شىء كلّها واحد و الناس إخوان و جيران

و ترجمة الزبيدى واسعة، و كان مؤدّب المؤيّد هشام، و وصفه بأنه كان فى صباه فى غاية الحذق و الذكاء، رحمه اللّه تعالى!.

و كان القالى قد بحث على ابن درستويه كتاب سيبويه، و دقّق النظر، و انتصر للبصريين، و أملى شيئا من حفظه ككتاب «النوادر» و «الأمالى»، و «المقصور و الممدود»، و «الإبل و الخيل»، و «البارع فى اللغة» نحو خمسة آلاف ورقة، و لم يصنّف مثله فى الإحاطة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۴

و الجمع، و لم يتمّ، و رتّب كتاب «المقصور و الممدود» على التفعيل و مخارج الحروف من الحلق مستقصى فى بابه لا يشذّ منه شىء، و كتاب «فعلت و أفعلت» و كتاب «مقاتل الفرسان» و «تفسير السبع الطوال».

و كان الزبيدى إماما فى الأدب، و لكنه عرف فضل القالى، فمال إليه، و اختصّ به، و استفاد منه، و أقرّ له.

و كان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر و بعدها ينشط أبا على، و يعينه على التأليف بواسع العطاء، و يشرح صدره بالإفراط فى الإكرام، و كانوا يسمّونه «البغدادى» لوصوله إليها من بغداد، و يقال: إنّ الناصر هو الذى استدعاه من بغداد لولائه فيهم، و فيه يقول الرمادى متخلّصا فى لاميّته السابق بعضها: [بحر الكامل]

روض تعاهده السحاب كأنه متعاهد من عهد إسماعيل

قسه إلى الأعراب تعلم أنّه أولى من الأعراب بالتفضيل

حازت قبائلهم لغات فرّقت فيهم و حاز لغات كلّ قبيل

فالشرق خال بعده و كأنما نزل الخراب بربعه المأهول

فكأنه شمس بدت فى غربنا و تغيّبت عن شرقهم بأفول

يا سيدى هذا ثنائى لم أقل زورا و لا عرّضت بالتنويل

من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ لم أرج غير القرب فى تأميلى

و قد تقدّمت أبيات القالى التى أجاب بها منذر بن سعيد فى الباب قبل هذا، فلتراجع ثمّة، و اللّه تعالى أعلم.

۵۹- و من الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادى، اللغوى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۵

و أصله من الموصل، قال ابن بسام: و لمّا دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبى عامر عزم المنصور على أن يقضى به آثار أبى على البغدادى الوافد على بنى أمية، فما وجد عنده ما يرتضيه، و أعرض عنه أهل العلم، و قدحوا فى علمه و عقله و دينه، و لم يأخذوا عنه شيئا لقلّة الثقة به، و كان ألّف كتابا سمّاه كتاب «الفصوص» فدحضوه و رفضوه و نبذوه فى النهر، و من شعره قوله: [بحر الكامل]

و مهفهف أبهى من القمر قهر الفؤاد بفاتن النّظر

خالسته تفّاح و جنته فأخذتها منه على غرر

فأخافنى قوم فقلت لهم: لا قطع فى ثمر و لا كثر

و الكثر: الجمّار، و هذا اقتباس من الحديث.

و قال الحميدى: سمعت أبا محمد بن حزم الحافظ يقول: سمعت أبا العلاء صاعدا ينشد بين يدى المظفر عبد الملك بن أبى عامر من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ۳۹۶: [بحر الوافر]

حسبت المنعمين على البرايا فألفيت اسمه صدر الحساب

و ما قدّمته إلّا كأنى أقدّم تاليا أمّ الكتاب

و ذكر الحميدى أن عبد اللّه بن ماكان الشاعر تناول نرجسة فركبها فى وردة ثم قال لصاعد و لأبى عامر بن شهيد: صفاها، فأفحما، و لم يتّجه لهما القول، فبينما هم على ذلك إذ دخل الزهيرى صاحب أبى العلاء و تلميذه، و كان شاعرا أديبا أمّيّا لا يقرأ، فلمّا استقرّ به المجلس أخبر بما هم فيه، فجعل يضحك و يقول: [بحر السريع]

ما للأديبين قد اعيتهما مليحة من ملح الجنّه

نرجسة فى وردة ركّبت كمقلة تطرف فى وجنه

انتهى.

و من غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوما و عنده أعيان مملكته و دولته من أهل العلم كالزبيدى و العاصمى و ابن العريف و غيرهم، فقال لهم المنصور: هذا الرجل الوافد علينا

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۶

يزعم أنه متقدّم فى هذه العلوم، و أحب أن يمتحن، فوجّه إليه، فلمّا مثل بين يديه و المجلس قد احتفل خجل فرفع المنصور محلّه و أقبل عليه، و سأله عن أبى سعيد السيرافى، فزعم أنه لقيه و قرأ عليه كتاب سيبويه، فبادره العاصمى بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها، و اعتذر بأن النحو ليس جلّ بضاعته، فقال له الزبيدى: فما تحسن أيّها الشيخ؟ فقال:

حفظ الغريب، قال: فما وزن أولق، فضحك صاعد، و قال: أمثلى يسأل عن هذا؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب، قال الزبيدى: قد سألناك، و لا نشكّ أنك تجهله، فتغيّر لونه، و قال: أفعل وزنه، فقال الزبيدى: صاحبكم ممخرق، فقال له صاعد، إخال الشيخ صناعته الأبنية، فقال له: أجل، فقال صاعد: و بضاعتى أنا حفظ الأشعار، و رواية الأخبار، و فكّ المعمّى، و علم الموسيقى، فقال: فناظره ابن العريف، فظهر عليه صاعد، و جعل لا يجرى فى المجلس كلمة إلّا أنشد عليها شعرا شاهدا، و أتى بحكاية تجانسها، فأعجب المنصور، ثم أراه كتاب «النوادر» لأبى على القالى، فقال: إن أراد المنصور أمليت على كتّاب دولته كتابا أرفع منه و أجلّ لا أورد فيه خبرا ممّا أورده أبو على، فأذن له المنصور فى ذلك، و جلس بجامع مدينة الزاهرة يملى على كتابه المترجم ب «الفصوص»، فلمّا أكمله تتبعه أدباء الوقت، فلم تمرّ فيه كلمة صحيحة عندهم، و لا خبر ثبت لديهم، و سألوا المنصور فى تجليد كراريس بياض تزال جدتها، حتى توهّم القدم، و ترجم عليه كتاب «النكت» تأليف أبى الغوث الصنعانى، فترامى إليه صاعد حين رآه، و جعل يقبله، و قال: إى و اللّه، قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان، فأخذه المنصور من يده خوفا أن يفتحه، و قال له: إن كنت قد قرأته كما تزعم، فعلام يحتوى؟ فقال:

و أبيك لقد بعد عهدى به، و لا أحفظ الآن منه شيئا، و لكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر و لا خبر، فقال له المنصور: أبعد اللّه مثلك! فما رأيت أكذب منك، و أمر بإخراجه، و أن يقذف كتاب «الفصوص» فى النهر، فقال فيه بعض الشعراء: [بحر السريع]

قد غاص فى النهر كتاب الفصوص و هكذا كلّ ثقيل يغوص

فأجابه صاعد: [بحر السريع]

عاد إلى معدنه، إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۷

قال ابن بسام: و ما أظنّ أحدا يجترئ على مثل هذا، و إنما صاعد اشترط أن لا يأتى إلّا بالغريب غير المشهور، و أعانهم على نفسه بما كان يتنفّق به من الكذب.

و حكى ابن خلكان أن المنصور أثابه على كتاب «الفصوص» بخمسة آلاف دينار! و من أعجب ما جرى له أنه كان بين يدى المنصور، فأحضرت إليه وردة فى غير وقتها لم يستتمّ فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلا: [بحر المتقارب]

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها

كعذراء أبصرها مبصر فغطّت بأكمامها راسها

فسرّ بذلك المنصور، و كان ابن العريف حاضرا، فحسده، و جرى إلى مناقضته، و قال لابن أبى عامر: هذان البيتان لغيره، و قد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر، و هما عندى على ظهر كتاب بخطّه، فقال له المنصور: أرنيه، فخرج ابن العريف، و ركب و حرّك دابته حتى أتى مجلس ابن بدر، و كان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى، فقال هذه الأبيات و دسّ فيها بيتى صاعد: [بحر المتقارب]

عدوت إلى قصر عبّاسة و قد جدّل النوم حرّاسها

فألفيتها و هى فى خدرها و قد صرع السكر أناسها

فقالت: أسار على هجعة؟ فقلت: بلى، فرمت كاسها

و مدّت يديها إلى وردة يحاكى لك الطّيب أنفاسها

كعذراء أبصرها مبصر فغطّت بأكمامها راسها

و قالت: خف اللّه لا تفضحن ن فى ابنة عمّك عبّاسها

فولّيت عنها على غفلة و ما خنت ناسى و لا ناسها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۸

فطار ابن العريف بها، و علّقها على ظهر كتاب بخطّ مصرىّ و مداد أشقر، و دخل بها على المنصور، فلمّا رآها اشتدّ غيظه على صاعد، و قال للحاضرين: غدًا أمتحنه، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، و لم يبق فى موضع لى عليه سلطان، فلمّا أصبح وجّه إليه فأحضر، و أحضر جميع الندماء، فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أعدّ فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، و وضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى، و تحت السقائف بركة ماء، قد ألقى فيها اللآلئ مثل الحصباء، و فى البركة حيّة تسبح، فلمّا دخل صاعد و رأى الطبق قال له المنصور: إنّ هذا يوم إمّا أن تسعد فيه معنا، و إمّا أن تشقى بالضدّ عندنا؛ لأنه قد زعم قوم أنّ كلّ ما تأتى به دعوى، و قد وقفت من ذلك على حقيقة، و هذا طبق ما توهّمت أنه حضر بين يدى ملك قبلى شكله، فصفه بجميع ما فيه، و عبّر بعض عن هذه القصة بقوله: أمر فعبىء له طبق فيه أزهار و رياحين و ياسمين و بركة ماء حصباؤها اللؤلؤ، و كان فى البركة حيّة تسبح، و أحضرها صاعد، فلمّا شاهد ذلك قال له المنصور: إنّ هؤلاء يذكرون أن كلّ ما تأتى به دعوى لا صحّة لها، و هذا طبق ما ظننت أنه عمل لملك مثله، فإن وصفته بجميع ما فيه علمت صحّة ما تذكره، فقال صاعد بديهة: [بحر الطويل]

أبا عامر، هل غير جدواك واكف؟ و هل غير من عاداك فى الأرض خائف

يسوق إليك الدهر كلّ غريبة و أعجب ما يلقاه عندك واصف

و شائع نور صاغها هامر الحيا على حافتيها عبقر و رفارف

و لمّا تناهى الحسن فيها تقابلت عليها بأنواع الملاهى الوصائف

كمثل الظّباء المستكنّة كنّسا تظلّلها بالياسمين السقائف

و أعجب منها أنهنّ نواظر إلى بركة ضمّت إليها الطرائف

حصاها اللآلى سابح فى عبابها من الرّقش مسموم الثعابين زاحف

ترى ما تراه العين فى جنباتها من الوحش حتى بينهنّ السلاحف

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۴۹

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة فى مثل ذلك الموضع، و كتبها المنصور بخطّه، و كان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوّار تجذف بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد، فقال له المنصور: أحسنت، إلّا أنك أغفلت ذكر المركب و الجارية، فقال للوقت:

و أعجب منها غادة فى سفينة مكلّلة تصبو إليها المهاتف

إذا راعها موج من الماء تتّقى بسكّانها ما أنذرته العواصف

متى كانت الحسناء ربّان مركب تصرّف فى يمنى يديه المجاذف

و لم تر عينى فى البلاد حديقة تنقّلها فى الراحتين الوصائف

و لا غرو أن شاقت معاليك روضة و شتها أزاهير الرّبا و الزخارف

فأنت امرؤ لو رمت نقل متالع و رضوى ذرتها من سطاك نواسف

إذا قلت قولا أو بدهت بديهة فكلنى له إنى لمجدك واصف

فأمر له المنصور بألف دينار و مائة ثوب، و رتّب له فى كل شهر ثلاثين دينارا، و ألحقه بالندماء.

قال: و كان شديد البديهة فى ادّعاء الباطل، قال له المنصور يوما: ما الخنبشار؟ قال:

حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب، و فى ذلك يقول شاعرهم: [بحر الوافر]

لقد عقدت محبّتها بقلبى كما عقد الحليب الخنبشار

و قال له يوما، و قد قدّم إليه طبق فيه تمر: ما التّمركل فى كلام العرب؟ فقال: «يقال تمركل الرجل تمركلا» إذا التفّ فى كسائه. و كان مع ذلك عالما.

قال: و كان لابن أبى عامر فتى يسمّى فاتنا أوحد لا نظير له فى علم كلام العرب، فناظر صاعدا هذا فقطعه و ظهر عليه و بكّته، فأعجب المنصور منه، فتوفى فاتن هذا سنة ۴۰۲، و بيعت فى تركته كتب مضبوطة جليلة مصحّحة، و كان منقادا لما نزل به من المثلة فلم يتّخذ النساء كغيره، و كان فى ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المخانيث ممّن أخذ بأوفر نصيب من الأدب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۰

قال: و رأيت تأليفا لرجل منهم يعرف بحبيب ترجمه بكتاب «الاستظهار و المغالبة، على من أنكر فضائل الصقالبة» و ذكر فيه جملة من أشعارهم و أخبارهم و نوادرهم.

و قال ابن بسام و غيره: و من عجائب ما جرى لصاعد أنه أهدى أيّلا إلى المنصور، و كتب على يد موصله: [بحر الكامل]

يا حرز كلّ مخوّف و أمان كلّ مشرّد و معزّ كلّ مذلّل يا سلك كلّ فضيلة و نظام كلّ جزيلة و ثراء كلّ معيّل و منها:

ما إن رأت عينى و علمك شاهد جدوى علائك فى معمّ مخول

و منها:

و أبى مؤانس غربتى و تحفّظى من صفر أيامى و من مستعملى

عبد جذبت بضبعه و رفعت من مقداره أهدى إليك بأيّل

سمّيته غرسيّة و بعثته فى حبله ليصحّ فيه تفاؤلى

فلئن قبلت فتلك أنفس منّة أهدى بها ذو منحة و تطول

منحتك غادية السرور بعزّة و حللت أوجا بالسحاب المخضل

فقضى فى سابق علم اللّه سبحانه و تعالى أنّ ملك الروم غرسية أسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه بالأيّل، و سمّاه باسمه على التفاؤل، انتهى.

و كان غرسية أمنع من النجم، و سبب أخذه أنه خرج يتصيّد، فلقيته خيل للمنصور من غير قصد، فأسرته و جاءته به، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب.

و لنورد أخبار صاعد فنقول: حكى أنّ المنصور قال بسبب هذه القضية: إنه لم يتّفق

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۱

لصاعد هذا الفأل الغريب إلّا لحسن نيّته و سريرته، و صفاء باطنه، فرفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان، و رجّحه على أعدائه، و حقّ له ذلك.

و فى الزهرة الثامنة و العشرين من كتاب «الأزهار المنثورة، فى الأخبار المأثورة» حكى أنّ صاعدا قال: جمعت خرق الأكياس و الصرر

التى قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبى عامر، فقطعت لكافور الأسود غلامى منها قميصا كالمرقعة، و بكرت به معى إلى قصر المنصور، فاحتلت فى تنشيطه حتى طابت نفسه فقلت: يا مولانا لعبدك حاجة، فقال: أذكرها، قلت: وصول غلامى كافور إلى هنا، فقال: و على هذه الحال؟ فقلت: لا أقنع بسواه إلّا بحضوره بين يديك، فقال: أدخلوه، فمثل قائما بين يديه فى مرقعته و هو كالنخلة إشرافا، فقال: قد حضر، و إنه لباذل الهيئة، فمالك أضعته؟ فقلت: يا مولانا، هنالك الفائدة، اعلم يا مولاى أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كافور مالا، فتهلّل و قال: للّه درّك من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر! و أمر لى بمال واسع و كسوة، و كسا كافورا أحسن كسوة، انتهى.

و لمّا دخل صاعد دانية، و حضر مجلس الموفق مجاهد العامرى أمير البلد، كان فى المجلس أديب يقال له بشار، فقال للموفّق: دعنى أعبث بصاعد، فقال له: لا تتعرّض إليه، فإنه سريع الجواب، فأبى إلّا مساءلته، و كان بشار المذكور أعمى، فقال لصاعد: يا أبا العلاء، ما الجرنفل فى كلام العرب؟ فعرف صاعد أنه وضع هذه الكلمة، و ليس لها أصل فى اللغة، فقال بعد أن أطرق ساعة: الجرنفل فى اللغة الذى يفعل بنساء العميان و لا يتجاوزهنّ إلى غيرهنّ، و هو فى ذلك كلّه يصرح و لا يكنى، فخجل بشار و انكسر، و ضحك من كان حاضرا، فقال له الموفّق: قلت لك لا تفعل فلم تقبل، انتهى.

و الجرنفل. بضمّ الجيم و الراء، و سكون النون، و ضمّ الفاء، و بعدها لام.

و لصاعد أخبار و نوادر كثيرة غير ما تقدّم، و له مع المنصور بن أبى عامر، رحمه اللّه تعالى، من ذلك كثير، و بعضه ذكرناه فى هذا الكتاب.

و من حكاياته أنه خرج معه يوما إلى رياض الزاهرة، فمدّ المنصور يده إلى شىء من الريحان المعروف بالتّرنجان، فعبث به ورماه إلى صاعد، و أشار إليه أن يقول فيه، فارتجل: [بحر البسيط]

لم أدر قبل ترنجان عبثت به

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۲

الأبيات الآتية.

و هذا المنصور بن أبى عامر قد تقدّمت جملة من أخباره، و من أعجب ما وقع له ما رأيته بخزانة فاس فى كتاب ألّفه صاحبه فى الأزهار و الأنوار، حكى فيه فى ترجمة النيلوفر أن المنصور لمّا قدم عليه رسول ملك الروم الذى هو أعظم ملوكهم فى ذلك الزمان ليطّلع على أحوال المسلمين و قوّتهم، فأمر المنصور أن يغرس فى بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب و أربعة قناطير من الفضّة فسبكت قطعا صغارا على قدر ما تسع النيلوفرة، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى فى البركة، و أرسل إلى الرومى فحضر عنده قبل الفجر فى مجلسه السامى بالزاهرة بحيث يشرف على موضع البركة، فلمّا قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب و الفضّة و مناطق الذهب و الفضّة، و بيد خمسمائة أطباق ذهب، و بيد خمسمائة أطباق فضة، فتعجّب الرسول من حسن صورهم و جميل شارتهم، فلم يدر ما المراد، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة، و بادروا لأخذ الذهب و الفضّة من النيلوفر، و كانوا يجعلون الذهب فى أطباق الفضّة و الفضّة فى أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها، و جاؤوا به فوضعوه بين يدى المنصور، حتى صار كوما بين يديه، فتعجّب النصرانى من ذلك، و أعظمه، و طلب المهادنة من المسلمين، و ذهب مسرعا إلى مرسله، و قال له: لا تعاد هؤلاء القوم، فإنى رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها، انتهى.

و هذه القضية من الغرائب، و إنّها لحيلة عجيبة فى إظهار عزّ الإسلام و أهله.

و كان المنصور بن أبى عامر آية اللّه سبحانه فى السعد و نصرة الإسلام، قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: إنه لمّا انتهت خلافة بنى مروان بالأندلس إلى الحكم تاسع الأئمة، و كان مع فضله قد استهواه حبّ الولد، حتى خالف الحزم فى توريثه الملك بعده فى سنّ الصبا، دون مشيخة الإخوة و فتيان العشيرة، و من كان ينهض بالأمر و يستقلّ بالملك. قال ابن بسام: و كان يقال «لا يزال ملك بنى

أميـة بالأنـدلس فى إقبـال و دوام مـا توارثه الأبنـاء عن الآباء، فإذا انتقل إلى الإخوة و توارثوه فيما بينهم أدبر و انصـرم». و لعلّ الحكم لحظ ذلك، فلمّا مات الحكم أخفى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۳

جؤذر و فائق فتياه ذلك، و عزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة، و كان فائق قد قال له: إن هذا لا يتمّ لنا إلّا بقتل جعفر المصحفى، فقال له جؤذر: و نستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا؟

فقـال له: هو و اللّه ما أقول لك، ثم بعثا إلى المصـحفى و نعيا إليه الحكم، و عرّفاه رأيهما فى المغيرة، فقال لهما المصـحفى: و هل أنا إلّـا تبع لكمـا، و أنتما صاحبا القصـر، و مـدبّرا الأمر؟؛ فشـرعا فى تـدبير ما عزما عليه، و خرج المصـحفى و جمع أجناده و قوّاده و نعى إليهم الحكم، و عرّفهم مقصود جؤذر و فـائق فى المغيرة، و قال: إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولـة لنا، و إن بـدلنا اسـتبدلنا، فقالوا: الرأى رأيـك، فبادر المصـحفى بإنفاذ محمـد بن أبى عامر مع طائفـة من الجنـد إلى دار المغيرة لقتله، فوافاه و لا خبر عنـده، فنعى إليه الحكم أخـاه، فجزع، و عرّفه جلـوس ابنه هشـام فى الخلافـة، فقـال: أنـا سـامع مطيـع، فكتب إلى المصـحفى بحـاله، و مـا هـو عليه من الاستجابة، فأجابه المصحفى بالقبض عليه، و إلّا وجّه غيره ليقتله، فقتله خنقا.

فلمّا قتل المغيرة و اسـتوثق الأمر لهشام بن الحكم افتتح المصحفى أمره بالتواضع و السياسة و اطّراح الكبر و مساواة الوزراء فى الفرش، و كـان ذلـك من أوّل مـا اسـتحسن منه، و توفّر على الاستئثار بالأعمال و الاحتجان للأموال، و عارضه محمـد بن أبى عامر، فتّى ماجد أخـذ معـه بطرفى نقيض بالبخـل جـودا و بالاسـتبداد أثرة، و تملّـك قلـوب الرجـال إلى أن تحرّكـت همّته للمشاركـة فى التـدبير بحقّ الوزارة، و قوى على أمره بنظره فى الوكالـة، و خـدمته للسـيدة صـبح أمّ هشام، و كانت حاله عنـد جميع الخدم أفضل الأحوال بتصدّيه لمواقع الإرادة، و مبالغته فى تأدية لطيف الخدمة، فأخرجت له أم هشام الخليفة إلى الحاجب جعفر المصحفى بأن لا ينفرد عنه برأى، و كان غير متخيّل منه سكوتا إلى ثقته، فامتثل الأمر و أطلعه على سرّه، و بالغ فى برّه، و بالغ محمد بن أبى عامر فى مخادعته و النصح له، فوصـل المصـحفى يـده بيـده، و استراح إلى كفـايته، و ابن أبى عـامر يمكر به، و يضـرّب عليه، و يغرى به الحرّة، و يناقضه فى أكثر ما يعامـل به النـاس، و يقضـى حوائجهم، و لم يزل على ما هـذه سبيله إلى أن انحلّ أمر المصـحفى، و هوى نجمه، و تفرّد محمـد بن أبى عامر بالأمر، و منع أصحاب الحكم و أجلاهم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۴

و أهلكهم و شـرّدهم و شـتّتهم و صادرهم، و أقام من صـنائعهم من اسـتغنى به عنهم، و صادر الصقالبة، و أهلكهم، و أبادهم فى أسرع مدّة.

قال ابن حيان: و جاشت النصـرانية بموت الحكم، و خرجوا على أهل الثغور فوصـلوا إلى باب قرطبة، و لم يجدوا عند جعفر المصحفى غنـاء و لا نصـرة، و كان ممّا أتى عليه أن أمر أهل قلعـة رباح بقطع سـدّ نهرهم، لما تخيله من أنّ فى ذلك النجاة من العـدوّ، و لم تقع حيلته لأكثر منه، مع وفور الجيوش و جموم الأموال، و كان ذلك من سـقطات جعفر، فأنف محمد بن أبى عامر من هذه الدّنيّة، و أشار على جعفر بتبديـد الجيش بالجهاد، و خوّفه سوء العاقبـة فى تركه، و أجمع الوزراء على ذلك، إلّا من شـذّ منهم، و اختار ابن أبى عامر الرجال، و تجهّز للغزاة، و استصـحب مائة ألف دينار، و نفذ بالجيش، و دخل على الثغر الجوفى، و نازل حصن الحافة، و دخل الرّبض، و غنم و قفل فوصل الحضـرة بالسبى بعد اثنين و خمسـين يوما، فعظم السرور به، و خلصت قلوب الأجناد له، و استهلكوا فى طاعته لما رأوه من كرمه.

و من أخبـار كرمه مـا حكاه محمـد بن أفلـح غلام الحكم قال: دفعت إلى ما لا أطيقه من نفقـة فى عرس ابنـة لى، و لم يبق معى سوى لجام محلّى، و لمّا ضاقت بى الأسـباب قصدته بدار الضّرب حين كان صاحبها، و الدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمته ما جئت له، فابتهـج بمـا سـمعه منّى، و أعطـانى من تلـك الـدراهم وزن اللجام بحديـده و سـيوره، فملأ حجرى، و كنت غير مصـدق بما جرى

لعظمه، و عملت العرس، و فضلت لى فضلة كثيرة، و أحبّه قلبى حتى لو حملنى على خلع طاعة مولاى الحكم لفعلت، و كان ذلك فى أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبى عامر الذّروة.

و قال غير واحد: إنه صنع يومئذ قصرا من فضّة لصبح أمّ هشام، و حمله على رؤوس الرجال، فجلب حبّها بذلك، و قامت بأمره عند سيّدها الحكم، و حدّث الحكم خواصّه بذلك، و قال: إنّ هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يتحفهم به، قالوا: و كان الحكم لشدّة نظره فى علم الحدثان يتخيّل فى ابن أبى عامر أنه المذكور فى الحدثان، و يقول لأصحابه: أما تنظرون

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۵

إلى صفرة كفّيه؟ و يقول فى بعض الأحيان: لو كانت به شجّة لقلت إنه هو بلا شكّ، فقضى اللّه أنّ تلك الشّجّة حصلت للمنصور يوم ضربه غالب بعد موت الحكم بمدّة.

قال ابن حيان: و كان بين المصحفى و غالب صاحب مدينة سالم و شيخ الموالى و فارس الأندلس عداوة عظيمة، و مباينة شديدة، و مقاطعة مستحكمة، و أعجز المصحفى أمره، و ضعف عن مباراته، و شكا ذلك إلى الوزراء، فأشاروا عليه بملاطفته و استصلاحه، و شعر بذلك ابن أبى عامر، فأقبل على خدمته، و تجرّد لإتمام إرادته، و لم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى تقدمة جيش الثغر، و خرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثانية، و اجتمع به، و تعاقدا على الإيقاع بالمصحفى، و قفل ابن عامر ظافرا غانما، و بعد صيته، فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفى عن المدينة، و كانت فى يده يومئذ، و خلع على ابن أبى عامر و لا خبر عند المصحفى، و ملك ابن أبى عامر الباب بولايته للشرطة، و أخذ عن المصحفى وجوه الحيلة، و خلّاه و ليس بيده من الأمر إلّا أقلّه، و كان ذلك بإعانة غالب له، و ضبط المدينة ضبطا أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة و تولّى السياسة، و انهمك ابن أبى عامر فى صحبة غالب، ففطن المصحفى لتدبير ابن أبى عامر عليه، فكاتب غالبا يستصلحه، و خطب أسماء بنته لابنه عثمان، فأجابه غالب لذلك، و كادت المصاهرة تتمّ له، و بلغ ابن أبى عامر الأمر، فقامت قيامته، و كاتب غالبا يخوّفه الحيلة، و يهيج حقوده، و ألقى عليه أهل الدار و كاتبوه فصرفوه عن ذلك، و رجع غالب إلى ابن أبى عامر، فأنكحه البنت المذكورة، و تمّ له العقد فى محرم سنة سبع و ستين و ثلاثمائة، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره، و جهّزها إلى محمد بن أبى عامر من قبله، فظهر أمره و عزّ جانبه، و كثر رجاله، و صار جعفر المصحفى بالنسبة إليه كل شىء، و استقدم السلطان غالبا، و قلّده الحجابة شركة مع جعفر المصحفى، و دخل ابن أبى عامر على ابنته ليلة النيروز، و كانت أعظم ليلة عرس فى الأندلس، و أيقن المصحفى بالنكبة و كفّ عن اعتراض ابن أبى عامر فى شىء من التدبير، و ابن أبى عامر يسايره و لا يظاهره، و انفضّ عنه الناس، و أقبلوا على ابن أبى عامر إلى أن صار المصحفى يغدو إلى قصر قرطبة و يروح و هو وحده، و ليس بيده من الحجابة سوى اسمها، و عوقب المصحفى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۶

بإعانته على ولاية هشام، و قتل المغيرة. ثم سخط السلطان على المصحفى و أولاده و أهله و أسبابه و أصحابه، و طولبوا بالأموال، و أخذوا برفع الحساب لما تصرّفوا فيه، و توصّل ابن أبى عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم و فروعهم، و كان هشام ابن أخى المصحفى قد توصّل إلى أن سرق من رؤوس النصارى التى كانت تحمل بين يدى ابن أبى عامر فى الغزاة الثالثة ليقدم بها على الحضرة، و غاظه ذلك منه، فبادره بالقتل فى المطبق قبل عمّه جعفر المصحفى، فما استقصى ابن أبى عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة، و كانت من أعظم قصور قرطبة، و استمرّت النكبة عليه سنتين، مرّة يحتبس و مرّة يترك و مرة يقرّ بالحضرة و مرّة ينفر عنها، و لا براح له من المطالبة بالمال، و لم يزل على هذا الحكم حتى استصفى، و لم يبق فيه محتمل، و اعتقل فى المطبق بالزهراء إلى أن هلك، و أخرج إلى أهله ميتا، و ذكر أنه سمّه فى ماء شربه، قال محمد بن إسماعيل: سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلّم جسد جعفر بن عثمان إلى أهله بأمر المنصور، و سرنا إلى منزله فكان مغطّى بخلق كساء لبعض البوّابين ألقاه على سريره، و غسل على فردة باب اختلع من ناحية الدار، و أخرج و ما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه و من حضر من ولده، فعجبت من الزمان،

انتهى.

و ما أحسن عبارة المطمح عن هذه القضية إذ قال: قال محمد بن إسماعيل كاتب المنصور: سرت بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله و ولده، و الحضور على إنزاله فى ملحده، فنظرته و لا أثر فيه، و ليس عليه شىء يواريه، غير كساء خلق لبعض البوّابين، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله و اللّه على فردة باب اقتطع من جانب الدار، و أنا أعتبر من تصرّف الأقدار، و خرجنا بنعشه إلى قبره و ما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه، و ما تجاسر أحد منّا للنظر إليه، و إن لى فى شأنه لخبرا ما سمع بمثله طالب وعظ، و لا وقع فى سمع و لا- تصوّر فى لحظ، وقفت له فى طريقه من قصره، أيام نهيه و أمره، أروم أن أناوله قصّة، كانت به مختصّة، فو اللّه ما تمكّنت من الدنوّ منه بحيلة لكثافة موكبه، و كثرة من حفّ به، و أخذ الناس السّكك عليه و أفواه الطرق داعين، و مارّين بين يديه و ساعين، حتى ناولت قصّتى بعض كتّابه الذين نصبهم جناحى موكبه لأخذ القصص، فانصرفت و فى نفسى ما فيها من

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۷

الشّرق بحاله و الغصص، فلم تطل المدّة حتى غضب عليه المنصور و اعتقله، و نقله معه فى الغزوات و احتمله، و اتّفق أن نزلت بجليقية إلى جانب خبائه فى ليلة نهى فيها المنصور عن وقود النيران ليخفى على العدوّ أثره، و لا ينكشف إليه خبره، فرأيت و اللّه عثمان ولده يسقيه دقيقا قد خلطه بماء يقيم به أوده، و يمسك بسببه رمقه، بضعف حال و عدم زاد، و هو يقول:

[بحر الطويل]

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل أراها توفّى عند موعدها الحرّا

فللّه أيام مضت بسبيلها فإنى لا أنسى لها أبدا ذكرا

تجافت بها عنّا الحوادث برهة و أبدت لنا منها الطّلاقة و البشرا

ليالى ما يدرى الزمان مكانها و لا نظرت منها حوادثه شزرا

و ما هذه الأيام إلّا سحائب على كلّ أرض تمطر الخير و الشّرّا

انتهى.

و أما غالب الناصرى فإنه حضر مع ابن أبى عامر فى بعض الغزوات، و صعدا إلى بعض القلاع، لينظرا فى أمرها، فجرت محاورة بين ابن أبى عامر و غالب، فسبّه غالب و قال له: يا كلب، أنت الذى أفسدت الدولة، و خرّبت القلاع، و تحكّمت فى الدولة، و سلّ سيفه فضربه، و كان بعض الناس حبس يده، فلم تتمّ الضربة و شجّه، فألقى ابن أبى عامر نفسه من رأس القلعة خوفا من أن يجهز عليه، فقضى اللّه تعالى أنه وجد شيئا فى الهواء منعه من الهلاك، فاحتمله أصحابه و عالجوه حتى برىء، و لحق غالب بالنصارى، فجيّش بهم، و قابله ابن أبى عامر بمن معه من جيوش الإسلام، فحكمت الأقدار بهلاك غالب، و تمّ لابن أبى عامر ما جدّ له، و تخلّصت دولته من الشوائب.

قالوا: و لمّا وقعت وحشة بين ابن أبى عامر و المؤيّد، و كان سببها تضريب الحساد فيما بينهما، و علم أنه ما دهى إلّا من جانب حاشية القصر، فرّقهم و مزّقهم، و لم يدع فيه منهم إلّا من وثق به أو عجز عنه، ثم ذكر له أن الحرم قد انبسطت أيديهنّ فى الأموال المختزنة بالقصر،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۸

و ما كانت السيدة صبح أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من تغيرها على ابن أبى عامر، و أنها أخرجت فى بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب و الفضّة، و موّهت ذلك كلّه بالمرّى و الشهد و غيره و الأصباغ المتّخذة بقصر الخلافة، و كتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك. و مرّت على صاحب المدينة، فما شكّ أنه ليس فيها إلّا ما هو عليها، و كان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار، فأحضر ابن أبى عامر جماعة و أعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ

الأموال بانهماكه فى العبادة، و أنّ فى إضاعتها آفة على المسلمين، و أشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه، فحمل منها خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق و سبعمائة ألف دينار، و كانت صبح قد دافعت عمّا بالقصر من الأموال، و لم تمكّن من إخراجها، فاجتمع ابن أبى عامر بالخليفة هشام، و اعترف له بالفضل و الغناء فى حفظ قواعد الدولة، فخرست ألسنة العدا و الحسدة، و علم المنصور ما فى نفوس الناس لظهور هشام و رؤيتهم له، إذ كان منهم من لم يره قطّ، فأبرزه للناس و ركب الركبة المشهورة، و اجتمع لذلك من الخلق ما لا يحصى، و كانت عليه الطويلة و القضيب فى يده زىّ الخلافة، و المنصور يسايره. ثم خرج المنصور لآخر غزواته، و قد مرض المرض الذى مات فيه، و واصل شنّ الغارات، و قويت عليه العلّة، فاتّخذ له سرير خشب و وطّئ عليه ما يقعد عليه، و جعلت عليه ستارة، و كان يحمل على أعناق الرجال و العساكر تحفّ به، و كان هجر الأطباء فى تلك العلّة لاختلافهم فيها، و أيقن بالموت، و كان يقول: إنّ زمانى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالة منى. و لعلّه يعنى من حضر تلك الغزاة، و إلّا فعساكر الأندلس ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد- و اشتغل ذهنه بأمر قرطبة و هو فى مدينة سالم، فلمّا أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك و جماعته و خلا بولده و كان يكرّر وصايته، و كلّما أراد أن ينصرف يردّه، و عبد الملك يبكى، و هو ينكر عليه بكاءه و يقول: و هذا من أول العجز، و أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر.

و خرج عبد الملك إلى قرطبة و معه القاضى أبو ذكوان، فدخلها أول شوّال، و سكّن الإرجاف بموت والده، و عرّف الخليفة كيف تركه.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۵۹

و وجد المنصور خفّة فأحضر جماعة بين يديه، و هو كالخيال لا يبين الكلام، و أكثر كلامه بالإشارة كالمسلّم المودع، و خرجوا من عنده، فكان آخر العهد به و مات لثلاث بقين من شهر رمضان، و أوصى أن يدفن حيث يقبض، فدفن فى قصره بمدينة سالم.

و اضطرب العسكر، و تلوّم ولده أياما، و فارقه بعض العسكر إلى هشام، و قفل هو إلى قرطبة فيمن بقى معه، و لبس فتيان المنصور المسوح و الأكسية بعد الوشى و الحبر و الخزّ.

و قام ولده عبد الملك المظفر بالأمر، و أجراه هشام الخليفة على عادة أبيه، و خلع عليه، و كتب له السجلّ بولاية الحجابة، و كان الفتيان قد اضطربوا فقوّم المائل، و أصلح الفاسد، و جرت الأمور على السداد، و انشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد، فكان أسعد مولود ولد فى الأندلس.

و لنمسك عنان القلم فى أمر ابن أبى عامر، فقد قدّمنا فى محلّه جملة من أحواله، و ما ذكرناه هنا و إن كان محلّه ما سبق و بعضه قد تكرّر معه فهو لا يخلو من فوائد زوائد، و اللّه تعالى ولى التوفيق.

رجع إلى أخبار صاعد اللغوى البغدادى:

و حكى أنه دخل على المنصور يوم عيد، و عليه ثياب جدد و خفّ جديد، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين فى الصف، فزلق فسقط فى الماء، فضحك المنصور، و أمر بإخراجه، و قد كان البرد أن يأتى عليه، فخلع عليه، و أدنى مجلسه، و قال له: هل حضرك شىء؟ فقال: [بحر الكامل]

شيئان كانا فى الزمان عجيبة ضرط ابن وهب ثم وقعة صاعد

فاستبرد ما أتى به أبو مروان الكاتب الجزيرى، فقال: هلّا قلت: [بحر المتقارب]

سرورى بغرّتك المشرقه و ديمة راحتك المغدقه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۰

ثنانى نشوان حتى غرق ت فى لجّة البركة المطبقه

لئن ظلّ عبدك فيها الغريق فجودك من قبلها أغرقه

فقال له المنصور: للّه درّك يا أبا مروان! قسناك بأهل بغداد ففضلتهم، فبمن نقيسك بعد؟ انتهى.

و قال فى الذخيرة فى ترجمة صاعد: وفد على المنصور نجما من المشرق غرّب، و لسانا عن العرب أعرب، و أراد المنصور أن يقفى به آثار أبى على القالى فألفى سيفه كهاما، و سحابه جهاما، من رجل يتكلّم بملء فيه، و لا يوثق بكلّ ما يذره و لا ما يأتيه، انتهى باختصار.

و أصل صاعد من ديار الموصل، و قال ارتجالا و قد عبث المنصور بترنجان: [بحر البسيط]

لم أدر قبل ترنجان عبثت به أنّ الزّمرّد أغصان و أوراق

من طيبه سرق الأترجّ نكهته يا قوم حتى من الأشجار سرّاق

كأنما الحاجب المنصور علّمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

و قدّمه الحجارى بقوله: [بحر البسيط]

كأن إبريقنا و الراح فى فمه طير تناول ياقوتا بمنقار

و قبله: [بحر البسيط]

و قهوة من فم الإبريق صافية كدمع مفجوعة بالإلف معبار

و قال فى بدائع البداءة: دخل صاعد اللغوى على بعض أصحابه فى مجلس شراب، فملأ الساقى قدحا من إبريق، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح قد تكوّنت و لم تقطر، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال: [بحر البسيط] و قهوة من فم الإبريق ساكبة البيتين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۱

ثم قال بعدهما: و إنما هدم صاعد قول الشريف أبى البركات على بن الحسين اللغوى: [بحر السريع]

كأنّ ريح الروض لمّا أتت فتّت علينا مسك عطّار

كأنما إبريقنا طائر يحمل ياقوتا بمنقار

انتهى.

و من نظم صاعد: [بحر المنسرح]

قلت له و الرقيب يعجله مودعا للفراق: أين أنا

فمدّ كفّا إلى ترائبه و قال: سر وادعا فأنت هنا

و قال صاعد، لمّا أمر المنصور بن أبى عامر بمعارضة قصيدة لأبى نواس: [بحر مجزوء الكامل]

إنّى لأستحيى علا ك من ارتجال القول فيه

من ليس يدرك بالروى ية كيف يدرك بالبديه

و قال حاشد البغدادى فى صاعد اللغوى، و كان صاعد ينشدهما و يبكى و يقول: ما هجيت بشىء أشدّ علىّ منهما: [بحر الكامل]

إقبل هديت أبا العلاء نصيحتى بقبولها و بواجب الشكر

لا تهجونّ أسنّ منك فربما تهجو أباك و أنت لا تدرى

نعوذ بالله من لسان الشعراء، و أنواع البلاء، بجاه نبيّنا محمد صلى اللّه عليه و سلم.

و من نظم صاعد قوله: [بحر الوافر]

بعثت إليك من خيرى روض مخرّمة كأوراق العقيق

توكّل بالغروب عن التصابى و تصطاد الخليع من الطريق

و روى صاعد عن القاضى أبى سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى، و أبى على الحسن بن أحمد الفارسى، و أبى بكر بن مالك

القطيعى، و أبى سليمان الخطابى، و غيرهم.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۲

قال الحميدى: خرج من الأندلس فى الفتنة، فمات بها قريبا من سنة عشر و أربعمائة.

و قال ابن حزم: توفى بصقلية سنة سبع عشرة و أربعمائة.

و قال ابن بشكوال فى حقه: «إنه يتّهم بالكذب و قلّة الصدق فيما يورده، عفا الله تعالى عنه»! و قدم الأندلس من مصر أيام المؤيد و تحكم المنصور بن أبى عامر فى حدود سنة ۳۸۰، فأكرمه المنصور، و زاد فى الإحسان إليه، و الإفضال عليه، و كان عالما باللغة و الآداب و الأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيّب المعاشرة، فكه المجالسة.

و قال بعضهم: دخل صاعد على المنصور و عنده كتاب ورد عليه من عامل له فى بعض الجهات اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه القلب و التربيل، و هما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها، فقال له: يا أبا العلاء، قال: لبيك يا مولانا، فقال: هل رأيت أو وصل إليك من الكتب القوالبة و الروالبة لميدمان بن يزيد؟، قال: إى و اللّه ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دريد بخطّه ككراع النمل، فى جوانبها، فقال له: أما تستحيى أبا العلاء من هذا الكذب؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا و اسمه كذا يذكر فيه كذا، فجعل يحلف له أنه ما كذب، و لكنه أمر وافق. و مات عن سنّ عالية، رحمه الله تعالى!.

۶۰- و من الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسى.

ولد سنة ۵۷۳، و قد ذكر فى رحلته عجائب شاهدها بالمغرب و مشايخ لقيهم، فمنهم الحافظ أبو محمد عبد اللّه بن سليمان بن داود بن حوط اللّه الأنصارى، قال: سمعت عليه سنة سبع و تسعين و خمسمائة الحديث و شيئا من تصانيف المغاربة، و روى لنا عن الحافظ أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن قرقول، و ولى ابن حوط اللّه المذكور قضاء غرناطة، و أدرك ابن بشكوال و ابن حبيش و ابن حميد المرسى النحوى و أبا يزيد السهيلى صاحب الروض و غيرهم. و من الشيوخ الذين لقيهم السرخسى المذكور بالمغرب الفقيه ابن أبى تميم قال:

و أنشدنى: [بحر مجزوء الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۳

اسمع أخىّ نصيحتى و النّصح من محض الديانه

لا تقربنّ إلى الشّها دة و الوساطة و الأمانه

تسلم من ان تعزى لزو ر أو فضول أو خيانه

و ذكر أنه أدرك الشيخ الولى العارف باللّه سيدى أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجى السبتى، صاحب الحالات و الكرامات الظاهرة و الطريقة الغريبة و الأحوال العجيبة، قال: أدركته بمراكش سنة أربع و تسعين و خمسمائة و قد ناهز الثمانين، و مهما حصل عنده مال فرّقه فى الحال، و تركته فى سنة ثمان و تسعين حيّا يرزق، انتهى.

و ولىّ اللّه السبتى قد ذكرت فى غير هذا الموضع بعض أحواله، فلتراجع فى الباب الثامن من ترجمة لسان الدين بن الخطيب، و محلّه مقصود لقضاء الحاجات، و قد زرته مرارا عديدة سنة ۱۰۱۰.

و قال لسان الدين فى «نفاضة الجراب»: كتبت عن السلطان الغنى باللّه محمد بن يوسف بن نصر، و نحن بفاس، يخاطب الضريح المقصود، و المنهل المورود، و المرعى المنتجع، و الخوان الذى يكفى الغرثى، و يمرّض المرضى، و يقوت الزّمنى و يتعدّاهم إلى أهل الجدة زعموا و الغنى، قبر ولى اللّه سيدى أبى العباس السبتى نفعنا اللّه به، و جبر حالنا، و أعاد علينا النعم، و دفع عنّا النقم: [بحر الخفيف]

يا وليّ الإله أنت جواد و قصدنا إلى حماك المنيع

راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجى من علاك حسن الصّنيع

فمددنا لك الأكفّ نرجّى عودة العزّ تحت شمل جميع

قد جعلنا وسيلة تربك الزا كى و زلفى إلى العليم السميع

كم غريب أسرى إليك فوافى برضا عاجل و خير سريع

يا وليّ اللّه الذى جعل جاهه سببا لقضاء الحاجات، و رفع الأزمات، و تصريفه باقيا بعد الممات، و صدّق قول الحكايات ظهور الآيات، نفعنى اللّه بنيّتى فى بركة تربك! و أظهر عليّ

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۴

أثر توسّلى بك إلى اللّه ربّك! مزّق شملى، و فرق بينى و بين أهلى، و تعدّى عليّ، و صرفت وجوه المكايد إليّ، حتى أخرجت من وطنى و بلدى، و مالى و ولدى، و محلّ جهادى، و حقّى الذى صار لى طوعا عن آبائى و أجدادى، عن بيعة لم يحلّ عقدتها الدين، و لا ثبوت جرحة تشين، و أنا قد قرعت باب اللّه سبحانه بتأميلك، فالتمس لى قبوله بقبولك، و ردّنى إلى وطنى على أفضل حال، و أظهر عليّ كرامتك التى تشدّ إليها ظهور الرّحال، فقد جعلت وسيلتى إليك رسول الحقّ، إلى جميع الخلق، و السلام عليك أيها الوليّ الكريم، الذى يأمن به الخائف و ينتصف الغريم، و رحمة اللّه، انتهى.

رجع: و السرخسى المذكور قال فى حقّه بعض الأئمّة: إنه الشيخ الإمام، شيخ الشيوخ، تاج الدين أبو محمد عبد اللّه بن عمر بن على بن محمد بن حمويه، له رحلة مغربية، انتهى.

و هو من بيت كبير، و قال البدرى فى حقّه ما صورته: تاج الدين، شيخ الشيوخ بدمشق، أحد الفضلاء المؤرّخين المصنّفين، له كتاب فى ثمان مجلّدات ذكر فيه أصول الأشياء، و له «السياسة الملوكية» صنّفها للملك الكامل محمد، و غير ذلك، و سمع الحديث، و حفظ القرآن، و كان قد بلغ الثمانين، و قيل: لم يبلغها، و قد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث و تسعين، و اتّصل بمراكش، عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة، و قدم مصر، و ولى مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين بن حمويه، انتهى.

و قال غيره: إنه كان فاضلا متواضعا نزها حسن الاعتقاد، قال أبو المظفر: كان يحضر مجالسى، و أنشدنى يوما: [بحر البسيط]

لم ألق مستكبرا إلّا تحوّل لى عند اللقاء له الكبر الذى فيه

و لا حلا لى من الدنيا و لذّتها إلّا مقابلتى للتّيه بالتّيه

و قال السرخسى المذكور فى رحلته: إنى و إن كنت خراسانى الطينة، لكنّى شامى المدينة، و إن كانت العمومة من المشرق، فإن الخؤولة من المغرب، فحدث باعث يدعو إلى الحركات و الأسفار، و مشاهدة الغرائب فى النواحى و الأقطار، و ذلك فى حال ريعان الشباب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۵

الذى تعضده عزائم النفوس بنشاطها، و الجوارح بخفّة حركاتها و انبساطها، فخرجت سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة إلى زيارة البيت المقدس و تجديد العهد ببركاته، و اغتنام الأجر فى حلول بقاعه و مزاراته، ثم سرت منه إلى الديار المصرية، و هى آهلة بكلّ ما تتجمّل به البلاد و تزدهى، و ينتهى و صف الواصف لشؤونها و لا تنتهى، ثم دخلت الغرب من الإسكندرية فى البحر و دخلت مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن على، فاتّصلت بخدمته، و الذى علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن، و يحفظ متون الأحاديث و يتقنها، و يتكلّم فى الفقه كلاما بليغا، و كان فقهاء الوقت يرجعون إليه فى الفتاوى، و له فتاوى مجموعة حسبما أدّى إليه اجتهاده، و كان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر، و قد شرحت

أحوال سيرته، و ما جرى فى أيام دولته، فى كتاب التاريخ المسمّى «عطف الذيل». و قد صنّف كتابا جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلّق بها العبادات سمّاه «الترغيب». و تهدّده ملك الإفرنج ألفنش فى كتابه فمزّقه، و قال لرسوله ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (۳۷) [النمل: ۳۷] إن شاء اللّه تعالى، ثم قال للكاتب: اكتب على هذه القطعة، يعنى من كتابه الذى مزّقه: الجواب ما ترى لا ما تسمع: [بحر الطويل]

فلا كتب إلّا المشرفيّة و القنا و لا رسل إلّا الخميس العرمرم

و من شعره أبيات كتب بها إلى العرب، و هى: [بحر البسيط]

يا أيها الراكب المزجى مطيّته على عذافرة تشقى بها الأكم

بلّغ سليمى على بعد الديار بها بينى و بينكم الرحمن و الرّحم

يا قومنا لا تشبّوا الحرب إن خمدت و استمسكوا بعرى الإيمان و اعتصموا

كم جرّب الحرب من قد كان قبلكم من القرون فبادت دونها الأمم

حاشى الأعارب أن ترضى بمنقصة يا ليت شعرى هل ترآهم علموا

يقودهم أرمنىّ لا خلاق له كأنه بينهم من جهلهم علم

يعنى بالأرمنى قرقوش مملوك بنى أيوب، الذى كان ذهب إلى بلاد الغرب الأدنى،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۶

و أوقد النار الحربية من طرابلس إلى تونس مع ابن غانية اللّمتونى، و حديثه مشهور، و تمام الأبيات:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۳۶۶

اللّه يعلم أنى ما دعوتكم دعاء ذى قوة يوما فينتقم

و لا لجأت لأمر يستعان به من الأمور و هذا الخلق قد علموا

لكن لأجزى رسول اللّه عن نسب ينمى إليه و ترعى تلكم الذّمم

فإن أتيتم فحبل الوصل متّصل و إن أبيتم فعند السيف نحتكم

ثم قال السرخسى: و بلغنى أنّ قوما من الغرباء قصدوه، و معهم حيوانات معلّمة منها أسد و غراب، أما الأسد فيقصده من دون أهل المجلس، و يربض بين يديه، و ربما أومأ بالسجود و مدّ ذراعيه، و أمّا الغراب فكان يقول: النصر و التمكين لسيدنا أمير المؤمنين، و فى ذلك يقول بعض الشعراء: [بحر الرمل]

أنس الشبل ابتهاجا بالأسد و رأى شبه أبيه فقصد

أنطق الخالق مخلوقاته شهدوا و الكلّ بالحقّ شهد

أنّك الخيرة من صفوته بعد ما طال على الناس الأمد

فأعطاهم و كساهم، و أحسن حباهم.

و بلغنى أنّ قوما أتوه بفيل من بلاد السودان هديّة، فأمر لهم بصلة، و لم يقبله منهم، و قال: نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل.

و قال لى يوما: كيف ترى هذه البلاد؟ و أين هى من بلادك الشامية؟ فقلت: يا سيدنا، بلادكم حسنة أنيقة مجملة مكملة، و فيها عيب واحد، فقال: ما هو؟ فقلت: إنها تنسى الأوطان، فتبسّم و ظهر لى إعجابه بالجواب، و أمر لى من غد بزيادة رتبة و إحسان.

و حدّثنى بعض عمّالهم أنه فرّق على الجند و الأمراء و الفقراء فى عيد سنة أربع و تسعين ثلاثة و سبعين ألف شاة من ضأن و معز.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۷

و درج إلى رحمة اللّه تعالى سنة خمس و تسعين و خمسمائة: و كان قد استخلف ولده محمدا و قرّر الأمر له، انتهى.

قلت: بهذا و أمثاله تعلم فساد ما زعمه غير واحد أنّ يعقوب المنصور هذا تخلّى عن الملك، و فرّ زاهدا فيه إلى المشرق، و أنه دفن بالبقاع؛ لأن هذه مقالة عامّيّة لا يثبتها علماء المغرب، و سبب هذه المقالة تولّع العامّة به، فكذبوا فى موته، و قالوا: إنه ترك الملك، و حكوا ما شاع إلى الآن و ذاع ممّا ليس له أصل. و يرحم اللّه تعالى الإمام العلامة القاضى الشريف الغرناطى شارح الخزرجية، إذ قال فى شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه:

إن بعض الناس يزعمون أنّ المنصور ترك الملك و ذهب إلى المشرق، و هذا كلام لا يصحّ، و لا أصل له. انتهى. و قال فى «المغرب»: كان أبوه يوسف قد استوزره فى حياته، و تخرّج بين يديه، و تمرّس، و هزم الفرنج الهزيمة الفظيعة، و تولّع بالعلم حتى نفى التقليد و حرق كتب المذاهب، و قتل على السكر، انتهى.

و حكى لسان الدين الوزير ابن الخطيب فى شرح كتابه «رقم الحلل، فى نظم الدول» أنّ المنصور طلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده يكون أحدهما برّا فى عمله، و الآخر بحرا فى علمه، فجاءه بشخصين زعم أنهما على وفق مقترح المنصور، فلمّا اختبرهما لم يجدهما كما وصف، فكتب إلى الآتى بهما ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) [الروم: ۴۱] انتهى. و ناهيك بهذا دلالة على قوّة فطنته و معرفته، رحمه اللّه تعالى.

رجع إلى أخبار السرخسى:

و قال فى رحلته لمّا ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد اللّه بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على، و كان فى تلك المدة يلى مدينة سجلماسة و أعمالها؛ اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد، فرأيته شيخا بهىّ المنظر، حسن المخبر، فصيح العبارة باللغتين العربية و البربرية. و من كلامه فى جواب رسالة إلى ملك

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۸

السودان لغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله: نحن نتجاور بالإحسان، و إن تخالفنا فى الأديان، و نتّفق على السيرة المرضية، و نتألّف على الرفق على الرعية، و معلوم أن العدل من لوازم الملوك فى حكم السياسة الفاضلة، و الجور لا تعانيه إلّا النفوس الشريرة الجاهلة، و قد بلغنا احتباس مساكين التجار و منعهم من التصرّف فيما هم بصدده، و تردّد الجلّابة إلى البلد مفيد لسكانها، و معين على التمكّن من استيطانها، و لو شئنا لاحتبسنا من فى جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكنّا لا نستصوب فعله، و لا ينبغى لنا أن ننهى عن خلق و نأتى مثله، و السلام.

و وقّع إلى عامل له كثرت الشكاوى منه: قد كثرت فيك الأقوال، و إغضائى عنك رجاء أن تتيقّظ فتنصلح الحال، و فى مبادرتى إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شرّ الاختيار و عدم الاختبار، فاحذر فإنك على شفا جرف هار.

و من شعره المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمه المنصور يعقوب: [بحر الكامل]

هبّت بنصركم الرياح الأربع و جرت بسعدكم النجوم الطّلّع

و استبشر الفلك الأثير تيقّنا أنّ الأمور إلى مرادك ترجع

و أمدّك الرحمن بالفتح الذى ملأ البسيطة نوره المتشعشع

لم لا و أنت بذلت فى مرضاته نفسا تفدّيها الخلائق أجمع

و مضيت فى نصر الإله مصمّما بعزيمة كالسيف بل هى أقطع

للّه جيشك و الصوارم تنتضى و الخيل تجرى و الأسنّة تلمع

من كلّ من تقوى الإله سلاحه ما إن له غير التوكّل مفزع

لا يسلمون إلى النوازل جارهم يوما إذا أضحى الجوار يضيّع

و منها يصف انهزام العدوّ:

إن ظن أنّ فراره منج له فبجهله قد ظنّ ما لا ينفع

أين المفرّ و لا فرار لهارب و الأرض تنشر فى يديك و تجمع

أ خليفة اللّه الرضا هنّيته فتح يمدّ بما سواه و يشفع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۶۹

فلقد كسوت الدّين عزّا شامخا و لبست منه أنت ما لا يخلع

هيهات سرّ اللّه أودع فيكم و اللّه يعطى من يشاء و يمنع

لكم الهدى لا يدّعيه سواكم و من ادّعاه يقول ما لا يسمع

إن قيل: من خير الخلائق كلّها فإليك يا يعقوب تومى الأصبع

إن كنت تتلو السابقين فإنما أنت المقدّم و الخلائق تتبع

خذها، أمير المؤمنين، مديحة من قلب صدق لم يشنه تصنّع

و اسلم، أمير المؤمنين، لأمّة أنت الملاذ لها و أنت المفزع

فالمدح منى فى علاك طبيعة و المدح من غيرى إليك تطبّع

و عليك يا علم الهداة تحيّة يفنى الزمان و عرفها يتضوّع

قال لى الفقيه أبو عبد اللّه محمد القسطلانى: دخلت إلى السيد أبى الربيع بقصر سجلماسة، و بين يديه أنطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة و غانة، و هو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس، و يقول: [بحر الطويل]

و لا غرو أن كانت رؤوس عداته جوابا إذا كان السيوف رسائله

و مات بعد الستمائة، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

و قال لمّا هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور، و وافق ذلك أن وفد على حضرة الخلافة مراكش جمع من العرب و الغزّ من بلاد المشرق، و نزلوا بتمرتاسقت ظاهر مراكش، و استأذنوا فى وقت الدخول، فكتب إلى المنصور: [بحر الكامل]

يا كعبة الجود التى حجّت لها عرب الشآم و غزّها و الدّيلم

طوبى لمن أمسى يطوف بها غدا و يحلّ بالبيت الحرام و يحرم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۰

و من العجائب أن يفوز بنظرة من بالشآم و من بمكة يحرم

فعفا عنه، و أحسن إليه، و أمره بالدخول بهم، و التقدّم عليهم.

و قال فى «المغرب» فى حقّ السيد أبى الربيع المذكور، ما ملخصه: لم يكن فى بنى عبد المؤمن مثله فى هذا الشأن الذى نحن بصدده، و كان تقدّم على مملكتى سجلماسة و بجاية، و كان كاتبا شاعرا أديبا ماهرا، و شعره مدوّن، و له ألغاز، و هو القائل فى جارية اسمها ألوف: [بحر الطويل]

خليلّى، قولا أين قلبى و من به و كيف بقاء المرء من بعد قلبه

و لو شئتما اسم الذى قد هويته لصحّفتما أمرى لكم بعد قلبه

و له الأبيات المشهورة التى منها: [بحر الطويل]

أقول لركب أدلجوا بسحيرة قفوا ساعة حتى أزور ركابها

و أملأ عينى من محاسن وجهها و أشكو إليها أن أطالت عتابها

فإن هى جادت بالوصال و أنعمت و إلّا فحسبى أن رأيت قبابها

و قال يخاطب ابن عمّه يعقوب المنصور: [بحر الكامل]

فلأملأنّ الخافقين بذكركم ما دمت حيّا ناظما و مرسّلا

و لأبذلن نصحى لكم جهدى و ذا جهد المقلّ و ما عسى أن أفعلا

و لأخلصنّ لكك الدعاء، و ما أنا أهل له، و لعلّه أن يقبلا

و له مختصر كتاب «الأغانى» انتهى.

رجع: و ذكر السرخسى أيضا فى رحلته السيّد أبا الحسن على بن عمر ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن، و قال فى حقّه: إنه كان من أهل الأدب و الطرب، ولى بجايهٔ مدّهٔ، ثم عزل عنها لإهماله و إغفاله و انهماكه فى ملاذّه، أنشدنى محمد بن سعيد المهدى كاتبه قال: كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمدحه و يستزيده، و يطلب منه ما يقضى به ديونه: [بحر المتقارب]

وجوه الأمانى بكم مسفره و ضاحكهٔ لى مستبشره

ولى أمل فيكم صادق قريب عسى اللّه أن يوسره

علىّ ديون و تصحيفها و عندكم الجود و المغفره

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۱

يعنى ذنوب.

و حدّثنى الشيخ أبو الحسن بن فشتال الكاتب و قد أنشدته: [بحر الكامل]

أوحشتنى و لو اطّلعت على الذى لكك فى ضميرى لم تكن لى موحشا

فقال: أنشدته هذا البيت فى مجلس السيد أبى الحسن، فقال لى و لمن حضر: هل تعرفون لهذا البيت ثانيا؟ فما فينا من عرفه، فأنشدنا: [بحر الكامل]

أ ترى رشيت على اطّراح مودّتى و لقد عهدتك ليس تثنيك الرّشا

أوحشتنى- البيت، انتهى.

و قال فى «المغرب» فى حقّ السيّد المذكور، ما ملخّصه: كان هذا السيد أبو الحسن قد ولى مملكهٔ تلمسان و بجايهٔ، و له حكايات فى الجود برمكيهٔ، و نفس عاليهٔ زكيهٔ، كتب إليه السيد أبو الربيع يوم جمعهٔ: [بحر مجزوء الرجز]

اليوم يوم الجمعه يوم سرور ودعه

و شملنا مفترق فهل ترى أن نجمعه

فأجابه بقوله: [بحر مجزوء الرجز]

اليوم يوم الجمعه و ربّنا قد رفعه

و الشرب فيه بدعهٔ فهل ترى أن ندعه

قال: و لفظهٔ «السيد» فى المغرب بذلك العصر لا تطلق إلّا على بنى عبد المؤمن بن على، انتهى.

رجع: قال السرخسى، و قد ذكر فى الرحلهٔ المذكورهٔ السيد أبا محمد عبد اللّه صاحب فاس: و له من أبيات فى الفخر و قد انتحلها غيره: [بحر الطويل]

أ لست ابن من تخشى الليالى انتقامهم و ترجو نداهم غاديات السحائب

يخطّون بالخطّىّ فى حومهٔ الوغى سطور المنايا فى نحور المقانب

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۲

كتابا بأطراف العوالى و نقسه دم القلب مشكولا بنضح الترائب

و ما كنت أدرى قبلهم أنّ معشرا أقاموا كتابا من نفوس الكتائب

و أنشدنى المقدم الأمير أبو زيد بن بكيت قال: أنشدنى بعض السادة من بنى عبد المؤمن: [بحر السريع]

فديت من أصبحت فى أسره و ليس لى من حكمه فادى

إن حلّ يوما واديا كان لى جنّة عدن ذلك الوادى

ثم ذكر، رحمه اللّه تعالى، جملة من علماء الأندلس و المغرب لقيهم فى هذه الرحلة.

و من نظم السرخسى المذكور قوله رحمه اللّه تعالى: [بحر السريع]

يا ساهر المقلة لا عن كرى غفلت عن هجعى و أوصابى

لو لم يكن وجهك لى قبلة ما أصبح الحاجب محرابى

و كان متفنّنا فى العلوم، و هو عمّ الأمراء الوزراء الرؤساء فخر الدين و إخوته، و من مصنّفاته «المسالك و الممالك» و «عطف الذيل» فى التاريخ، و له أمال و تخاريج. و قدّمه المنصور صاحب المغرب على جماعة. و توفى رحمه اللّه تعالى بدمشق، و دفن فى مقابر الصوفية عند المنيبع. و كان عالى الهمة، شريف النفس، قليل الطمع، لا يلتفت إلى أحد رغبة فى دنياه، لا من أهله و لا من غيرهم، و ذكره صاحب «المرآة» و غيره، و ترجمته واسعة، رحمه اللّه تعالى!

۶۱- و من الوافدين على الأندلس ظفر البغدادى.

سكن قرطبة، و كان من رؤساء الورّاقين المعروفين بالضبط و حسن الخطّ كعباس بن عمر الصقلى و يوسف البلوطى و طبقتهما، و استخدمه الحكم المستنصر بالله فى الوراقة، لما علم من شدّة اعتناء الحكم بجمع الكتب و اقتنائها. و قد أشار ابن حيان فى كتاب «المقتبس» إلى ظفر هذا، رحمه اللّه تعالى!

۶۲- و منهم الرازى، و هو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط، الكنانى، الرازى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۳

والد أبى بكر محمد صاحب التاريخ، غلب عليه اسم بلده، و كان يفد من المشرق على ملوك بنى مروان تاجرا، و كان مع ذلك متفننا فى العلوم، و هلك منصرفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة، فى شهر ربيع الآخر سنة ۲۷۳، ذكره ابن حيان فى «المقتبس».

[۶۳- أبو الفضل محمد بن عبد الواحد التميمى الدارمى الوزير]

۶۳- و منهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان، التميمى، الدارمى، البغدادى.

سمع من أبى طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلّص و غيره، و خرج من بغداد رسولا عن أمير المؤمنين القائم بأمر اللّه العباسى، رضى اللّه تعالى عنه، إلى صاحب إفريقية المعزّ بن باديس، و اجتمع مع أبى العلاء المعرى بالمعرّة، و أنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب، فقبّل عينيه، و قال له: للّه أنت من ناظم! و خرج من إفريقية من أجل فتنة العرب، و خيّم عند المأمون بن ذى النون بطليطلة، و له فيه أمداح كثيرة، و من فرائد شعره قوله: [بحر المنسرح]

يا ليل، ألّا انجليت عن فلق طلت و لا صبر لى على الأرق

جفت لحاظى التغميض فيك فما تطبق أحفانها على الحدق

كأننى صورة ممثّلة ناظرها الدّهر غير منطبق

و قال: [بحر السريع]

يزرع وردا ناضرا ناظرى فى وجنة كالقمر الطالع

أمنع أن أقطف أزهاره فى سنّة المتبوع و التابع

فلم منعتم شفتى قطفها و الشرع أنّ الزرع للزارع

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد و ابن كتيلة، و بعضهم ينسبها للقاضى عبد الوهّاب.

قلت: و قد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله: [بحر السريع]

سلّمت أنّ الحكم ما قلتم و هو الذى نصّ عن الشارع

فكيف تبغى شفة قطفه و غيرها المدعوّ بالزارع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۴

ورده شيخ شيوخ شيوخنا الإمام الحافظ أبو عبد اللّه التّنسى ثم التلمسانى بقوله: [بحر السريع]

فى ذا الذى قد قلتم مبحث إذ فيه إيهام على السامع

سلّمتم الحكم له مطلقا و غير ذا نصّ عن الشارع

يعنى أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقا، و الشرع خلافه.

و أجاب بعض الحنفية بقوله: [بحر السريع]

لأنّ أهل الحبّ فى حكمنا عبيدنا فى شرعنا الواسع

و العبد لا ملك له عندنا فحقّه للسّيّد المانع

و هو جواب حسن لا بأس به.

و رأيت جوابا لبعض المغاربة على غير رويّه، و هو: [بحر السريع]

قل لأبى الفضل الوزير الذى باهى به مغربنا الشرق

غرست ظلما و أردت الجنى و ما لعرق ظالم حقّ

قلت: و هذا ممّا يعيّن أنّ الأبيات لأبى الفضل الدارمى المذكور فى الذخيرة، لا للقاضى عبد الوهّاب، و اللّه تعالى أعلم.

و من شعر الوزير المذكور قوله: [بحر المنسرح]

بين كريمين منزل واسع و الودّ حال تقرّب الشاسع

و البيت إن ضاق عن ثمانية متّسع بالوداد للتاسع

و ولد، رحمه اللّه تعالى، سنة ثمان و ثمانين و ثلاثمائة، و هو من بيت علم و أدب. قال الحميدى: أخبرنى بذلك أبو عمر رزق اللّه بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث، و توفى بطليطلة سنة أربع و خمسين و أربعمائة. و قال ابن حيان: توفى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس و خمسين و أربعمائة، فى كنف المأمون يحيى بن ذى النون، و ذكر أنه كان يتّهم بالكذب، فاللّه تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

و قال ابن ظافر فى كتابه «بدائع البداءة» ما نصّه: حضر أبو الفضل الدارمى البغدادى مجلس المعزّ بن باديس، و بالمجلس ساق و سيم قد مسّك عذاره و ورّد خديه، و عجزت

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۵

الراح أن تفعل فى الندامى فعل عينيه، فأمره المعزّ بوصفه، فقال بديها: [بحر الكامل]

و معذّر نقش الجمال بمسكه خدّا له بدم القلوب مضرّجا

لمّا تيقّن أنّ سيف جفونه من نرجس جعل العذار بنفسجا

و قوله فى جارية تبخّرت بالندّ: [بحر الطويل]

و محطوطة المتنين مهضومة الحشى منعّمة الأرداف تدمى من اللّمس

إذا ما دخان النّدّ من جيبها علا على وجهها أبصرت غيما على شمس

و قوله: [بحر الكامل]

لأغرّزنّ بمهجتى فى حبّه غرزا يطيل مع الخطوب خطابى

و لئن تعزّز إنّ عندى ذلّة تستعطف الأعداء للأحباب

و قوله: [بحر المتقارب]

دعتنى عيناك نحو الصبا دعاء يكرّر فى كل ساعه

و لولا و حقّك عذر المشيب لقلت لعينيك سمعا و طاعه

و قد تمثّل بهذين البيتين لسان الدين بن الخطيب فى خطبة تأليفه المسمّى ب «روضة التعريف، بالحب الشريف».

و قال أبو الفضل الدارمى المذكور أيضا: [بحر البسيط]

سطا الفراق عليهم غفلة فغدوا من جوره فرقا من شدّة الفرق

سرت شرقا و أشواقى مغرّبة يا بعد ما نزحت عن طرقهم طرقى

لو لا تداركك دمعى يوم كاظمة لأحرق الركب ما أبديت من حرق

يا سارق القلب جهرا غير مكترث أمنت فى الحبّ أن تعدى على السّرق

لم يبق منى سوى لفظ يبوح بما ألقى، فيا عجبا للفظ كيف بقى

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۶

صلنى إذا شئت أو فاهجر علانية فكلّ ذلك محمول على الحدق

و قال: [بحر الطويل]

تذكّر نجدا و الحمى فبكى وجدا و قال: سقى اللّه الحمى و سقى نجدا

و حيّته أنفاس الخزامى عشيّة فهاجت إلى الوجد القديم به وجدا

فأظهر سلوانا و أضمر لوعة إذا طفئت نيرانها وقدت وقدا

و لو أنه أعطى الصبابة حكمها لأبدى الذى أخفى و أخفى الذى أبدى

و قال أيضا: [بحر مجزوء الرمل]

قلت للملقى على الخدّين من ورد خمارا

سبل الصّدغ على خدّك من مسك عذارا

أم أعان الليل حتّى قهر الليل النهارا

قال: ميدان جرى الحسن عليه فاستدارا

ركضت فيه عيون فأثارته غبارا

و قال: [بحر السريع]

و كاتب أهديت نفسى له فهى من السوء فدى نفسه

فلست أدرى بعد ما حلّ بى بمسكه أتلف أم نقسه

سلّط خدّيه على مهجتى فاستأصلتها و هى من غرسه

و قال: [بحر السريع]

و شادن أسرف فى صدّه و زاد فى التّيه على عبده

الحسن قد بثّ على خدّه بنفسجا يزهو على ورده

رأيته يكتب فى طرسه خطّا يبارى الدّرّ من عقده

فخلت ما قد خطّه كفّه للحسن قد خطّ على خدّه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۷

و قال: [بحر المجتث]

إنى عشقت صغيرا قد دبّ فيه الجمال

و كاد يغشى حديث ال فضول منه الدّلال

لو مرّ فى طرق الهج ر لاعتراه ضلال

يريك بدرا منيرا فى الحسن و هو هلال

و قال: [بحر السريع]

ظبى إذا حرّك أصداغه لم يلتفت خلق إلى العطر

غنّى بشعرى منشدا ليتنى ال لفظ الذى أودعته شعرى

فكلّما كرّر إنشاده قبّلته فيه و لم يدر

و قال: [بحر الطويل]

أ ينفع قولى إننى لا أحبّه و دمعى بما يمليه وجدى يكتب

إذا قلت للواشين لست بعاشق يقول لهم فيض المدامع يكذب

و قال: [بحر الطويل]

و هبنى قد أنكرت حبّك جملة و آليت أنى لا أروم محطّها

فمن أين لى فى الحبّ جرح شهادة سقامى أملاها و دمعى خطّها

و قال: [بحر الخفيف]

أنا أخشى إن دام ذا الهجر أن ين شط من حبّه عقال وثاقى

فأريح الفؤاد ممّا اعتراه و أردّ الهوى على العشّاق

و قال: [بحر الطويل]

كلانا لعمرى ذائبان من الهوى فنارك من جمر و نارى من هجر

أنت على ما قد تقاسين من أذى فصدرك فى نار و نارى فى صدرى

و قال: [بحر المتقارب]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۸

و من عجب العشق أنّ القتيل يحنّ و يصبو إلى القاتل

و قال: [بحر الوافر]

أ لم أجعل مثار النّقع بحرا على أنّ الجياد له سفين

و قال: [بحر البسيط]

أصبحت أحلب تيسا لا مدرّ له و التّيس من ظنّ أنّ التيس محلوب

و أما الحكيم أبو محمد المصرى و هو القائل: [بحر الطويل]

رعى اللّه دهرا قد نعمنا بطيبه لياليه من شمس الكؤوس أصائل

و نرجسنا درّ على التّبر جامد و خمرتنا تبر على الدّرّ سائل

فقد ترجمه فى «الذخيرة» فليراجع، فإن الذخيرة غريبة فى البلاد المشرقية. و قد كان عندى بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به، فخلفته هنالك، و اللّه تعالى يلم الشمل. و قد ذكر فيها أنه مغربى سافر إلى مصر، فقيل له «المصرى» لذلك، فليعلم، و اللّه تعالى أعلم.

۶۴- و من الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراسانى.

قال ابن سعيد: أنشدنا لمّا وفد على ابن هود فى إشبيلية قصيدة ابن النبيه: [بحر الكامل]

طاب الصّبوح لنا فهاك و هات

و ادعاها، و فيها:

فى روضة غنّا تخال طيورها و غصونها همزا على ألفات

و لم أجد هذا البيت فى قصيدة ابن النبيه، انتهى.

۶۵- و من الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادى الفكيك.

و هو مذكور فى الذخيرة، و كان حلو الجواب، مليح التندر، يضحك من حضر، و لا يضحك هو إذا ندّر، و كان قصيرا دميما.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۷۹

قال: و رأيته يوما و قد لبس ثوبا أحمر على بياض، و فى رأسه طرطور أخضر، عمّم عليه عمّة لازوردية، و هو بين يدى المعتمد بن عباد ينشد شعرا قال فيه: [بحر المتقارب]

و أنت سليمان فى ملكه و بين يديك أنا الهدهد

و أنشد له فى المعتمد: [بحر الطويل]

أبا القاسم الملك المعظّم قدره سواك من الأملاك ليس يعظّم

لقد أصبحت حمص بعدلك جنّة و قد أبعدت عن ساكنيها جهنّم

ولى فى محيّاك الربيع و إننى أزخرف أعلام الثناء و أرقم

و أنفقت ما أعطيتنى ثقة بما أؤمّل فالدينار عندى درهم

و قلبى إلى بغداد يصبو و إننى لنشر صباها دائما أتنسّم

و قال: [بحر الطويل]

و روّى على ربع العقيق دموعه عقيقا ففيها توأم و فريد

شهدت و ما تغنى شهادة عاشق بأنّ قتيل الغانيات شهيد

و منها:

إذا قابلوه قبّلوا ترب أرضه و هم لعلاه ركّع و سجود

و قد هزّ منه اللّه للملك صارما تقام بحدّى شفرتيه حدود

و قال: [بحر الطويل]

لأيهٔ حال حال عن سنهٔ الكرى و لم أصغ يوما فى هواه إلى العذل

و منها:

كأنّ بقاء الطّلّ فوق جفونها دموع التصابى حرن فى الأعين النّجل

و منها:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۰

تملّكت رقّى بالعوارف منعما و أغنيتنى بالجود عن كلّ ذى فضل

و أنسيتنى أرض العراق و دجلهٔ و ربعى حتى ما أحنّ إلى أهلى

و قال فى المقتدر بن هود: [بحر المتقارب]

لعزّك ذلّت ملوك البشر و عفّرت تيجانهم فى العفر

و أصبحت أخطرهم بالقنا و أركبهم لجواد الخطر

سهرت و ناموا على المأثرات فما لهم فى المعالى أثر

و جلّيت فى حيث صلّى الملوك فكلّ بذيل العلا قد عثر

و منها:

و أنتم ملوك إذا شاجروا أظلّتهم من قناهم شجر

و قال فيه من قصيدهٔ: [بحر البسيط]

غنّى حسامك فى أرجاء قرطبهٔ صوتا أباد العدى و الليل معتكر

حيث الدماء مدام و القنا زهر و القوم صرعى بكأس الحتف قد سكروا

و كان مشهورا بالهجاء، و له فى نقيب بغداد و كانت فى عنقه غدّهٔ: [بحر الكامل]

بلغ الأمانهٔ فهى فى حلقومه لا ترتقى صعدا و لا تتنزّل

و قال فى ناصر الدولهٔ بن حمدان: [بحر الكامل]

و لئن غلطت بأن مدحتك طالبا جدواك مع علمى بأنّك باخل

الدولهٔ الغرّاء قد غلطت بأن سمّتك ناصرها و أنت الخاذل

إن تمّ أمرك مع يد لك أصبحت شلّاء فالأمثال شىء باطل

و مما ينسب إليه، و قيل لغيره: [بحر الكامل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۱

و وعدتنى وعدا حسبتك صادقا فجعلت من طمعى أجىء و أذهب

فإذا جمعت أنا و أنت بمجلس قالوا: مسيلمهٔ و هذا أشعب

۶۶- و منهم إبراهيم بن سليمان الشامى.

دخل الأندلس من المشرق فى أخريات أيام الحكم شاديا للشعر، و هو من موالى بنى أميهٔ، و لم ينفق على الحكم، و تحرّك فى أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه، و وصله، ثم فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، و كان أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبى

نواس و أبى العتاهية.

و من شعره ما كتب به إلى الأمير عبد الرحمن: [بحر الكامل]

يا من تعالى من أميّة فى الذّرى قدما فأصبح عالى الأركان

إنّ الغمام غياثه فى وقته و الغيث من كفّيك كلّ أوان

فالغيث قد عمّ البلاد و أهلها و ظمئت بينهم فبلّ لسانى

و له فى الأمير عبد الرحمن بن الحكم: [بحر الطويل]

و من عبد شمس بالمغارب عصبة فأسعدها الرحمن حيث أحلّها

دحا تحتها مهدا من العزّ آمنا و مدّ جناحا فوقها فأظلّها

[۶۷- و منهم أبو بكر محمد بن أحمد بن الأزرق]

۶۷- و منهم أبو بكر بن الأزرق، و هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن حامد بن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد، و هو الحصنى، ابن محمد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

من أهل مصر، خرج من مصر سنة ثلاث و أربعين و ثلاثمائة، و صار إلى القيروان، و امتحن بها مع الشيعة، و أقام محبوسا بالمهدية، ثم أطلق و وصل الأندلس سنة تسع و أربعين، فأحسن إليه المستنصر بالله الحكم، و كان أديبا حكيما، سمع من خاله أبى بكر أحمد بن مسعود الزهرى، و ولد سنة تسع عشرة و ثلاثمائة بمصر، و توفى بقرطبة فى ذى القعدة سنة خمس و ثمانين و ثلاثمائة، رحمه اللّه تعالى!

[۶۸- و من الوافدين أبو الحسن على بن نافع (زرياب) المغنى]

۶۸- و من الوافدين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن على بن نافع، الملقب بزرياب، مولى أمير المؤمنين المهدى العباسى.

قال فى «المقتبس» زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۲

لسانه، و حلاوة شمائله، شبّه بطائر أسود غرد عندهم، و كان شاعرا مطبوعا، و كان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضا، و كان من خبره فى الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذا لإسحاق الموصلى ببغداد، فتلقّف من أغانيه استراقا، و هدى من فهم الصناعة و صدق العقل مع طيب الصوت و صورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق و إسحاق لا يشعر بما فتح عليه، إلى أن جرى للرشيد مع إسحاق خبره المشهور فى الاقتراح عليه بمغنّ غريب مجيد للصنعة، لم يشتهر مكانه إليه، فذكر له تلميذه هذا، و قال: إنه مولى لكم، و سمعت له نزعات حسنة، و نغمات رائقة، ملتاطة بالنفس، إذا أنا وقفته على ما استغرب منها و هو من اختراعى و استنباط فكرى، و أحدس أن يكون له شأن، فقال الرشيد: هذا طلبتى، فأحضرنيه لعل حاجتى عنده، فأحضره، فلمّا كلّمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق و أوجز خطاب، و سأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم أحسن منه ما يحسنه الناس، و أكثر ما أحسنه لا يحسنونه، ممّا لا يحسن إلّا عندك و لا يدّخر إلّا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق، فلما أدنى إليه وقف عن تناوله، و قال: لى عود نحتّه بيدى، و أرهفته بإحكامى، و لا أرتضى غيره، و هو بالباب، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه، فأمر بإدخاله إليه، فلمّا تأمّله الرشيد و كان شبيها بالعود الذى دفعه قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك؟ فقال: إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده، و إن كان يرغب فى غنائى فلا بدّ لى من عودى، فقال له: ما أراهما إلّا واحدا، فقال: صدقت يا مولاى، و لا يؤدّى

النظر غير ذلك، و لكن عودى و إن كان فى قدر جسم عوده و من جنس خشبه فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه، و أوتارى من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة و رخاوة، و بمّها و مثلثها اتّخذتهما من مصران شبل أسد، فلها فى الترنّم و الصفاء و الجهارة و الحدّة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، و لها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها، فاستبرع الرشيد وصفه و أمره بالغناء، فجس، ثم اندفع فغنّاه: [بحر البسيط]

يا أيها الملك الميمون طائره هارون راح إليك الناس و ابتكروا

فأتمّ النوبة، و طار الرشيد طربا، و قال لإسحاق: و اللّه لو لا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانه إيّاك لما عنده و تصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لترككك إعلامى بشأنه، فخذه إليك و اعتن بشأنه، حتى أفرغ له، فإن لى فيه نظرا، فسقط فى يد إسحاق،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۳

و هاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فخلا بزرياب و قال: يا على، إنّ الحسد أقدم الأدواء و أدوؤها، و الدنيا فتّانة، و الشركة فى الصناعة عداوة، و لا حيلة فى حسمها، و قد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك و علوّ طبقتك، و قصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسى من مأمنها بإدنائك، و عن قليل تسقط منزلتى، و ترتقى أنت فوقى، و هذا ما لا أصاحبك عليه و لو أنك ولدى، و لولا رعيى لذمّة تربيتك لما قدمت شيئا على أن أذهب نفسك، يكون فى ذلك ما كان، فتخيّر فى ثنتين لا بدّ لك منهما: إمّا أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة، و أنهضك لذلك بما أردت من مال و غيره، و إمّا أن تقيم على كرهى و رغمى مستهدفا إلىّ، فخذ الآن حذرك منى فلست و اللّه أبقى عليك، و لا أدع اغتيالك باذلا فى ذلك بدنى و مالى، فاقض قضاءك. فخرج زرياب لوقته، و علم قدرته على ما قال، و اختار الفرار قدامه، فأعانه إسحاق على ذلك سريعا، و راش جناحه، فرحل عنه، و مضى يبغى مغرب الشمس، و استراح قلب إسحاق منه.

و تذكّره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمسا فيه، فأمر إسحاق بحضوره، فقال: و من لى به يا أمير المؤمنين؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجنّ تكلّمه و تطارحه ما يزهى به من غنائه، فما يرى فى الدنيا من يعدله، و ما هو إلّا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين و ترك استعادته، فقدّر التقصير به، و التهوين بصناعته، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفيا عنّى، و قد صنع اللّه تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لمم يغشاه و يفرط خبطه، فيفزع من رآه، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق، و قال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير.

و مضى زرياب إلى المغرب، فنسى بالمشرق خبره، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرته بالصقع الذى قطنه، و نزعت إليه نفسه، و سمت به همّته، فأمّ أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه، و خاطبه، و ذكر له نزاعه إليه، و اختياره إياه، و يعلمه بمكانه من الصناعة التى ينتحلها، و يسأله الإذن فى الوصول إليه، فسرّ الحكم بكتابه و أظهر له من الرغبة فيه و التّطلّع إليه و إجمال الموعد ما تمنّاه، فسار زرياب نحوه بعياله و ولده، و ركب بحر الزّقاق إلى الجزيرة الخضراء، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم، فهمّ بالرجوع إلى العدوة، فكان معه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۴

منصور اليهودى المغنى رسول الحكم إليه، فثناه عن ذلك و رغّبه فى قصد القائم مقام الحكم، و هو عبد الرحمن ولده، و كتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلّعه إليه، و السرور بقدومه عليه، و كتب إلى عمّاله على البلاد أن يحسنوا إليه، و يوصلوه إلى قرطبة، و أمر خصيّا من أكابر خصيانه أن يتلقّاه ببغال ذكور و إناث و آلات حسنة، فدخل هو و أهله البلد ليلا صيانة للحرم، و أنزله فى دار من أحسن الدور، و حمل إليها جميع ما يحتاج إليه، و خلع عليه، و بعد ثلاثة أيام استدعاه، و كتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا، و أن يجرى على بنيه الذين قدموا معه- و كانوا أربعة: عبد الرحمن، و جعفر، و عبيد اللّه، و يحيى. عشرون

دينارا لكلّ واحد منهم كلّ شهر، و أن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكلّ عيد ألف دينار، و لكلّ مهرجان و نوروز خمسمائة دينار، و أن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدى ثلثاها شعير و ثلثها قمح، و أقطعه من الدّور و المستغلّات بقرطبة و بساتينها و من الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار. فلمّا قضى له سؤله و أنجز موعوده و علم أن قد أرضاه و ملك نفسه استدعاه، فبدأ بمجالسته على النبيذ و سماع غنائه، فما هو إلّا أن سمعه فاستهوله و اطّرح كل غناء سواه، و أحبّه حبّا شديدا، و قدّمه على جميع المغنين، و كان لمّا خلا به أكرمه غاية الإكرام، و أدنى منزلته، و بسط أمله، و ذاكره فى أحوال الملوك و سير الخلفاء و نوادر العلماء، فحرّك منه بحرا زخر عليه مدّه، فأعجب الأمير به، وراقه ما أورده، و حضر وقت الطعام فشرّفه بالأكل معه هو و أكابر ولده، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكّا بما ذكرناه آنفا، و لمّا ملك قلبه و استولى عليه حبّه، فتح له بابا خاصّا يستدعيه منه متى أراده.

و ذكر أنّ زريابا ادّعى أنّ الجن كانت تعلّمه كلّ ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، كان يهبّ من نومه سريعا فيدعو بجاريتيه غزلان و هنيدة، فتأخذان عودهما، و يأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود عجلا إلى مضجعه، و كذلك يحكى عن إبراهيم الموصلى فى لحنه البديع المعروف بالماخورى أنّ الجن طارحته إياه، و اللّه تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

و زاد زرياب بالأندلس فى أوتار عوده و ترا خامسا اختراعا منه، إذ لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الأربع، فزاد عليها و ترا خامسا أحمر متوسّطا، فاكتسب به عوده ألطف معنى و أكمل فائدة، و ذلك أن الزير. صبغ أصفر اللون،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۵

و جعل فى العود بمنزلة الصفراء من الجسد، و صبغ الوتر الثانى بعده أحمر، و هو من العود مكان الدم من الجسد، و هو فى الغلظ ضعف الزير، و لذلك سمى مثنى، و صبغ الوتر الرابع أسود، و جعل من العود مكان السوداء من الجسد، و سمّى البمّ، و هو أعلى أوتار العود، و هو ضعف المثلث الذى عطل من الصبغ و ترك أبيض اللون، و هو من العود بمنزلة البلغم من الجسد، و جعل ضعف المثنى فى الغلظ، و لذلك سمّى المثلث، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضى طبائعها بالاعتدال، فالبم حارّ يابس يقابل المثنى و هو حار رطب و عليه تسويته، و الزير حار يابس يقابل المثلث و هو حار رطب، قوبل كل طبع بضدّه حتى اعتدل و استوى كاستواء الجسم بأخلاطه، إلّا أنه عطل من النفس، و النفس مقرونة بالدم، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموى هذا الوتر الخامس الأحمر الذى اخترعه بالأندلس، و وضعه تحت المثلث و فوق المثنى، فكمل فى عوده قوى الطبائع الأربع، و قام الخامس المزيد مقام النفس فى الجسد.

و هو الذى اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النّسر، معتاضا به من مرهف الخشب، فأبرع فى ذلك للطف قشر الريشة و نقائه و خفّته على الأصابع و طول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه.

و كان زرياب عالما بالنجوم و قسمة الأقاليم السبعة، و اختلاف طبائعها و أهويتها و تشعّب بحارها، و تصنيف بلادها، و سكّانها، مع ما سنح له من فكّ كتاب الموسيقى، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها، و هذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم و مؤلّفها.

و كان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف و فنون الأدب، و لطف المعاشرة، و حوى من آداب المجالسة و طيب المحادثة و مهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته، حتى اتّخذه ملوك أهل الأندلس و خواصّهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه، و استحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوبا إليه معلوما به.

فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس و جميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جمّته مفروقا وسط الجبين عامّا للصدغين و الحاجبين، فلمّا عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو و ولده و نساؤه لشعورهم، و تقصيرها دون جباههم، و تسويتها مع حواجبهم، و تدويرها إلى آذانهم، و إسدالها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۶

إلى أصداغهم- حسبما عليه اليوم الخدم الخصية و الجوارى. هوت إليه أفئدتهم، و استحسنوه.

و ممّا سنّه لهم استعمال المرتك المتّخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم، و لا شيء يقوم مقامه، و كانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد و زهر الريحان و ما شاكل ذلك من ذوات القبض و البرد، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضر، فدلّهم على تصعيدها بالملح، و تبييض لونها، فلما جرّبوه أحمدوه جدّا.

و هو أول من اجتنى بقلة الهليون المسمّاة بلسانهم الإسفراج، و لم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله.

و ممّا اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا، و هو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلّى بالسنبوسق و الكباب، و يليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب.

و ممّا أخذه عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب و الفضّة، و إيثاره فرش أنطاع الأديم الليّنة الناعمة على ملاحف الكتّان، و اختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقلّ مسحة، و لبسه كلّ صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض و جعلهم للملوّن من يوم مهرجان أهل البلد المسمّى عندهم بالعنصرة الكائن فى ست بقين من شهر يونيه الشمسى من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسى منها ثلاثة أشهر متوالية و يلبسون بقية السنة الثياب الملوّنة، و رأى أن يلبسوا فى الفصل الذى بين الحرّ و البرد المسمّى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخزّ و الملحم و المحرّر و الدّراريع التى لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التى ينتقلون إليها لخفتها و شبهها بالمحاشى، ثياب العامة، و كذا رأى أن يلبسوا فى آخر الصيف و عند أول الخريف المحاشى المروية و الثياب المصمتة و ما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو و البطائن الكثيفة، و ذلك عند قرص البرد فى الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلون إلى أثخن منها من الملونات، و يستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۷

و استمرّ بالأندلس أنّ كلّ من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان، و يأتى أثره بالبسيط، و يختم بالمحركات و الأهزاج تبعا لمراسم زرياب.

و كان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلّمه أمره بالقعود على الوساد المدوّر المعروف بالمسورة، و أن يشدّ صوته جدّا إذا كان قوىّ الصوت، فإن كان ليّنه أمره أن يشدّ على بطنه عمامة، فإنّ ذلك ممّا يقوّى الصوت، و لا يجد متّسعا فى الجوف عند الخروج على الفم، فإن كان ألصّ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته زمّ أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكّاه، و كان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته: يا حجّام، أو يصيح: آه، و يمدّ بها صوته، فإن سمع صوته بهما صافيا نديّا قويّا مؤدّيا لا يعتريه غنّة و لا حبسة و لا ضيق نفس عرف أن سوف ينجب، و أشار بتعليمه، و إن وجده خلاف ذلك أبعده.

و كان له من ذكور الولد ثمانية: عبد الرحمن، و عبيد الله، و يحيى، و جعفر، و محمد، و قاسم، و أحمد، و حسن. و من الإناث ثنتان: علية، و حمدونة. و كلّهم غنّى، و مارس الصناعة، و اختلفت بهم الطبقة، فكان أعلاهم عبيد اللّه، و يتلوه عبد الرحمن، لكنه ابتلى من فرط التّيه و شدّة الزهو و كثرة العجب بغنائه و الذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه، و قلّما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه، و لا يزال يجترئ على الملوك، و يستخفّ بالعظماء، و لقد حمله سخفه على أن حضر يوما مجلس بعض الأكابر الأعاظم فى أنس قد طاب به سروره، و كان صاحب قنص تغلب عليه لذّته، فاستدعى بازيا كان كلفا به كثير التذكّر له، فجعل يمسح أعطافه و يعدّل قوادمه، و يرتاح لنشاطه، فسأله عبد الرحمن أن يهبه له، فاستحيا من ردّه، و أعطاه إياه مع ضنّه به، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله، و أسرّ إليه فيه بسرّ لم يطلع عليه، فمضى لشأنه، و لم يلبث أن جاءه بطيفورية مغطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضّة، فإذا به لون مصوص قد اتّخذ من البازى بعد ذبحه على ما حده

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۸

لأهله، و ذهب إلى الانتقال إليه فى شرابه، و قال لصاحب المجلس: شاركنى فى نقلى هذا فإنه شريف المركّب بديع الصنعة، فلمّا رآه الرجل أنكر صفته، و عاب لحمه، و سأله عنه، فقال: هو البازى الذى كنت تعظم قدره، و لا تصبر عنه و قد صيّرته إلى ما ترى، فغضب صاحب المنزل حتى ربا فى أثوابه، و فارقه حلمه، و قال له: قد كان و الله أيها الكلب السفيه على ما قدرته و ما اقتديت فيه إلّا بكبار الناس المؤثرين لمثله، و ما أسعفتك به إلّا معظما من قدرك ما صغّرت من قدرى، و أظهرت من هوان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهىّ عنها، و لا أدع و اللّه الآن تأديبك إذ أهملك أبوك معلّم الناس المروءة، و دعا له بالسّوط، و أمر بنزع قلنسوته، و ساط هامته مائة سوط، فاستحسن جميع الناس فعله به و أبدوا الشّماتة به.

و كان محمد منهم مؤنثا، و كان قاسم أحذقهم غناء مع تجويده، و تزوّج الوزير هاشم بن عبد العزيز حمدونة.

و ذكر عبادة الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون و زرقون، دخلا فى أيام الحكم بن هشام، فنفقا عليه، و كانا محسنين، لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه.

و قال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن و نديمه فى زرياب: [بحر الخفيف]

يا علىّ بن نافع يا علىّ أنت أنت المهذّب اللّوذعىّ

أنت فى الأصل حين يسأل عنه هاشمىّ و فى الهوى عبشمى

و قال ابن سعيد: و أنشد لزرياب والدى فى معجمه: [بحر مجزوء الكامل]

علّقتها ريحانة هيفاء عاطرة نضيره

بين السّمينة و الهزى لة و الطويلة و القصيرة

للّه أيام لنا سلفت على دير المطيره

لا عيب فيها للمتى يم غير أن كانت يسيره

انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۸۹

و كان لزرياب جارية اسمها متعة، أدّبها و علّمها أحسن أغانيه حتى شبّت، و كانت رائعة الجمال، و تصرّفت بين يدى الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنّيه مرّة و تسقيه أخرى، فلمّا فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة، فأبى إلّا التستّر، فغنّته بهذه الأبيات، و هى لها فى ظنّ بعض الحفّاظ: [بحر المجتث]

يا من يغطّى هواه من ذا يغطّى النهارا

قد كنت أملك قلبى حتى علقت فطارا

يا ويلتا أ تراه لى كان، أو مستعارا

يا بأبى قرشىّ خلعت فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه، فحظيت عنده.

و كانت حمدونة بنت زرياب متقدّمة فى أهل بيتها، محسنة لصناعتها، متقدّمة على أختها علية، و هى زوجة الوزير هاشم بن عبد العزيز كما مرّ، و طال عمر علية بعد أختها حمدونة، و لم يبق من أهل بيتها غيرها، فافتقر الناس إليها، و حملوا عنها.

و كانت مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء، و كانت غاية فى الإحسان و النبل و طيب الصوت، و فيها يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، و كتب به إلى مولاها: [بحر البسيط]

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا الضّنّ من أحد

لو أنّ أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص و لم يزد

من أبيات، فخرج حافيا لمّا وقف على ذلك، و أدخله إلى مجلسه، و تمتّع من سماعها، رحم اللّه تعالى الجميع!.

و قال علويه: كنت مع المأمون لمّا قدم الشام، فدخلنا دمشق، و جعلنا نطوف فيها على أماكن بنى أميـة، فدخلنا قصرا مفروشا بالرخام الأخضر، و فيه بركة يدخلها الماء و يخرج منها

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۰

فيسقى بستانا، و فى القصر من الأطيار، ما يغنى صوته عن العود و المزمار، فاستحسن المأمون ما رأى، و عزم على الصّبوح، فدعا بالطعام فأكلنا و شربنا، ثم قال لى: غنّ بأطيب صوت و أطربه، فلم يمرّ على خاطرى غير هذا الصوت: [بحر المنسرح]

لو كان حولى بنو أمية لم ينطق رجال أراهم نطقوا

فنظر إلىّ مغضبا، و قال: عليك لعنة اللّه و على بنى أمية! فعلمت أنى قد أخطأت، فجعلت أعتذر من هفوتى، و قلت: يا أمير المؤمنين، أ تلومنى أن أذكر موالىّ بنى أميـة، و هـذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس، يركب فى أكثر من مائة مملوك و فى ملكه ثلاثمائة ألف دينار دون الضياع، و إنى عندكم أموت جوعا، و فى الحكايـة طول و اختلاف، و محلّ الحاجة منها ما يتعلّق بزرياب، رحم اللّه تعالى الجميع!.

و ذكرها الرقيق فى كتاب «معاقرة الشراب» على غير هـذا الوجه، و نصّه: و ركب المأمون يوما من دمشق يريـد جبل الثلـج، فمرّ ببركة عظيمة من برك بنى أمية، و على جانبها أربع سروات، و كان الماء يدخل سيحا، فاستحسن المأمون الموضع، و دعا بالطعام و الشراب، و ذكر بنى أمية، فوضع منهم و تنقّصهم، فأخذ علويه العود و اندفع يغنى: [بحر الطويل]

أرى أسرتى فى كلّ يوم و ليلة يروح بهم داعى المنون و يغتدى

أولئك قوم بعد عزّ و ثروة تفانوا فإلّا أذرف العين أكمد

فضـرب المـأمون بكـأسه الأـرض، و قـال لعلويه: يـا ابن الفاعلـة، لم يكن لـك وقت تـذكر مواليك فيه إلّا هـذا الوقت؟ فقال: مولاكم زرياب عند موالىّ بالأندلس يركب فى مائة غلام، و أنا عندكم بهذه الحالة، فغضب عليه نحو شهر، ثم رضى عنه، انتهى.

و نحوه لابن الرقيق فى كتابه «قطب السرور» و قال فى آخر الحكاية: و أنا عندكم أموت من الجوع، ثم قال: و زرياب مولى المهدى، و وصل إلى بنى أمية بالأندلس فعلت حاله، حتى كان كما قال علويه، انتهى.

و لمّا غنّى زرياب بقوله: [بحر الطويل]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۱

و لو لم يشقنى الظاعنون لشاقنى حمام تداعت فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى نوائح ما تجرى لهنّ دموع

ذيّلها عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال: [بحر الطويل]

شددت بمحمود يدا حين خانها زمان لأسباب الرجاء قطوع

بنى لمساعى الجود و المجد قبلة إليها جميع الأجودين ركوع

و كان محمود جوادا، فقال له: يا أبا القاسم، أعزّ ما يحضـرنى من مالى القبّة، يعنى قبة قامت عليه بخمسـمائة دينار، و هى لك بما فيها مع كسوتى هذه، و نكون فى ضيافتك بقية يومنا، و دعا بكسوة فلبسها، و دفع إليه الكسوة.

۶۹- و من الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا.

من غزّ الموصل، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحّدين، و رفع له أمداحا جليلة، و قدّمه على إمارة مدينة بسـطة من

الأندلس.

قال أبو عمران بن سعيد: أنشدنى لنفسه: [بحر الطويل]

يقولون إنّ العدل فى الناس ظاهر و لم أر شيئا منه سرّا و لا جهرا

و لكن رأيت الناس غالب أمرهم إذا ما جنى زيد أقادوا به عمرا

و إلّا فما بال النّطاسىّ كلّما شكوت له يمنى يدى فصد اليسرى

۷۰- و من الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيبانى.

من أهل بغداد، و سكن القيروان، و يعرف بالرياضى، و كان له سماع ببغداد من جلّة المحدّثين و الفقهاء و النحويين، لقى الجاحظ و المبرد و ثعلبا و ابن قتيبة، و لقى من الشعراء أبا تمام و البحترى و دعبلا و ابن الجهم، و من الكتّاب سعيد بن حميد و سليمان بن وهب و أحمد بن أبى طاهر و غيرهم، و هو الذى أدخل إفريقية رسائل المحدثين و أشعارهم و طرائف أخبارهم، و كان عالما أديبا، و مرسّلا بليغا، ضاربا فى كل علم و أدب، سمع و كتب بيده أكثر كتبه، مع براعة خطّه و حسن وراقته.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۲

و حكى أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كلّه بقلم واحد، ما زال يبريه حتى قصر، فأدخله فى قلم آخر، و كتب به حتى فنى بتمام الكتاب.

و له تآليف: منها «لقط المرجان» و هو أكبر من «عيون الأخبار» و كتاب «سراج الهدى» فى القرآن و مشكله و إعرابه و معانيه، و «المرصعة» و «المدبجة».

و جال فى البلاد شرقا و غربا من خراسان إلى الأندلس، و قد ذكر ذلك فى أشعار له.

و كان أديب الأخلاق، نزيه النفس، كتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، ثم لابنه أبى العباس عبد اللّه، و كان أيام زيادة اللّه بن عبد اللّه آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة، و توفى بالقيروان سنة ثمان و تسعين و مائتين فى أوّل ولاية عبيد اللّه الشيعى، و هو ابن خمس و سبعين سنة.

و ممّن ألمّ بذكره المؤرخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق.

و قال عريب بن سعد فى حقّه: إنه كان أديبا شاعرا مرسّلا حسن التأليف، و قدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن، و ذكر له معه قصّة ذكرها ابن الأبّار فى كتابه «إفادة الوفادة» و حكى أنّ له مسندا فى الحديث، و كتابا فى القرآن سمّاه «سراج الهدى» و الرسالة الوحيدة، و المؤنسة، و قطب الأدب، و غير ذلك من الأوضاع.

قال: و كتب لبنى الأغلب حتى انصرمت أيامهم، ثم كتب لعبيد اللّه حتى مات.

و من الرواة عنه أبو سعيد عثمان بن سعيد الصيقل مولى زيادة اللّه بن الأغلب، و أسند إليه الحافظ ابن الأبار رواية شعر أبى تمام بأن قال: قرأت شعر حبيب على أبى الربيع بن سالم، و قرأت جملة منه على غيره، و ناولنى جميعه و حدّثنى به عن أبى عبد اللّه بن زرقون عن الخولانى عن أبى القاسم حاتم بن محمد عن أبى غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوى عن أبيه أبى تمام عن أبى سعيد المذكور، يعنى ابن الصيقل، عن أبى اليسر عن حبيب، و هو إسناد غريب، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۳

۷۱- و منهم أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور، الغسانى، الدمشقى، المعروف بالسنهورى

و سنهور: من بلاد مصر، روى عن أبى القاسم بن عساكر و أبى اليمن الكندى و أبى المعالى الفراوى و أبى الطاهر الخشوعى و

غيرهم.

قال أبو العباس النباتى: قدم علينا- يعنى إشبيلية- سنة ثلاث و ستمائة، و سمّى جماعة من شيوخه، و حكى أنه كان يروى موطّأ أبى مصعب و صحيح مسلم بعلوّ.

و قال أبو سليمان بن حوط اللّه: أجازنى و ابنى محمدا جميع ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فناخسرو بن فيروز الشيرازى، و ذكر أنّ روايته بنزول؛ لأنه لم يرحل إلّا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن.

و قال أبو الحسن بن القطان، و سمّاه فى شيوخه: قدم علينا تونس سنة اثنتين و ستمائة، و استجزته لابنى حسن فأجازه و إياى، قال: و انصرف من تونس إلى المغرب، ثم الأندلس، و قدم علينا بعد ذلك مراكش مفلتا من الأسر، فظهر فى حديثه عن نفسه تجازف و اضطراب و كذب زهّد فيه، و أثر ذلك انصرف إلى المشرق راجعا، و قد كان إذا أجاز ابنى كتب بخطّه جملة من أسانيده و سمّى كتبا منها الموطأ و الصحيحان و غير ذلك، قال: و قد تبرأت من عهدة جميعه لما أثبتّ من حاله، و حدّثنى أبو القاسم بن أبى كرامة صاحبنا بتونس أنّ السنهورى هذا لمّا انصرف إلى مصر امتحن بملكها الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب لأجل معاداته أبا الخطاب بن الجميّل، فضرب بالسياط، و طيف به على جمل مبالغة فى إهانته، انتهى.

و قال بعض المؤرخين فى حقّه، ما نصّه: الشيخ المحدّث الرحالة إبراهيم السنهورى صاحب الرحلة إلى البلاد، دخل الأندلس كما ذكره ابن النجار و غيره، و هو الذى ذكر لمشايخ الأندلس و علمائها أنّ الشيخ أبا الخطاب بن دحية يدّعى أنه قرأ على جماعة من شيوخ الأندلس القدماء، فأنكروا ذلك و أبطلوه و قالوا: لم يلق هؤلاء و لا أدركهم، و إنما اشتغل بالطلب أخيرا، و ليس نسبه بصحيح فيما يقوله، و دحية لم يعقب، فكتب السنهورى محضرا و أخذ خطوطهم فيه بذلك، و قدم به ديار مصر، فعلم أبو الخطاب بن دحية بذلك، فاشتكى إلى السلطان منه، و قال: هذا يأخذ عرضى و يؤذينى، فأمر السلطان بالقبض عليه، فقبض و ضرب بالسّياط و أشهر على حمار، و أخرج من ديار مصر، و أخذ ابن دحية المحضر و حرقه، و لم يزل ابن دحية على

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۴

قرب من السلطان إلى حين وفاته، و بنى له دارا للحديث، و هى الكاملية ببين القصرين، فلم يزل يحدّث بها إلى أن مات.

و قد ذكرنا فى ترجمة ابن دحية من هذا الكتاب شيئا من أحواله، و أنّ الناس فيه معتقد و منتقد، و هكذا جرت العادة خصوصا فى حقّ الغريب المنتسب للعلم: [بحر الوافر]

و عند اللّه تجتمع الخصوم

و ممّن كان عليه لا له أبو المحاسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين فإنه قال فيه:

[بحر السريع]

دحية لم يعقب فلم تعتزى إليه بالبهتان و الإفك

ما صحّ عند الناس شىء سوى أنك من كلب بلا شكّ

هكذا ذكره ابن النجار، و أطال فى الوقيعة فى أبى الخطاب بن دحية.

و قال الذهبى: قرأت بخطّ الضياء عندما ذكر ابن دحية أنه قال: لقيته بأصبهان، و لم أسمع منه شيئا، و أخبرنى إبراهيم السنهورى بأصبهان أنه دخل المغرب، و أنّ مشايخه كتبوا له جرحه و تضعيفه، و قد رأيت أنا منه غير شىء ممّا يدلّ على ذلك، و بسببه بنى السلطان الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة و جعله شيخها، و قد سمع منه الإمام أبو عمرو بن الصلاح الموطأ سنة نيّف و ستمائة، و أخبره به عن جماعة منهم أبو عبد اللّه بن زرقون.

و قال ابن واصل: كان أبو الخطاب- مع فرط معرفته بالحديث، و حفظه الكثير منه- متّهما بالمجازفة فى النقل، و بلغ ذلك الملك الكامل، فأمره أن يعلّق شيئا على كتاب «الشّهاب»، فعلّق كتابا تكلّم فيه على أحاديثه و أسانيده، فلمّا وقف الملك الكامل على ذلك

قال له بعد أيام: قد ضاع منى ذلك الكتاب، فعلّق لى مثله، ففعل، فجاء فى الثانى مناقضة للأول، فعلم الملك الكامل صحة ما قيل عنه، و نزلت مرتبته عنده، و عزله عن دار الحديث أخيرا، و ولّى أخاه أبا عمر و عثمان.

و قال ابن نقطة: كان أبو الخطاب موصوفا بالمعرفة و الفضل، و لم أره، إلّا أنه كان يدّعى أشياء لا حقيقة لها؛ ذكر لى أبو القاسم بن عبد السلام- و كان ثقة- قال: نزل عندنا ابن دحية

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۵

فقال: إنى أحفظ صحيح مسلم و الترمذى، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذى و مثلها من المسند و مثلها من الموضوعات، فجعلتها فى جزء، ثم عرضت عليه حديثا من الترمذى فقال:

ليس بصحيح، و آخر فقال: لا أعرفه، و لم يعرف منها شيئا، فأفسد نفسه بذلك.

و قال سبط ابن الجوزى: إنه كان يتزيّد فى كلامه، و يثلب المسلمين، و يقع فيهم، فترك الناس الرواية عنه و كذّبوه، و قد كان الملك الكامل مقبلا عليه، فلمّا انكشف له شأنه أخذ منه دار الحديث و أهانه.

و قال العماد بن كثير: قد تكلّم الناس فيه بأنواع من الكلام، و نسبه بعضهم إلى وضع حديث فى قصر صلاة المغرب، و كنت أودّ أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله، و قد أجمع العلماء- كما ذكره ابن المنذر و غيره- على أنّ صلاة المغرب لا تقصر، و اتّفق أنه وصل فى جمادى الأولى سنة ۶۱۶ إلى غزة، فخرج كلّ من فى غزة بالأسلحة و العصى و الحجارة إلى الموضع الذى هو فيه، و ضربوه ضربا شديدا بعد أن انهزم من كان معه، انتهى.

و قدّمنا فى ترجمته توثيق جماعة له، فربّك أعلم بحاله.

۷۲- و منهم عبد اللّه بن محمد بن آدم، القارى، الخراسانى.

رحل من خراسان إلى الأندلس، يكنى أبا محمد، ذكره أبو عمرو المقرى، و قال:

سمعته يقرأ مرات كثيرة، فكان من أحسن الناس صوتا، و لم تكن له معرفة بالقراءة و لا دراية بالأداء، انتهى.

۷۳- و منهم عبد الرحمن بن داود بن على، الواعظ.

من أهل مصر، يعرف بالزبزارى، يكنى أبا البركات و أبا القاسم، و يلقّب زكى الدين.

قدم على الأندلس، و تجوّل فى بلادها واعظا و مذكرا، و سمع منه الناس بقرطبة و إشبيلية و مرسية و بلنسية سنة ۶۰۸.

قال ابن الأبار: و سمعت، وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلنسية، و ادّعى الرواية عن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۶

أبى الوقت السّجزى و السّلفى و أبى الفضل عبد اللّه بن أحمد الطوسى و أبى محمد بن المبارك بن الطباخ و أبى الفضل محمد بن يوسف الغزنوى و شهدة الكاتبة بنت الأبرى، زعم أنه قرأ عليها صحيح البخارى، و جماعة بالمشرق و الأندلس لم يلقهم و لم يسمع منهم، و ربما حدّث بواسطة عن بعضهم، و أكثرهم مجهولون، وقفت على ذلك فى فهرست روايته، فزهد أكثر السامعين منه، و اطّرحوا الرواية عنه، و منهم أبو العباس النباتى و أبو عبد اللّه بن أبى البقاء، و جمع أربعين حديثا مسلسلة سمّاها باللآلىء المفصلة، حدّث فيها عن ابن بشكوال و ابن غالب الشراط و غيرهما من الأندلسيين الذين لم يلقهم و لا أجازوا له، أخذها عنه ابن الطّيلسان و غيره، و كان- مع هذا- فقيها على مذهب الشافعى، رضى اللّه تعالى عنه! فصيحا، مشاركا فى فنون من العلم، سمح اللّه تعالى له! انتهى.

و لا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس، ثم نعود أيضا إلى ذكر أعلام الرجال، فنقول:

۷۴- من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنية، أم ولد حبيب بن الوليد المروانى، المعروف بدحون.

و كانت جارية سوداء، من رقيق المدينة، حالكة اللون، غير أنها تروى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة و غيره من علماء المدينة، حتى قال بعض الحفاظ: إنها تروى عشرة آلاف حديث.

و قال ابن الأبار: إنها تسند حديثا كثيرا، و هى أم ولده بشر بن حبيب، و الذى و هبها لدحون فى رحلته إلى الحجّ هو محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فقدم بها الأندلس، و قد أعجب بعلمها و فهمها، و اتّخذها لفراشه، رحم اللّه تعالى الجميع!.

۷۵- و منهنّ فضل المدنية.

و كانت حاذقة بالغناء، كاملة الخصال، و أصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، و نشأت و تعلّمت ببغداد، و درجت من هناك إلى المدينة المشرّفة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام! فازدادت ثمّ طبقتها فى الغناء، و اشتريت هنالك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۷

صاحبتها علم المدنية، و صواحب غيرها إليهنّ تنسب دار المدنيات بالقصر، و كان يؤثرهنّ لجودة غنائهنّ و نصاعة ظرفهنّ و رقّة أدبهنّ، و تضاف إليهن جارية قلم و هى ثالثة فضل و علم فى الحظوة عند الأمير المذكور، و كانت أندلسية الأصل، رومية من سبى البشكنس، و حملت صبيّة إلى المشرق، فوقعت بمدينة النبى صلى اللّه عليه و سلم، و تعلّمت هنالك الغناء فحذقته، و كانت أديبة، ذاكرة، حسنة الخطّ، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الآداب.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ ج۳؛ ص۳۹۷

۷۶- و من النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى، صاحب إشبيلية.

و كانت من أهل الفصاحة و البيان، و المعرفة بصوغ الألحان، و جلبت إليه من بغداد، و جمعت أدبا و ظرفا، و رواية و حفظا، مع فهم بارع، و جمال رائع، و كانت تقول الشعر بفضل أدبها، و لها فى مولاها تمدحه: [بحر الكامل]

ما فى المغارب من كريم يرتجى إلّا حليف الجود إبراهيم

إنّى حلّلت لديه منزل نعمة كلّ المنازل ما عداه ذميم

و أنشد لها السالمى لمّا ذكرها عدّة أشعار: منها قولها تتشوّق إلى بغداد: [بحر الكامل]

آها على بغدادها و عراقها و ظبائها و السحر فى أحداقها

و مجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلّتها على أطواقها

متبخترات فى النعيم كأنّما خلق الهوى العذرىّ من أخلاقها

نفسى الفداء لها فأىّ محاسن فى الدهر تشرق من سنا إشراقها

۷۷- و منهن الجارية العجفاء.

قال الأرقمى: قال لى أبو السائب، و كان من أهل الفضل و النّسك: هل لك فى أحسن الناس غناء؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بنى زهرة، فأذن لنا فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعا فى مثلها، و طوله فى السماء ستة عشر ذراعا، و فى البيت نمرقتان قد ذهب عنهما

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۸

اللّحمة و بقى السّدى، و قد حشيتا بالليف، و كرسيّان قد تفكّكا من قدمهما، ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء، عليها قرقل هرويّ أصفر غسيل، و كأنّ وركيها فى خيط من وسخها، فقلت لأبى السائب: بأبى أنت! ما هذه فقال: اسكت، فتناولت عودا فغنّت: [بحر الكامل]

بيد الذى شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهمّ

فاستيقنى أن قد كلفت بكم ثم افعلى ما شئت عن علم

قد كان صرم فى الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

قال: فتحسّنت فى عينى، و بدا ما أذهب الكلف عنها، و زحف أبو السائب و زحفت معه، ثم تغنّت: [بحر الكامل]

برح الخفاء فأيّما بك تكتم و لسوف يظهر ما تسرّ فيعلم

ممّا تضمّن من عزيز قلبه يا قلب إنك بالحسان لمغرم

يا ليت أنّك يا حسام بأرضنا تلقى المراسى طائعا و تخيّم

فتذوق لذة عيشنا و نعيمه و نكون إخوانا فماذا تنقم

فقال أبو السائب: إن يقم هذا فأعضّه اللّه تعالى بكذا و كذا من أبيه، و لا يكنى، فزحفت مع أبى السائب حتى فارقنا النمرقتين، و ربت العجفاء فى عينى كما يربو السويق بماء مزنة، ثم غنّت: [بحر المنسرح]

يا طول ليلى أعالج السّقما إذ أدخل كلّ الأحبّة الحرما

ما كنت أخشى فراقكم أبدا فاليوم أمسى فراقكم عزما

فألقيت طيلسانى، و أخذت شاذكونة فوضعتها على رأسى، و صحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة، و قام أبو السائب فتناول ربعة فى البيت فيها قوارير و دهن، فوضعها على رأسه، و صاح صاحب الجارية و كان ألثغ: قوانينى، يعنى قواريرى، فاصطكّت القوارير و تكسّرت، و سال الدهن على رأس أبى السائب و صدره، و قال للعجفاء: لقد هجت لى داء قديما، ثم

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۳۹۹

وضع الربعة. و كنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس فابتيعت له العجفاء، و حملت إليه.

۷۸- و من القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن، الموصلى.

قال أبو حيان: قدم علينا رسولا من ملك مصر إلى ملك الأندلس، فسمعت منه بالمرية، انتهى.

۷۹- و منهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم بن مالك، المعروف بالأشتر، بن الحارث، النخعى.

يكنى أبا جعفر، دخل الأندلس فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، و أصله من الكوفة، و كان يروى أحاديث عظيمة العدد، ذكر ذلك الرازى، و حكى أنّ الأمير محمدا روى عنه منها، و أنزله بريّة.

۸۰- و منهم أحمد بن أبى عبد الرحمن، و اسمه يزيد بن أحمد بن عبد الرحمن، القرشى، الزهرى، من ولد عبد الرحمن بن عوف.

من أهل مصر، وفد على الناصر بقرطبة، و كان دخوله إليها فى محرم سنة ۳۴۳، فأكرم الناصر مثواه و كان فقيه أهل مصر، ذكره ابن حيان.

۸۱- و منهم أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندرانى.

لقى ببلده أبا طاهر السّلفى، و سمع منه، و درس عليه كتاب «الاصطلاح» للسمعانى، و قدم الأندلس، و دخل مرسية تاجرا، و كان فقيها على مذهب الشافعى، و أنشد عن السلفى قوله: [بحر مجزوء الرمل]

أنا من أهل الحدى ث و هم خير فئه

عشت تسعين و أر جو أن أعيش لمائه

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۰

فعاش ما تمنّى، رحمه اللّه تعالى!.

۸۲- و منهم أبو الحسن على بن محمد بن إسماعيل بن بشر، الأنطاكى، الإمام، أبو الحسن، التميمى.

نزيل الأندلس و مقريها و مسندها، أخذ القراءة عرضا و سماعا عن إبراهيم بن عبد الرزاق و محمد بن الأخرم و أحمد بن يعقوب التائب و أحمد بن محمد بن خشيش و محمد بن جعفر بن بيان، و صنف قراءة ورش، قرأ عليه جماعة: منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ و إبراهيم بن مبشر المقرئ و طائفة آخرون من قراء الأندلس، و سمع منه عبد اللّه بن أحمد بن معاذ الدارانى.

قال أبو الوليد بن الفرضى: أدخل الأنطاكى الأندلس علما جمّا، و كان بصيرا بالعربية و الحساب، و له حظّ من الفقه، قرأ الناس عليه، و سمعت أنا منه، و كان إماما فى القراءات، لا يتقدّمه أحد فى معرفتها فى وقته، و كان مولده بأنطاكية سنة ۲۹۹، و مات بقرطبة فى ربيع الأول سنة ۳۷۷، رحمه اللّه تعالى!

۸۳- و منهم عمر بن مودود بن عمر، الفارسى، البخارى، يكنى أبا البركات

ولد بسلماس، و نشأ بها، و كتب الحديث هنالك، و تعلم العربية و الفقه، و هو من أبناء الملوك، و انتقل إلى المغرب، فدخل الأندلس، و نزل مالقة فى حدود ثلاثين و ستمائة، و دخل إشبيلية، و كانت له رواية بالمشرق.

قال ابن الأبار: أجاز لى ما رواه، و لم يسمّ أحدا من شيوخه، و بلغنى أنه سمع صحيح البخارى بالدامغان على أبى عبد اللّه محمد بن محمود، و كانت إجازته لى سنة ۶۳۱، و عاش بعد ذلك، و توفى بمراكش بعد الأربعين و ستمائة، و حدّث بالأندلس، و أخذ عنه الناس، و كان من أهل التصوّف و التحقّق بعلم الكلام، رحمه اللّه تعالى!.

۸۴- و منهم الشريف الأجلّ الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذّب الدين.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۱

و كنت لا أتحقّق من أى البلاد هو من المشرق، ثم إنى علمت أنه من بغداد إذ وقفت على كتابين كتبهما فى شأن العناية به الأديب العلامة أبو المطرف أحمد بن عبد اللّه بن عميرة المخزومى: أحدهما لأبى العلاء حسان، و الثانى للكاتب أبى الحسن العنسى، و هو الذى يفهم منه أنه من بغداد.

و نصّ الأول: [بحر الكامل]

يا ابن الوصىّ، إذا حملت وصيّتى أوجبت حقّا للحقوق يضاف

و تحيّتى كلّ التحايا دونها و كذاك دون رسولها الأشراف

أحسن بأن تلقى ابن حسّان بها مهتزّة لورودها الأعطاف

كالروض باكره الندى فلعرفها يا ابن النبىّ على الندىّ مطاف

و علاك إنّ أبا العلا و مكانه يلفى به الإسعاد و الإسعاف

و أحقّ من عرف الكرام بوصفهم من جمّعت منهم له أوصاف

هـذه يا سـيدى، تحيـة تجب لها إجابـة وحيّـة، و تصـلح بها هشاشـة و أريحيـة، أودعتها بطن هـذه العجالـة، و بعثتها مع صـدر من أبناء الرسالـة، و للّه درّه من راضع درّ النبوّة، متواضع مع شـرف الأـبوّة، نازعته طرف الأشـعار، و أطراف الأخبار، فوجـدته بحرا حصاه الـدّرّ النفيس، و روضا يجنى منه أطايب السمر الجليس، و ينعت بنجم الدين و هو كنعته نجم يضىء سناه، و يحلّ بيتا من الشرف ربّه بناه، و قـد جـاب الفضاء العريش، و رأى القصور الحمر و البيض، و ورد الحجون، بعـد ما شـرب من ماء جيحون، و زار مشاهـد الحرمين، ثم سار فى أرض الهرمين، و فارق إفريقية لهذا الأفق مختارا، و عبر إلى الأندلس فأطال بها اعتبارا، و تشوّق إلى حضرة الأنوار المفاضة، و النعم السابغة الفضـفاضة، و جعل قصدها بحجّة سـفره طواف الإفاضة، و همّه أن يشاهد سـناها العلوى، و يبصر ما يحقر عنده المرئى و المروى، و هى غاية يقول للأمل: عليها أطلت حومى، و جنّة يتلو الداخل لها قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (۲۶) [يس: ۲۶] و سيدى هو منها باب على الفتح بنى، و جناب عنان الأمل إليه ثنى، و قصده من هذا الشريف أجلّ قاصد، و أظلّته

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۲

سمـاء المجـد بجمـال المشترى و ظرف عطـارد، و متى نعتناه فالخبر ليس كالعيان، و متى شـبّهناه فالتمويه بالشـبه عقوق العقيان، و من يفضح قريحته بأن يقول لها صـفيه، لكن يعرف عن نفسه بما ليس فى وسع واصـفيه، و يقتضى من عزيمة برّه ما لا سعة للمترخص فيه، إن شاء اللّه تعالى، و هو يديم علاكم، و يحرس مجدكم و سناكم، بمنّه، و السـلام الكريم، الطيب العميم، يخصّكم به معظّم مجدكم، المعتدّ بذخيرة ودّكم، المحافظ على كريم عهدكم، ابن عميرة، و رحمة اللّه تعالى و بركاته، فى الرابع و العشـرين لربيع الآخر من سـنة ۶۳۹ انتهى.

و نصّ الثانى: [بحر المنسرح]

هل لك يا سيدى أبا الحسن فيمن له كلّ شاهد حسن

فى الشرف المنتقى له قدم أثبتها بالوصىّ و الحسن

أيهـا الأخ الـذى ملّكته قيادى، و أسـكنته فؤادى، عهـدى بك تعتام الآداب النقيـة، و تشـتاق اللطائف المشـرقية، و تنصف فترى أنّ فى سيلنا جفاء، و فى مغربنا جفاء، و أنّ المحاسن نبت أرض ما بها ولدنا، و زرع واد ليس ممّا عهدنا، و أنا فى هذا أشايعك و أتابعك، و أناضل من ينازلك و ينازعك، و قد أتانا اللّه تعالى بحجّة تقطع الحجج، و تسـكت المهج، و هو الشريف الأجلّ، السيد المبارك نجم الدين بن مهذب الدين نجم الذية المختارة، و نجم الدرية السيارة، جرى مع زعزع و نسيم، و رتع فى جميم و هشيم، و شاهد عجائب كل إقليم، و شـرّق إلى مطلع ابن جلا، و غرّب حتى نزل بشاطئ سـلا، و قـد توجّه الآن إلى حضـرة الإمامـة الرشـيدية أيّـدها اللّه تعالى لينتهى من أصابع العـدّ إلى العقـدة، و يحصل من مخض الحقيقـة على الزّبـدة، و قـد علم أنه ما كلّ الخطب كخطبـة المنبر، و لا جميع الأيام مثل يوم الحـجّ الأكبر، و أدبه يا سـيدى من نسـبه أفقه، بل على شـكل حسـبه و خلقه، فإذا رأيته شـهدت بأنّ الشـرق قـد أتحف إفريقيـة ببغداده، بل رمانا بجملة أفلاذه، و الحظّ فيما يجب من بره و تأنيسه، إنما هو فى الحقيقة لجليسه، فيا غبطة من يسـبق لجواره، و يقبس من أنواره، و أنت لا محالـة تفهمه فهمى، و تشـيم من شـيمه عارضا برىّ القلوب الهيم يهمى، و تضـرب فى الأخـذ من فوائده و قلائده بسهم وددت أنه سهمى، و السلام، انتهى.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۳

۸۵- و منهم تقى الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن الغرس، الحنفى، المصرى.

قال الوادى آشـى فيه: إنه من أعيان مصـر، قال: و سألته هل يقع بين أهل مصـر تنازع فى تفضـيل بعض المـذاهب على بعض؟ فأجابنى بأنّ هذا لا يقع عندهم بين أهل الرسوخ فى العلم، و ذوى المعرفة و الفهم، و إنما يصدر هذا بين الناشـئين قال: و للحنفية الظهور عليهم

حين يقولون لهم: لنا عليكم اليد الطولى فى الخبز، لكونه بمصر يطبخ فى الفرن بأرواث الدواب، و كذلك تسخين الحمام، فإنّ المالكية و غيرهم بمصر يقلّدون الحنفية فى ذلك، قال: و سألته، حفظه اللّه تعالى: هل للوباء بمصر وقت معلوم؟ فقال لى: جرت العادة عندهم بقدر اللّه تعالى و سرّه فى خليقته أنّ كلّ سنة أولها ثاء مثلثة يكون فيها الوباء، و اللّه تعالى أعلم، و أنّ هذا متعارف عندهم، هكذا قال لى، و عيب ما يقع من بعض النقاد بتونس و ما يصدر عنهم بكثرة من إلقائهم الأسئلة العويصة فى أصول الدين و غيرها على من يرد عليهم قصدا فى تعجيزه و تعنيته، ثم قال: إنّ من المنقول عن الإمام أبى حنيفة، رحمه اللّه تعالى، أنّ من حفظت عنه تسعة و تسعون خصلة تقتضى الكفر و واحدة تقتضى الإيمان أنّ الواحدة المقتضية للإيمان تغلب و تبقى حرمتها عليه، انتهى.

و قد ذكرنا فى الباب الأول من هذا القسم حكاية البصرى المغنى القادم من المشرق من البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية فى دولة بنى المعز بن باديس، و سردنا دخوله عليه فى مجلس أنسه، و ما اتّفق فى ذلك له معه، و أنه وصف له بلاد الأندلس و حسنها و طيبها، فارتحل المغنى إليها، و مات بها، حسبما لخصناه من كلام الكاتب ابن الرقيق الأديب المؤرخ فى كتابه «قطب السرور» و لو لا أنه لم يسمّ المغنى المذكور لجعلنا له ترجمة فى هذا الباب، إذ هو به أليق، و الأمر فى ذلك سهل، و اللّه تعالى الموفّق للصواب.

۸۶- و منهم الولى الصالح العارف باللّه سيدى يوسف الدمشقى،

رضى اللّه تعالى عنه!

و هو كما قال ابن داود من كبار الأولياء، شاذلى الطريقة، قدم من المشرق إلى الأندلس،

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۴

و كان يأتى مدينة وادى آش الكرّة بعد الكرّة لزيارة معارف له بها، و كان من الذين أخفاهم اللّه، لا يعرف به إلّا من تعرف له، أعاد اللّه تعالى علينا من بركاته!.

قال العلامة ابن داود: و حدّثنى مولاى والدى، رضى اللّه تعالى عنه، من لفظه بتلمسان أمّنها اللّه تعالى يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأوّل الشريف سنة ۸۹۵، قال: دخل علىّ سنة شهر رمضان المعظّم فى زمان ولايتى الخطابة و الإمامة بالعراص من خارج وادى آش، أعادها اللّه تعالى! فقعدت أوّل ليلة منه منفردا بالمسجد الأعظم من الرباط المذكور بين العشاءين، و فكّرت فى ذكر أتّخذه فى هذا الشهر المبارك يكون جامعا بين الدنيا و الآخرة، فأجمعت على مطالعة «حلية» النواوى لعلّى أقف على ما أختاره لذلك، فلمّا أصبحت دخلت إلى المدينة، و لم أكن أطلعت على فكرتى أحدا، فلقينى الحاج الأستاذ أبو عبداللّه بن خلف، رحمه اللّه تعالى، فى الطريق، فقال لى: سيدى يوسف الدمشقى يسلّم عليك و يقول لك:

الذكر الذى تعمر به هذا الشهر الفاضل: «اللّهمّ ارزقنى الزهد فى الدنيا، و نوّر قلبى بنور معرفتك» قال والدى، رضى اللّه تعالى عنه: و كان هذا سبب تعرّفى له، و لقائى إياه، و كنت قبل ذلك منكرا عليه لكثرة الدعاوى فى هذا الطريق، نفع اللّه تعالى به! انتهى.

و لنجعل هذه الترجمة آخر هذا الباب، تبركا بهذا الولى الصالح، نفعنا اللّه تعالى ببركاته! مع علمى بأنّ الوافدين من المشرق على الأندلس كثيرون جدا، إلّا أنّ عدم المادة التى أستعين بها فى هذه البلاد تبين عذرى، و لو اجتمعت على كتبى المخلّفة بالمغرب لأتيت فى ذلك و غيره بما يشفى و يكفى: [بحر البسيط]

و فى الإشارة ما يغنى عن الكلم

بحمده تعالى تم الجزء الثالث من نفح الطيب و يليه الجزء الرابع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۵

فهرس الرسائل و الخطب و الإجازات للجزء الثالث من كتاب نفح الطيب

ابن جبير: فصول من رحلته ۱۶

ابن الحاج، أبو البركات: نبذة من رحلته ۱۴۰

ابن الحكيم، أبو عبد اللّه: بعض رسالة كتبها عن السلطان ۲۲۰

ابن سعيد، عبد الرحمن: رسالته إلى أهله من بخارى ۳

رسالة أخرى تنحو نحو السابقة ۵

رد أهله على رسالته ۵

عبد الرحمن العبادى: رسالته إلى المقرى ۷۱

أبو حيان أثير الدين النحوى: جواب له عن رسالة من الصفدى ۱۵۴

وصيته لأهله لما ارتحل إلى مصر ۱۶۹

أبو العباس الغسانى: رسالته إلى أبى الحسن بن سعيد ۱۲۸

أبو العباس المقرى (مؤلف الكتاب): رسالته إلى المفتى العمادى ۷۱

رسالته إلى أحمد الشاهينى ۸۹

أحمد بن شاهين: رسالة أخرى منه إلى المؤلف ۸۷

تاج الدين المحاسنى: رسالته إلى المقرى مؤلف الكتاب ۸۱

خالد البلوى: نبذة من رحلته ۱۳۸

الصفدى، خليل بن أيبك: رسالته إلى أبى حيان ۱۵۰

رسالة إلى أبى حيان يستدعى إجازة ۱۵۳

عبد الرحمن العمادى المفتى: جواب له عن رسالة المقرى المؤلف ۷۱

عبد الكريم الفكون: رسالته إلى المقرى مؤلف الكتاب ۹۸

على بن عبد الواحد الأنصارى: رسالته إلى المقرى مؤلف الكتاب ۹۸

محمد بن يوسف التاملى: رسالته إلى المقرى مؤلف الكتاب ۹۱

يوسف بن تاشفين تقاريظ على كتاب نسيم الصبا ۲۵۹

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۶

فهرس الجزء الثالث

من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ابن سعيد ۳

على بن عبد اللّه الأنصارى القرطبى (ابن العابد) ۶

محمد بن على الأنصارى الشاطبى حميد الزاهد أبو بكر بن عبد اللّه الأنصارى القرطبى ۹

اليسع بن عيسى بن حزم، و محمد التجيبى ۱۰

و محمد اللخمى، وليد العمرى، و عيسى الرعينى، و سليمان الينينى ۱۱

أحمد بن يحيى الضبى، و محمد بن أحمد بن جبير (صاحب الرحلة) ۱۲

أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعى ۱۳

ابن جبير يصف دمشق ۱۶

ابن جبير يصف جامع دمشق ۱۷

أقوال الشعراء فى دمشق ۱۸

بعض ما دار بين المؤلف و أهل الشام ۳۶

رسائل من المغرب إلى المؤلف ۹۱

شوق المؤلف إلى الشام و أهله ۱۰۲

عود إلى ابن جبير ۱۰۲

أبو عامر بن عيشون ۱۱۰

أبو مروان الطبنى ۱۱۱

الهجاء نوعان ۱۱۲

وصف كتاب الذخيرة ۱۱۴

حبيب بن الوليد بن حبيب المعروف بدحّون ۱۱۶

بهلول بن فتح الأقليشى ۱۱۷

ثابت بن أحمد الشاطبى و جعفر بن لبّ اليحصبى ۱۱۸

جعفر بن عبد اللّه الخزاعى العابد و أبو جعفر النحوى، و جابر الخزرجى، و ابن خلف، و البهرانى ۱۱۹

الحسن بن خلف الأموى، و الحسن بن إبراهيم بن تقى ۱۲۰

الحسن بن على الأنصارى البطليوسى و الحسن بن محمد بن الحسن الأنصارى المعروف بابن الرهبيل ۱۲۱

الحسين التجيبى، و حماد الكلاعى، و خلف الجبيرى و خلف بن فتح بن عبد اللّه بن جبير ۱۲۲

خلف الغرناطى، و خلف القنطرى، و ابن زرارة، و طاهر المالقى ۱۲۳

أبو طاهر اللبلى، و طارق بن موسى المنصفى المخزومى، و محمد الأودى ۱۲۴

محمد الشاطبى، و ابن سماعة ۱۲۵

أحمد بن محمد بن الواعظ الإشبيلى المصرى ۱۲۶

إبراهيم الإشبيلى المالكى، و بقى الدين بن مخلد ۱۲۷

يوسف بن يحيى الأزدى المعروف بالمغامى ۱۲۹

بين ابن خلدون و تيمور لنك ۱۳۰

أبو بكر بن عطية ۱۳۱

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۷

ترجمة عبد الحق بن عطية المحاربى ۱۳۵

أبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الملك الأموى الأندلسى ۱۳۷

خالد بن عيسى البلوى ۱۳۸

برهان الدين ابن الحاج إبراهيم النميرى ۱۴۰

أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف النفزى الأثرى الغرناطى ۱۴۱

أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى ۱۸۶

أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه القضاعى (ابن الأبّار) ۱۹۱

الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مسدّى ۱۹۵

أبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى ۱۹۶

أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبى خليل (ابن الرومية) ۱۹۷

أحمد الغافقى، و أحمد التجيبى (ابن الأقليشى) ۱۹۸

أحمد بن معدّ التجيبى (ابن الأقليشى) ۱۹۹

أحمد المعافرى، و أحمد الضبى ۲۰۰

أحمد بن هارون (ابن عات) ۲۰۱

أحمد بن تميم البهرانى، و أحمد بن إبراهيم المخزومى و أحمد الكنانى المرسى ۲۰۲

إبراهيم الغافقى ۲۰۳

أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد الغافقى و إسماعيل بن يحيى و أخوه، و إسماعيل القرشى العلوى، و عيسى النفزى ۲۰۴

عيسى بن عبد اللّه النفزى الحميرى التاكرنى ۲۰۵

على بن أحمد بن محمد بن حمدون المالقى النحوى ۲۰۷

عبد البر بن فرسان الغسانى الوادى آشى أبو محمد ۲۰۹

عبد المنعم الوادى آشى، و أحمد الخزرجى، و أحمد بن عمر ۲۱۲

جعفر بن عبد اللّه بن محمد بن سيد بونة الخزاعى و محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب الخزرجى الأنصارى الشاطبى ۲۱۳

محمد بن يحيى اللبسى قاضى القضاة ۲۱۴

الوزير أبو عبد اللّه بن الحكيم الرندى ذو الوزارتين ۲۱۵

نجيب الدين عبد العزيز اللخمى ۲۲۱

محمد بن عبد اللّه (ابن العربى) و يحيى بن عبد العزيز (ابن الخراز) و محمد بن أحمد الشريشى ۲۲۲

أبو بكر بن محمد بن على بن ياسر الجيانى ۲۲۳

العلاء بن عبد الوهاب المرى ۲۲۴

أبو حفص عمر بن الحسن الهوزنى ۲۲۵

أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال القرطبى و يحيى بن مجاهد الإلبيرى، و محمد بن أحمد الصدفى الإشبيلى ۲۲۶

زكريا الكلبى التطيلى، و سعد الخير الأنصارى البلنسى ابن خلفون ۲۲۷

سعيد الأعناقى، و عبد الرحمن بن خلف، و ابن الطحان ۲۲۸

أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف المعافرى و عبد العزيز السعدى الشاطبى، و محمد الغسانى الحكيم ۲۲۹

محمد بن عبد المنعم الغسانى الجليانى الحكيم ۲۳۰

عبد الوهاب بن محمد القرطبى، و عبيد اللّه بن المظفر الباهلى ۲۳۱

سليمان الغرناطى القيسانى و طالوت المعافرى، و ابن خروف على بن محمد (ابن خروف) القيسى ۲۳۳

مالك بن مالك الجيانى، و منصور بن خميس اللخمى المرّى و منصور بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۸

لب، و المعافرى ۲۳۵

ابن الحسين، و الأصبحى ۲۳۶

أبو حبيب نصر بن القاسم النعمان المعافرى، و الحضرمى، و الخثمى، و ضمام بن عبد اللّه ٢٣٧
ضرغام بن عروة، و عبد اللّه المعافرى، و عبد اللّه الزبيدى ٢٣٨
عبد اللّه بن رشيق القيروانى، و عبد اللّه بن طلحة اليابرى ٢٣٩
عبد اللّه اليحصبى، و عبد اللّه الصريحى المرسى و عبد اللّه بن عيسى الشلبى ٢٤٠
عبد اللّه بن موسى الأسدى المرسى (ابن برطلة) ٢٤١
عبد اللّه بن محمد الدانى، و عبد اللّه بن يوسف القضاعى ٢٤٢
شهاب الدين بن أحمد بن عبد اللّه ابن مهاجر الوادى آشى الحنفى ٢٤٣
أبو جعفر أحمد بن صابر القيسى ٢٤٤
أبو القاسم الباجى، و إبراهيم بن محمد الساحلى ٢٤٦
الوليد بن هشام المعروف بأبى ركوة ٢٤٧
أبو زكريا يحيى بن سليمان الطليطلى ٢٤٨
يحيى القرطبى (المغيلى)، و محمد بن على الأنصارى الغرناطى ٢٤٩
أبو عبد اللّه محمد بن على بن يحيى بن على الغرناطى ٢٥٠
أبو الحسن نور الدين المايرقى ٢٥١
ابن عتبة الإشبيلى ٢٥٢
محمد بن أحمد بن على الهراوى المعروف بابن جابر الضرير ٢٥٣
محمد بن أحمد الهراوى و تقريظه كتاب نسيم الصبا لابن نجيب ٢٥٨
شرف الدين بن ريان يقرّظ كتاب نسيم الصبا ٢٥٨
سليمان بن داود يقرظ كتاب نسيم الصبا.. ٢٥٩
تاج الدين السبكى يقرظ كتاب نسيم الصبا ٢٦٠
ناصر الدين بن محمد بن يعقوب يقرظ كتاب نسيم الصبا ٢٦١
الصفدى يقرظ كتاب نسيم الصبا ٢٦١
أبو جعفر الإلبيرى ٢٦٢
أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسى ٢٧٥
الطبيب ضياء الدين أبو محمد بن عبد اللّه بن أحمد بن البيطار المالقى ٢٧٦
أبو الحسن على بن محمد القرشى البسطى الشهير بالقلصادى ٢٧٧
أبو عبد اللّه محمد بن محمد الغرناطى الراعى ٢٧٨
أبو عبد اللّه محمد بن على بن محمد بن الأزرق ٢٨٣
الباب السادس: فى ذكر بعض الوافدين على الأندلس من الشرق ٢٨٨
المنيذر اليمانى الذى قيل إنه صحابى ٢٨٨
الأمير موسى بن نصير ٢٨٩
حنش الصنعانى ٢٨٩
أبو عبد اللّه على بن رباح اللخمى ٢٩٠

أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن يزيد المعافرى الحبلى ۲۹۱

حيان بن أبى جبلة ۲۹۱

المغيرة بن أبى بردة نشيط بن كنانة العذرى ۲۹۱

حيوة بن رجاء التميمى ۲۹۲

عياض بن عقبة الفهرى ۲۹۲

عبد اللّه بن شماسة الفهرى ۲۹۲

عبد الجبار بن أبى سلمة ۲۹۲

منصور بن خزامة ۲۹۲

مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى ۲۹۳

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۰۹

أيوب بن حبيب اللخمى ۲۹۵

السمح بن مالك الخولانى ۲۹۵

ولاة الأندلس بعد السمح بن مالك الخولانى ۲۹۷

بلج بن عياض القشيرى و بعض الداخلين إلى الأندلس ۲۹۹

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل ۳۰۵

نقض يوسف بن عبد الرحمن عقد الصلح ۳۱۱

أمثلة من بطش عبد الرحمن الداخل ۳۱۲

صفات عبد الرحمن الداخل ۳۱۳

بعض شعر عبد الرحمن الداخل ۳۱۴

الوفود على عبد الرحمن الداخل ۳۱۴

عبد الرحمن و بدر مولاه ۳۱۵

تأديب عبد الرحمن لأتباعه ۳۱۷

همة عبد الرحمن و بعده عن الصغائر ۳۱۸

فتك عبد الرحمن بمن عاونوه فى ملكه ۳۱۹

حجاب عبد الرحمن و وزراؤه و كتابه ۳۲۰

قضاة عبد الرحمن الداخل ۳۲۱

الوافدون على عبد الرحمن من بنى أمية ۳۲۱

عبد الرحمن يقتل ابن أخيه ۳۲۱

الثائرون على عبد الرحمن ۳۲۲

نسب يوسف الفهرى ۳۲۶

الصميل بن حاتم الكوفى ۳۲۶

نبوءة مسلمة بن عبد الملك لعبد الرحمن ۳۲۷

موازنة بين عبد الرحمن و المنصور العباسى ۳۲۷

أبو الأشعث الكلبى ۳۲۸

بكر بن سوادة بن ثمامة الجذامى ۳۲۹

زريق بن حكيم ۳۳۰

زيد بن قاصد السكسكى ۳۳۰

زرعة بن روح الشامى ۳۳۰

محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى ۳۳۰

عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموى ۳۳۱

هاشم بن الحسين الطالبى ۳۳۲

عبد اللّه بن المغيرة الكنانى ۳۳۲

عبد اللّه المعمر ۳۳۲

أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة المهرى ۳۳۲

عبد اللّه بن سعيد بن عمار بن ياسر ۳۳۳

أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد البخارى الحافظ ۳۳۴

عبد الجبار بن أبى سلمة القرشى الزهرى الفقيه ۳۳۵

أبو محمد عبد الوهاب بن عبد اللّه الطندتائى ۳۳۵

أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب ۳۳۶

أبو محمد عبد اللطيف بن أحمد الهاشمى الصدفى النرسى ۳۳۶

أبو بكر عمر بن عثمان الخراسانى الباخرزى المالينى ۳۳۶

على بن بندار البغدادى البرمكى ۳۳۷

أبو العلاء عبيد بن محمد النيسابورى ۳۳۷

أبو نصر سهل بن على النيسابورى ۳۳۷

أبو المكارم هبة اللّه بن الحسين المصرى ۳۳۸

أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن القيسى الدمشقى ۳۳۸

إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى أبو على القالى ۳۳۹

أبو بكر الزبيدى من تلاميذ القالى ۳۴۳

مصنفات أبى على القالى ۳۴۳

تكريم المستنصر لأبى على القالى ۳۴۴

أبو العلاء صاعد بن الحسين البغدادى ۳۴۴

شىء من أخبار المنصور بن أبى عامر ۳۵۲

ابن أبى عامر و غالب الناصرى ۳۵۷

ابن أبى عامر و المؤيد ۳۵۷

وفاة المنصور بن أبى عامر ۳۵۹

رجع إلى أخبار صاعد اللغوى البغدادى ۳۵۹

أبو محمد تاج الدين عبد اللّه بن عمر بن

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج۳، ص: ۴۱۰

حمويه السرخسى ۳۶۲

حديث للسرخسى عن منصور بنى عبد المؤمن ۳۶۵

حديث للسرخسى عن أبى الربيع سليمان بن عبد اللّه بن عبد المؤمن ۳۶۷

حديث لأبى سعيد صاحب المغرب عن أبى الربيع سليمان بن عبد المؤمن ۳۶۹

حديث للسرخسى عن أبى الحسن على بن عمر بن عبد المؤمن ۳۷۰

حديث عن أبى الحسن من المغرب ۳۷۰

حديث السرخسى عن أبى محمد عبد اللّه صاحب فاس ۳۷۱

من نظم السرخسى ۳۷۱

ظفر البغدادى ۳۷۲

محمد بن موسى الكنانى ۳۷۲

أبو الفضل محمد بن عبد الواحد التميمى الدارمى الوزير ۳۷۳

أشهب بن العضد الخراسانى ۳۷۸

أبو الحسن الفكيك البغدادى ۳۷۸

إبراهيم بن سليمان الشامى ۳۸۱

أبو بكر محمد بن أحمد بن الأزرق ۳۸۱

أبو الحسن على بن نافع (زرياب) المغنى ۳۸۱

أول من دخل الأندلس من المغنين ۳۸۸

من مدح به زرياب ۳۸۸

من شعر زرياب ۳۸۸

متعة: جارية زرياب ۳۸۹

حمدونة بنت زرياب ۳۸۹

مصابيح: جارية أخذت عن زرياب ۳۸۹

الأمير شعبان بنن كوجيا ۳۹۱

أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيبانى ۳۹۱

أبو إسحاق إبراهيم الغسانى الدمشقى المعروف بالسنهورى ۳۹۳

حديث أبى الخطاب بن دحية و كلام العلماء فيه ۳۹۴

عبد اللّه بن محمد الخراسانى ۳۹۵

عبد الرحمن بن داود الزبزارى ۳۹۵

عابدة المدينة ۳۹۶

فضل المدينة ۳۹۶

قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى ۳۹۷

الجارية العجفاء المغنية ۳۹۷
عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن الموصلى ۳۹۹
أبو جعفر أحمد بن الحسن النخعى ۳۹۹
أحمد بن يزيد القرشى الزهرى المصرى ۳۹۹
أبو الطاهر إسماعيل بن الاسكندرانى ۳۹۹
أبو الحسن على بن محمد الأنطاكى التميمى ۴۰۰
أبو البركات عمر بن مودود الفارسى البخارى ۴۰۰
نجم الدين بن مهذب الدين البغدادى ۴۰۰
تقى الدين محمد بن أحمد بن الغرس الحنفى المصرى ۴۰۳
الشيخ يوسف الدمشقى الشاذلى ۴۰۳

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّـلاثيةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹